

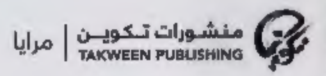
حائز على
جائزة
البوليتزر
1958

جيمس أجي

موت في العائلة

ترجمة وتقديم: إيمان أسعد





مكتبة 875
سُر مَن قرأ

موت في العائلة



الكاتب: جيمس آجي

عنوان الكتاب: موت في العائلة

ترجمة: إيمان أسعد

العنوان باللغة الأصلية: A Death in the Family

الكاتب: James Agee

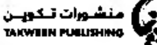
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-54-0

الطبعة الأولى - سبتمبر/ أيلول - 2020

3000 نسخة




الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

جيمس أجي

مكتبة | 875
سُر مَن قرأ

موت في العائلة

رواية

ترجمة

إيمان أسعد





كلُّ الطريق عَوْدًا إلى البيت

ضمن ملاحظاته على ثيمة الرواية التي يعتزم كتابتها، والتي ستأخذ منه زهاء عقدٍ من الزمن، وسيموت قبل إنهائه مخطوطتها بأشهر وقبل إصدارها بعام وقبل عامين من نيلها جائزة البوليتزر، كتب جيمس آجي:

«أعبده: أخذله: أتوق احتياجًا إلى رضاه: يُقْتَل: وكلُّ شيء يتغير».

عن أماسي نوكسفيل الصيفية

ولد الروائي الأميركي جيمس روفس آجي في السابع والعشرين من نوفمبر ١٩٠٩، في نوكسفيل، تينيسي. عاش في كنف أبوين ينتميان إلى طبقتين مختلفتين. أمه، لورا تايلور، تنتمي إلى عوائل تعود أصولها للشمال الأميركي، عائلة برجوازية وعلى قدر عال من الثقافة والتعليم. أما أبوه، جاي آجي، فينتمي إلى عائلة ريفية جنوبية، فقيرة محدودة التعليم، في وادي باول ريفر، شمال نوكسفيل. ورغم

هذا الاختلاف، وكل ما كان سيجره هذا الاختلاف من صعوبات على الزوجين، إلا أنَّ البيت الذي شيّداه لأسرتهما، لابنهما جيمس وأخته الصغيرة إيما، كان بيتًا ملؤه الحب، مفعمًا بالدفء في صباحاته على مائدة الفطور وفي أماسيه الصيفية على الشرفة الأمامية والفناء الخلفي.

في عام ١٩٣٦، في كتابةٍ ارتجالية أخذت منه ساعة ونصف، دونما تفكر ومراجعة وتعديل، كتب جيمس آجي النص السرديّ الشعريّ «نوكسفيل: صيف ١٩١٥». نصٌّ مفعمٌ بالنوستالجيا إلى موطنٍ ما عاد موجودًا إلا في ذاكرته، أو بالأحرى، في ذاكرة الذات التي كان عليها طفلًا. الرجل البالغ والطفل فيه، حاولا بناء هذا العالم من جديد كما عاشه هو وكما أحبه أبوه، عالمٌ شُيّد على شذرات ذاكرة الطفل وبِدَع خيال الكاتب. عن الأماسي الصيفية في حيٍّ لا يحدث فيه الكثير، وكلُّ ما فيه يتكرر بحكم روتين الحياة اليومية: حركة الناس وأحاديثهم، دفق الماء عن الخراطيم، مقامات الجراد والجداجد الموسيقية، زئير عربات الترام، العشب الجاف تحت اللحف والنجوم النابضة في قبة السماء وقطرة ندى الليل الزرقاء.

النص نشر العام ذاته في الدورية الأدبية «The Partisan Review»، ووفق محرر الرواية والناشر وصديق آجي المقرب، ديفيد مكدويل، فاستهلال الرواية بهذا النص لم يكن ضمن مخطوطة آجي، بل كان قرارًا منه كمحرر، ولو كان آجي حيًّا لطلب منه، بل ولأصرَّ عليه، أن يستهل الرواية بها. فمن شأن الاستهلال بهذه

العاطفة الغامرة أن تمس كل قارئ يساوره حنينٌ إلى طفولته، أو إلى ماضٍ ولّى وما عادت شواهده موجودة إلا في الذاكرة المتكسرة من الأصوات والرؤى.

صدمةٌ واحدة على الرأس. لوعةٌ قابضة على القلب

لكن القدر لم يمهل آجي أن يأخذ بنفسه خيار الاستهلال من عدمه. ففي تاريخ السادس عشر من مايو ١٩٥٥، بعد تسعة وثلاثين عامًا ويومين من وفاة أبيه، توفي آجي بأزمةٍ قلبية. ومثل أبيه، لقي حتفه في سيارة على الطريق، جالسًا على المقعد الخلفي لسيارة أجرة في نيويورك في طريقه إلى زيارة طبيب إثر معاناة من الإرهاق والوهن المتأتي في جزء كبير منه عن إدمانه الكحول. لو لم يمت حينها، وترك الخيار له، لربما استهل روايته، كما هي في المخطوطة الأصلية، بالنص السردي «الرؤيا» -الذي حذفه مكدويل- والمستوحى عن كابوسٍ ما انفك يراوده. رجلٌ يعود إلى بلدته في نوكسفيل وعلى الفور تقع عيناه على رجلٍ آخر، على بعد مربعين سكنيين، يتعرض لضربٍ مبرح ووحشي على يد زمرة من الرعاع. وفي بادرةٍ شجاعة منه، يشد خطاه نحوهم؛ فإما الضرب سينتهي وينفض قبل وصوله، أو أن الزمرة ستحول هجومها عليه، وحتى في هذه الحال، فلن يكترث لما يصيبه. ومع قطعه الشارع، يتأنى في خطاه، إذ رأى أنَّ الرجل المضروب هو يوحنا المعمدان، وأنَّ ليس من شأنه تغيير القدر لأن يوحنا ميتٌ لا محالة، فهو بطلٌ عنيدٌ صادحٌ في البراري وما كان ليقبل على نفسه الحياد. والشيء الوحيد الذي

في وسع الرجل، بل ورآه من واجبه فعله، هو تكريم جثمانه. لذا عوضًا عن تركه ملقىً في زاوية شارع وسط البلدة قرر الرجل أن يحمل جثمان يوحنا بين ذراعيه إلى مثوىً يليق به، في ساحةٍ عند الناصية المطلة على شمال نوكسفيل. وفيما كان يحمله، شعر بجسد يوحنا، لا سيما رأسه، يثقل؛ وسرعان ما تفسخ الرأس والجسد ونتنت رائحة الجثمان، فاستعصى عليه مواصلة تكريمه بحمله بين ذراعيه، فقرر إنزاله وجرّه على الأرض. ما إن يجره إذ فجأة يغمر الثلج المكان والجسد الذي يجره يترك آثارًا من الخطوط الزرقاء على البياض الناصع. ويخطر إلى الرجل أنَّ الثلج سيبطئ من تحلل الجثة لكن لاحظ أن الرأس بدأ يتقلقل وعلى وشك الانفصال عن بقية الجسد، وهذا ما حصل ما إن جر الجثمان من على حافة الرصيف. لكنه في النهاية أودعه في مثواه عند الناصية «حيث كل من سيمر سيعرفك رجلًا ميتًا وبطلًا».

لو أني شجاع، لما تبجّح أبدًا بكوني أقرأ

استهلال الرواية بالرؤيا ينم عن إحساس آجي العميق بأن في فشله الاتصاف بصفات الرجل القوي الشجاع فقد خذل أباه خذلانًا عظيمًا. جيمس الذي أظهر مذ طفولته المبكرة براعةً في القراءة وحسًّا عاليًا من الإدراك والتأمل الفكري لما يجري حوله، عاش طفلًا هيّابًا أمام الآخرين، خائفًا من أي مواجهة جسدية ضدهم، من احتمال صدّهم إياه. لهذا دائمًا ما تولد لديه الاحتياج إلى مصالحة أبيه، وعلى الأرجح كان سيكتسب تلك الصفات منه

لو منح القدر أباه حياةً أطول. فأبوه حرص على اصطحابه في نزه في الأطومبيل، في نزه سير إلى البلدة، وحدهما وحسب، إلى السينما والحانة، حيث الوجود الذكوري هو الطاغي. وفي هذه النزه، استشعر آجي مع أبيه، أقوى ما يكون، قربه منه وتوحده معه. وأفدح خسارة سيعيشها آجي بوفاة أبيه في عمرٍ مبكرة هو عدم اكتمال هذه التربية الرجولية والتي لن يجدها لا في أمه المتدينة الخاضعة تمامًا لسلطة الكنيسة ولا في خاله الرسّام والملحد الانعزاليّ. هذا الإحساس بالنقص سيظل دومًا يلقي بظلاله عليه، في نصوصه وكذلك يوميات حياته. في مقالٍ عثر عليه بعد وفاته، ويحمل عنوان «أميركا: أنظري إلى عارِك»، يصف آجي حادثةً عاشها في الحافلة، في نيويورك، بعد أحداث شغب ديترويت العنصرية عام ١٩٤٣. زمرة من الجنود الأميركيين استقلوا الحافلة، ومن لهجتهم أدرك أنهم من الجنوب. وفي غمرة استماعه إلى حديثهم ساوره الحنين إلى اللهجة التي كان يسمعها على لسان أبيه متى ما كان في الريف برفقة عائلته، إذ كان سيتحاشى الحديث بها في المدينة وفي حضور زوجته وعائلتها. لكن الحنين سرعان ما استحال امتعاضًا، إذ انخرطوا في أحاديث عنصرية مهينة، كلمة «زنجي» ما انفكت تتردد على ألسنتهم، على مسامع جميع ركاب الحافلة من البيض والسود. تفكَّر في النهوض عن كرسيه وتوجيه لكمة إلى وجه أضخمهم، لكنه جلس يتفكر بكل الاحتمالات، كيف سينهال الجنود عليه بالضرب، كيف سيجلس من في الحافلة يرقب ضربه دونما تصرف، أو كيف سيصيحون عاليًا «عاشق الزنوج» وعبارات مهينة أخرى.

ثم تفكر بأن لربما من الأفضل محادثتهم بمنطق، تذكيرهم بالحرب التي يخوضونها، أليست دفاعًا عن الحرية، عن حرية الناس جميعًا واحترامهم جميعًا بصرف النظر عن العرق والدين. لأخبرهم أنه أيضًا من الجنوب ويتفهم مشاعرهم وخلفيتهم، لكن العالم يتغير، ولا بد أن يدركوا ذلك ويتغيروا هم أيضًا. وفي خضم محاولته ترتيب أفكاره وخطابه إذ بسيدة سوداء كهلة تقترب من زمرة الجنود وخاطبت الأضخم فيهم، تصيح فيه وعلى مسامع كل من في الحافلة «ألست خجلًا من نفسك، تتحدث بهذا الأسلوب. فلا أحد منا تعرض لك بالأذى، واعرف أن قيمتك ليست في لون بشرتك، بل في ما تحمله من مشاعر داخلك. ألا تخجل من نفسك، رجلٌ أبيض من الجنوب ترتدي هذا الزي وتحارب دفاعًا عن بلدك ولما فرق لو كنت هتلر، ألا تخجل من نفسك». لاحقًا، في أمسية جمعته بثلة من المثقفين، روى عليهم ما جرى وصدموا باعترافه بتخاذله، لكن ما زاد من اشمئزازه من نفسه، أنهم جميعًا اعترفوا بعجزهم عن النهوض بالموقف الأخلاقي الفعليّ، وأنهم لاكتفوا، مثله، بالوقوف موقف المتفرج المتعض من بعيد.

الأمور الآن على ما يرام

لكن هذا الإحساس القاتم بالخذلان الذي ترسخ فيه تجاه أبيه، وتجاه نفسه، لم يجده لدى معلمه ومرشده، القس فلاي، ولا لدى صديقه المقرب ديفيد مكدويل. في عام ١٩١٩، التحق آجي بمدرسة سانت آندروز الداخلية والتابعة للكنيسة الأسقفية، وهناك بدأت

علاقة الصداقة الأبوية مع معلم التاريخ، القس جيمس فلاي، والتي استمرت حتى آخر حياته، إذ ظلت علاقتهما وطيدة جدًا تشهد عليها كل الرسائل المتبادلة بينهما حتى آخر رسالة كتبها آجي قبل وفاته بأيام ولم تبعث. في تلك الرسالة كان قد أشار إلى إحساسه بالإرهاق ونيته التفرغ في الصيف لإكمال عمله على الرواية. ولدى وفاة جيمس آجي المفاجئة، في سن الخامسة والأربعين، دون أن يحقق المكانة الأدبية التي كل من حوله رآها مستحقًا لها، فأول ما حرص عليه القس فلاي هو إهدائه هذه المكانة في الأدب الأميركي ولو كان آخر شيء يفعله.

كل من عرف آجي في الوسط الأدبي والثقافي رأى فيه القدرة على كتابة الرواية الأميركية العظيمة وتوقعها منه. إلا أنه قضى حياته المهنية في الكتابة مشتتًا بين الصحافة ونقد الأفلام وكتابة السيناريو. لذا حين مات دونما رواية، اعتبرت وفاته خسارة فادحة. لكن القس فلاي كان يعرف بوجود مخطوطتها؛ وهكذا كان أن تواصل القس فلاي مع مكدويل، والذي هو الآخر كان طالبًا لديه في المدرسة، بعد حضورهما الجنازة بثلاثة أسابيع، وحثه في رسالة إليه بأن يخصص وقتًا وجهدًا في مراجعة كل ورقة كتب عليها آجي. فمكدويل هو الرجل المناسب لهكذا مهمة مع خبرته المهنية الكبيرة في النشر والتحرير، «فرجلٌ يملك قلبًا وعقلًا وروحًا عظيمة مثل جيمس يستحق مكانته بين العظماء». وحرصًا منه ألا يضيع هذا الإرث من المخطوطات والأوراق، عرض فلاي، في يونيو ١٩٥٦، ألف دولار على أرملة آجي مقابل كل الأوراق التي

تركها. وهكذا أصبح القس فلاي المالك الوحيد لحقوق نشر أعمال آجي، المنشورة منها وغير المنشورة، وأبلغ مكدويل بامتلاكه إياها حتى يبدأ مهمته في بناء إرث آجي. لكن القس فلاي، كونه في سن الثانية والسبعين، خشي أنه لن يعيش عمرًا طويلًا، لذا وهب ملكيته الحقوق إلى صندوق آجي الائتماني، الصندوق الذي أسسته أرملة آجي، ميا، وترأسه مكدويل، لتأمين مدخول للأرملة وأطفاله الثلاثة. ورغم تعهدات الكثير من أصدقاء آجي بالتبرع للصندوق، من ضمنهم تشارلي شابلن وواكر إيفانز، إلا أن الصندوق بالكاد جمع مئتي دولار. الحل الوحيد لتأمين مدخول للعائلة كان في العودة إلى مخطوطة روايته ونشرها سريعًا. لكن المهمة لم تكن بالسهلة. فحين عرضها مكدويل على عدة دور نشر خشيت الدور نشرها بعد المبيعات الضعيفة جدًا لعمله السابق «Let Us Now Praise Famous Men»، إذ وجد عموم القراء إفراطًا في لغته الأدبية وفي شعرية أسلوبه السردي ما عكس صورة عن الكتاب أنه موجه لنخبة المثقفين والنقاد. وحتى تلك التي وافقت على مبدأ النشر، ما كانت لتدفع المقدم الذي طلبه مكدويل، ألفين وخمسمئة دولار إضافة إلى حصة المبيعات. وهكذا قرر مكدويل تأسيس دار نشر «McDowell, Obolensky Inc» بمشاركة صديقه إيفان أوبولنسكي وتولى بنفسه دوري المحرر والناشر. ومع غياب آجي، وجد مكدويل نفسه أمام خيارات عليه أن يتخذها، ومن أهم تلك الخيارات قرار استهلال الرواية بنص «نوكسفيل: صيف ١٩١٥» العائلي النوستالجيّ عوضًا عن البداية السوداوية السريالية

في نص «الرؤيا». كذلك، ولأن الفصول لم تكن مرتبة في مخطوطة آجي، فقد تولى مكدويل ترتيبها بحيث تستهل بنزهة سير الابن مع أبيه وتنتهي بسيره مع خاله. وفي نهاية الجزء الأول والجزء الثاني، أرفق فصولًا يغلب عليها الطابع الشعري الفلسفي، ومضات من الماضي خارج التتابع الزمني للأحداث، وميزها عن بقية النص السردي الواقعي بتطبيق تنسيق الخط المائل عليها. لكن ليس كل ما كتبه آجي وجد طريقه للنشر، فهناك ما يناهز عشرة فصول حذفها مكدويل من الرواية، خوفًا أن تثقلها بالكثير من التفاصيل. لكن السبب الآخر يعود إلى أن آجي اعتمد طيلة حياته الكتابة بخط اليد وبقلم رصاص، ما استخدم قط آلةً كاتبة، ما صيَّر خطه عصيًّا على القراءة السريعة، ولاستلزم وقتًا وجهدًا كبيرين ما كان في وسع مكدويل المجازفة بالاستغراق فيهما، إذ كانت فرصه أكبر في نشر العمل ما دام ذكر آجي موجودًا ولم ينس بعد؛ وكذلك لتأمين المال لعائلته في أسرع وقت ممكن. محررًا وناشرًا وصديقًا، المحك في كل قرار اتخذه مكدويل كان في منح آجي الرواية الأميركية العظيمة، العمل الأدبي الذي سيضمه إلى عظماء كتاب الرواية في الأدب الأميركي، وفي الآن ذاته نشر عمل روائي يحقق مبيعات عالية، رواية تجد طريقها إلى قلوب الشعب الأميركي وبيوته ولا تقتصر على النخبة. وهكذا كان. في عام ١٩٥٨ نالت الرواية جائزة البوليتزر في الأدب الروائي، وفي عام ١٩٧٠ كانت الرواية قد تجاوزت مبيعاتها المليون نسخة.

هل هذه هي الرواية التي كان جيمس آجي سينشرها لو كان

حيًّا؟ من يدري. لكن بالتأكيد هي ما كان سيريده منه أبوه. أن يعود به ابنه، كل الطريق، إلى البيت.

إيمان أسعد

١٥ أيلول ٢٠٢٠

الكويت

ملاحظة حول النص[1]



توفي جيمس آجي فجأة يوم السادس عشر من أيار ١٩٥٥. هذه الرواية، والتي عكف على كتابتها لأعوام عديدة، ننشرها هنا تمامًا كما كتبها. لم يكن هناك من أي إعادة كتابة، ولا شيء جرى حذفه عدا أجزاء محدودة تعود إلى مسودات أولى انكبَّ آجي أمدًا طويلًا على إعادة كتابتها وجزء من سبع صفحات غريبة عجز المحررون عن إدراجها في مكانٍ ملائم ضمن متن الرواية.

نهاية موتٌ *في العائلة* استقرَّ عليها آجي قبل وفاته، والمعضلة التحريرية الوحيدة التي واجهها المحررون تمثلت في تضمين عدة مشاهد تقع خارج الترتيب الزمني لأحداث القصة الرئيسة. وجاء الحل أخيرًا في طباعة هذه المشاهد في خطٍّ مائل وإلحاقها نهاية كلٍّ من الجزء الأول والجزء الثاني من الرواية. إذ اعتبرناه وقاحةً منا محاولة تخمين المكان الذي كان سيدرجها آجي فيه. كذلك، فهذا

(١) كتبها ديفيد مكدويل محرر وناشر الرواية في الطبعة الأولى ١٩٥٧، ومذ ذاك ظلت ملحقة بها.

الترتيب جنَّب المحررين ضرورة كتابة نصوص تربط بينها. النصُّ القصير «نوكسفيل: صيف ١٩١٥»، والذي يجسد تمهيدًا من نوعٍ ما، فهو نصٌّ مضاف. لم يكن ضمن المخطوطة التي تركها آجي، لكن المحررين، بالتأكيد، كانوا سيلحّون عليه بضرورة تضمينها في المسودة النهائية.

لمن المستحيل تخمين مدى التنقيح وإعادة الكتابة الذي كانت ستمر فيه الرواية لو كان آجي حيًّا، فهو كاتبٌ كادح لا يكلُّ ولا يمل. مع ذلك، ففي رأي المحررين والناشر، *موتٌ في العائلة* تحفةٌ أدبية تناهز الكمال. العنوان، مثل كل كلمةٍ مطبوعة في الكتاب، يعود لجيمس آجي.

نوكسفيل: صيف ١٩١٥

نحن هنا نروي لكم عن أماسي نوكسفيل الصيفية، في تينيسي، وقتَ عشت هناك متخفيًا عن نفسي، بمنتهى البراعة، في زيِّ طفل. كان حيًّا مختلطًا نوعًا ما، أقرب ما يكون إلى الطبقة الوسطى الدنيا، مع بيتٍ أو بيتين يعكسان طرفي النقيض الطبقي. بيوت هذه الطبقة: بيوتٌ خشبية متوسطة الحجم مزدانة بمنجور خشبي ذي زخارف جميلة، وتلك البيوت شُيِّدت نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، مع أفنية جانبية وأمامية صغيرة وأفنية خلفية فسيحة، وفي تلك الأفنية أشجارٌ وشرفاتٌ أمامية. الأشجار كانت اللينة الخشب، شجر الحور، شجر الخزامى، وشجر الحور القطني. بيتٌ أو بيتان مسوَّران بالسياج، أما البيوت الأخرى فأفنيتها متداخلة لا يحدُّها بعضها عن البعض سوى وشيعٍ متداعٍ هنا وهناك. وكان هناك أصدقاء جيدون ضمن أهلها البالغين، وما كان أهلها بالفقراء كفاية لذاك النوع الآخر من التعارف الحميم، لكن الكل أومأ إلى الآخر وألقى التحية، ويحدث أحيانًا أن يتبادلا

حديثًا موجزًا، عابرًا، يتعلق إمَّا بأعمِّ العام وإمَّا بأدق التفاصيل، وبطبيعة الحال، إذا ما تلاقى الجيران المتلاصقون صدفة دخلوا فورًا في حديثٍ جانبي، وأبدًا ما كانوا سيتبادلون الزيارات المنزلية. الأغلب الأعم من الرجال كانوا رجال أعمال صغار، واحدٌ أو اثنان إداريون تنفيذيون متوسطون، واحدٌ أو اثنان حرفيُّون، المعظم كاثوليك إكليريكيون، وأغلبهم بين سن الثلاثين والخمس وأربعين.

لكني عن تلك الأماسي الصيفية، أروي لكم.

مائدة العشاء كانت توضع السادسة وترفع بعدها بنصف ساعة. بقيةٌ من ضوء النهار كان سيظل عالقًا، يشعُّ ناعمًا دونما بريق، مثل لمعة قذيفة؛ مصابيح الكربون المرفوعة في الزوايا كانت ستُنار في الضوء العالق، والجراد كان سيجفل، واليراعات كانت ستخرج من مخابئها، وضفادع كانت ستخوِّض في العشب النديِّ، وحينها كان سيخرج الآباء والأطفال. الأطفال اندفعوا خارجًا قبل الآباء، يصيحون تلك الأسماء التي يُعْرَفون بها؛ الآباء في إثرهم يتهادون خاملين في حالات بناطيلهم المتصالبة، ياقات قمصانهم منزوعة تاركةً أعناقهم العارية طويلة وحيّية. الأمهات كن سيبقين بعدُ في المطبخ يغسلن ويجففن ويضعن الأشياء في أماكنها، يقطعن في غدوِّهن ورواحهن الأثر ذاته الخفي من خطى الأقدام مثلهن مثل النحل في مسار رحلة حياته الأبدية، يعيِّرن مقدار الكاكاو الجاف لأجل فطور الصباح التالي. وقبل خروجهن، كن سينزعن مآزرهن

عنهن، وبمنتهى الهدوء، في تنانيرهن الرطبة، كنَّ سيجلسن في الكراسي المزازة على شرفات بيوتهن.

ليس ألعاب الأطفال في تلك الأماسي ما أود الحديث عنه، بل عن أجواء العصر السائد الذي لا يمت إليه الأطفال إلا بأقل القليل: عصر الآباء أرباب الأسر، كلُّ أبٍ في مساحته الخاصة على المرجة، عن قميصه الباهت بهوت السمك في الضوء المصطنع ووجهه شبه المجهول فاقد الملامح، كلٌّ يسقي بالخرطوم مرجته. الخراطيم كانت موصولة بالحنفيات المنبثقة من أسس البيوت القرميدية. فوهات الخراطيم كانت ستضبط على معايير مختلفة، لكن على الأغلب كانت ستضبط بحيث يندفق رذاذ الماء منها سيلًا عذبًا، الفوهة في اليد مبللة، الماء يتقطر على الساعد الأيمن وصولًا إلى كُفَّة القميص المسلوخة عن الذراع، والماء كان سينطلق من الفوهة في منحنىً مخروطي رخو وطويل، وفي صوتٍ ما أعذبه. في البدء صوتٌ جنونيٌّ عنيف كان سينفجر عن الفوهة، يتبعه الصوت الهامد غير المتسق وقت الضبط، يليه الدفق السلس نحو الثبات على النغمة المدوزنة بدقة وفق حجم الخرطوم ونمط الدفق مثلها مثل النغمة المدوزنة على وتر كمان. ومن الخرطوم الواحد تصدح نغماتٌ عديدة: أصوات كورال عديدة مختلفة تصدح من تلك الخراطيم المتناثرة على مسامع الآذان. ومن أي خرطوم، صمتٌ شبه مطبق كان سيصاحب انعتاق الماء، ولَكَان القوس القصير الثابت من القطرات الكبيرة المنفصلة ساكنًا سكون النفس المكتوم، ولَكَان الصوت الوحيد في الأنحاء صوت الطَّرْق على الأوراق

وصَفْع العشب مع سقوط كل قطرة ماء. هذا، والهسيس الحاد مع الدفق القوي؛ هذا، وتلك الحدة عينها لا تتناقص بل تزداد سكونًا ورِقّة مع كل لفة فوهة، هكذا إلى أن تستحيل همسة جدّ رقيقة مع صيرورة الماء ناقوسًا عريضًا من سديم. على العموم، كل الخراطيم كانت مضبوطة على المعيار ذاته، في مساومةٍ بين المسافة ورِقّة الرذاذ (ولا شك كان هناك حسٌّ فني وراء هذه المساومة، وبهجة جدُّ عميقة، حقيقية جدًّا حدَّ عجزها عن تمييز نفسها)، وبذا فالأصوات جاءت متقاربة في نغمها؛ يرؤّسها شخير استهلال كل خرطوم جديد؛ يزخرفها رجلٌ ما يلهو بالفوهة؛ يغمرها الهجران، مثل الرب لدى سقوط العصفور الدوريّ، كلما كفَّت إحداها[1]. وكل الأصوات، رغم تقاربها، فهي من طبقات مختلفة؛ ومن هنا انسجامها. هذه الدُّفق العذبة الشاحبة في الضوء رفعت حدة امتقاع الوجوه وأصواتَها، أمهاتٌ ما برحن يسكتن أطفالهن، ششششش ششششش، وكل شششششششش تطول على نحوٍ غير طبيعي، الرجال وديعون وهادئون وكلٌّ منزوٍ في قوقعةِ طمأنينةٍ فعله الفرداني، التبول الطويل لأطفال ضخام يقفون في وضعية عسكرية رخوة أمام حائطٍ خفيّ، سعداء ومسالمين، يتذوقون طعم حياتهم العادية الطيب مثلما يتذوق الواحد منهم آخر بقايا العشاء في فمه؛ بينما الجراد يواصل ضجيج الخراطيم على مقامه الموسيقيّ الأعلى

---

(١) سفر متى (١٠.٣٩). «أما يباع عصفوران بفلس؟ ومع ذلك لا يسقط واحدٌ منهما إلى الأرض بغير علم أبيكم. أمَّا أنتم، فشعر رؤوسكم نفسه معدودٌ بأجمعه لا تخافوا، أنتم أثمن العصافير جميعًا».

والأَحَدّ. لكن ضجيج الجرادة جاف، لا صرير فيه ولا ذبذبات بل مكرّرٌ عليه كما لو أنه وعبر فوهة صغيرة جدًّا يطلق الصوت في نَفَسٍ عاجزٍ أبدًا عن الاهتزاز. وأبدًا لن تجد جرادة بمفرده بل ستتوهم وجود ألفٍ منه. كل جرادة موزونٌ ضجيجه على طبقة صوتية من طبقات المقام الجراديِّ الكلاسيكي حيث لا يزيد الفرق بين الجرادة والجرادة على نغمتين موسيقيتين: لكن مع ذلك سيتراءى لك سماع كل جرادة منفصلًا عن زمرته، وثمة نبضةٌ طويلة، بطيئة، في ضجيج الجراد، أشبه بالقوس الذي، أسفل الجسر المستقيم الشاهق، نادرًا ما يُرى بالعين. ومن حواليك الجراد في كل شجرة، وبذا سيتراءى لك وكأنما الصوت ينبعث في الآن ذاته من لا مكان وكل مكان، يطلقه من تحت جميع السماوات القشريَّة، فتدوي رعشته في جسدك وتثير طبلة أذنيك، الصوت الأجرأ من بين كل أصوات الليل. عدا أنه الصوت المألوف لليالي الصيف، وأعلاها مقامًا، مثله مثل أصوات البحر وصوت خفق الدم في عروق حفيدها الأثير، صوتٌ لا تدرك أنك تسمعه إلا إذا تعمدت الإصغاء إليه. في غضون ذلك، من أعماق الظلمة، خارج الأفق المتأرجح للخراطيم، يوحي دومًا برطوبة العشب النديّ ولطخة رائحته الخضراء -السوداء القوية، يتصاعد ضجيج الجداجد الاعتيادي لكن المُقفّى، كل صوتٍ منها ثلاثيُّ النغم، عذبٌ باردٌ فضيٌّ، مثل رنة انزلاق ثلاث حلقات متصلة على سلسلةٍ صغيرة معدنية.

لكن ها هم الرجال الآن، الواحد تلو الآخر، يطبقون أفواه خراطيمهم ويجففونها ويلفونها. الآن اثنان وحسب، الآن واحدٌ

وحسب، وما كنت لترى منه سوى شبح قميصه ورباط كمّيه، والغموض الرزين يلف وجهه الدمث مثل وجه قطيع ضخم من الماشية رفع رأسه متسائلًا عن سبب وجودك في تلك البركة حالكة السواد من المرج؛ والآن ها هو الآخر ولّى ومضى؛ وها تلك الساعة من الأمسية أزفت حيث يجلس الناس على شرفاتهم، يتأرجحون على كراسيهم برفق ويتحادثون برفق ويراقبون الشارع والواقف على محيط ملكيته من الأشجار، مأوى العصافير المعلّق، حظيرة الطائرات. أناسٌ يعبرون؛ أشياءٌ تعبر. حصانٌ، يجر بوجيّة، يطرق موسيقاه الحديدية الجوفاء على الأسفلت؛ أطومْبيلٌ صاخب؛ أطومْبيلٌ هادئ؛ أناسٌ في أزواج، ليسوا على عجلة من أمرهم، يجرّون أقدامهم، يتهادون يَمنة ويَسرة في أجسادهم الصيفية، يتبادلون أحاديث عابرة، أعلاهم يحوم طعم الفانيلا، الفراولة، علبة الكرتون والبودنغ، لوحةٌ هم عن العشاق والسائسين، محاطون بالمهرجين، مغمورون في النور الكهرمانيّ الكامد. عربة ترام تزأر عويلها الحديدي، تتوقف، تجأر وترتخي؛ في شخيرٍ مدوٍّ؛ تجفل وتزأر ثانيةً عويلها الحديدي أكثر فأكثر وتنزلق بنوافذها الذهبية ومقاعدها القشية قدمًا وقدمًا، من أعلاها الشرارة القاتمة تفرقع وتلعن مثل روحٍ صغيرة خبيثة عازمة على ملاحقة أثر طريدتها؛ العويل الحديدي يعلو مع تسارعها؛ لمّا يزل يعلو، يخفت؛ تتوقف، لسعة الجرس الخافتة؛ يعلو مرّةً أخرى، أكثر خفوتًا الآن، يخفت، تصعد، صاعدة، الخفوت مهجور: منسيٌّ. الآن قطرة ندى الليل الزرقاء.

الآن قطرة ندى الليل الزرقاء، أبي جفف الخرطوم، ولفَّه.

خفيضةً على مد المرج، نارٌ واهنة تتنفس.

راضٍ، فضيٌّ، مثل وصوصةٍ من ضوء، كل جدجدٍ يدلي بتعليقه تكرارًا ومرارًا في العشب المبلول.

علجومٌ باردٌ يتخبط في صوتٍ مكتوم.

في حوافِّ الظلال الرطبة للأفنية الجانبية يحوم أطفالٌ تعتريهم بهجة الخوف حدَّ الغثيان، يترقبون رفع الدفاعات عن عمود التلفون.

حول مصابيح الكربون البيضاء في الزوايا حشراتٌ من كل الأحجام تحوم، أنظمةٌ شمسية مرفوعة في مدارات إهليلجية. الحشرات القشرية الكبيرة تؤذي نفسها، هجومية: هو الآن طريح الأرض، على ظهره، ساقاه تتلويان.

آباءٌ على الشرفات: يتأرجحون ويتأرجحون: من الخيوط الرطبة لأمجاد الصباح: تتدلى وجوههم العتيقة.

الهواء مفعمٌ بصرير الجراد الجاف والنشوان وصريره الفاتن المنبعث من كل مكان يسحر طبلة أذنيَّ.

على العشب الخشن الرطب للفناء الخلفي أبي وأمي بسطا اللحف. كلنا مستلقون هناك، أمي، أبي، خالي، خالتي، وأنا أيضًا مستلقٍ معهم هناك. في البدء كنا جالسين، ثم أحدنا استلقى، ومن بعده كلنا استلقينا، على بطوننا، على جوانبنا، أو ظهورنا، وواصلوا

هم الكلام. لا يتبادلون الكثير من الكلام، والحديث هادئ، عن لا شيء محدد، عن لا شيء محدد إطلاقًا، عن لا شيء البتة. النجوم هائلة نابضة بالحياة، كلٌّ تبدو مثل ابتسامة شديدة العذوبة، وكلٌّ تبدو قريبة جدًّا. كل عشيرتي أناسٌ ضخام الجثة، أضخم مني، هادئون، أصواتهم رقيقة خاوية من المعنى مثل أصوات عصافير أخلدت إلى النوم. أحدهم رسَّام، يعيش في البيت. أحدهم موسيقيّة، تعيش في البيت. أحدهم أمي من تُحسِن إليّ. أحدهم أبي من يُحسِن إليّ. وإثر صدفةٍ ما، ها هم جميعًا، مجتمعون على هذه الأرض؛ ومن عساه سيخبر يومًا عن أسى الوجود على هذه الأرض، مستلقيًا، على اللحف، على العشب في أمسيةٍ صيفية، في غمرة أصوات الليل. فليبارك الرب عشيرتي، خالي، خالتي، أمي، وأبي الطيب، ربّاه أُلطف بهم ساعة محنتهم؛ وساعة تأخذهم إليك.

بعد قليل ستحملني وتدثرني في الفراش. النوم، في ابتسامتها العذبة، تدنيني إليها: وأولاء من ضمُّوني إلى عشيرتهم، من في طمأنينة يعاملونني، وكأنني مألوفٌ ومحبوبٌ في ذاك البيت: لكن لا، أوه، لا لا، لا الآن ولا أبدا؛ أبدًا لن يخبروني من هو أنا.



الجزء الأول

الفصل الأول

على مائدة العشاء تلك الليلة، مثل مرات سابقة عديدة، أبوه قال، «حسنٌ، أحسبنا سنذهب إلى صالة السينما».

«أوه، جاي»، اعترضت أمه. «ذاك الرجل الضئيل البغيض!».

«وما خطبه؟» سألها أبوه، ليس لأنه لا يعرف ما الذي ستقوله، بل حتى يسمعها تقوله.

«رجلٌ بذيءٌ جدًّا!» أجابته، جوابها ذاته كل مرة. «سوقيٌّ جدًّا! مع عصاته الصغيرة البذيئة؛ ترفع التنانير وتعينه على التصرفات المشينة، ومشيته تلك البذيئة الضئيلة!».

أبوه ضحك، مثلما يفعل دومًا، وروفِسْ شعر بأنها باتت أقرب إلى النكتة السمجة؛ لكن، وكما يحدث دومًا، فتلك الضحكة أبهجته؛ شعر بها وكأنها تطوقه مع أبيه.

سارا معًا وسط البلدة على ضوء الأنوار المعلقة، نحو صالة ماجيستك، وعلى ضوء الشاشة شقَّا طريقهما نحو المقاعد، في

الرائحة النفاذة للتبغ البائت، العرق النتن، العطور والسراويل الداخلية القذرة، البيانو يعزف موسيقى سريعة والخيول العادِيَة تثير راية النصر المؤزر من غبار. وها هو ويليام إس. هارت مع مسدسيه البرَّاقيْن ووجهه الطويل، الشبيه بوجه الحصان، وشفته الطويلة، شفته القاسية، والغرب العظيم من خلفه يعدو هائلًا وسع العالم بأسره. وجهه اعتراه الخجل على مرأى فتاة وحصانه رفع شفته العليا والكل ضحك، ثم امتلأت الشاشة بمدينة ورصيف الشارع الجانبي لمدينة، صفٌّ طويلٌ من أشجار النخيل وها هو ذا تشارلي؛ والكل ضحك لحظةَ شاهدوه يمشي مشيته المقرفصة مع أصابع قدميه الناتئة وركبتيه المنفرجتين، وكأنما تسلخاتٌ أصابت فخذيه؛ والد روفس ضحك، وروفس ضحك معه. هذه المرة تشارلي سرق كيسًا كاملًا من البيض ولدى مرور الشرطي جانبه سارع إلى تخبئة الكيس في مقعدة بنطاله. ثم وقعت عيناه على امرأةٍ جميلة وراح يرفع ويبرم عصاه ويرسم على وجهه تعابير سخيفة. أشاحت بوجهها عنه ومضت بعيدًا رافعةً ذقنها تزم فمها أصغر ما يكون، ولحق هو بها مشغول اليدين، إذ ما انفك يصنع بعصاه كل تلك الأفعال التي تثير الضحك في الجميع، ومع ذلك ما ألقت له بالًا. أخيرًا، وقفت على ناصية تنتظر عربة الترام، تدير ظهرها له، متظاهرةً بعدم وجوده، وبعد محاولاته لفت انتباهها، محاولاتٍ باءت كلها بالفشل، التفت نحو الجمهور، هز كتفيه، وراح يتصرف وكأنما هي من ليست الموجودة. لكن بعد برهة من نقره الأرض بقدميه، متظاهرًا بعدم اكتراثه، عاد وتحمس لها، ومع ابتسامةٍ فاتنة، رفع قبعته الدربي؛ لكن

ما زادها إلا تصلبًا وجفاءً، وثانيةً أشاحت بوجهها عنه، والكل ضحك. ثم راح يمشي خلفها، كرًّا وفرًّا، يحدق إليها ويقرفص بعض الشيء في مشيته الهادئة جدًّا، والكل عاد وضحك؛ وبمنتهى الخفة، نقف عصاه وأمسك بها من طرفها المستقيم، وبطرفها المعقوف، رفع تنورتها حتى الركبة، على النحو الذي يُقْرف ماما، يحدق ملهوفًا إلى ساقيها، والكل انفجر ضاحكًا؛ لكنها تصرفت وكأنها لم تنتبه. من ثم برم عصاه وفجأةً قرفص، يثني عصاه ويشد بنطاله، وكرة أخرى عقف بعصاه التنورة حتى يتسنى لك أنت اختلاس نظرة على سروالها الداخلي، المكشكش مثل هدب الستائر، والكل شهق ضاحكًا، وفجأة استدارت غضبى ودفعته بصدره، وسقط قاعدًا مستقيم الساقين، سقطة قوية يقينًا آلمته، والكل عاد وانفجر ضاحكًا؛ ومضت هي بعيدًا عنه في مشيةٍ متغطرسة، ناسيةً أمر انتظارها عربة الترام، «غضبى مثل دبور!» هتف أبوه في بهجةٍ عارمة؛ وها هو تشارلي، منطرحٌ على مؤخرته على الرصيف، ومن ملامحه، مزيج من الغثيان والاشمئزاز، كنت ستدرك أنه تذكر فجأة كيس البيض، مثلما أنت فجأة تذكرته برؤيتك وجهه، شفته المتغضنة على أسنانه وتلك الابتسامة الصغيرة الشاحبة، كنت ستشعركما لو أنَّ البيض المكسور هو الآن أسفل مقعدتك، الورطة ذاتها والإحساس ذاته بالسوء الذي اعتراك تلك المرة في بدلتك البيكيه البيضاء، حين انساب من أسفل بنطالك وبان على جواربك وكان عليك السير هكذا إلى البيت مع أعين الجميع عليك؛ كاد أبوه يمزق عنقه من شدة الضحك وكذا الآخرون، وروفس شعر بالأسى على

تشارلي، كونه عايش مؤخرًا ورطة مشابهة لورطته. لكن عدوى الضحك كانت متفشية حدًّا يفوق مقاومته فضحك. ثم غدا الموقف أكثر إضحاكًا مع محاولة تشارلي النهوض عن الرصيف، ومع نظرة الغثيان والاشمئزاز تسوء على وجهه، دسَّ عصاه تحت ذراعه، وراح يرفع بنطاله من الأمام والخلف، بمنتهى الحذر؛ وبأصابعه الصغيرة المعقوفة، وكأنما بنطاله قذرٌ جدًّا بالكاد يطيق لمسه، نزع القماش الدبق عن جلده. ثم مد يده إلى الخلف وتناول الكيس الرطب من البيض المكسور وفتحه وحدق إليه؛ تناول بيضة مكسورة ومشمئزًّا فرَّق قشرتها إلى نصفين، تاركًا الصفار المطاطي ينحدر من نصف القشرة إلى نصفها الآخر، ومرتعدًا، أوقعها. ثم عاد وحدق ثانيةً واصطاد بيضة كاملة، لزجة بصفار البيض المكسور، وصقلها بعناية على كمه، وتأملها، لفها بمنديله القذر، وبعناية أودعها جيب صدرة معطفه الصغير. ثم نقف عصاه من تحت إبطه وعاد يحكم سيطرته عليها، ومع نظرةٍ أخيرة ألقاها على الجميع، في نظرةٍ لا تزال بعد نظرة غثيان لكن في الآن ذاته مرحة، هز كتفيه لا مباليًا وأدار ظهره لنا ثم وثب على قدميه إلى الوراء، مثل كلب، واطئًا بحذائه الكبير قشور البيض المكسور والكيس اللزج، ومن خلفه ألقى نظرة على الفوضى (والكل عاد وضحك) ثم راح يمشي بعيدًا، يثني عصاه أكثر كلما جر قدميه، يقرفص أعمق، ركبتاه تنفرجان أكثر، أوسع من ذي قبل، ينقر بيده اليسرى مقعدة بطاله، المرة بعد المرة، يهزُّ قَدَمًا، ثم الأخرى، ومرةً وحيدة نقر عميقًا في مقعدته ثم تجمد في مكانه وفجأة هزَّ سائر جسده، مثل الكلب المبلل، وواصل سيره؛

وبدائرة مفاجئة من الظلمة انغلقت الشاشة على جسده الضئيل: ثم بدَّل عازف البيانو لحنه، والإعلانات الملونة الثابتة ظهرت. جلسا يشاهدان فيلم ويليام إس. هارت كي يتيقنا من السبب الذي دفعه إلى قتل الرجل صاحب الصدرة الأنيقة -وكان كما توقعا من ملامح الرعب والرضا على وجه الفتاة بعد وقوع القتل؛ القتيل كان قد أهان الفتاة وأيضًا خان أباها- ووالد روفس قال، «حسنٌ، أحسبنا دخلنا هنا»، لكنهما بقيا لمشاهدته يقتل الرجل من جديد؛ ثم غادرا الصالة.

كان الظلام قد خيَّم، لكن الوقت كان ما يزال مبكرًا؛ شارع غاي كان مزدحمًا بالوجوه المستغرقة؛ العديد من فترينات المتاجر كانت ما تزال مضاءة. أناسٌ جصيُّون، في وضعيَّات النبلاء، متيبسون في ملابسهم الجديدة التي لم تمس؛ حتى أن من بينها ولدٌ صغير، في بنطالٍ قصيرٍ ومستقيم، عاري الركبتين مع جوربين طويلين، مخنثٌ وجبانٌ بالتأكيد: لكن كان يرتدي قبعة، ومع ذلك، فالقبعة ليست قبعة طفل. أحشاء روفس فارت وخرَّت لدى تأمله القبعة ورفع عينيه إلى الأعلى نحو أبيه؛ لكن أباه ما لاحظ؛ فوجهه كان مستغرقًا في الفكاهة، في ذكرى تشارلي. مستذكرًا صده قبل عام، رغم أن أمه هي من صدته، خشي روفس الحديث عن القبعة. أبوه ما كان ليمانع، لكن هي التي لا ترغب في حصوله على قبعة. إن سأل أباه الآن، فأبوه سيقول: لا، تشارلي شابلن كان كافيًا. فراح يشاهد الوجوه المستغرقة تتدافع متجاوزة بعضها البعض والأحرف العملاقة الساطعة على اللافتات: «Sterchi's» «George's». صار بيدي أن

أقرأها الآن، قال في نفسه. حتى أني أعرف الآن كيف أنطقها على النحو الصحيح «ستيركيز». لكنه ارتأى أن من الأفضل ألا يفصح عن معرفته هذه؛ إذ تذكر كيف أنَّبه أبوه قائلًا، «إياك والتبجح»، ما أربكه وصيَّره غبيًّا عدة أيام في المدرسة إثر تلك النبرة القاسية في صوته.

وما التبجُّح؟ أمرٌ سيئ.

انعطفا نحو شارعٍ أشد ظلمة، حيث الوجوه القليلة هناك يكتنفها الغموض، ووصلا حيث الضوء الغريب المتذبذب في ساحة السوق. كانت الساحة شبه خالية في هذه الساعة، لكن هنا وهناك، على مد الرصيف المخطط ببول الأحصنة، عربةٌ تقف ثابتة، ضوء نارٍ خفيفة تنبعث من خلف غطاء القماش الأبيض المشدود على عجلاتها الخشبية. رجلٌ داكن البشرة كان يسند ظهره إلى الجدار القرميدي الأبيض، يقضم لفتًا؛ نظر إليهما نظرة كئيبة، بعينين حزينتين، شاحبتين. حين رفع والد روفس يده في تحية صامتة، رفع الرجل يده، لكن ليس بقدر علو يد أبيه، وروفس، مستديرًا إلى الوراء نحوه، رأى كيف لاحقهما بعينيه في نظرةٍ آسية، بل حتى في نظرةٍ خطرة. تجاوزا عربة حيث ضوء الفانوس يتوهج برتقاليًّا معتمًا؛ وعائلة بأكملها كانت هناك مستلقية، كبارٌ وصغار، صامتون، نيام. على مؤخر عربة من العربات امرأةٌ جلست، وجهها هزيلٌ أسفل قلنسوتها المتسعة، وفي ظلها عيناها الداكنتان بدتا لطختين من سخام. والد روفس أشاح بعينيه عنها ولامس طرف قبعته القشية

بلطف؛ وروفس، ناظرًا إلى الخلف، رأى كيف عيناها الميتتان ظلتا برقَّةٍ تحدقان أمامها.

«حسنٌ»، قال أبوه، «أحسبني سأدعو نفسي على كأسين».

وعبر البوابات المتأرجحة دخلا في عصفةٍ من الروائح والأصوات. ما كان هناك من موسيقى: فقط كثافة الأجساد ورائحة حانة السوق، البيرة، الويسكي، والرجال الريفيون، ملحٌ وجلود: لا صخب، فقط السكون الثقيل للحديث المسحوق. وقف روفس يتأمل الضوء المنعكس على المبصقة الرطبة وسمع أباه يطلب كأس ويسكي، وعرف أنه يتلفت يمينًا ويسارًا عبر الحانة باحثًا عن رجالٍ قد يعرفهم. لكنهم نادرًا ما قطعوا تلك الطريق الطويلة من وادي باول ريفير؛ وفورًا أدرك روفس أن أباه، الليلة، ما عثر على أحدٍ يعرفه. نظر إلى الأعلى متأملًا سائر جسد أبيه وراقبه يحني ظهره إلى الوراء يتجرع كأسه دفعةً واحدة كما اللورد الوقور، وبعد لحظة سمعه يقول للرجل الجالس جانبه، «هذا ابني»؛ وشعر بدفء الحب يفور في قلبه. واللحظة التالية شعر بيدي أبيه أسفل إبطيه، بأبيه يرفعه، عاليًا، إليه، وجالسًا على نضد البار، تأمل من على جانبيه الصفَّ الطويل من الوجوه الضخمة الحمراء، بعضها ملتحٍ وأخرى يغطيها الهُلْب. عيون الرجال الأقرب إليه كانت مهتمة، ولطيفة؛ البعض حتى ابتسم له؛ في الوجوه الأبعد، العيون كانت مجردة من العاطفة، شكَّاكة، لكن بعد لحظات بعضها راح يبتسم له. مخلوع الفؤاد إلى حدٍّ ما، لكن مع شعورٍ بالاطمئنان يساوره إلى

أن أباه فخورٌ به وأنه محبوب، وأنه مرتاحٌ لأولاء الرجال، ابتسم لهم؛ وإذ بأكثر أولاء الرجال يضحكون. ارتبك إثر ضحكتهم، وللحظة فقد ابتسامته؛ ثم، مدركًا أن الضحك وديٌّ، عاد وابتسم ثانية؛ وثانيةً ضحكوا. أبوه ابتسم له. «هذا ابني»، قال في حنان. «يبلغ ستة أعوام، وها هو يقرأ بإجادة لم أبلغها وأنا ضعف عمره».

خواءٌ مفاجئ استشعره روفس في صوت أبيه، في الوجوه على مد نضد البار، وفي قلبه. لكن كيف حاله مع العراك، تصوَّر سؤالهم في ذهنه. فأنت ما كنت لتتبجح بالذكاء لو كان ابنك شجاعًا. تملكه خزيٌ مبرح، لكن على ما يبدو فأبوه ما لاحظ شعوره هذا، عدا أنه فجأةً، ومثلما رفعه إلى البار، برفقٍ عاد وأنزله منه. «أحسبني سأحظى بكأسٍ أخرى»، وهذه شربها على مهل؛ من بعدها، مع تمنيات قليلة بليلة سعيدة، غادرا الحانة.

أبوه عرض عليه حلوى «لايف سايفور»، بكياسة، رجلًا لرجل؛ وهو قَبِلها منه بمنتهى الكياسة، رجلًا من رجل. فهي الضامن على تنفيذ اتفاقهما. مرةً واحدة وحسب شعر أبوه بأنه في حاجة إلى أن يقول له، «ما كنت لأخبر ماما، لو كنت مكانك»؛ فقد عرف، مذ ذاك، أنَّ بيده أنْ يضع كامل ثقته في روفس؛ وروفس اعتراه الامتنان لهذه الثقة الصامتة. سارا بعيدًا عن ساحة السوق، على مدِّ شارع معتم وخاوٍ، يمصان حلوى «اللايف سايفور»؛ وراح والد روفس يتفكَّر، دونما قلقٍ محدد، أنَّ «اللايف سايفور» ليست اسمًا على مسمى؛ حريٌّ به أن يدَّعي الإرهاق الشديد الليلة، ويدير إليها ظهره ما إن يخلدا إلى الفراش.

مأوى الصم والبكم أصمٌّ وأبكم، أدلى أبوه بتعليقه هذا في هدوءٍ شديد، مثلما هي عادته في تلك الأماسي، وكأنه صدقًا يخشى إيقاظه؛ فبين أخيلة أشجاره الخافتة ينتصب المأوى دامسًا ساكنًا، ومثل عيني ممرضة، نوافذه تتجلى سوداء في قرميده الشاحب. من أمامهما، أسايلم آفينيو تمتد عريضةً قاتمة أسفل أعمدة إنارتها. من خلف مصاريع الحديد المتشابكة على فترينة متجر الرهان، مُنْصلٌ عتيقٌ التقط ومضة ضوءٍ من إنارة شارع، وبطن ماندولين توهَّج. في متجر أدوية مغلق انتصبت أفروديت الميلوسية، جسدها الذهبي يحفه تخريمٌ من الأشرطة المطاطية. الزجاج المبقع على واجهة محطة القطار «L & N» مسفوعٌ مثل جناحيْ فراشة منهكة، وفي منتصف الجسر ذي الكمرات توقفا حتى يتنشقا هبة الدخان المنبعث من عربة المحول العابرة للتو أسفلهما؛ روفس، المرفوع، الخَبَثُ يلسع وجهه، ما عاد فيه ما يكفي من امتنان يصد عنه الخوف من هذا التعلق في الهواء أعلى السكة الحديدية والقاطرات الجبَّارة. بعيدًا على مد الفناء، ضوءٌ أحمر خَفَقَ أخضر؛ لحظة، وسمعا صوت الطقطقة المثيرة للحماس. كانت العاشرة وسبع دقائق على ساعة المحطة. مضيا قدمًا، متراخيْن أكثر.

لو كان بيدي أن أتعارك، قال روفس في نفسه. لو أني شجاع؛ لما تبجح أبدًا بكوني أقرأ: التبجح. بالطبع، «إياك والتبجح». هو ذا مقصده. ما يعنيه حقًّا. لا تتبجح بذكائك. ما دمت لست بشجاع فلا شيء فيك يستحق التبجح. إياك والتبجح.

الأوراق الغضة في شارع فوريست آفينيو تخفق إزاء أعمدة الإنارة وها قد اقتربا من ناصيتهما.

كانت ساحةً مهجورة، طينٌ أحمر يكسو نصفها، والنصف الآخر يغزوه العشب، ومرتفعة قليلًا عن الرصيف. داخلًا، وعلى بعد عدة أقدام من الرصيف، ثمة شجرة متوسطة الحجم، وعلى القرب منها، بما يكفي للاحتماء بظلها ساعة النهار، كتلٌ ناتئة من حجر الكلس أشبه بكومة كبيرة من ملابس الغسيل. إن جلست على موقع معين منها فجذع الشجرة سيصد عنك النور الخافت لعمود الإنارة القائم على بعد مربع سكني، ولكنت وجدت نفسك في ظلمة حالكة. كلما سارا معًا نحو وسط البلدة وعَوْدًا منها إلى البيت، في الأماسي، وما إن يصلا منتصف الجسر ذي الكمرات، حتى يتباطأا في مشيهما، وكلما اقتربا من هذه الناصية تباطأا أكثر وأكثر، لكن مع غرضٍ في نفسيهما؛ يتريثان للحظة، على حافة الرصيف؛ من ثم، ودون أن ينطق أحدهما بكلمة، يرتقيان نحو الساحة المظلمة ويجلسان على الصخرة، يتطلعان إلى وجه سفح التل المنحدر وأضواء شمال نوكسفيل. عميقًا في الوادي قاطرةٌ تسعل وتَسْرح؛ أذرع التوصيل تثبِّت سلاسل تروسها الطويلة، والعربات الخاوية تقرع مثل طبلٍ معطوب. رجلٌ أقبل من الطرف البعيد للشارع، لا متعجلًا ولا متمهلًا، في تريثه لا يدير وجهه، وبكل تأكيد لم يتنبه إلى وجودهما؛ راحا يراقبانه إلى أن اختفى عن ناظريهما، وراود روفس الإحساس، وكان موقنًا أن الإحساس ذاته يراود أباه، أن ذاك الرجل، ورغم أنه ما تسبب لهما بأي أذى ومثلهما يملك الحق بالتواجد في الساحة، معنيًّا بشؤونه، فقد قطع عليهما رحلتهما مذ وقعت عيناهما عليه وحتى اختفائه. وبمجرد اختفائه

عن ناظريهما أدركا بهجة خصوصيتهما أكثر من ذي قبل؛ واسترخيا تمامًا فيها. وعبر الظلمة جلسا يتأملان أضواء شمال نوكسفيل. كانا واعيين للأوراق الساكنة أعلاهما، ونظرا إليها، عبرها، يتطلعان إلى النجوم الساطعة بينها. وكانت عادته في تلك الأماسي، في محطة الانتظار هذه، أو دقائق قبل مضيهما إلى البيت، أن يدخن أبوه سيجارة، وما إن يفرغ منها، فتلك إشارتهما إلى أن الوقت قد أزف للنهوض والمضي في طريق العودة. عدا أنه هذه المرة لم يدخن. حتى وقتٍ قريب، كان دائمًا ما يقول شيئًا عن كون روفس مُجْهَدًا، متى ما تبقى مربعٌ سكني على بلوغهما ناصيتهما؛ لكن مؤخرًا ما عاد يفعلها، وأدرك روفس أن أباه اعتاد قولها لأنه هو من أراد الجلوس في تلك الناصية، لكن متعذرًا بابنه. أبوه وحسب لم يكن على عجلة من أمره للوصول إلى البيت؛ والأهم من ذلك بكثير، أبوه فضَّل قضاء تلك الدقائق معه. مؤخرًا، وكلما قطعا الجسر ذا الكمرات، كان سيتملك روفس تلهفٌ صامت إلى جلوسهما في الناصية؛ وشعورٌ بالرضا، شعورٌ لا يعرف له مثيل، كان سيعتريه على مر الدقائق العشر إلى العشرين التي يقضيانها جالسين على الصخرة. وما كانت لديه أدنى فكرة عن ماهية هذا الشعور وكنهه، وما كان يعرف مسماه ولا حتى كيف يعبر عنه بالكلمات، ولا السبب الذي لأجله يعتريه شعورٌ كهذا؛ هو وحسب كل ما يراه ويشعر به. هو شعورٌ، في الأساس، نابعٌ عن معرفته بأن أباه، هو الآخر، يعتريه شعورٌ مماثل من الرضا، جالسين ههنا، شعورٌ لا يعرف له مثيل، وأن شعورهما هذا بالرضا هو من منشإٍ واحد، يعتمد وجوده في أحدهما على وجود الآخر.

ونادرًا ما راود روفس شعورٌ قوي بالجفاء مع أبيه، مع ذلك، لا بد أنَّ جفاءً يعتري علاقتهما، ولا بد أنَّ أباه استشعر الجفاء هذا، إذ دائمًا في لحظات الخلوة تلك مع أبيه، فشعور الرضا التام الذي يغمره يعود في جزءٍ منه إلى إحساسه أنهما تصالحا، أنَّ لا شقاق عاد قائمًا بينهما، لا جفاء، أو لا جفاء قوي حدًّا يعني الشيء الكثير مقارنةً باتحادهما الذي ترسخ وتوطد، جالسين ههنا. إحساسٌ بأن أباه، وإن كان يحب بيتهما وكل عائلتهما، فحبه هذا قاصرٌ عن منحه الرضا بما يكفي لتجاوز وحدته؛ بل لربما زاد من إحساسه بوحدته، أو صيَّره صعبًا عليه ألا يشعر بوحدته. شعر أنَّ أباه في جلوسه هنا ما كان بوحيد؛ أو إن كان وحيدًا، فهو متصالحٌ مع وحدته؛ أنه رجلٌ يغمره الحنين إلى موطنه، وأنه على هذه الصخرة، رغم أنَّ الحنين يعتريه أقوى ما يكون، فهو بخير. وروفس بات يعرف أن جزءًا مهمًّا من إحساس أبيه بأنه بخير يعود إلى هذه الدقائق التي يسترقها بعيدًا عن البيت، في هدوءٍ تام، في الظلمة، يرهف السمع إلى الأوراق متى ما رفَّت، رافعًا عينيه إلى النجوم أعلاه؛ وأن وجوده، وجود روفس ذاته، لهو الآخر وجودٌ لا يستغنى عنه في وصول أبيه إلى إحساسه بأنه بخير. كان يعرف بأنَّ كلًّا منهما مدركٌ لإحساس الآخر بأنه بخير، والسبب وراءه، ومدركٌ كيف للإحساس هذا في أحدهما أن اعتمد على وجود الآخر، إلى أي حدٍّ يعني أحدهما للآخر، على هذا النحو الأهم من كل الطرق، أكثر من أي شيء أو أي شخصٍ في هذا العالم؛ وأنَّ خير ما يكمن في إحساسهما هو معرفتهما المشتركة هذه، معرفةٌ لا هي محجوبة ولا مكشوفة. كان قادرًا على تمييز

هذه المشاعر، لكن، بالطبع، ما كان قادرًا مثلنا على التعبير عنها بالكلمات. فلا كلمات كانت هناك، ولا حتى أفكار، ولا عواطف ناضجة، من تلك التي وصفناها هنا، تجول في خاطر الصبي الصغير ولا حتى في الرجل البالغ. فإدراكهما هذا انسابَ دفقًا عبر الحواس، الذاكرة، الأحاسيس، الإحساس المجرَّد بالمكان الذي يتريثان فيه، على بعد ربع ميلٍ عن بيتهما، على الصخرة أسفل شجرةٍ لقيطة نمت في المدينة، أقدامهما على الطين الموحل، يواجهان الشمال عبر الليل المسدل على سكك القطار الجنوبية وعلى شمال نوكسفيل، صوب الجبال الصغيرة المطوية عميقًا في المدى وصوب وادي باول ريفير، ومن أعلاهما، مناور الكون المرتعشة، قريبة جدًّا، حميمة جدًّا، حدَّ إن حرَّك النسيم أوراق الشجرة وشعريهما، بدا كما لو كان النسيم أنفاس تلك النجوم وهمسها. وأحيانًا، في تلك الأماسي، كان أبوه سيدندن قليلًا وفي الدندنة كان سيتلفظ بكلمة أو كلمتين، لكنه أبدًا ما أنهى لحنًا، لأن في الصمت وجد متعته القصوى، وأحيانًا كان سيتلفظ ببضع كلمات، وما كانت بكلمات ذات شأن، وما سعى مرةً إلى قول الكثير، أو إنهاء ما كان يقول، أو الاستماع إلى رد؛ لأن في الصمت وجد متعته القصوى. وأحيانًا، لاحظ روفس، كان أبوه سيمسد الصخرة المجعدة وبقوة يضغط عليها؛ وأحيانًا كان سيطفئ سيجارته ويمزقها ويبعثرها قبل إنهائه نصفها. لكن هذه المرة كان أكثر هدوءًا من المعتاد. تراخيا في مشيتهما في وقتٍ أبكر من المعتاد وتباطأا أكثر من المعتاد، لا أحد منهما نطق بكلمة، في طريقهما إلى الناصية؛ وترددا، قبل أن يرفعا قدميهما عن الرصيف ويطأا

الطين، لا لشيء فقط لمجرد التنعم بترف التردد؛ وأخذا محليهما على الصخرة دون أن يكسرا صمتهما. وكما العادة، والد روفس رفع قبعته ووضعها على ركبته المثنية أمامه، وكما العادة، روفس قلده، لكن هذه المرة ما لفَّ أبوه سيجارة. انتظرا مرور الرجل الغريب، من يقطع عليهما خلوتهما قبل اختفائه، إذ كان من المعتاد مرور رجلٍ غريبٍ عليهما، ومن بعدها ارتخيا كليًّا في متعة خلوتهما؛ لكن هذه المرة والد روفس لم يدندن، وما قال شيئًا، ولا حتى لمس الصخرة بيده، بل جلس مع يديه معلقتين بين ركبتيه يتأمل شمال نوكسفيل، يصغي إلى التجميع الموسيقي المتململ للقطار؛ وبعد برهةٍ ساد فيها الصمت، رفع رأسه وتأمل الأوراق وما بين الأوراق نحو النجوم الساطعة، لا مع ابتسامة، بل في عينين أكثر وقارًا وسكينة وفي فمٍ قويٍّ صامت، على نحوٍ ما سبق لروفس أن رأى عليه عينيَّ أبيه وفمه؛ وبينما راح يتمعن في وجه أبيه، أحس بيد أبيه تستقر، دونما تلمُّسٍ أو لهو، أعلى رأسه الحاسر؛ تتناول جبينه وتمسِّده، تسحب خصل شعره إلى الوراء، تمسك بمؤخر رأسه وروفس يدفع برأسه إلى الوراء على كف أبيه الراسخة، وفي ردٍّ منها، اليد عانقت أذنه اليمنى ووجنته، غطت الجانب الأيمن من رأسه، وأدنته في سكينة وقوة إلى القماش الأنيق الذي يغطي جسد أبيه، حيث استشعر روفس أضلع أبيه المتنفسة؛ اليد أعتقته، وروفس جلس منتصب الظهر، بينما اليد استقرت راسخة على كتفه، ورأى أنَّ عينيَّ أبيه غدتا أكثر صفاءً وأكثر وقارًا وأنَّ الخطوط العميقة حول فمه غدت مشبعة وراضية؛ ورنا بنظره إلى الأعلى إلى حيث يرنو أبوه في ثبات،

إلى الأوراق تتنفس في صمت والنجوم تخفق كما نبضات القلب. سمع تنهيدةً طويلة، عميقة، تنبعث من صدر أبيه، وصوت أبيه المفاجئ: «حسنٌ...» واليد ارتفعت عنه وكلاهما نهض. وعلى مدِّ المتبقّي من طريق عودتهما إلى البيت ما نطق أحدهما بكلمة، ولا اعتمر أحدهما قبعته. وقبيل استغراقه في النوم سمع روفس مرةً أخرى الأصوات المتكسرة لعربات قطار الشحن، وفي قلب الليل سمع الأصوات المتكسرة للكلمات الخافتة، «الآن: على الأرجح سأعود قبل خلودهما إلى النوم»؛ تبعها الصرير الخفيض للأقدام المتعجلة نزولًا على الدرجات. لكن مع سماعه الصرير ورحيل الفورد، كان روفس قد استغرق عميقًا في منامه حدًّا تهيأ له أن ما سمعه ما كان سوى حلمٍ عابر، ومع صباح اليوم التالي حين فسرت أمه لهما لماذا أبوهما ليس معهما على مائدة الفطور، كان قد نسي كليًّا تلك الكلمات والأصوات، حدَّ أنه حين تذكرها، بعد أعوام، ما كان واثقًا أبدًا إن كانت حقيقية أم بدعة من بدع خياله.

الفصل الثاني



في أحلك ساعات الليل، راودهما الإحساس وهما نائمان، أن أحدًا ينخسهما، مثل حشرةٍ لجوجة ما كانت لتنفك عنهما. الروح فيهما تقلَّبت تصفع بيدها نافدة الصبر هنا وهناك، لكن المعذِّب ما كان ليندحر. كلاهما استيقظ في الآن ذاته. أسفلًا، في الردهة الخاوية المظلمة، الهاتف يصيح من تلقاء نفسه، يزعق بأعلى صوته، مثل رضيعٍ متروك بل حتى أكثر تأمرًا وإلحاحًا منه في مطالبته بأن يأتي أحدهم ويخرسه. سمعاه مرة وما تزحزح أحدهما، أحاسيسهما تبلورت انزعاجًا، فتحديًا، فقبولًا بالهزيمة. رنَّ مرةً ثانية: وفي الآن ذاته قالت، «جاي! الأطفال!» وهو ينخر، أجابها، «دعكِ مستلقية»، أرجح قدميه وخبط بهما الأرضية. الهاتف رنَّ ثانية. استعجل خطاه في الظلمة، حافي القدمين، على رؤوس أصابعه، يلعن في سره. رغم محاولته اللحاق به قبل أن يرن ثانية، إلا أنه رن ما إن وضع يده عليه. قطع عليه صرخته وأصغى في رضًا وحشيٍّ إلى خشخشة موته. ثم وضع السماعة على أذنه.

«إيه؟» أجاب في نبرةٍ عدائية. «*هللو*».

«هل هنا محل إقامة، آه...».

«هللو، من معي؟».

«هل هنا محل إقامة جاي فوليت؟».

صوتٌ آخر يقول، «هذا هو، سنترال، دعيني أتكلم معه، هذا ...» كان رالف.

«هللو، رالف؟».

«لحظة واحدة من فضلك، فالمتصل ليس على الخـ...».

«هللو، جاي؟».

«رالف؟ هللو. ما المشكلة؟» إذ ثمة خطبٌ كان في صوته. أحسبه ثملًا، قال في نفسه.

«جاي؟ هل تسمعني جيدًا؟ قلت، *هل تسمعني جيدًا*، جاي؟».

وعلى ما يبدو، كان يبكي. «أجل، أجل، أسمعك جيدًا. ما الخطب؟» أبي، خطر له فجأة. أراهن أنه أبي؛ وتفكر في أبيه وأمه وظلمةٌ موحشة وباردة اعترت جسده.

«أبي، جاي»، قال رالف، صوته نتنٌ بدموعه حدًّا دفع بأخيه إلى إبعاد السماعة قليلًا عن أذنه، فمه ينقبض اشمئزازًا منه. «أعرف أن ليس من شأني الاتصال بك في هذه الساعة المتأخرة من الليل لكني أعرف أيضًا أنك ما كنت أبدًا لتسامحني إن لم...».

«كفاك رالف»، قاطعه في حدة. «دع عنك التباكي وأخبرني ما الذي جرى».

«ما هو إلا واجبي، جاي، والرب القدير أنا...».

«حسنٌ رالف، اهدأ، أنا مقدِّرٌ اتصالك بي. والآن أخبرني عن أبي».

«الآن فقط عدت، لأجل هذا، لأتصل بك جاي، هذه اللحظة، هرعت إلى البيت فقط كي أتصل بك... وبالتأكيد سأعاود الذهاب الآن، أنت...».

«اسمعني، رالف. اسمعني. هل تسمعني؟» رالف كان صامتًا. «هل هو حي أم ميت؟».

«أبي؟».

جاي أوشك أن يقول، *أجل، أبي!* في غضبٍ مكبوت، لكنه سمع رالف يعاود نحيبه. هي ذي طبيعته، قال في نفسه، وانتظره.

«آه، الآن، هو ليس ميتًا»، قال رالف، وقد هدأ روعه. الظلمة انزاحت عن جاي: وفي برود، استمع إلى رالف يصهل مشاعره من جديد. أخيرًا، صوته يرتعش رضًا، قال، «لكن إلهي، يبدو أنها النهاية، جاي!».

«إذن يتوجب عليَّ القدوم، إيه؟» كان يتساءل إن كان رالف صاحيًا كفاية كي يثق بحكمه؛ رالف سمعه، وأساء فهم نبرة الشك في صوته.

صوته استحال وقورًا. «بالطبع الأمر يعود إليك، جاي. أعرف أن أبي وجميعنا سنشعر بالاستغراب الشديد إن تخلف ابنه البكر، الابن الذي لطالما تأمل فيه...».

هذا الصوت الجديد وهذا الانقلاب الجديد في المسار أربك جاي للحظة. ثم فهم ما كان رالف يلمِّح إليه، ما أساء فهمه في سؤاله، ما افترضه عنه، وكان شاكرًا أن اللحظة لم يكن أمامه وإلا لضربه.

«الزم حدَّك رالف، الزم حدَّك. إن كانت حالة أبي بهذا السوء فأنت تعرف يقينًا أني سآتي فإياك والحديث معي هكذا...» لكنه سرعان ما أدرك، كارهًا نفسه، عبثية الجدل مع رالف حول هذا الأمر وقال، «اسمعني، رالف، لا تظن أني أستقوي عليك، فقط اسمعني. هل تسمعني؟» قدماه وساقاه بدأتا تبردان. راح يدفئ كل قدم بدسها تحت الأخرى. «هل تسمعني؟».

«أسمعك، جاي».

«رالف، افهمني جيدًا، أنا لا أحاول الاستقواء عليك، لكن يبدو لي من صوتك أنك احتسيت عدة كؤوس. الآن...».

«أنا...».

«اسمعني. لا أكترث البتة إن كنت ثملًا أم صاحيًا، فهذا شأن يعنيك: ما يعنيني أنا، رالف، أن أي رجلٍ ثمل، وأنا أعرف هذا بالتجربة، سيميل إلى المبالغة..».

«تظنني أكذب عليك؟ أنت...».

«اخرس، رالف. بالطبع أنت لا تكذب عليَّ. لكن إن كنت ثملًا فستبالغ في تقدير جدية الأمر. الآن، فكر معي للحظة. فكر جيدًا. وتذكر أن لا أحد سيسيء الظن بك إن بدلت رأيك، أو حتى لاتصالك في هذه الساعة. إلى أي حدٍّ هو حقًّا مريض، رالف؟».

«من حقك، إن لم ترد أن تأخذ بكلمتي...».

«اللعنة! فكِّر!» رالف صمت، جاي بدَّل قدميه. وفجأةً أدرك كم هو أحمق لمحاولته استنطاق أي شيء عقلاني من رالف. «اسمعني، رالف، أعرف أنك ما كنت لتتصل في هذه الساعة لو لم تظن أن الأمر خطر. هل سالي هناك؟».

«أوه، أجل، هي...».

«دعني أحادثها لدقيقة، من فضلك؟».

«لكني أخبرتك للتو أنها في بيت أبي».

«وبالطبع أمي أيضًا هناك»..

«بالطبع جاي، فأنت تعرف أنها ما كانت أبدًا لتتركه. أمي...».

«والطبيب كان موجودًا، بالطبع».

«ما يزال معه، كان ما يزال معه حين غادرت».

«وما الذي قاله؟».

رالف تردد. إذ لم يرد أن يفسد على نفسه متعة سرد القصة. «يقول إنَّ لديه فرصة، جاي».

من طريقة رالف في قولها، شكَّ جاي أن ما قاله الطبيب بالأحرى هو *فرصة جيدة*. كان على وشك سؤاله إن كان الطبيب قد قال *فرصة جيدة* أم مجرد فرصة حين غمره فجأة شعورٌ بالاشمئزاز من نفسه على استغراقه في هذه المماحكة، يفوق حتى اشمئزازه من رالف. كذلك، فقدماه تجمدتا بردًا وبدأتا تحكانه.

«اسمعني، رالف»، قال في صوتٍ مختلف. «قد أطلتُ الكلام. أنا..»..

«آه، أجل، أظن الوقت سينفد منا، لكن ما الضرر من دقائق أكـ...».

«اسمعني. سأعد نفسي الآن للانطلاق. أظنني سأصل قرابة ـ كم الساعة لديكم الآن، هل تعرف؟».

«الثانية وسبعٌ وثلاثون، جاي. *أعرف* أنك...».

«إذن سأصل مع طلوع الصباح، رالف، أنت فقط أخبر أمي أني في الطريق إليكم وسأصل بأسرع وقتٍ ممكن. رالف، هل هو واعٍ؟».

«يغيب ويفيق، جاي. كان ينطق باسمك، جاي، وكم حطم قلبي سماعه. يقينًا سيشكر نجوم حظه أن ابنه البكر، الابن الذي لطالما تأمَّل فيه، أنك وجدته مستحقًّا لعنائك أن تقود كل...».

«كفَّ عن هرائك هذا، رالف. بحق الجحيم ما الذي تظنه بي؟ إن استعاد وعيه فقط أعلمه أني آتٍ في الطريق. رالف...».

«إيه؟».

لكن الآن ما عاد يرغب في قولها. مع ذلك قالها. «أعرف أنِّي آخر شخص يحق له أن يتكلم - لكن حاول ألا تكثر من الشرب حتى لا تنتبه إليك أمي. اشرب بعض القهوة قبل عودتك، إيه؟ اشربها سوداء».

«طبعًا، جاي، طبعًا، ولا تظنني رجلًا رقيقًا تُجْرَح مشاعره بسهولة. لا تقلق، لن أزيد ذرة على همومها، ليس في هذا الوقت، ولا مقابل العالم كله، جاي. أنت تعرف ذلك. لذا جاي، أنا *أشكرك*. *أشكرك* على لفت انتباهي. أنا لست رجلًا رقيقًا. *أشكرك* جاي، *أشكرك*».

«لا بأس، رالف. هذا واجبي»، ثم أردف قائلًا، يعتريه ثانيةً شعورٌ بالاشمئزاز من استعلائه الأخلاقي على أخيه، «أنا في طريقي إليكم، لذا وداعًا».

«أعلِمْ ماري بالأمر، جاي. لا أريدها أن تظن السوء بي، لاتصالي...».

«لا بأس. هي ستتفهم. الوداع، رالف».

«ما كنت لأتصل بك جاي، لو...».

«هوِّن عليك. شكرًا لاتصالك. الوداع».

من صوته عرف أن رالف لم يشبع احتياجه بعد. «حسنٌ، وداعًا».

يريد من يواسيه، أدرك جاي. لم ينل منه التقدير المتوقع. أصغى إلى الخط. كان ما يزال بعدُ مفتوحًا. بحق الجحيم أنا من سيفعلها، وأطبق السماعة. من بين كل الأطفال البكَّائين لهو الأسوأ، قال في نفسه، ومضى عائدًا إلى غرفة النوم.

«*يالطيف!*» قالت ماري، في صوتٍ خفيض. «ظننته سيواصل الكلام *إلى الأبد!*».

«أوه، ليس بيده»، قال جاي، وجلس على فراشه يتلمس باحثًا عن جوربيه.

«يتعلق بأبيك، جاي؟».

«أجل»، أجابها وهو يرتدي جوربًا.

«أوه، أنت ستغادر»، قالت وقد أدركت فجأة ما يفعل. وضعت يدها عليه. «الوضع خطرٌ إذن، جاي» قالت بمنتهى الرفق.

ثبَّت حمالة جوربه ووضع يده على يدها. «الرب وحده يعلم، فليس بيدي أن آخذ جديًا بما يقوله رالف لكني لست مستعدًّا للمخاطرة».

«بالطبع لا». يدها تحركت تربِّت عليه؛ ويده تحركت على يدها. «هل رآه الطبيب؟» سألت في حذر.

«يقول إنه يملك فرصة، كذا يقول رالف».

«قد يعني أشياء كثيرة. لربما لن يضرك الانتظار حتى الصباح. لربما وقتها ستسمع بخبر تعافيه. ليس أني أقصد...».

ولأنه، خجلًا من نفسه، هو الآخر تساءل مثل تساؤلها، عاد الغضب يعترم فيه من جديد. حتى أنه خطر له أن يقول، من السهل *عليكِ* أن تقولي هذا، فهو ليس *والدكِ*، ودومًا ما نظرتِ إليه بازدراء. لكن سرعان ما صرف الخاطر عنه واشمأز من نفسه لمجرد التفكير فيه وتصديقه، وقال، «حلوتي، عن نفسي أفضل التريث وسماع ما سيأتينا من خبر في الصباح، مثلك تمامًا. على الأرجح هو إنذارٌ كاذب. فأنا أعرف إلى أي حد قد ينحرف رالف عن مساره. لكن لا أطيق أخذ مجازفة كهذه».

«بالطبع لا، جاي». صوتٌ عالٍ صدر عن السرير ما إن نهضت عنه.

«علامك نهضتِ؟».

«علام! لأعد إفطارك بالطبع»، وأضاءت النور. «إلهي!» قالت وهي تنظر إلى الساعة.

«أوه ماري، عودي إلى الفراش. سأحضر لي شيئًا من وسط البلدة».

«لا تكن سخيفًا»، قالت، تتعجل ارتداء برنس الحمام.

«صدقًا، لن يتسبب لي بأي عناء»، قال يحاول إقناعها. فهو يهوى المطاعم الليلية ومذ ولادة روفس لم يحظَ بفرصة تناول الطعام

في إحداها. أمله خاب قليلًا. لكن، مع ذلك، حبٌّ دافئٌ سرى فيه تجاهها على البساطة التي نهضت بها، بكامل يقظتها، لأجله.

«أوه جاي، مستحيل!» قالت وهي تعقد نطاق برنسها. ارتدت خفيها وراحت تدلف بسرعة نحو الباب. نظرت خلفها، وقالت، في وشوشة حضور المسرح، «أحضر *حذاءك - إلى المطبخ*».

شاهدها تختفي أمام عينيه، متسائلًا، بحق الجحيم ما الذي عنته بكلامها هذا، وباغتته شخرة مفاجئة من الضحك المكبوت. فقد بدت في منتهى الجدية، في إشارتها إلى الحذاء. يا الله، آلاف التفاصيل الصغيرة التي تفكر فيها المرأة كل يوم لأجل أطفالها. بل بالكاد تفكر، خطر له، وهو يشد جوربه الثاني. هي لا إرادية. مثلها مثل التنفس.

ومعظم الوقت، قال في نفسه، ينزع عنه ملابسه، هن محقاتٌ تمامًا. وقد باتت عادة لديهن (مضى نحو خزانة الأدراج) حدَّ أنهن أحيانًا يبالغن في الأمر. لكن معظم الوقت إن منحت نفسك مجرد لحظة تتفكر فيها قلن قبل أن تنزعج منهن (يزرِّر قميصه) فستجد حديثهن منطقيًّا.

نفض بنطاله. لحظة التأمل وراحة البال سرعان ما استبدت بها العتمة، وساوره شعورٌ بالحماقة، إذ لم يكن واثقًا من أن هناك من سببٍ يدعوه إلى القلق، يدعوه أصلًا إلى الكآبة. فما الذي يتوقعه من رالف، قال في نفسه، يرفع بنطاله ويشد الزر العلوي. ووقف لحظة يتأمل خارج النافذة الوضَّاءة، من ورائها الأفق الأزرق

الأسود يمتد من بعيد. الساعة وجمال الليلة أثَّرا في نفسه؛ سمع خفق الساعة، وبدت غريبة وغامضة مثل فأرٍ في حائط. راوده إحساسٌ عميقٌ بمضيه في مغامرة كئيبة، سواء كان هناك ما يدعو إلى الكآبة أم لا. تنهد، وتفكَّر في أبيه محاولًا قدر المستطاع استحضار ذكراه الأولى عنه: أنفه المستدق، وسامته، تقطيب شاربه الأسود الفخور والعظيم. وحتى مذ ذاك كان يعرف أنَّ أباه رجلٌ لا نفع منه حتى وإن لم يتقصد أن يكون؛ النير الثقيل الذي ألقاه على عاتق والدة جاي اعتاد أن يثير فيه غضبًا مستعرًا، حتى حين كان مجرد صبيٍّ صغير. ومع ذلك ما كان بيده يومًا التعبير عن غضبه: فأبوه طيب القلب وطبيعته مرحة ولا يسعك إلا أن تحبه. وما قصد أبدًا إيذاءها. بل دومًا كان حسن النية. وهذا الخاطر بالذات لطالما أثار حنق جاي، وحتى في هذه اللحظة، ها هو الخاطر يترك في نفسه أثرًا مريرًا. لكنه عاد وتأمل: اللعنة، صدقًا كان حسن النية. ولربما كان بيده أن يستغلها لصالحه، لكنه أبدًا ما حاول، أبدًا لم يعرف إن كان لها أن تعود عليه بأي شيء. كان حسن النية ولم يقصد إلا الخير. واللحظة بينما وقف يتأمل خارج النافذة، إذ بصورته الذهنية عن أبيه وكل خاطرٍ عنه يتلاشى، ما عاد حتى يسمع دقات الساعة. كل ما رآه هي النافذة، النور يلمع رقيقًا على صفحتها داخلًا، والظلمة اللامتناهية تنحدر كما الماء على صفحتها خارجًا، وحتى النافذة ما عادت نافذة، بل مجرد شيء، على نحوٍ عجائبي، زاوٍ لا معنى له وها اللحظة يحتلُّ الكون بأسره. إحساسٌ عارمٌ من النأي استولى عليه جعل من صفاء اللحظة دهشةً حزينة ومحيِّرة.

حسنٌ، قال في نفسه: كلنا سنرحل يومًا.

ثم عادت الحياة تحتل مركز الاهتمام.

قميصٌ أنيق، خطر له.

فكَّ أزرار بنطاله العلوية وفرج ركبتيه، مقرفصًا بعض الشيء، حتى يبقيهما مرفوعتين. تصرفٌ أحمق، يدري. ومع ذلك، ما ينفك يكروره. (دسَّ ذيول قميصه ورتبها؛ ذيول هذا القميص بالذات طويلة، وطولها هذا، لسببٍ ما، دومًا ما أشعره بالرجولة.) لو أني أرتدي قميصي أولًا، لما اضطررت يومًا إلى أن أقرفص بهذه الطريقة السخيفة. (انتهى من تزرير سحاب بنطاله). حسنٌ (طوَّق كتفه اليمنى) ها قد باتت لديك عادة (وطوَّق كتفه اليسرى ثم قرفص قليلًا مرةً أخرى، يعدل ثانيةً من مظهره).

جلس على السرير ومدَّ يده نحو فردة حذاء.

أوه.

أجل.

تناول فردتي حذائه، ربطة عنق، ياقة وأزرار الياقة، وهمَّ مغادرًا الغرفة. رأى الفراش المتجعد. حسنٌ، قال في نفسه، بيدي أن أفعل شيئًا لأجلها. وضع أغراضه على الأرض، سوَّى الملاءات، ونفض الوسائد. الملاءات كانت ما تزال دافئة على جانبها من السرير. سحب الأغطية إلى الأعلى كي يبقي على دفئها، ثم فتحها بضعة بوصات، حتى تغريها بالعودة إلى النوم. حتمًا ستسعد بذلك، جال

في خاطره، ستسعد كثيرًا بمنظرها. ثم راح يلمُّ فردتي حذائه، ياقته، ربطة العنق، والأزرار، وانطلق نحو المطبخ، يخطو ببالغ الحذر لدى مروره أمام غرفة طفليه، والتي كان بابها مواربًا.

كانت تقلب البيض. «سأجهز في ثانية»، قال لها، واقتحم الحمام. من الأجدر نقل الحمام إلى الأعلى، قرر في نفسه للمرة الخمسمئة.

رفع ذقنه أمام المرآة. ليس سيئًا، وقرر الاكتفاء بالاغتسال. ثم تفكر متأملًا: مع ذلك، لماذا حرص على ارتداء قميصٍ أنيق؟ فليرجو الرب كما يشاء، لكن الاحتمال الأرجح أنها ستكون مناسبةً جليلة. لكنت فعلتها لو أني كنت سأحضر جنازة، أليس كذلك؟ منزعجًا من تكاسله، تناول الموسى وشحذها بسرعة.

ماري سمعت صوت الجِلْد المفعم بالشحذ، وفي نوبةٍ صغيرة من نفاد الصبر دفعت بالبيض إلى مؤخر الفرن.

هي عادته أن يأخذ وقته في حلاقة ذقنه، ليس لأنه يستمتع بها (في الواقع هو يمقتها) بل لأنه إن كان مضطرًّا إليها فسيحرص على أن يتقنها، ولأنه يكره جرح نفسه. هذه المرة، ولأنه كان على عجل، فقد تطلع ببرود إلى ذقنه الناتئ قبل أن يميل إلى الأمام ويحلقه. لكن، ولاستغرابه الشديد، فالحلاقة جاءت سلسة على نحوٍ مبهر؛ حتى أنه واجه صعوبةً أقل عند جذور منخريه وأسفل ذقنه، كانت حلاقةً نظيفة بلا رقع. راوده شعورٌ عظيمٌ من الرضا حدَّ تربيته على كل وجنة من وجنتيه برغوة الصابون قبل أن يشطف الهلال الزغبي عن كليهما. مثالي. غسل الحوض وشطف ورق الحمام المفعم

بالرغوة والشعر في المرحاض. هل أنا في حاجة؟ تساءل في نفسه، بينما المرحاض يغرغر. كلَّا. وتناول أزرار ياقته.

حين أتت ماري عند الباب كان يهندم نفسه على عجل ويعقد ربطة عنقه، عقدة الأربعة في اليد، ذقنه ممدود ومائل كما هي حاله دومًا أثناء هذه العملية، تعلو ملامحه نظرة الحصان البرم.

«جاي»، قالت برفق، وقد قمعتها نظرته البرمة، «لا أقصد استعجالك، لكن الطعام سيبرد».

«سأخرج حالًا». ثبَّت العقدة بعناية فوق الزر، حدَّق إلى انعكاس عينيه، وعلى غير عادته فرق شعره بعناية بالغة، ومتعجلًا مضى نحو طاولة المطبخ.

«أوه، حبيبتي!» وجد في انتظاره اللحم المقدد والبيض والقهوة، كلها جاهزة، حتى أنها كانت تعد له فطائر بان كيك.

«عليك أن *تأكل*، جاي. فالطقس سيكون شديد البرودة لساعات». وشوشته وكأنها في كنيسة أو مكتبة عامة، دونما قصدٍ منها، لأن الأطفال نائمون، لأنها ساعةٌ متأخرة من الليل.

«حلوتي». أمسك بها بكتفيها حيث تقف عند الفرن. استدارت، تتطلع إليه بعينين متيقظتين تمامًا، ابتسم، وقبَّلها.

«تناول بيضك»، قالت له. «أوشك أن يبرد».

جلس وبدأ يتناول الطعام. قلبت فطيرة البان كيك. «كم فطيرة لك أن تأكل؟» سألته. «آه.. لا أدري»، يبتلع البيض (إيَّاك أن تتكلم

بفمٍ مملوء) قبل أن يجيب. لم يكن يقظًا كفاية كي يشعر بالجوع الشديد، لكنه تأثر باهتمامها، وعقد عزمه على تناول فطور كبير. «أبقِ عليها حتى أتناول أول بيضتين، ثلاث». غطت فطيرة البان كيك كي تبقيها دافئة وصبت خليطًا جديدًا في المقلاة.

لاحظ أنها بهَّرت البيض بالفلفل الأسود أكثر من المعتاد. «بيضٌ لذيذ».

سرَّ قلبها. فهي، شبه واعية لدوافعها، فعلت ذلك لأنه يقينًا وفي غضون عدة ساعات سيتناول الطعام من جديد، في بيت أهله. لهذا أعدت قهوته قوية أكثر من المعتاد. ولهذا أيضًا كانت مسرورة بوقوفها عند الفرن بينما هو جالسٌ يتناول طعامه، مثلما تفعل نسوة الجبل.

«قهوة جيدة»، قال لها. «هي ذي القهوة بحق». قلبت البان كيك. قررت في نفسها أنه لربما من الأفضل أن تعد من اليوم وصاعدًا إبريقيْ قهوة، إبريقٌ تحتمل هي شربه وآخرُ على الطريقة التي يحبها، ماءٌ جديد وبنٌّ جديد، ولن ترمي بالبن القديم إلى أن يختنق به الإبريق. لكنها ما كانت لتطيق رؤيته يشرب هذا القدر الكبير من الحمض الكبريتي.

«لا تقلق»، ابتسمت له. «لن تحظى مني *دومًا* بهذه القهوة!».

عبس في وجهها.

«تعاليْ حلوتي، واجلسي ههنا جانبي».

«دقيقة...».

«هيَّا تعاليْ. فطيرتا بان كيك كافيتان».

«تظن؟».

«إن لم تكفني سأعد أنا الثالثة». وتناول يدها وأدناها إلى كرسيها. «*ستجلسين* هنا». وجلست. «وماذا عنكِ؟».

«لن أستطيع النوم».

«أعرف ما سيناسبك». نهض ومشى نحو الثلاجة.

«ما الذي تفعله ـ أوه. لا، جاي. حسنٌ. شكرًا».

إذ قبل أن يتسنى لها منعه كان قد صبَّ الحليب في القدر الصغير، والآن بما أنه وضعه على الموقد فقد عرفت أنها ستسر لفعله ذلك.

«أتريدين خبزًا محمصًا معه؟».

«لا، شكرًا لك، حبيبي. الحليب كافٍ، سيكون مثاليًّا».

تناول كل البيض. همَّت بالنهوض عن كرسيها إلا أنه وضع يده على كتفها لدى نهوضه، وأحضر هو فطيرتي البان كيك.

«لا بد أنها بردت. دعني...» وعادت تهم بالنهوض من جديد؛ ومرةً أخرى وضع يده على كتفها. «إياك أن تتحركي من مكانك»، قال لها مازحًا يدَّعي نبرةً صارمة. «لا تشكو من شيء. ألذ بان كيك على الإطلاق».

دهن الزبدة عليها، صبَّ الدبس، قطَّع البان كيك شرائح متوازية، فتل الشريحة بالشوكة وقطعها قطعًا مائلة.

«هناك المزيد من الزبدة»، قالت له.

«لديَّ ما يكفيني»، أجابها، يطعن برمح شوكته أربع قطع من البان كيك ويضعها في فمه. «شكرًا». مضغها كلها، ابتلعها كلها، وطعن بشوكته أربع قطع أخرى. «حليبك لا بد صار دافئًا الآن»، قال لها وهو يضع شوكته جانبًا.

لكن هذه المرة نهضت قبل أن يتسنى له منعها. «اجلس وأكمل طعامك». صبَّت الحليب الأبيض، الدفق الدافئ، في كوبٍ غليظٍ أبيض وجلست، كلتا يديها تتدفآن بالكوب، تتأمله يتناول طعامه. لأنها ساعةٌ غريبة من الليل، لأن نومهما انهار فجأة، ضرورة التصرف بسرعة مع الالتفات إلى كل التفاصيل التافهة، جدية المهمة التي سينطلق إليها، ومع هذه النشوة المرهقة التي تعتريهما، كلاهما وجد من الصعب عليه أن يتكلم، رغم أنَّ كليهما رغب بشدة في الكلام. وعى إلى تأملها اياه، وراح هو يتأملها، عيناه جديتان لكن مبتسمتان، فكَّاه مشغولان. كان متخمًا، لكنه قال في نفسه، سأنهي تناول هذه الفطائر ولو كان آخر شيءٍ أفعله في حياتي.

«لا تزدرد طعامك، جاي». قالت له بعد برهة صمت.

«همم؟».

«لا تأكل أكثر مما تشتهي».

اعتقد أنَّ تظاهره بشهية مفتوحة كان ناجحًا. «لا تقلقي»، قال لها، يطعن بشوكته قطعًا أخرى. كان قد تبقى القليل وحسب. نظرت إليه بحنان وهو يتأمل صحنه، ولم تقل شيئًا أكثر.

«ممم»، قال وهو يميل بظهره إلى الوراء.

الآن ما عاد من شيءٍ بينهما يلهيهما عن النظر بعضهما إلى بعض؛ ومع ذلك، لسببٍ ما، ما كان لدى أحدهما شيءٌ يقوله. لم يزعجهما الأمر، لكن كلاهما استشعر حياء الموعد الأول. كلٌّ راح ينظر إلى عين الآخر المرهقة، عيناهما المرهقتان تبرقان، لكن دون أن تفشيا الإدراك الجلي في قلبيهما.

«كيف تودين الاحتفال بعيد ميلادك؟» سألها.

«أوه، جاي». كانت قد فوجئت حقًّا بكلامه. «أوه، كم أنت لطيف! أوه...».

«تفكَّري في الأمر»، قال لها. «أيًّا يكن ما تريدين - ضمن المعقول، طبعًا»، قال ممازحًا. «سأحرص على تدبر الأمر. الأطفال أعني». وكلاهما تذكر في اللحظة ذاتها. «هذا، بالطبع، إن سارت الأمور على ما يرام، في بيتي».

«بالطبع، جاي». عيناها فقدتا التركيز للحظة. «فلنأمل أنَّ كل شيءٍ سيغدو على ما يرام»، قالت في نبرةٍ مجردة من المشاعر.

راح يتأملها. إذ لطالما أربكه فقدانها العرضي لتركيزها وأزعجه. هنَّ النساء هكذا، قال في نفسه.

وهلة وعادت مرةً أخرى إلى هذا العالم ومرةً أخرى راحا يتأملان بعضهما بعضًا. بالطبع، كلاهما أدرك ألا شيء لديه يقوله، ألا داعي هناك أصلًا ليقوله.

أخذ نفسًا بطيئًا، عميقًا، وزفره على مهل.

«حسنٌ، ماري»، قال لها في أرق نبرة. تناول يدها. وابتسما، ابتسامةً بالغة الجدية، يفكران في أبيه وفي بعضهما، وكلاهما عرف في القلب من قلبه، مثلما أدرك في عقله، أنَّ لا ثمة داعٍ ليقول شيئًا.

نهضا معًا.

«والآن أين ـ *آه*»، قال في ضيقٍ شديد. «السترة والصُدرة»، وهمَّ منطلقًا نحو السلم.

«تمهَّل»، قالت له، متجاوزةً اياه برفق. «أخشى أنك ستوقظ الأطفال»، همست له من خلف كتفها.

مع ذهابها مضى هو إلى غرفة المعيشة، أضاء مصباحًا واحدًا، وتناول غليونه والتبغ. على ضوء الإنارة الوحيد الهادئ في سكون الليل العظيم، كل غرضٍ صغيرٍ في الغرفة بدا، على نحوٍ غريب، بنيًّا ذهبيًّا ورقيقًا. ودون أن يدري لماذا، تأثرت نفسه بمرآها.

بيتي.

فجأة وبحدة أطفأ المصباح.

تأخرت قليلًا في نزولها؛ وخطر له، لا بد أنها تطمئن على أنهما متدثران. وقف عند الفرن، يتأمل متراخيًا ثنايا المربعات المعتمة

والمضيئة في أرضية اللينوليوم. كم كان سعيدًا أنه، أخيرًا، نفذ تلك المهمة. وماري كانت محقة. مظهر الأسود والأبيض لأفضل بكثير من الألوان والزخارف المتكلفة.

سمعها تنزل السلم. وكان محقًّا في ظنه، فأول ما قالته لدى وصولها، «أتدري، كنت على وشك إيقاظهما. لعله سخفٌ مني لكني ظننت، لأنهما اعتادا على... أخشى أنَّ أملهما سيخيب جدًّا أنك لم تودعهما».

«أودعهما! حقًّا؟» احتار إن كان سعيدًا بما سمع أو حانقًا. هل يا ترى أصبحا مدللين زيادة؟

«حسنٌ، لربما أنا مخطئة».

«لكان من السخف إيقاظهما. ما كنت لتنالي أي راحة بقية الليل».

زرَّر صدرته.

«ما كنت لأكترث، عدا أنَّ: حسنٌ» (لم ترغب في تذكيره)، «إن وقع الأسوأ، جاي، فقد يطول غيابك عنا».

«معك كل الحق»، قال في نبرةٍ قاتمة. هذه المهمة المفاجئة برمتها مشكوكٌ فيها، غامضة جدًّا حدًّا يصعب معه، على أيٍّ منهما، التفكر بعقلٍ صافٍ. عاد وفكَّر مرةً أخرى في أبيه.

«تظنين من الأفضل أن أودعهما؟».

«دعني أفكر».

«لا، لا»، قال على مهل؛ «لا أرى من داعٍ. لا. ففي كل الأحوال، حتى إن وقع الأسوأ سأعود هنا لاصطحابكم جميعًا، أعني إلى الجنازة. فمسألة القلب تلك سرعان ما يحسم أمرها. في كلا الاحتمالين، هناك فرصة جيدة أني سأعود ليلة الغد. أي الليلة، أعني».

«أجل، معك حق. أجل».

«أتعرفين، أخبريها، دون أن تعديها بشيء طبعًا، أني موقن بعودتي إليها قبل أن يخلدا إلى النوم. أخبريها أني سأبذل قصارى جهدي». وارتدى معطفه.

«حسنٌ، جاي».

«أجل، هذا حلٌّ منطقي». وفجأة مدت يدها نحو قلبه، وفي ردة فعلٍ تلقائية، تحاشاها؛ عيناهما جفلتا واضطربتا. وفي ابتسامةٍ عابسة مازحته: «لا داعي إلى الذعر أيتها الروح الرعديدة الصغيرة؛ ليس سوى منديلٍ نظيف وأبدًا لن يؤذيك».

«آسف»، قالها ضاحكًا. «أنا وحسب لم أعرف ما تنوين عليه». رفع ذقنه، يعبس قليلًا، يتطلع إليها تتناول المنديل المجعد من جيبه وتطوي المنديل الجديد له. أن تثار كل هذه الجلبة حوله يحرجه؛ وزاده إحراجًا الطيّة الصغيرة البيضاء التي حرصت زوجته على تركها تطل من جيب سترته. لا شعوريًّا تحركت يده؛ لكنه سرعان ما شكم نفسه وأعادها في جيبه.

«هاك. كم تبدو أنيقًا»، قالت له، تتفحص هندامه وكأنه ابنها.

شعر بالحماقة، لكنه أيضًا شعر بحنانٍ غامر تجاه أمومتها البريئة، وأيضًا بإطراءٍ كبير. للحظة تملكه زهو عارم وكأنما صدقًا يبدو أنيقًا جدًا، على الأقل كذا بدا في عينيها، وهذا جل ما يريد.

«حسنٌ»، قال وهو يتناول ساعته. «يا الله!» وأراها الساعة. الثالثة وخمس وأربعون دقيقة. «توقعتها بالكاد تبلغ الثالثة».

«أوه. قد تأخر الوقت كثيرًا».

«حسنٌ، لا وقت نضيعه». طوق كتفها بذراعه وسارا معًا نحو الباب الخلفي. «يؤسفني مغادرتي الآن، ماري، لكن ـ لكن لا مفر».

فتحت الباب وصحبته إلى الشرفة الخلفية. «ستصابين بالبرد»، قال لها. وهي هزت رأسها. «لا. بل الجو أقل برودة هنا مما هو في الداخل».

سارا نحو حافة الشرفة. ندى أيار الرطب غمر كل شيء خلا أشد النجوم توهجًا، عاكسًا على الأرض الأضواء الصافية للمدينة المنهكة. عميقًا في آخر الفناء الخلفي، شجرة الدراق المزهرة تسطع مثل حارسٍ سماوي. النسيم الخصب يغدق على وجهيهما رقةَ أيادي العشاق المولهة، والأريجَ المثير للعالم الفسيح، النائم الآن قبالة السماء.

«يا لها من ليلةٍ سماوية، جاي»، قالت في صوتها الأعز على قلبه. «يجعلني أتمنى لو بيدي الذهاب معك» -عادت وتذكرت- «أيًّا يكن ما سيحدث».

«ليت بيدك، حبيبتي»، قال لها، رغم أنه لم يتفكر في هذا الاحتمال؛ في واقع الأمر، فجأة بدأ يتطلع إلى الانفراد بنفسه في رحلته هذه. لكن الآن وقد سمعها تفصح عن أمنيتها في صوتها الذي يحب، فقد قال لها متأثرًا، بكل الحب، «أتمنى لو كان بيدك».

ومعًا وقفا يمتِّعان ناظريهما بهذه الظلمة.

«حسنٌ، جاي»، قالت تقطع عليهما تأملهما، «لا أريد أن أؤخرك أكثر».

للحظة ظل صامتًا.

«معك حق»، قال في صوتٍ شابه حزنٌ منهَك، حزنٌ غريب: «حان وقت الرحيل».

ضمها إلى ذراعيه، رافعًا رأسه كيما يراها. ما كان أبدًا بانفصال، لكنه فوجئ بإحساسه وكأنما انفصالهما جلل، ربما لأن مهمته جلل، أو لأنها ساعةٌ مهيبة من الليل. ورأى إحساسه هذا متجليًا على ملامحها هي أيضًا، وتمنيا لو أنهما أيقظا طفليهما.

«وداعًا، ماري».

«وداعًا، جاي».

تبادلا قبلة، وللحظة تركت رأسها مسنودًا إلى صدره، ومسَّد هو شعرها. «سأعلمك بما يجري، في أقرب وقت ممكن، إن تبيَّن أنَّ الأمر جدي».

«سأصلي ألا يكون، جاي».

«على أي حال، لا شيء بيدنا سوى الرجاء». اللحظة المفعمة بالحنان ذابت في خاطرهما هذا، لكنه ظل برقة يمسد رأسها.

«أبلغ أمك كل محبتي. أخبرهما أنهما في صلواتي – على الدوام. ولأبيك، بالطبع، إن كان – في حالِ تسمح بالحديث معه».

«بالتأكيد، حبيبتي».

«واعتنِ بنفسك».

«بالتأكيد».

ربّت على ظهرها وافترقا.

«سيصلني خبرٌ منك –سأراكِ– عن قريبٍ جدًّا».

«أعدكِ».

«حسنٌ، جاي». شدت على ذراعه، وهو قبّلها، أسفل عينها، وأدرك خيبة شفتيها؛ ابتسما، ولثم شفتيها بحرارة. وفي لمحة بهجة، كلاهما أوشك على توديع الآخر توديع الصباح الاعتيادي، هي تغني، «الوداع جون، لا تطل عني الغياب»، وهو يغني لها، «سأعود اليوم، ولربما بعد أيام»، لكن كلاهما ارتأى ألا يفعلها.

«حسنٌ، وداعًا حبيبي».

«وداعًا حبيبتي».

ما إن وطئ الدرجة الأخيرة في المرقاة حتى استدار فجأة إليها، هامسًا، «هل لديك ما يكفي من مال؟».

فكرت سريعًا في الأمر. «أجل، شكرًا».

«ودِّعي الأطفال عني. أخبريهما أني سأراهما الليلة».

«من الأفضل ألا أعدهما، أليس كذلك؟».

«بلى، لكن لربما. وماري: آمل اللحاق بكم على العشاء، لكن لا تنتظريني».

«حسنٌ. تصبح على خير».

«تصبحين على خير». وعاد يمضي في طريقه نحو المرآب. في منتصف الفناء استدار وهمس عاليًا، «لا تنسي ما قلته لك عن عيد ميلادك، فكري في ما تريدين».

«شكرًا لك جاي. سأفعل. شكرًا لك».

كان في وسعها سماعه يحاول ما استطاع المشي على السخام بخطىً هادئة. في صمت رفع الرتاج ووضعه جانبًا، وفتح باب المرآب، حريصًا أشد الحرص على التزام الهدوء. المصراع الأول زعق؛ المصراع الثاني، والذي بالعادة يزعق صريرًا أسوأ، ظلّ ساكنًا. وبينما راح يخطو نحو يسار الأطومبيل، متقمصًا وضعية السارق المنسل بسبب ضيق المرآب، تلاشى أمام عينيها في الظلمة الحالكة.

عرفت أنه سيحاول أقصى جهده ألا يوقظ الجيران والأطفال؛ وأن من المستحيل أن يدير محرك الأطومبيل بهدوء. وقفت تنتظره، مشفقةً عليه ومستمتعة، مع خشيتها المعتادة من غضبه ومن السباب الذي سيتأتى منه، منطوقًا كان أم مكتومًا.

أغغغـ هيهيهيه: ويييكـ أه ـوييك – أه:

أغغغـ هيهيه: وييك:

(والآن الضجيج شبه المكتوم، الضبط البائس للشرارة والصِمام والمخنقة).

أغغغـ هيهيه وييك يهيه وييكوييكوييكيهيهيهوييك:

(والآن الضجيج الذي ما فهمته أبدًا، ومن حيث تقف، صار لها أن تتوقعه).

أغغغـأغغغـ يهيه أغوييك يهيه أغغ يه وييكوييك يهيه: وييكوييك: أه:

(مثل غرغرة شنيعة لوحشٍ بهيمي ضخم مصاب بالإمساك: مثل نشيج بكاء المجنون: مثل فأرٍ تحت التعذيب):

أغغغـأغغغـأغغغ (المسكين، لا بد أنه حانقٌ الآن) أغغغـو ييكـ وغ وغ يه ـأغوييكيهأغغغيغـ يه يهيه أ أأأأأ ه هههه ره رهر هرهره (أوه، *كفاكِ!*) ر ه ر ه (نافذةٌ ارتفعت) ر ه ر ه ره رهره ر يهيهررهرهرهرهرهرهرهرهر (الباب صفق في غضبٍ وانتصار) رهرهره ------- (النافذة نزلت) رهرهرهره (السيارة تراجعت إلى الوراء؛ تقرقع على السخام) رهره ---- (نترها بغلظة لكن أدارها بمهارة في منحنًى خلفيّ، كاد يصيب بها السياج السلكي؛ ومن بين البيوت، شعاعة ضوءٍ من الشارع انعكست على جانبها الأسود) ر ه ر ه ---- (وتأرجحت بفظاظة

حول زاوية المرآب، دخلت الالتفاف المقابل، نحو الزقاق، شرقًا، حيث توقفت) ر ه ر ه -------- (مطيعة، مهزومة، خبيثة خبث البغل، وعاود هو الظهور للحظة، مواجهًا البيت، رآها، لوَّح لها – ولوَّحت هي له، لكنه لم يرها ـ أحكم إغلاق البوابة ومضى مختفيًا وراءها) رهرهرهرهرهرهرهرهرهرهر

ه

ر

ه

ر

ه

ره

ره

ره

ره

ره

ره

ره

ره

ره

ره

كتًّا وَوًّاك

كراوّورك؟

شيكواكواه.

رروكهكهكه.

كراررروك.

روركـ؟

إيرك.

رك:

أطلقت تنهيدةً عميقة، على أقل من مهلها، وعادت إلى بيتها.

وها هو حليبها، لم يمس، منسيٌّ، بالكاد فاتر. شربته، بلا تلذذ؛ كلُّ بياضه، الناضح خيوطًا رطبة من كوبها الفارغ، وجدته كريهًا. قررت ترك كل شيء حتى الصباح، شطفت الصحون بالماء، وتركتها في حوض المغسلة.

لو أنَّهَّ تناهت إلى الطفلين، لكانا استيقظا. كاثرين، على عادتها، كانت تغط عميقًا في نومها، كلاهما، على عادته، كان يغط في نومٍ عميق.

صدقًا، قد كبرا على هذا. بالذات روفس. وبعناية راحت تدثرهما جيدًا كي لا يصابا بالبرد. لا أحد منهما شعر بها.

عليَّ أن أستشير الطبيب.

رأت السرير المرتب. *أوه حبيبي*، تبسمت، واستلقت فيه. وأبدًا ما كانت لتدرك نيته الإبقاء على الدفء لأجلها؛ فالدفء أصلًا كان قد فارق فراشها.

الفصل الثالث

رآها في عين خياله تعود داخلًا وتجد السرير. ابتسم على مرآها تنظر إليه.

قاد السيارة عبر جادة فوريست، قاطعًا الجسر ذا الكمرات، متجاوزًا المحطة السخامية، وانعطف يسارًا بحدة أسفل مأوى الصم والبكم نزولًا على سفح التل المنحدر. أفنية المحطة «L&N» منبسطةٌ على يساره، كريّاتٌ باهتة من أسلاك الحديد، أخيلةٌ محجوبة، قليلٌ من زبد البخار؛ رأى وسمع التبدل الخفّاق لإشارة، لكن ما عاد يتذكر ما الذي تعنيه. على يمينه قسائم خاوية معتمة، لوحات الإعلان الشاحبة، الكتل الحالكة للأبنية الصغيرة النائمة، وضوءٌ عرضي هنا وهناك. لكان تناول طعامه في إحدى تلك الأماكن، مطعمٌ صغيرٌ شوارعي، إضاءته خافتة، هواؤه كامد من أبخرة طهي الشحم، بعضها للزنوج، بعضها للبيض، تخدم رجال سكك الحديد وسهّار الليل المجهولين مَنْ حكمًا كنتَ ستعثر عليهم في أي بلدة كبيرة. وما كنتَ أبدًا لترى امرأة هناك، خلا تلك الأوقات التي

تجدها فيها خلف النضد أو متعرقة أمام فرن. وما كانت عادته أبدًا تبادل الحديث متى ما ذهب هناك، لكنه دومًا ما استمتع بأجواء التآمر، ضجيج الأصوات. إن ذهبت إلى المطعم المناسب، وكنت وجهًا مألوفًا، أو بدوت شخصًا موثوقًا به، لحظيت بجرعة أو جرعتين من الخمر، في أي ساعةٍ من الليل.

مرَّر لسانه على أسنانه، يتذوق آخر ما تبقى من الدبس والقهوة واللحم المقدد والبيض.

لم يمض وقتٌ طويل قبل أن تهزل المدينة إلى دلائلها القائمة على الوجود شبه الريفي الأرقط والذي دائمًا ما أوقع الكآبة في نفسه: بيوتٌ صغيرة وضيعة، وأخرى جديدة كبيرة وموسرة على نحوٍ ليس له تفسير، إما قريبة جدًّا من بعضها حدًّا تنتفي معها خصوصية الريف، وإما متباعدة جدًّا، على نحوٍ عشوائي جدًّا، يحول دون نشوء مجتمع متلاحم؛ ومن خلفها قطعٌ وضيعة صغيرة من الخلاء المهمل، وعلى امتداد الشارع، بين تلك البيوت، أكوام القمامة والأغصان الميتة ولوحات الإعلان التالفة إثر المطر: تجاوز عربة ترام، كانت عربة ترام متأخرة، لا ركاب فيها، على وشك بلوغ محطتها الأخيرة.

في غضون دقيقتين كان قد رأى آخر ما سيراه من هذا المشهد. وفورًا الظلمة استحالت حميمية وجوفاء؛ صوت المحرك بدا مختلفًا، أزيزٌ سلس، أملس؛ أطرافٌ متبرعمة على نفسها انفتحت وانتعشت مع الاندفاع السريع المفاجئ عبر الأثر الأخير للأضواء؛ الأطومبيل شقت طريقها في قلب الظلمة، في قلب الكون؛ شعاعا

الضوء المساميّ المنبثقان عنها مثل قرني استشعار ميّزت بهما كل عقبةٍ صغيرة أمامها وكل مطب، والقليل القليل مما عداها. فكّ أزرار صدرته والزر العلوي من بنطاله وجلس مرتخيًا. بعد عدة دقائق راودته الرغبة في خلع سترته؛ لكنه كان مأسورًا بإيقاع القيادة في الليل وزخم القيادة في الليل حدًّا فاق أي رغبة لديه في التوقف. استرخى أكثر في جلسته، عيناه تتناوبان التنقل بين أقصى ما يصل إليه الضوء وأدناه، وسلم نفسه كليَّةً إلى متعة الرحلة، وإلى طبيعتها التي لم تتقرر بعد إن كانت جللًا أم لا.

كان الوقت يقارب طلوع الصباح لدى وصوله النهر؛ توجب عليه الطرق عدة مرات على نافذة السقيفة الصغيرة حتى يستفيق قائد العبارة.

«يكلفك ضعف الرسوم سيدي، العبور في الليل». قال له، مستغرقًا في إنارة القنديل.

«لا بأس».

على سماعه الصوت، رفع عينيه، وقد تيقظ تمامًا. «أوه، هاودي»[1].

«هاودي».

«أنت في العادة تأتي أيام الآحاد، برفقة امرأتك وصغيريك».

«صحيح».

(١) «Howdy»: العامية الريفية لمفردة الترحيب «هللو»

مضى بعيدًا، حتى حافة الماء، حاملًا قنديله على علوٍّ منخفض، وتفحَّص توافق سطح العبَّارة مقابل الضفة. رفع قنديله وأرجحها، مثلما يفعل موظف السكة الحديدية؛ جاي، من ترك محرك الأطومبيل مشتعلًا، فرملها بحذر أسفل المنحدر، في الطين الكثيف الموحل، وبحذر صعد بها متن العبارة. أطفأ المحرك؛ والسكون المفاجئ كان سحريًا. ترجَّل عن الأطومبيل وعاون الرجل في وضع مصدِّ العجلات. «ها هي جاهزة»، قال له، يستقيم بظهره، لكن الرجل ما قال شيئًا؛ فقد دفع للتو بالعبارة عن الضفة. كلاهما جلس يتأمل الماء البني يتسع أسفل نور القنديل، وبالقدر ذاته، على ما يبدو، من الإعجاب. وظيفةٌ جيدة لا بد، خطر لجاي، مثلما يخطر له دومًا كلما ركب العبارة؛ عدا، طبعًا، في الشتاء.

«هل تعمل طوال الشتاء؟».

«إيه»، أجابه الرجل، يجر حبل العبارة. «ليس بالأمر السيئ، خلا البَرَد، فأنا أكره الليالي الممطرة بَرَدًا».

كلاهما لاذ بالصمت. جاي عبَّأ غليونه. وفي إشعاله عود الثقاب، أحسَّ بتغييرٍ في الحركة، إحساسٍ بالاتساع؛ العبَّارة الآن تنجرف مع التيار، التيار يوجهها الآن، وقائد العبارة ما عاد لديه ما يفعله؛ اكتفى وحسب بإبقاء يدٍ واحدة على حبله. المركب الصغير المسطَّح ينساب على الماء مثل يدٍ على نهد. المياه تغمغم قليلًا؛ مثلما تفعل دومًا في هذا الوقت من العبور، ودومًا كان صوتها الصوت الوحيد المسموع. والآن، صفحة النهر ستعكس نورًا لم تتبين بعد

خطوطه في السماء، وعلى مدِّ الضفتين فالأشجار المحتشدة حول الماء مثل قطيع الماشية العطشى ستبدأ تتمايز الواحدة منها عن الأخرى. بعيدًا في المدى، عبر الريف على جانبيِّ النهر، الديوك تصيح. السماء البنفسجية تسطع رماديةً؛ والآن، للمرة الأولى، سيرى الرجلان، على الضفة المقابلة، عربة خيول مغطاة، وهيئة صغيرة جامدة تقف إلى جانبه.

«أوه إلهي»، قال قائد العبارة. «أتتخيل مذ متى وهم ينتظرون!» وفجأة انشغل جدًّا بحبله؛ كان عليه أن يعزز من زخم حركته كي يعبر بمركبه من وسط النهر حيث التيار الجانبي، إن بلغ أقصى قواه، قد يعيق كلا الحبل والعبارة. جاي سارع إلى مد يد العون. «لا بأس»، صدَّه الرجل، المنشغل جدًّا عن المجاملات. جاي انسحب. وبعد لحظات، استقر الرجل على الوضع الطبيعي للسحب. استدار، ونظر إلى جاي في عينيه. «إن لم تكن رجلًا كفاية كي تقود العبارة وحدك، فلست رجلًا كفاية لتولي هذه المهمة»، قال مبررًا تصرفه.

أومأ جاي، وتأمل اتساع رقعة الضوء.

«أرجو أن ما أحضرك هنا في هذه الساعة ليس بأمرٍ مقلق»، قال قائد العبارة.

جاي كان مدركًا لفضوله منذ البداية، واحترم فيه صمته، ورغم أنَّ سؤاله الآن غيَّر قليلًا من احترامه، فقد أجاب، مرتاحًا نوعًا ما لقدرته على التواصل مع شخصٍ منسجمٍ معه وجدانيًا وفي

الآن ذاته ناءٍ كلَّ النأي عنه: «أبي. أصيب في القلب. لا أدري إلى أي حد الوضع سيئ».

ومثل امرأةٍ عجوز طقطق الرجل لسانه، هز رأسه ونظر إلى الماء، «تلك طريقةٌ لئيمة». وفجأة نظر إلى جاي في عينيه: عيناه كانتا وعلى نحوٍ غريب خجولتين. ثم عاد يرنو مرةً أخرى إلى الماء البني، يواصل سحب الحبل.

«فليكن الحظ معك»، قال الرجل.

«ممنونٌ لك».

العربة راحت تكبر وتكبر، والآن، الوجهان الداكنان، وجها الرجل والمرأة، ذوا الغضون العميقة، بانا على نحوٍ جليّ: هذه الغضون الحزينة، العميقة، على وجوه أهل الريف، قلب الريف، العجوز حتى في أوج ريعانها، دائمًا ما ألهمت في جاي إحساسًا من السكينة. المرأة تمتطي البغل؛ حافة قلنسوتها العميقة شبيهة بحافة ظلة العربة. الرجل واقفٌ إلى جانب عربته، رافعًا جزمته الموحلة على محور العجلة. كلاهما، في نظرةٍ مكفهرة، حملق إلى عينيّ الرجلين على العبارة، لا أحد منهما تحرك، ولا أقدم على تحية، إلى أن تسارعت العبارة نحو الضفة.

«هل انتظرتما طويلًا؟» سألهما قائد العبارة.

المرأة نظرت إليه؛ وبعد لحظة، ودون أن يحرك عينيه، أومأ الرجل له.

«لم أسمع نداءك».

بعد لحظة، الرجل قال، «بل ناديت».

قائد العبارة أطفأ قنديله. استدار نحو جاي. «لا أستطيع احتسابه عبورًا في الليل، سيدي. سأحاسبك وفق تسعيرة النهار».

«لا بأس»، قال جاي، مناولًا اياه خمسة عشر سنتًا. «ممنونٌ لك». أطفأ مصباح الأطومبيل الأمامي واحدودب حتى يلف الكرنك.

«هيه صاح، مهلك». صرخ عليه صاحب العربة. جاي رفع عينيه؛ الرجل فشخ خطوتين سريعتين إلى الوراء وأمسك بلجام بغله، ثم أومأ إلى جاي.

المحرك كان دافئًا، لذا سرعان ما اشتعل؛ ومع أنَّ كل لفةٍ للكرنك كانت تثير في البغل نوبةً مبرحة من الألم، فما إن استقر المحرك حتى وقف البغل ساكنًا، يرجف وحسب. منفعلًا، وضع جاي ناقل الحركة على الأدنى كي يعبر الضفة المنحدرة الموحلة، مانحًا البغل والعربة ما تسنى له من متسع، يومئ لهما بندمه على الجلبة التي أثارها ويومئ كذلك بمودته؛ الرأسان استدارا إليه، العينان اللتان تلاحقانه ما كانتا لتسامحاه على ضجيجه. أعلى الضفة عبّأ غليونه وراح يراقب العربة والبغل ينحدران، البغل ممسوكٌ برأسه، عرقوباه يثبان بارتباك، حوافره تنخس الوحل الغادر بحثًا عن الاتزان، كفله يتنأ عاليًا، العربة تتمايل، وعلى الحافة الحديدية العريضة مصد-الكوابح زعق صارخًا.

الأوغاد المساكين، قال في نفسه. كان أكيدًا أن سوق نوكسفيل هي وجهتهما. على الأرجح انتظرا العبارة لساعتين. لا محالة سيتأخران.

انتظر حتى يشهد المنظر الجميل للنهر وهو ينشق. العبَّارة تلبَّست هيئتَها المربعة الغريبة، هالتَها المرهفة من الصمت. نظر إلى ساعته. لم يتأخر كثيرًا. أشعل غليونه واستقر في الأطومبيل استعدادًا للانطلاق. دائمًا ما انتابه شعورٌ مختلف متى ما قطع النهر. فهنا قلب الريف، الريف الحقيقي، العتيق. هو الآن في موطنه. البيوت الخشبية هنا تتبدى مختلفة في ناظره، أقدم وأفقر وأبسط، أشبه ببيت طفولته؛ بدا وكأنما الأشجار والصخور تنبثق عن هذه الأرض مختلفةً عن كل أرضٍ سواها؛ حتى هواؤها يعبق برائحةٍ مختلفة. وعن قريب، سيعرف الأسوأ؛ إن كان حقًّا الأسوأ. لا شعوريًا وجد نفسه مرتاح البال أكثر من ذي قبل، يتأمل الريف ينبسط أمامه منسابًا في ضياء طلعة الشمس؛ ولا شعوريًا انطلق يقود الأطومبيل، أسرع قليلًا من ذي قبل.

الفصل الرابع



على مرِّ المتبقي من الليل، استلقت ماري في نومٍ «أبيض». وفي استلقائها وحيدةً في الفراش، تملكها إحساسٌ من الغرابة، كأنها خلعت ضرسًا من ضروس العقل، والبيت بأسره بدا أكبر مما هو عليه، أجوفَ مفعمًا بالصدى. انفلاق الصبح لم يُعِد الأمور إلى طبيعتها، كما أملت؛ بل السرير والبيت، في غمرة هذا الصمت والشحوب، باتا أكثر خواءً. كانت ستنعس، تستيقظ وتصغي إلى الصمت الرهيب، تنعس، وتتيقظ جفلة مرةً أخرى، على الشيء الذي ما انفك يزعجها. فكرت في زوجها، يقود أطومبيله في مهمةٍ هي الأكثر جللًا في حياته، وفكرت في أبيه، المستلقي في مرضٍ عضال، ولربما على فراش الموت، ولعله اللحظة ميت (رسَّمت الصليب على قلبها)، وما كانت لتستطيع إجبار نفسها على استحضار الحزن العميق الذي شعرت بأنه من واجبها الشعور به، كرمى لزوجها. أدركت أن لو انقلبت الأدوار، لو أنَّ أباها كان الطريح على فراش الموت، لشعر جاي بشعورها ذاته الآن، وأنَّها ما كانت لتلومه ولا

تلوم نفسها، لكن تفكيرها هذا ما نفعها بشيء. لأنها كانت تعرف، في القلب من قلبها، أن المشكلة، بكل بساطة، هي أنها أبدًا ما أحبت ذاك الرجل العجوز.

كانت واثقة بأنها لم تنظر يومًا بازدراء إليه، التهمة التي، العديد من أقارب جاي، يلمحون إليها في وجهها حدَّ التصريح، التهمة التي تخشى أنَّ جاي نفسه يظنه عنها؛ بالتأكيد لا؛ لكن ما كانت لتحمل نفسها على حبه، مثلما يحبه الجميع. وكانت مدركة أن لو كانت والدة جاي هي المستلقية على فراش الموت، لما كان هناك من أدنى شك بالأسى الذي كان سيعتريها وقتئذ، ولَما كانت ستلوم نفسها كما تلومها الآن على تقصيرها بحق زوجها؛ وهذا أقل دليل على عدم اكترائها حقًّا بأبيه. راحت تسأل نفسها علام حبها القليل له (إذ في قولها إنها تبغضه، قالت تطمئن نفسها، تعبيرٌ مضلل عن حقيقة مشاعرها). وأدركت أنَّ السبب يعود إلى مسامحة الجميع له على الدوام، على حبه حبًّا شديدًا رغم كل نقائصه، ولأنه تقبَّل مسامحتهم إيَّاه وحبهم إيَّاه بمنتهى اللامبالاة، كما لو أنَّ هذا حقه الشرعي، أو الأسوأ، كما لو أنه غير مدركٍ أصلًا لمشاعرهم هذه تجاهه. وأسوأ ما في الأمر برمته، السبب وراء نفورها والذي رسَّخ فيها استياءها وحنقها، هو النير الثقيل الذي ما فتئ يفرضه على زوجته، وصبرها المثالي معه، وكأنها غافلة حتى عن الحِمْل الذي ألقاه على عاتقها أو حقيقة استغلاله لها. عدم إدراكها الواعي لوضعها هو ما يعصى عليها تقبله، ولو أنَّ والدة جاي تفشي ولو مرة، عن شرارة غضب، عن إدراكٍ حقيقي لما يجري حولها، لربما

حينها كانت ستقوى ماري على حبه. إلا أنَّ هذا الخاطر أثار فيها استياءً أعمق، استياءً وصل حدَّ البغض تجاه والدة جاي، رغم يقينها بأنه إحساسٌ غير منصف ولا يعبر عن حقيقة مشاعرها، مما أزعجها؛ عدا أنها صدمت أيضًا على إدراكها أنها في هذه الساعة التي قد تكون ساعته الأخيرة، ها هي مستلقية في فراشها، لا تفكر إلا في السوء عنه. *عارٌ عليكِ*، قالت لنفسها، وأجبرت نفسها على التفكر في كل خصلةٍ صالحة فيه.

من ناحية، هو كريم. كريمٌ حدَّ العيب. والآن تذكرت كيف، مرةً بعد الأخرى، كان سيهب ما لديه، «يقرض» أول شخصٍ يسأله حاجة، معروفًا، مالًا، طعامًا، أو أيَّ شيء يعوز بيته أشدَّ العوز حتى يبقى الرمق رطبًا واللحم على العظم. عيبٌ عظيمٌ بحق. لكن يظل عيبًا صالحًا. لا غرابة أنَّ الناس أحبوه -أو ادَّعوا حبه- وانتهزوا كل فرصة مواتية لاستغلاله. وهو، صدقًا، رجلٌ طيب القلب. فضيلةٌ رائعة. ومتسامحٌ أيضًا. ما سمعته قط يذكر أحدًا بكلمة سوء، ولا حتى في حق الناس الذين استغلوا كرمه بكل وقاحة – فهو، اللحظة أدركت، عاجزٌ عن حمل نفسه على التصديق بأنهم فعلًا قصدوا إيذاءه؛ وهو أبدًا، ولا حتى مرةً واحدة، حسب معرفتها، شارك في نميمة الآخرين العدائية والمهينة عنها.

لكن في المقابل هي موقنة أنه أبدًا ما دافع عنها بقوةٍ ولا بشجاعة، ولا حتى غضبًا، ضد ما يقوله الجميع عنها، مثلما تدافع زوجته عنها، فهو رجلٌ يكره الخصام والجدل قدر كرهه قسوة القلب؛ لكنها سرعان ما وضعت حدًّا لمسار أفكارها هذا. هو أبدًا، قدر علمها، ما

اشتكى يومًا من مرضه، أو ألمه، أو فقره، ودومًا كان ديدنه الجنوني تبرير تصرفات الآخرين، اختلاق الأعذار لهم، بينما أبدًا ما برر نفسه لأحد وما اختلق عذرًا لتصرفاته. فحتى هو لديه نزرٌ قليل من حقٍّ للشكوى، ولاختلاق الأعذار؛ لكنها عادت وأسرعت في وضع حدٍّ لمسار أفكارها هذا. وحتى تؤنب نفسها استحضرت مودته ولطفه الدائم معها؛ رغم إدراكها أن مودته هذه ليست متأتية عن شخصها بل لمجرد كونها «امرأة جاي»، كما تتصوره يصفها، وهي بالتأكيد لا تحمل شعوره هذا ضده، فأقصى مشاعر المودة التي قد تكنها له هي أيضًا نابعة عن كونه مجرد والد جاي. فليس بيدك أن تحبَّ شخصًا أكثر من استطاعتك؛ ببساطة ليس بيدك. وليس بيدك أن تحبهم أكثر من القدر المتاح لك على يدهم. إذ ثمة ضعفٌ متأصلٌ في كينونته؛ خصلةٌ يصعب عليها أن تحبها، أو تحترمها، أو حتى تغفرها، أو تجبر نفسها على تقبلها، فالضعف الذي فيه ضعفٌ يستغل الآخرين، يثقل الآخرين بالخسائر والأذى، ضعفٌ لا يشعر بالخجل من نفسه، ولا حتى واعٍ لنفسه. وأسوأ ما في الأمر، أنَّ والد جاي لربما العائق الوحيد بينهما، العائق العنيد، الإشكاليّ، الذي ما ينفكان يتفاديانه، في الوصول إلى تفاهمٍ كامل مشترك عن أهل جاي، عن «خلفيته». وحتى الآن، حتى في هذه الساعة، تجد نفسها عاجزة عن حبه، عن القلق عليه. وإن كان من حزنٍ يراودها، فهو الحزن ذاته الذي كانت ستشعر به تجاه أي إنسانٍ مسن أرهقته الحياة وعانى فيها ما عانى، وها هي حياته الطويلة، على ما يبدو، قد شارفت على الانتهاء. وحتى في غمرة تفكيرها فيه، فقلقها الحقيقي هو على فاجعة ابنه

وعدم قدرته لاحقًا على التأقلم مع ألمه. وإذ تدرك، في قنوطٍ مباغت، أنها حتى اللحظة، لم تعر بالًا إلى والدة جاي؛ إذ استغرقت كليًا في قلقها على زوجها. لا بد أن أكتب لها، قالت في نفسها. لكن على الأرجح سأراها عن قريبٍ جدًا.

مع ذلك، رغم إدراكها الجلي ما الذي سيعنيه الترمل لوالدة جاي، وإدراكها إثمها في مجرد التفكر بهذا الخاطر، فهي شعرت بأنَّ في موته سيعمُّ ارتياحٌ وانعتاقٌ عظيم. كذلك، خطر لها، أنه لن يقف بعد اليوم عائقًا بيني وبين جاي.

روحها تجمدت رهبةً. *ربِّ اغفر لي*، قالت في نفسها، مذهولة؛ كدت *أتمنى* موته!

ضمَّت يديها وحدَّقت إلى بقعةٍ على السقف، وراحت تصلي.

اللهم اغفر لي خاطري الآثم. ربِّ طهر روحي من البغضاء. ربِّ، إن تكن هذي مشيئتك، فأمدد في عمره علِّمني أتعلم، بمعونتك الرحيمة، تفهمه أكثر والاهتمام به. ربِّ أبعد عنه الموت، لا لأجلي، بل لأجله.

وأغمضت عينيها.

اللهم اشرح صدري وأعنِّي على استيعاب هذا المصاب الجلل، إن كان لا راد لوقوعه، واجعلني عونًا وسلوانًا للآخرين في مصابهم. ربِّ، ربّي المسيح، أَذب جمود قلبي ولا مبالاته، اهبط واملأ الخواء في قلبي. ربِّ، إن تكن هذي مشيئتك، احفظه عمرًا

أطول، علمني تحمل أوزاري بقلبٍ أرحم، أو افتح بصيرتي على رؤية النعمة الكامنة فيها. وإن كان لا بد سيؤخذ، إن كان اللحظة في ملكوتك (ورسَّمت الصليب على قلبها)، فلتهنأ روحه في سلامك (ومرةً أخرى رسَّمت الصليب على قلبها).

وربِّ، إن تكن ذي مشيئتك، إن كان الأسى واقعًا على زوجي لا محالة، فكلي رجاءٌ وتوسلٌ فيك أن ترحم زوجي في هذا الابتلاء فتفتح قلبه وتوقظ روحه العزيزة، حتى يجد فيك الراحة والطمأنينة التي يعجز العالم بأسره عن منحه إياها، اِهده إلى صراطك، حتى يبصرك بعين قلبه، ويلوذ إليك. فهناك، في قلبه، لا في أبيه المسكين ولا مشاعري التافهة، تكمن الهوة السحيقة، الحقيقية، بيني وبينه.

يا الله، بحق رحمتك، أيها العليُّ القدير على كل شيء، اردم هذه الهوة. دعنا نكن واحدًا فيك مثلما صيَّرنا رباط الزواج واحدًا على هذه الأرض الفانية. كرمى للمسيح، آمين.

استلقت مطمئنة البال قليلًا، لكن مع قلبٍ منقبض أكثر مما هو مطمئن. فهي ما سبق لها قط أن صرَّحت بالكلمات، في إدراكٍ جليٍّ، هذا الاختلاف الديني، أو أهمية هذا الاختلاف بالنسبة إليها. وتساءلت إلى أي حدٍّ الاختلاف أصلًا مهمٌّ لزوجها. وهل تراني بالغت كثيرًا في التعبير عن إحساسي؟ «هوة»؟ و«سحيقة»؟ وهل هي فعلًا كذلك؟ فهو أبدًا ما قال شيئًا يبرر مشاعرها هذه؛ ولا أحست بشيءٍ يوحي بهذا الصدع الكبير بينهما. المسألة وحسب أنهما نادرًا ما تحدثا عن الأمر، وكأنَّ كليهما يحرص أشد الحرص ألا

يتفوه إلا بأقل القليل عنه. لكن هنا لب المسألة برمتها. إن أمرًا يعني الكثير لها، ويعني أكثر وأكثر مع مرور الأيام، يفترض به أن يظل أمرًا مسكوتًا عنه، لا يتشاركانه، ولا يفصحان عن حقيقة مشاعرهما تجاهه. الوحيدة التي لها أن تودع ثقتها فيها ولها أن تكون حميمة معها في هذا الشأن هي عمتها هانًّا، والآن جل حبِّها الإلهي وأملها لا بد أن تودعه في طفليها. هي هذه. لهذا مقدرٌ على الهوة السحيقة بينهما أن تتسع (ضمَّت يديها، وهزَّت رأسها، عابسة): الأطفال. هي موقنة أنه لا يحمل في قلبه غضب آندرو وازدرائه، ولا سخرية والدها وتهكمه، لكن كان واضحًا لها من صمته الغريب، متى ما طرأ حديثٌ عنه، أنه بعيدٌ كل البعد عنه وعنها، أن الأمر لا يروق له. هو وحسب نأى بنفسه عنه، هذا كل ما في الأمر. وهي احترمت فيه نأيه، حفاظه على وقاره في التعامل بشأنه، وإن كان صمته ونأيه يجرحها ويؤلمها. والهوة ستتسع أكثر وأكثر، أوه حتمًا ستتسع، لأنها مهما حاولت أن تكون هادئة ودمثة، فهي ستربي أطفالها كما يجب عليها تربيتهم، أطفالًا مسيحيين، كاثوليكيين. وستتجلى تربيتها هذه حتمًا في البيت، كما في الكنيسة. والهوة بينهما ستتسع، إلا إن تغيَّر؛ إذ مهما حاولت وسعها التعامل مع الأمر بشكلٍ لبق كما هي واثقة أن زوجها سيفعل، فمقدرٌ أن ينفصل أبناؤه عنه، أن تنفصل زوجته عنه. ولن يقع الانفصال إثر فعلٍ منه أو رغبةٍ منه، بل سيحصل بمشيئتها هي، عامدة متعمدة. يا الله، راحت تصلي، مكروبةً. هل أنا مخطئة؟ إن كنت مخطئة ربِّي، فأرني، أرجوك وأتوسل إليك. أرني ما يتوجب عليَّ فعله.

لكن الرب لم يُرِها إلا ما تعرفه هي سلفًا: مهما تكن العواقب، كامرأة مسيحية، كاثوليكية، هي من يجب عليها حتمًا تربية أبنائها بكل ورعٍ وإخلاص على الإيمان، وكأم، وزوجة، هي من يجب عليها، أكثر مما يجب على زوجها، إبقاء هذه العائلة موحدة، ردم هذه الهوة.

لكني إن ربيتهما على الإيمان، فلا شيء سيكون بيدي فعله لأردم هذه الهوة. لا شيء، لا شيء سينفع.

لكني مجبرة.

هو واجبي: ثقي بالله، قالت لنفسها، في صوتٍ شبه عالٍ. فلأفعل بمشيئته، وأودع كل ثقتي فيه.

عربة ترام مرَّت؛ كاثرين صاحت باكية.

الفصل الخامس

«بابا اضطر إلى الذهاب إلى زيارة جدكما فوليت»، فسرت لهما أمهما. «أخبرني بأن أقبِّلكما كليكما وأنه سيبذل قصارى جهده كي يراكما الليلة قبل أن تناما».

«متى؟» سألها روفس.

«أوه، ذهب باكرًا جدًّا هذا الصباح، قبل طلوع الشمس».

«لماذا؟».

«جدك فوليت مريضٌ جدًّا. عمك رالف اتصل في وقتٍ متأخر جدًّا ليلة البارحة، حين كنا جميعًا نيام. جدكما أصابته نوبة من تلك النوبات».

«أي نوبة؟».

«تناولي حبوب إفطارك، كاثرين؛ وأنت أيضًا روفس. نوبة قلب. مثل تلك التي أصابته الخريف الماضي. لكن أسوأ، يقول عمك رالف. وجدك أراد بشدة أن يرى بابا، بأسرع وقتٍ ممكن».

«لماذا؟».

«لأنه يحب بابا وإن... كلي، وإلا سيبرد فطورك ويتعجن، وأنت تعرفين كم تكرهين تناوله هكذا. لأنه إن لم يرَ بابا قريبًا، فجدك قد لا يتسنى له رؤيته مرةً أخرى».

«ولماذا؟».

«لأن جدك طعن في السن، وحين تطعن في السن فقد تمرض ولا تتعافى مرةً أخرى. وإن لم تتعافَ فالرب سيدعك تنام وحينها لن تستطيع رؤية الناس من جديد».

«ولن تستيقظ أبدًا؟».

«بل تستيقظ فورًا، في الجنة، لكن الناس هنا على الأرض لن يروك بعد اليوم، وأنت لن تراهم».

«أوه».

«كُلا»، همست أمها، تُمَيِّم فمًا كبيرًا، تومئ وتمضغ الهواء بشراهة. وراحا يأكلان.

«ماما»، روفس سألها، «حين نام أوليفر هل استيقظ أيضًا في الجنة؟».

«لا أدري. لكني أتخيله استيقظ في المكان المميز الذي يحتفظ به الرب للقطط في الجنة».

«وهل الأرانب تستيقظ أيضًا؟».

«إن استيقظ أوليفر فهم أيضًا سيستيقظون».

«في دمائهم؟».

«لا، روفس، تلك كانت أجسادهم الصغيرة وحسب. ما كان الله ليوقظ تلك المخلوقات المسكينة متألمة في أجسادها الدامية».

«إذن لماذا سمح للكلاب بالدخول؟».

«لا نعلم روفس، لكن لا بد أن ما حدث جزءٌ من خطته لنا، ويومًا ما سنفهم مشيئته».

«وما الخير الذي جناه *الرب* مما حدث؟».

«كفاكما تلكؤًا الآن، حان وقت الذهاب إلى المدرسة».

«ما الخير الذي جناه الرب، ماما، بسماحه للكلاب بالدخول؟».

«لا أدري، لكن يومًا ما سنفهم، روفس. إن تحلينا بالصبر. علينا ألا نقلق أنفسنا بالأمور التي نعجز عن فهمها. علينا فقط أن نظل مؤمنين أنَّ الله أعلم بما هو خيرٌ لنا».

«أنا واثق بأن الكلاب تسللت في غفلةٍ منه»، قال روفس مأخوذًا بحماسٍ شديد. «لأنه بالتأكيد ما كان ليدعها تدخل لو كان هناك حينها. أليس كذلك ماما، أليس كذلك؟».

للحظة ترددت أمها، ثم قالت بمنتهى الحذر، «لا، روفس، نحن نؤمن أنَّ الله موجودٌ في كل مكان ويعرف كل شيء ولا شيء يحدث دون معرفته. لكن الشيطان، أيضًا، موجودٌ في كل مكان -في

كل مكان عدا الجنة- وهو دائمًا يغوينا. ومتى ما ضعفنا أمام إغوائه، فالرب سيدعنا نفعل ما يغوينا الشيطان إليه».

«يغوينا؟».

«يغوينا يعني، حسنٌ، الشيطان يغوينا متى ما كنا نريد فعل شيء، وفي قرارة قلبنا نعرف أنه شيءٌ سيئ».

«ولماذا يدعنا الرب نفعل أشياء سيئة؟».

«لأنه يريدنا أن نكون أحرارًا في اختيارنا».

«حتى في فعل الأشياء السيئة، وتحت أنفه؟».

«هو لا يريدنا أن نفعل الأشياء السيئة، لكنه يريدنا أن نعرف الخير من الشر ونختار الخير بإرادتنا».

«لماذا؟».

«لأنه يحبنا ويريدنا أن نحبه، لكن إن جعلنا أبرارًا، فلن نحبه كفاية. فأنت لن تحب فعل ما أنت مجبرٌ على فعله، ولن يكون بيدك أن تحب الله إن أجبرك على حبه».

«لكن إن كان الله قادرًا على فعل أي شيء، فلماذا لا يفعل ذلك؟».

«لأنه لا يريد ذلك»، أجابته أمه، في نبرةٍ بدأ يشوبها نفاد الصبر.

«ولماذا لا يريد؟» سألها روفس. «لكان أسهل عليه بكثير».

«لأن - الرب - لا يؤمن - في الطريق - السهل»، قالت في نبرة

انتصار، تتمهل بين الكلمات وتشدد عليها. «لا لأجلنا، ولا لأي شيء، ولا لأي أحد، ولا حتى لنفسه. الله يريدنا أن *نذهب نحن* إليه، أن *نعثر نحن* عليه، بقدر استطاعتنا».

«مثل لعبة الغميضة»، قالت كاثرين.

«ماذا؟» سألت أمها بنبرةٍ متوترة.

«مثل الغمـ...».

«أوه، كلا، أبدًا ليس مثل لعبة الغميضة، أليس كذلك ماما؟» قاطع روفس أخته. «فالغميضة مجرد لعبة، مجرد لعبة. والرب لا يضيع وقته باللهو، أليس كذلك ماما! هل الرب يلهو! هل الرب يلهو!».

«عيبٌ عليك روفس»، قالت أمه في صوتٍ حنون، وإن ليس بدون ارتياح. «*عيبٌ عليك!*» فوجه كاثرين انتفخ وزمت شفتيها بحدة، وراحت تحملق إلى وجه أخيها ومن ثم أمها بعينين ساخطتين محتقنتين.

«لكني محق! الرب لا يلهو!» قال روفس مصرًّا، غاضبًا ومرتبكًا إثر التحول الذي آل إليه نقاشه مع أمه.

«*كفاك*، روفس»، وبخته أمه بصرامة، ومالت نحو كاثرين وربتت على يدها، ما أثار الرجفة في ذقنها وأسال الدموع من عينيها. «لا عليك، صغيرتي! *لا عليك*! الرب لا يلهو، روفس محق بهذا الشأن، لكن أحيانًا، *أحيانًا*، قد يبدو لنا وكأنه يلعب الغميضة. أنتِ *محقة تماااامًا*».

لكن كاثرين انفجرت باكية، وروفس جلس في مكانه مرتاعًا، ليس بداعي بكائها، والذي أثار غضبه وغيرته، بقدر ما كان على عزلته التي وجد نفسه بغتةً فيها. لكن صياحها كان شديدًا وتعيسًا، إلى الحد الذي، رغم غيرته وغضبه، اعتراه الخجل من تصرفه، وشعر بالأسف عليها، وكان يحاول، يائسًا، إيجاد طريقة يظهر فيها أسفه حين رمقته أمه بنظرةٍ حانقة وقالت، «*قم عن كرسيك* واستعد للمدرسة. سأخبر بابا بما فعلت، أيها *الولد الشقي*!».

عند الباب، بعد دقائق عدة، حين انحنت كي تقبله قبل خروجه إلى المدرسة ورأت وجهه، أخطأت تفسير ملامحه وقالت، في نبرةٍ أرق لكن في صرامة شديدة: «روفس، أعرف أنك آسف، لكن إياك أن تتصرف بلؤم مع كاثرين. فهي ليست سوى فتاة صغيرة، *أختك الصغيرة*، وإياك أبدًا أن تقسو عليها أو تجرح مشاعرها. مفهوم، روفس؟ مفهوم؟».

أومأ لها، وشعر بالأسف الشديد على أخته وكذلك على نفسه إثر الحنان الذي سمعه في صوت أمه.

«تعالَ الآن وأخبرها كم أنت آسف، *استعجل*، وإلا ستتأخر على مدرستك».

عاد خجلًا مع أمه واقترب من كاثرين؛ وجهها كان أحمر منتفخًا، ترمقه بنظرةٍ غضبى.

«كاثرين، روفس يريدك أن تعرفي كم هو آسفٌ على ما فعل، أنه جرح مشاعرك»، قالت أمه.

كاثرين نظرت إليه بعينٍ شكاكة وقاسية.

«*أنا آسف*، كاثرين». قال لها. «صدقًا أنا آسف. لأنك صغيرة، *فتاة صغيرة*، و...».

وإذ تنفجر كاثرين في هديرٍ من الدموع الغاضبة، بقبضتيها أطاحت بالطبق أمامها، وروفس، مذهولًا، هرعت به أمه بفظاظة خارج البيت.

الفصل السادس

مع وصول جاي المزرعة واكتشافه حقيقة الأمر، تملكه الغضب على إحساسه بالروع والحزن العميق؛ إذ سرعان ما أدرك أنَّ شكوكه كانت في محلها. فرالف، كعادته، فقد سيطرته على نفسه، وها هو الآن يعتريه خزيٌ عظيم، وإن كان لا يزال على موقفه الدفاعي رافضًا التزحزح عنه، والكل، من ضمنهم جاي، راح يسايره ويطمئنه إلى أنه اتخذ القرار الصحيح. كان لجاي أن يتخيل إلى أي حد احتاج رالف أن يكون ضروريًّا ومفيدًا، أن يتولى هو زمام الأمور. وجد جاي نفسه عاجزًا عن احترامه، عدا أنه أشفق عليه. شعر بأنه يفهم جيدًا كيف للأمور أن آلت إلى ما آلت إليه.

في واقع الأمر، هو لم يفهم إلا القليل، ورالف أقل القليل.

في وقتٍ متأخر من مساء أمس، عانى أبوهما من نوبة قلبية أشد خطورةً وألمًا من أيٍّ من سابقاتها. ما مرت دقائق معدودة إلا وأدركت زوجته خطورتها، وهرعت توقظ توماس أوكس. وتوماس هرع عبر التل وأيقظ جيسي وجورج بايلي، ودون أن

ينتظرهما، هرع عائدًا، سرَّج الحصان وانطلق به سريعًا، بأقصى سرعته، إلى لافوليت. الطبيب كان في زيارة منزلية لمريض؛ ترك رسالة، وهرع ذاهبًا إلى رالف. ورالف، على وقع سماعه الخبر، فزع مرتعدًا على المسؤولية التي سيتحملها الآن. سأله إن كان الطبيب هناك أم بعد. توماس أخبره؛ ورالف أدرك أنَّ أمه أخبرت توماس أن يهرع طالبًا الطبيب قبل حتى إيقاظه ابنها كي يكون إلى جانبها. لكنه صرف هذه الفكرة جانبًا على أنها خاطرٌ لئيمٌ وحقير، ومع ذلك، ظل الخاطر يئز صدره. أحسَّ بأن الوقت ليس بالمناسب لحمل أي ضغينة؛ وليس هو وحسب، بل سالي أيضًا عليها أن تهبَّ لمساعدتهم، لا بد أن تكون معهم (فسالي لن تغفر لي إن لم تكن موجودة في هذا الوقت العصيب) وهو يموت (ويومها ستكون هي الزوجة الوحيدة، زوجة الابن الوحيد؛ وأمه أبدًا لن تنسى هذا). هرع داخلًا وأبلغها بما يجري وهو يتعجل ارتداء ملابسه، هرع مسرعًا إلى بيت جيرانه، وانهال طرقًا على باب عائلة فيلت واعتذر عن طرقه الباب هكذا (في صوتٍ مغموم) فأبوه على حافة القبر إن لم يكن أصلًا قد هوى عنها، وما كان ليوقظهم هكذا لولا معرفته بأنهم لن يتوانوا عن المساعدة في إحضار سالي. كانوا جدَّ طيبين معه؛ السيدة فليت وصلت البيت قبل أن تنهي سالي تصفيف شعرها. وبينما كانت تفعل ذلك، هرع رالف قاطعًا الشارع إلى مكتبه، فتح درج مكتبه المقفول، وعبَّ جرعتين من الويسكي في الظلمة. دسَّ قارورة الويسكي في جيبه وتعجل النزول إلى سيارته. انطلق بها سريعًا جدًّا تجاوز فيه توماس الراكب حصانه والذي بالكاد بلغ

تخوم البلدة، إذ كان يقود، كما قال رالف في نفسه، عينه الخفيضة الباردة مسمرة على عجلة القيادة، «بسرعة أقرب إلى الستين»، أو على أية حال، بأقصى سرعة آمنة يمكن للمرء أن يقود بها على هذه الطرق الفظيعة، ولربما أسرع قليلًا، يتخيل في ذهنه بارني أولدفيلد، في سيارته (الشالمر) التي اختارها رالف بالذات لأنها من فئة أرفع وأثمن من أطومبيل أخيه، سيارة ليس لأحد من الناس أن يسخر منها. أول ما خطر له، ما إن رأى توماس على حصانه، الضرب على الزمور إعلانًا عن وجوده، تحيةً له كذلك وتحذيرًا، لكنه تذكر جدية الموقف فتراجع عن نزوته، عدا أنه تفكَّر بعد فوات الأوان، أنَّ توماس لربما سيشعر بالإهانة، كما لو أنه صادفه في الشارع ولم يلقِ عليه التحية، وها هو الآن غاضبٌ من توماس على احتمال شعوره بالإهانة على أمور تافهة مثل هذه في وقتٍ عصيبٍ مثل هذا.

ساعتان من الكرب اليائس مرَّتا قبل وصول الطبيب. وفي غضون تلك الساعتين لربما كان رالف أكثر من عانى هذا الكرب المبرح. فإلى جانب معاناته، أو ما صدَّق في ذهنه أنها معاناته، وإلى جانب كل الألم الذي لا بد أن أباه يعانيه، حزن أمه وقلقها، وكل تلك العواطف الصغيرة التي كانت تخالج نفوس الحاضرين الأبعد قربى، فقد عانى أيضًا من إذلالٍ عظيم. حين هرع داخلًا وجرف أمه إلى ذراعيه شعر بأنَّ نبرة صوته وتصرفاته كلها كانت في محلها الصحيح؛ أنه أظهر لها أنه الرجل الذي، رغم كربه العميق، يمتلك قوةً لا تضاهى في دعم الآخرين وقت مصابهم، وفي تولي زمام الأمور كافةً وبكل اقتدار. لكن حتى في هذا العناق الأول استشعر

محاولة أمه اليائسة إخفاء رغبتها في الابتعاد عنه. حاول الاقتراب منها المرة تلو الأخرى، يعانقها، يبكي على صدرها، يلاطفها، يلح عليها أن تكون قوية، يلح عليها ألا تكون قوية، دَعْها تستند إليه، تبكي بحرقة من قلب قلبها لأن من الطبيعي في وقتٍ كهذا أن تحتاج إلى وجود أبنائها حولها؛ لكن كل مرة كان يدنو منها استشعر في جسدها التيبس الصبور ذاته، واستشعر في صوتها نبرةً تربكه. كل من في الغرفة، وحتى رالف نفسه في نهاية المطاف، أدرك أن كل ما يفعله هو تصعيب الأمور عليها؛ أمه وحدها من كانت المدركة أنه بأفعاله هذه إنما يسعى إلى نيل السلوان لا منحه. وما كانت تحمل في قلبها أي ذرة غضبٍ عليه؛ بل كانت مشفقة عليه وتمنت لو كان بيدها أن تمنحه السلوان الذي يبتغيه منها، لكن عقلها ليس معه، قلبها ليس معه، وكل نحيبه ونتانة أنفاسه أثارا فيها الغثيان. أما ما أربكه في صوتها فهو نأيها عنه. وبدأ يدرك أنه لم يمنحها أي سلوان، أنها لم تكن متكئة عليه، أنها في الحقيقة، وكما خشي دومًا، لا تحمل أي حبٍّ له. ضاعف جهوده في محاولته طمأنتها والتخفيف عنها والظهور قويًّا لأجلها. وكلما بذل جهدًا أكبر، تجلى النأي في صوتها أكثر وأكثر. وبعد نصف ساعة من محاولاته الحثيثة لم يبدُ وجهها أقل يأسًا مما كان عليه لدى وصوله. وبدأ يشعر أن كل من في الغرفة راح يراقبه وكلهم مدركون أن لا نفع من وجوده، وأن أمه لا تحبه. النساء حدقن إليه بطريقة، والرجال بطريقة أخرى. شعر بأن زوجته تحتقره، أنها لم تشعر حتى بالأسف عليه؛ أحس نفسه سمينًا وعثيثًا، وأمام تلك النظرة التي راحت ترمقه فيها داهمته فجأة كراهيةٌ شديدة

لها على يقينه بأنها حتمًا تفضل مضاجعة الرجال مسطحي البطن ـ ومن عساه يكون ذاك الرجل؟ أي رجل، ما دامت بطنه الكبيرة لا تقف عائقًا أمامها. أما جيسي، فهو واثقٌ بكراهيتها الشديدة له، والتي لا تقل عن كراهيته الشديدة لها. وجورج بايلي، الجالس هناك منتفخ الصدر يتقمص وضعيةً جديّة ويشيح بوجهه عنه كلما التقت عيناهما: يرى في نفسه ضعف الرجل الذي عليه رالف وخيرًا منه بضعفين في هذا الوقت العصيب، خيرٌ منه في التعامل مع أصهاره منه هو في التعامل مع عائلته من لحمه ودمه؛ وكل من حوله يعرف بأن جورج ضعف الرجل الذي عليه رالف والكل راح يحاول ما استطاع ألا يفصح عن معرفته هذه ولا حتى التفكير فيها، أو يدع رالف يحس بها تجوس في أذهانهم. وحتى توماس أوكس، العامل الجاهل، العاجز حتى عن القراءة والكتابة، الجالس هناك مع يديه الهزيلتين المتسختين تتدليان بين ركبتيه، يحدق سفلًا إلى عقدةٍ في خشب الأرضية بعينيه الزرقاوين الشاحبتين، حتى توم يفوقه رجولةً ونفعًا. وحين نهض توم قائلًا إن لم يكن هناك من شيءٍ آخر يفعله لهم فالأجدر به الصعود إلى العِلّية، لكن إن كان هناك من أي شيء فليعلموه حالًا، عندها فهم رالف. لربما توم رجلٌ جاهل لكن ليس بالجاهل بحيث لا يدرك أنَّ من الأفضل ترك العائلة وشأنها؛ وحين قالت أمه، «حسنٌ، توم»، سمع في نبرتها حياةً وعطفًا، وحتى امتنانًا أكثر، من أي كلمةٍ وجهتها إليه طوال الليل؛ وبينما راح يراقب توم يتسلق السلم، بثقل وهدوء، درجةً درجة، قال في نفسه: ها هو ذا رجلٌ خيرٌ مني، رجلٌ يعرف متى يزيح نفسه عن

الطريق، وقال في نفسه: كل روحٍ في هذه الغرفة تتمنى لو أني أنا من غادرها عوضًا عنه، وراح ينادي عليه، في صوتٍ بدا عدائيًا، رغم قصده أن يبدو ودودًا للجميع عدا توم، «لا بأس توم، اذهب ونل قسطًا من النوم»، وتوم أطل عليه من السقف ونظر سفلًا إليه بتلكما العينين الزرقاوين الخاويتين قائلًا، «هوّن عليك، سيد رالف»، وإذ يدرك رالف أنَّ ما كان من نية لدى توماس بالخلود إلى النوم، كان وحسب سيخلو إلى نفسه في الأعلى، لا كي ينام، بل حتى يكون مستعدًا في حال احتاجه أحدهم؛ وأن توم رأى الخبث في ندائه، في رغبته التقليل من شأنه، والآن هو من يقلل من شأنه ويرد عليه الصاع صاعين، على مرأى من أمه وزوجته وأبيه المحتضر. «هوّن عليك، سيد رالف». *هوّن عليك؟ هوّن عليك؟* أراد أن يصرخ في وجهه، «أهوّن عليّ ماذا، يا حثالة البيض، يا ابن العاهرة؟» لكنه لجم نفسه.

وكلما شعر بعيونهم تتكالب عليه لاذ إلى أمه وحضنها، يضم رأسها إليه بقوة، يحاول ما استطاع قول أشياءٍ تدفعها إلى البكاء، وكل مرة، وجدها تنأى عنه في صوتها أبعد وأبعد، ووجهها يشيخ أكثر وأكثر، الحياة فيها تنضب أكثر وأكثر، وكل مرةٍ كان سيجد نفسه واعيًا أكثر لنظراتهم إليه والخواطر التي تحوم خلف تلك العيون المحدقة فيه، وكل مرة، كان سيؤرجح نفسه بعيدًا عن صدر أمه كما لو أن قلبه يطاوعه على تركها وحيدة دون سلوان لدقيقة، لكن ما تركها إلا كي يتولى الأمور الضرورية، تلك الأمور التي تتعلق بالحياة والموت، تلك الأمور التي هو، هو وحسب، الابن،

رجل العائلة، من أبوه المسكين قاب قوسين أو أدنى من القبر، هو الأقدر على القيام بها. وكل مرة، ما كان ليجد شيئًا يقوم به سوى انتظار الطبيب. فقد أعطوا أباه الدواء الذي منحه إياهم الطبيب كي يداووه به، وأسقوه الكثير من كؤوس الشاي بالزنجبيل الذي قال الطبيب أنه لن يضره بشيء، حدَّ قررت أمه ألا يسقوه المزيد منها. كان أبوه مطرق الرأس؛ كل قدم ملفوفة بفلانيلة من الحجارة الحارة، وأمه أبقت الجميع، عداها هي، بعيدًا في الزاوية المضاءة من الغرفة، لا تسمح سوى بزيارات قصيرة إلى الفراش. ما كان هناك من شيء يفعله، من شيء يتولى القيام به، وكل مرةٍ تأرجح فيها رالف بعيدًا عن صدر أمه في هالةٍ من السلطة البطولية فلا يجد أمامه سوى هذا العجز، شعر كما لو أنَّ أحدهم للتو أزاح الكرسي من أسفله، على مرأىً من الجميع، ويعود الخاطر يئز صدره أنَّ نارًا مستعرة ستشب فيه ويموت إن لم يحظ بكأسٍ أخرى. نهض قائلًا، «إعذروني»، مرةً واحدة في تلك النبرة المخنوقة والحييّة التي يفترض بها أن توحي إلى النساء أنه ذاهبٌ إلى إفراغ مثانته، وهذه المرة عبَّ جرعةً كبيرة، وبدخوله الغرفة وجد أنه ما عاد يكترث إن كانت عيونهم تتفرس فيه أم لا، أو إن خمنوا حتى السبب الحقيقي وراء خروجه؛ ما همه بشيء أن يتناول اللحظة القارورة من جيبه ويلوح بها أمام وجوههم. وقبل أن يمر وقتٌ منطقي على معاودة استئذانه لذات السبب وجد نفسه أشد ظمأً من ذي قبل. وأدرك أيضًا أنه قد ثمل. اعتراه خزيٌ مريرٌ من نفسه، أن يثمل في وقتٍ عصيبٍ كهذا، عند فراش موت أبيه، في الوقت الذي أمه في أمس الحاجة

إليه، أكثر من أي وقتٍ مضى؛ فهو مدركٌ، إذ تعلم بالتجربة أن يأخذ بكلام الناس حول ذلك، أنه متى ما ثمل فلا نفع منه البتة. وها هو، فوق كل هذا، يسمح لهذا الظمأ الشديد أن يستحوذ كليًا عليه. وبكل ما يملك من عزمٍ وتصميم راح يشد على نفسه. بحق الرب، ستقدر على لم شتات نفسك. بحق الرب، أو... بحق الرب، ستقدر. ستقدر. وفجأة نهض عن كرسيه وسار عبرهم في استقامة نحو العتمة ورشَّ وجهه وعنقه بالماء. وخطر له، حينها، أن بيده أن يختلس جرعة، جرعة صغيرة فقط، يلم بها شتات نفسه. لعن نفسه ورشَّ وجهه بالماء ثانيةً، وبمنديله جفف نفسه جيدًا قبل أن يعود داخلًا. وإذ يدرك ما يجول في ظن الجميع، أن وهلتيَّ الصمت لا بد تعنيان جرعتين إضافيتين. وقابل ظنهم هذا بابتسامة ازدراء. بحق الرب، هو خيرٌ من أن يتصرف هكذا! تخيل نفسه يمتلك قوةً بدنية عظيمة، وفي غمرة شعوره بالقوة فظمأ كهذا ليس سوى اللذع في شراب البنش، طعمٌ يمتعك ويصبرك على الاحتمال. لكن سرعان ما داهمه الظمأ أشدَّ شراسةً من ذي قبل، مثل ألمٍ مبرح لا يطاق. لا، بحق الرب لا، عاد يردد في نفسه. لكن نفسه عادت تراوده. إن كانوا سلفًا يظنون أنه اختلس جرعة -بل جرعتين- فألا يدين لنفسه بتلك الجرعتين. بل حتى ثلاث: والثالثة، لأنهم أخطؤوا تفسير ابتسامة ازدرائه إيَّاهم على اتهامه ظلمًا وظنوها دلالة ثمالته الوقحة. في نهاية المطاف، هو يريد أن يكون ثملًا، لكنه كبح رغبته هذه كرمى لهم. لكن إن كان سيلام على شربه في كل الأحوال، فما النفع من حرمانه نفسه ما تريد. كذلك، إن أخذ حذره فبيده

السيطرة على نفسه مثله مثل أي رجل صاحٍ. وسيريهم. لكن ما كان بالأمر الهين، التفكير في عذرٍ يبرر خروجه. فعذر التبول لن ينفعه قبل مضي وقتٍ طويل. ولا رشرشة وجهه بالماء. وإذ بخزي مروع يلقي بثقله عليه. لا، بحق الرب لا، لن يجلس عند فراش موت أبيه يدبر حيلةً يختلس بها جرعة، مع أمه تنظر إليه، تعرف بما يجول في عقله، ولا تنطق بكلمة. بحق الرب، لن يفعل! وقرر أن يلم شتات نفسه ويطرد من عقله كل شيء عدا أبيه، ليس الأب الذي يخشاه، أو يسعى إلى نيل رضاه، أو يتمنى له الموت، بل الأب الراقد هكذا على الفراش، عجوزًا ومنكسرًا، مطروحًا على قارعة الطريق في نهاية الدرب، أجل سيدي، الجذوة في قلبه تخمد؛ وفي وهلة انفجر بالبكاء، يتحدث عن أبيه في نشيجه، وسرعان ما أدرك أنه عثر على خطة خروجه من هنا. صراعه ضد هذا الإغواء، هذا الهاجس المتكرر «لا نفع مني»، و«أنا الابن الأقل حظوة لديه، لكني الابن الأكثر رعايةً له»، وأصوات النسوة يحاولن تهدئته، إسكاته، زاد من فيض دموعه، من حدة عواطفه، وإسهابه، وفي وقت قصير أدرك النفع في نحيبه هذا، وما توانى عن استغلاله. مع بلوغه النهاية كان قد استنزف كل عواطفه الحقيقية وراح يحت الفتات، يخز نفسه ويعذبها لعله يستثير فيها ما يكفي من عاطفة، الدليل الدامغ على الانهيار العصبي الذي يوشك على الوقوع ولا يريد لأحد أن يُبتلى به، ومع مرور وقت قليل شعر بأنه قد حقق اللحظة المطلوبة، وهرع رأسًا خارج الغرفة، يكاد يصطدم بزوجته في كرسيها الهزاز. لحظة وجد نفسه خارجًا كانت كل المشاعر قد تلاشت أمام سطوة ظمئه

الضاري. استند بظهره إلى حائط الكوخ، نزع سدادة القارورة، ولف شفتيه حول فمها بنهم مثلما يلثم الرضيع الجائع حلمة أمه، وأمالها رأسًا.

لا!!!!؛ وبعنفٍ شديد ضرب صدغه بحائط البيت، يتأوه باكيًا، بالكاد يحافظ على اتزانه، وقذف بالقارورة أبعد ما يكون عنه. راح ينوح «*أوه إلهي! إلهي! إلهي! إلهي!*»، الدموع المنهمرة تحك وجنتيه. *أحمق! أحمق! أحمق! أحمق!* لماذا لم يحرص على التأكد قبل مغادرته المكتب؟ ما كان قد تبقى فيها أصلًا سوى جرعة ضئيلة.

وبمنديله راح يربت على رأسه وانسل مترنحًا نحو ضوء المصباح. دم، حسنٌ. تملكه الغثيان. عاد يربت على رأسه. ليس بالكثير. ربَّت مرةً أخرى؛ وأخرى. على الأقل لا يسيل. أخذ نفسًا عميقًا ومضى عائدًا إلى الغرفة.

«تعثرت»، دخل قائلًا. «لا شيء يذكر».

لكن، ومع ذلك، سالي هبَّت نحوه، أمه هبَّت نحوه، وكلتاهما راحتا تتفحصان جرحه، متظاهرتين بأن لا غرابة في التعثر على فناءٍ طينيٍّ ومستوٍ، وحين اتفقتا على أنَّها بالفعل رضةٌ بالغة لكن لا تحتاج إلى مزيدٍ من العناية، شعر فجأة بالحزن، صغيرًا مثل طفل، وليته كان طفلًا.

غضبه ويأسه وصدمة الضربة على رأسه هدَّأت من روعه وصحَّته من ثمالته حدًّا تجاوز معها كرهه لنفسه. إحساسٌ من الرقة وصفاء الذهن اعتراه. الحزن فيه راح يكبر ويكبر وما عاد

مشكوكًا في سببه، ولأول مرةٍ في ذاك المساء، مرة من المرات القليلة في حياته، بدأ يبصر الأمور على حقيقتها. أجل، على الفراش هناك، خلف المصباح المظلل بعناية، يتأوه بين الآن والآن، أنفاسه الراجفة مضطربة كما لو أنَّ الأسى الذي أصابها لا منازعة الموت، أبوه، أبوه هو، يدنو من ساعته الأخيرة؛ وأمه، أمه هو، تجلس هناك في هدوءٍ وصبر، بكل قوةٍ وعزيمة. ولربما لا وجود لأي شخصٍ في العالم يفوقها قوة حتى تجد فيه السلوان. وهو؟ أجل، هو هنا، على قلة نفعه، وهو الابن الوحيد هنا. لكن أين الفضيلة في حضوره؛ هو وحسب الابن الوحيد الذي يعيش على مقربة كفاية من أبويه. وهو يعيش على هذه المقربة الشديدة لأنه يفتقر إلى الشجاعة، إلى الذكاء، إلى الحيوية، إلى الاستقلالية. هي ذي: الاستقلالية. هو من يحتاج أن يكون دومًا على مقربة. هو من يحتاج إلى الشعور بدعمهما، برفقتهما، قريبًا قريبًا منه. هو من يعيش حياته، يومًا ليوم، على ذات الأمل، أنَّ بوجوده على مقربة، بتوفره دومًا لمد يد العون متى ما احتاجا إليها، بإظهاره الدائم محبته لهما، فلربما، في نهاية المطاف، سيظفر برضاهما عنه، باحترامهما. لا يتذكر نفَسًا استنشقه وهو صاحٍ استنشقه طوعًا من حر إرادته، يقول في نفسه، لا أكترث البتة لما يظنه أحدهم فيني، هو ذا *أنا* وهكذا أعيش حياتي. كل فعل، كل حركة، كل نبرة، أبداها في حياته إنما تأتت من الفكرة المسيطرة على كيانه، ما الذي يجدر بي فعله كي أترك انطباعًا جيدًا لدى الآخرين. في عبوديته الخانعة لرهبته هذه، رأي الآخرين به، لهو عبدٌ مهانٌ أكثر من أي زنجي استعبد جسده القيد. أما شخصيته المتهورة واللئيمة متى ما ثمل،

فهو أدرى الناس أنَّ لا خير فيها، لا خير فيها على الإطلاق. حتى أنها ليست بحقيقية. هي ما تمنى أن يكون عليه، وليس حتى هذا، إذ ليس التهور ما تمناه، بل تمنى الشجاعة، وشتان ما بين الاثنين، ولم يكن قصده التصرف بلؤم بل التحلي بالكبرياء، وأيضًا شتان ما بين الاثنين. وما أسوأ ما في الأمر؟ أسوأ ما في الأمر أنَّ بين دهرٍ ودهر يحدث أن يبصر نفسه على حقيقتها، فيوشك أن يصدق، أنه الآن وقد رأى نفسه على ما هي حقًّا عليه، فسيكون بيده أن يتغير، وكل ما يتطلبه التغيير هو صفاء الذهن، والصبر، وشجاعة القلب؛ وفي الوقت ذاته كان سيدرك أنه لا يملك شيئًا بيده فعله كي يتغير؛ أنه أبدًا لن يتغير، إلا إلى الأسوأ؛ أنَّ لا ذرة من صفاء الذهن ولا الصبر ولا شجاعة القلب ستبقى معه لحظةً أطول مما يتطلبه الأمر (وحتى ذاك الخاطر كان كافيًا كي يثير الرجفة فيه من جديد) كي يتسنى له، مرةً بين دهرٍ ودهر، أن يجلس ساكنًا ويبصر نفسه على حقيقتها. هو رجلٌ واهنٌ وضعيف: هذا ما رآه، جليًّا أمام عينيه. لا نفع منه البتة. غير مكتمل على نحوٍ ما، مثل دجاجة فقست عن بيضتها مع عنقٍ ملتوٍ، وكبرت على هذه الحال. مثل صغيره المسكين جيم-ويلسون، من فيه يرى الضعف ذاته، في عينيه الشاحبتين الصغيرتين، في تشبثه بسالي، في رعبه من أبيه متى ما كان سكيرًا أو متى ما راح يمازحه، عيناه دومًا على حافة البكاء. ليتني ما أنجبت طفلًا، قال رالف في نفسه. ليت أبي ما أنجبني.

والآن، جالسًا ينظر إلى نفسه، فلا هو احتقرها ولا أشفق عليها، ولا لام الآخرين على أي شعور يحملونه تجاهه. كان مدركًا

أنهم على الأرجح لا يسيئون الظن به، لا يرونه لئيمًا يثير الازدراء على القدر الذي ينزع هو إلى تخيله. كان مدركًا أنه يستحيل عليه معرفة ما يظنونه به حقًا، نزعته المتطرفة إلى الاعتقاد بأنه يعرف ما يجول في خواطرهم ليست سوى حلم آخر من أحلامه. مع ذلك، كان موقنًا، أنَّ أيًا يكن ما يجول في خواطرهم، فلا يعقل أن يكون جيدًا إلى هذا الحد. إذ لا حصلة فيه تستحق الثناء إلى هذا الحد. لكنه أحسَّ أيضًا، بأنَّ أيًا يكن ما يظنونه به، فهم محقون بظنهم هذا، مثلما هو واثقٌ بأنه ما كان يومًا محقًّا بظنه عنهم. يعرف بأنه مخطئٌ بشأن أمه. واللحظة، ما من ريبٍ في قلبه، أنَّ أمه صدقًا تحبه، أنها ما كفَّت يومًا عن حبه، وأبدًا لن تكف عن حبه. حتى أنه يعرف أنها تخصه هو بالحنان، أنها تحبه على نحوٍ لا تحب به أحدًا سواه. ويعرف لماذا غالبًا يهيأ له أنها لا تحبه. لأنها معظم الوقت تشفق عليه، أنها أبدًا ما كنَّت، وأبدًا لن تكنَّ، أي احترامٍ له. والاحترام هو ما يحتاج، أضعاف أضعاف حاجته إلى الحب. أن تعيش حياتك دونما قلق يساورك حول احترام الناس لك. دونما إحساس يراودك بأنَّ الناس تتصرف معك بلطف شفقةً عليك، أو خوفًا منك. نظر إلى سالي. الفتاة المسكينة. خائفة مني. هي ذي سالي، والذنب كله ذنبي. كل ذرة فيها هو ذنبي. وكم أمقتها على رغبتها في رجال آخرين، بينما أنا واثقٌ تمامًا بأنَّ فكرة الخيانة ما خطرت لها ولا حتى مرة، بينما أنا أسوأ زيرٍ في لافوليت ونصف البلدة تعرف ذلك، وسالي أيضًا تعرف ذلك، وهي الأخرى حنونة القلب عليَّ ومرعوبةٌ مني حدًّا يمنعها عن توبيخي. وأجل، يجب عليَّ فعل شيء، على الأقل يجب

عليَّ فعل شيء تجاهها. أي رجلٍ بيده أن يفعل ذلك. عدا أني لست برجل. فكيف لي إذن أن أتوقع من الناس أن تتطلع إليَّ، أو على الأقل ألا تنظر بازدراء إليَّ؟ الناس طيبون معي، بل أكثر من طيبين. أكثر من طيبين، إن عرفوني يومًا على حقيقتي.

وها هي الليلة تأتي حاملةً معها الامتحان، التجربة، الساعة التي يتسنى فيها للرجل أن يظهر معدنه، أن يمد يد العون، ويكفيه في هذا أن يكون رجلًا يتصرف كما الرجال. لكني لست برجل، قال رالف في نفسه. أنا طفل. رالف هو الطفل. رالف هو الطفل.

الفصل السابع

هانا لينش قررت، ذاك النهار، أنها ستذهب إلى التسوق، وإن أراد روفس الذهاب، فستود اصطحابه برفقتها. اتصلت بوالدة روفس كي تسألها إن كان لديها خطط أخرى لروفس قد تتعارض مع ذهابه برفقتها، وماري أجابت بِـ لا؛ سألت ماري إن كانت، على حد علمها، تعرف إنْ كان روفس قد خطط للقيام بشيءٍ آخر، وماري، من فوجئت قليلًا بسؤالها، أجابت بِـ لا، ليس على حد علمها، وسواء كانت لديه خطط مسبقة أم لا، فهي على يقين أنه سيسعد بالذهاب إلى السوق برفقتها. هانا، في هبَّة غضب، كادت تستسلم لحميَّتها وتخبرها بألا تقرر نيابة عن طفليها، إلا أنها أمسكت لسانها وقالت، بدلًا من ذلك، حسنٌ، سنرى، وأنها ستأتي وقت عودته من المدرسة. وفورًا ماري أجابتها بألا داعي لها أن تأتي -مع رغبتها الشديدة برؤيتها، بالطبع- ويستحسن أن يذهب روفس إليها. هانا، من قررت ألا تعطي الموضوع أكبر من حجمه، أجابت بألا بأس، وأنها ستنتظر قدومه، لكن بشرط أن يأتي طوعًا لا

كرهًا، فقط إن رغب حقًّا بمرافقتها. وماري أجابت في نبرةٍ حنونة أنه بالطبع سيرغب بالذهاب، وهانا مرةً أخرى أجابت، في نبرة أقل حدة، «سنرى؛ ليس بالأمر المهم»، والآن، بانتقالها إلى موضوع آخر، سألت، «هل وصلك أي خبر من جاي؟».

إذ أنَّ ماري كانت قد اتصلت بأبيها، ذاك الصباح، كي تشرح له لماذا جاي لن يتواجد اليوم في المكتب. «كلا»، قالت ماري، في نبرة شبه دفاعية، إذ استشعرت في سؤالها انتقادًا ضمنيًّا؛ وكلا، لا تتوقع أن يصلها خبرٌ منه إلا إذا بالطبع...

«بالطبع»، أجابت هانا بسرعة (إذ لم تنوِ في سؤالها أيَّ انتقاد)، «لا داعي إذن إلى القلق».

«لا، لا داعي، أنا متأكدة أنه كان سيتصل لو أن أباه - حتى لو كان في خطرٍ محدق».

«بالطبع كان سيتصل»، أجابتها هانا. هل من شيء تود ماري إحضاره لها؟ فلنرَ، قالت ماري في نبرةٍ مبهمة؛ حسنٌ، آه .. وخطر لها أن كاثرين في حاجة إلى بلوزة جديدة وأنها - لكن فجأة تذكرت، أيضًا، كم من الصعب أحيانًا إقناع عمتها بتقبل المال، أو تسجيله على الحساب، مقابل ما تشتريه لها؛ فكذبت، محرجة بعض الشيء، أوه، لا، شكرًا لك كثيرًا، غباءٌ مني لكن لا يخطر شيءٌ على بالي الآن. لا بأس، قالت هانا، مراعيةً شعورها بالإحراج، وعقدت العزم في نفسها أن تحرص ألا تحرجها إلى هذا الحد في المرات القادمة (لكن، في نهاية المطاف، ما الخطب في منح

هدايا صغيرة بين الوقت والآخر، علام هذا الكبرياء السخيف؟) حسنٌ، لا عليك؛ سأنتظر في البيت حتى الساعة الثالثة، وإن كان لدى روفس خطط أخرى فرجاءً أعلميني. حسنٌ، عمتي هانا، لطفٌ بالغٌ منك دعوته إلى مرافقتك. ليس لطفًا بالمرة، أنا وحسب *أحب* الذهاب إلى التسوق برفقته. لطفٌ غامر منك عمتي وأنا متأكدة أنه هو الآخر يحب التسوق برفقتك. ربما. بل أكيد عمتي. حسنٌ، حسنٌ؛ إلى اللقاء. ستبلغينا متى ما سمعت خبرًا من جاي؟ أوه بالطبع. فور أن يتصل. وإن كنت لا أتوقعه سيتصل، إذ على الأرجح سيصل هنا وقت العشاء، أو بعد العشاء بقليل. كان واثقًا بأنه سيأتي في هذا الوقت -إن -إن سار كل شيء على ما يرام، نسبيًّا على ما يرام. حسنٌ، حسنٌ، إلى اللقاء. إلى اللقاء. *إلى اللقاء*، صوت ماري يتلاشى، عذبًا، في المدى.

«جاي؟» نادى آندرو من أعلى الدرابزين.

«لا، كنت أتحدث مع ماري»، قالت هانا. «لا أظن الوضع خطرًا إلى هذا الحد».

«فلنأمل ذلك»، قال آندرو ومضى عائدًا إلى رسم لوحته.

هانا راحت تستعد للتسوق في البلدة. وحين وصل روفس، لاهثًا منقطع الأنفاس، وجدها جالسة على أريكة صغيرة جَسِئة في غرفة المعيشة، حريصة كل الحرص ألا تجعد فستانها الأبيض الطويل المنقط بالأسود، مستغرقة بوقار في قراءة عدد من مجلة «ذا نايشن»، تحملها على بعد إصبع من نظارتها السميكة.

«أوه أهلًا»، قالت مبتسمة ما إن رأته، وفورًا وضعت المجلة جانبًا. «لم تهدر أي وقت»، (بل أهدر؛ فأمه أجبرته على الاستحمام وتبديل ملابسه) «كذلك» (تحدق إليه عن قرب بينما يهرع إليها) «تبدو أنيقًا جدًا. لكن ما بالك تلهث. هل أردت فعلًا القدوم إلى هنا؟».

«أوه، أجل» أجابها، في صوته أثرٌ من زيف، إذ حذرته أمه أن عليه أن يقنعها برغبته في مرافقتها «أنا سعيدٌ جدًا، عمتي هانا، وشكرًا جزيلًا لك على دعوتي إلى مرافقتك».

«هه...» فهي تعرف التلقين متى ما سمعته، لكنها اقتنعت، رغم تلك الكلمات الزائفة، أنه حقًا سعيدٌ بالذهاب معها. «لطيفٌ منك قول هذا»، قالت له. «حسنٌ، فلنمضِ إذن». تناولت قبعتها القش السوداء اليابسة من حيث تركتها على الأريكة جانبها وروفس لحق بها صوب المرآة في الردهة المظلمة ووقف يتأملها تخز الدبوس بعناية. «مظلمٌ مثل أحشاء بقرة»، دمدمت في نفسها، أرنبة أنفها تكاد تلاصق صفحة المرآة القاتمة، «كما يقول جدك». وروفس حاول تخيُّل أحشاء البقرة، وكيف سيكون الوضع عليه داخلها. بالتأكيد سيكون المكان مظلمًا، ولكان مظلمًا داخل أي شخص وأي شيء، فلماذا البقرة بالذات؟ ومن آخر الردهة حيث الضوء خافت أقبلت جدته نحوهما ببصرها الضعيف آتية من غرفة الطعام، تعلو وجهها ابتسامتها الاجتماعية المتكلفة، حتى مع ظنها بأنها وحدها، والصبي الصغير وعمته الكبرى بسرعة تنحيا جانبًا، لكن ليس بما يكفي، إذ اصطدمت بهما، وشهقت مذعورة.

«مرحبًا نانا، هذا أنا»، صاح روفس بحدة، وعمته هانا مالت نحو أذنها الجيدة تقول في صوتٍ عالٍ، «كاثرين؛ لا بأس، هذا أنا وروفس»؛ كل منهما راح يربت عليها بيدٍ مطمئِنَة؛ ومن الأعلى سمع روفس آندرو يطلق صيحةً مدوية، «أوه إلهي!»؛ لكن جدته، والتي اعتادت على لحظات الذعر هذه، سرعان ما استعادت توازنها، وضحكت ضحكتها الرنانة الأنيقة (والتي بدأت تهرم هي الأخرى) بروحٍ رياضية، وهتفت، «يا لطيف! قد أفزعتماني!» وعاودت الضحك. «وها هو صغيري روفس!» ومالت منحنية الظهر نحوه، تبتسم بعينيها التالفتين، المرحتين، تقرص مداعِبةً وجنتيه الصغيرتين.

«إذن أنتِ مستعدة للذهاب!» قالت لهانا مبتهجة.

وهانا أومأت برأسها على نحوٍ جليٍّ ومالت مرة أخرى نحو أذنها الجيدة، وصاحت، «أجل؛ على أتم الاستعداد!».

«استمتعي عزيزتي، وأنت، تعال امنح نانا حضنًا كبيرًا»، وحضنته بشدة، «مم؛ مم؛ يا لك من صبيٍّ لذيذ»، تصفع ظهره بحماس.

«إلى اللقاء»، هتفا عاليًا.

«إلى اللقاء»، ودعتهما مشرقة الوجه، ترافقهما حتى الباب.

ركبا عربة الترام وانطلقا إلى شارع غاي. متى ما كان برفقتها لا يعيش ذات الجلبة أو التلكؤ الذي اعتاد عليه مع أي امرأة أخرى يعرفها؛ لا شيء من الطقوس التي تمارسها جدته في تسوقها

المتكلف؛ ولا شيء من التعجل والرفض المرتبك للتسوق بحكمة، والذي يراه في تسوق الرجال. هانا تشق طريقها عبر الأرصفة المزدحمة وممرات المتاجر المكتظة في نشوةٍ هادئة. فالتسوق في عينيها ما فقد يومًا سحره وفتنته. تستعد ذهنيًّا ومزاجيًّا له بالعناية ذاتها التي توليها للملابسها التي ترتديها لأجله، وروفس نادرًا ما رآها مجبرة على الاستعانة بقائمة تسوق حتى إن كانت في مهمة تسوق متعددة لأجل شراء احتياجات الآخرين. ومثلما هي شحيحة في احتياجاتها، هي شحيحة في ذوقها الشخصي؛ ملابس بسيطة، أمتارٌ من الشرائط السوداء أو البيضاء، أبازيم بالغة الصغر حدًّا يصعب التعامل معها، تخريمٌ ضيق، ياردات من القماش القطني، أحيانًا أبيض وأحيانًا أسود، وبين الآن والآخر زوجٌ من الجوارب القطنية السوداء. لكن متى ما تعلق الأمر بالآخرين فالتسوق سيغدو حينها مهمة مرفهة وممتعة، وحتى إن لم يكن هناك من طلبات، كانت ستتفحص البضائع المترفة والتي لا نية لها بشرائها، تتفحصها بكل مهارة، حريصة كل الحرص ألا تزعج البائع، وألا تترك شيئًا لمسته مبعثرًا، تحدق إلى الغرض بعينيها الضعيفتين مثل عين الصائغ خلف عدسته، فتطلق لعنة خافتة إما سخرية وإما إعجابًا. ومتى ما عزمت على الشراء، أمسكت بالبائع وأدارت الصفقة بأكملها بمنتهى الكياسة والفعالية؛ وهكذا، من بعدها، سيزدري روفس كل امرأة -عداها- رآها تتسوق في حياته. روفس، في غضون ذلك، أعار القليل من الانتباه إلى ما كانت تقول وتشتري؛ الكلمات مرَّت عابرة من أعلاه، بالكاد تزخرف العالم الذي يحدق إليه بالاندهاش

ذاته الذي يتملَّك عمته؛ وأشد ما كان يسلب انتباهه قرقعة السلال السلكية المتدافعة والمحمولة على عربات الترولي الصغيرة، تحمل في غدوِّها ورواحها بضائع مغلفة وغير مغلفة، وأسطوانات جلدية ملأى بالنقود. متى ما تسوق مع أي شخصٍ آخر، فالملل كان حتمًا سيصيبه، لكن هانا تتسوق مثلما يجول العاشق الحقيقي للوحات في معرضٍ فني؛ وسعادتها هذه تصفِّي عيني روفس وتحفزه على رؤية عالم السوق بمنتهى الصفاء والبهجة. لو كان مع أمه أو جدته لبدت الشريطة المتدلية من عنق البائعة وإضبارة ورق الكربون حيث تدون المشتريات نزقة وخرقاء، لكن إن حدث وكان برفقة عمته، لبدت كل من الشريطة والإضبارة أداة فاتنة تنم عن مهارة استثنائية. أما ربات البيوت اللواتي يعكرن أجواء المتجر بجلبتهن وحماقتهن لبدون بحرًا عاصفًا، تبحر عمته في لجحه الهائجة بمنتهى البراعة. ما كان من عادتها تبادل الكثير من الحديث معه، ولا كانت ستقلق بشأنه، ولا كان روفس ميالًا إلى الابتعاد عن مجال بصرها الضعيف، إذ استمتع كثيرًا برفقتها، فمن بين كل البالغين في حياته، هي الأكثر مراعاةً له. فدومًا كانت ستتذكر، كل عشر دقائق، سؤاله بلباقة إن كان متعبًا، لكنه نادرًا ما تعب برفقتها؛ فمعها ما شعر يومًا بالإحراج لدى قوله إنه مضطرٌ إلى الذهاب إلى الحمام، إذ ولا مرة بدت منزعجة من تصريحه هذا، وبالنتيجة قليلًا ما راوده هذا الاحتياج لدى خروجه برفقتها في رحلاتهما إلى وسط البلدة. واليوم، ابتاعت هانا قليلًا من الأشياء البسيطة جدًّا لنفسها وأشياء أخرى أعقد تفصيلًا وزخرفة لزوجة أخيها، ووشاحًا شفافًا جميلًا موشى بالزهور هديةً لماري في

عيد ميلادها، المفاجأة التي حرصت أن يرافقها روفس لاقتنائها معها؛ من ثم، في متجر الفنون، استعلمت إن كان كتاب «قواعد الزخرفة»[1] قد وصل أم لا. لكن حين أروها الكتاب المذهل في ضخامته وألوانه، هتفت ضاحكة، «يا لطيف! هذا ليس بكتاب قواعد، هذي الموسوعة بأكملها»، والبائعة ضحكت في كياسة، وقالت هانا إنها تخشى أنه أكبر من قدرتها على حمله؛ وأنها تود أن يرسلوه إلى بيتها. لكن فلتحرص أنها هي شخصيًّا من تستلمه، وألا يتأخر التوصيل عن تاريخ الحادي والعشرين من مايو، أي بعد ثلاثة أيام من الآن، فهل لها أن تتأكد من ذلك. كلا، قاطعت نفسها، في لحظة نادرة من الارتباك وتغيير قرارها، *لن ينفع*. وشرحت قرارها هذا لروفس في جملةٍ اعتراضية، «افترض أنَّ حادثًا وقع، وخالك آندرو رأى الكتاب قبل أوانه!» وبعد لحظة تريث، عادت وأردفت، «هل تظن أنَّ باستطاعتك مساعدتي في حمل رزم أكثر؟» وهو أجابها بكل فخر *إي نعم*. «إذن سنأخذ الكتاب معنا الآن»، قالت عمته للبائعة، وبعد اختبار توزيع الرزم المختلفة بينهما بعناية، عادا مرةً أخرى إلى الشارع. وهناك عرضت عليه عمته هانا عرضًا أذهله وغمره بالامتنان. استدارت إليه قائلة، «والآن إن كنت ترغب في ذلك، أود أن أشتري لك قبعة».

عرضها ربط لسانه؛ واحمرَّ وجهه خجلًا. عينا عمته لم تبصرا الاحمرار على وجنتيه لكن صمته أربكها؛ إذ اعتقدت أن عرضها

---

(1) Grammar of Ornament: by Owen Jones

سيسعده جدًا. ومع أنها كانت منزعجة من نفسها، لكن ما كان بيدها إلا أن تشعر قليلًا بالاستياء.

«أو هل تراك تفضل شيئًا آخر؟» سألته في صوتٍ رقيقٍ أكثر من المعتاد.

صدره انشرح أيما انشراح. «*أوه، كلا!*» هتف في حماسٍ عارم. «*أوه، كلا!*».

«حسنٌ إذن، لنرى ما بيدنا فعله»، قالت له، وقد اطمأن قلبها؛ لكن فجأة ساورها الشك في وجود شيءٍ آخر خلف لحظة التردد الطويلة، الإنكار المتعجل، وحماسة الطفل للقبعة. تساءلت إن كان سيفصح لها عنه - إن كان سيحاول، على نحوٍ جبان أو حتى متملق، أن «يصدق» معها حول كره أمه لفكرة القبعة (أصلًا يفترض به أن يكون صادقًا، على الدوام) أو يثبت إدراكه لعواقب الأمور، فيحاول تحذيرها من أن بشرائها القبعة له، فهي تخاطر بإثارة استياء أمه؛ وإذ ذاك أدركت أن عليها أن تحرص ألا تؤلبه على أمه. انتظرته، الفضول يعتريها إن كان سيقول شيئًا، وحين لم يجد الكلمات، قالت له، «لا تقلق بشأن مار.. ـ بشأن أمك. أنا واثقة بأنها لو عرفت *حقًا* بمدى رغبتك الشديدة في القبعة، لكانت أحضرتها لك منذ وقتٍ طويل».

صوتٌ صغيرٌ مهذبٌ ومحرَج هو كل ما سمعته منه، فأدركت، والندم يساورها، أنها لم تحسن التعامل مع هذا الوضع. لكن، ومع ذلك، ما كان لديها من أي نية على الإطلاق في العودة عن عرضها،

لذا زمَّت شفتيها، وبفطرتها المذهلة اجتازت به متجر ميلر للأمهات والأطفال حيث تتسوق والدة روفس على الدوام وتشتري أفضل الثياب، الثياب التي، في أفضل الأحوال، هي الخيار الثاني لدى روفس، وساقته نحو شارع السوق الرئيس حيث متجر هاربسون، والذي يبيع حصريًّا ملابس الرجال والفتيان، والذي تصفه أمه، كما سمعها روفس صدفةً، بـ«الرياضي»، «الخشن»، و«السوقي». وفعلًا كان عالمًا غريبًا على النساء؛ فرجالٌ غير مهذبين أداروا رؤوسهم وراحوا يحدقون إلى العانس والصبي المشدوه مشرق الأسارير؛ لكنها كانت عمياء إلى الحد الذي لم تعِ معه نظرات أولاء الرجال، وهكذا، مبحرة بكل رشاقة، وجدت طريقها نحو أقرب رجلٍ بدا لها بائعًا (ما كان مرتديًا قبعة) وسألت بلباقة، بلا أي إحراج، «هلا دللتني رجاءً إلى مكان القبعات، سأشتري واحدة لابن أخي». والرجل مرتبكًا، لكن بكياسة، عثر على بائعٍ لها، والبائع صحبهما إلى زاوية معتمة نهاية المتجر. «حسنٌ، انظر وتخيَّر»، قالت العمة هانا؛ ومرةً أخرى، وقف الولد مذهولًا. وفي ألمٍ شديد، استسلم في خياره الأول إلى النمط المحافظ، والعمة هانا التقطت رائحة الخوف والنفاق في خياره هذا، وقالت بتأنٍّ، «قبعةٌ جيدة، لكن فلنرَ غيرها أولًا». فهي رأت نسيج القبعة القاتم المتكلف، وغياب الحافة عنه، والذي بالتأكيد كان سيسعد ماري، لكن هانا ما كانت ستفصح عن رأيها هذا أمامه؛ وحين أدرك روفس أنها فعلًا لن تتدخل في اختياره، فاجأها بذوقه. ظل على حذره في تفحصه الخيارات أمامه، لا من باب التملق لها، بل من باب الكياسة، لكن كان واضحًا لها أنَّ قلبه قد استقر على قبعة

صوفية مبهرجة ذي تربيعات من الأخضر الزمردي، الأصفر الفاقع، الأسود والأبيض، ناتئة عن جانبيه بعدة بوصات أعلى أذنيه مع حافةٍ مقوسة كما المجرفة وكبيرة حدًّا تكاد تخفي وجهه خلفها. كانت قبعةً رياضية، تأملتها متفكرة، حتى اللاعب الملون كان سيجدها صاخبة بعض الشيء، ومتألمةً راودها قلبها على التدخل. فماري ستنتابها نوبة غضب هستيري؛ جاي لن يمانع، لكن، خشيت أنه سيضحك وخاطر روفس سينكسر؛ حتى الأولاد في الحي كانوا سيهزؤون من القبعة عوضًا عن الإعجاب بها ـ وسيهزؤون منه أكثر وأكثر، أدركت بمرارة، إن أعجبوا *حقًّا* بها. كانت ستثير متاعب لا حصر لها، والولد المسكين نفسه كان سيندم عاجلًا على انتقائها. لكن ما كانت أبدًا لتتآمر عليه! «قبعةٌ جميلة»، قالت في أجف نبرة لها أن تستخدمها معه. «لكن فكر في الأمر، روفس. فكما تعرف، أنت سترتديها على أوقات طويلة، مع كل ملابسك المختلفة». لكن كان من المستحيل عليه أن يفكر في أي شيءٍ آخر عدا القبعة؛ حتى أنه تصورها كم ستبدو رجولية متى ما تعفّرت بالتراب. «أنت موقنٌ من إعجابك بها»، قالت له العمة هانا.

«أوه، أجل»، قال روفس.

«أكثر من هذه؟» تشير إلى القبعة القاتمة المتكلفة.

«أوه، أجل»، قال روفس، بالكاد يعيرها انتباهه.

«أو هذه؟» تحمل له في يدها قبعة ذات تربيعات بسيطة وحافة عريضة.

«هذه أكثر قبعةٍ أحبها!».

«حسنٌ إذن، وستحظى بها»، قالت العمة هانا، ومضت نحو البائع الرزين.

سائرًا في الظلمة، رأى النافذة المفتوحة. الستائر، موجة منفلقة، طويلة، قمتها المتصاعدة تمس ألواح الأرضية؛ شفافة، مطوية الثنايا، على حواف طياتها حلقاتٌ مطرزة في سلسلة، الغصون على ثناياها مموجة مثل الخطوط على صدف البحر، تخفق بهيجةً على ملمس الهواء العابر.

وحينما يمسها الضوء الكربوني المنبعث عن إنارة الشارع، تبيضُّ كما السكر. التوريق الفاخر الذي طرزته ماكينةٌ عليها تفشي بياضًا أسطع متى ما لامسها الضوء، وكل ما عداها يتجلى أسود على القماش المتهدل.

الضوء يلقي ظلال الأوراق المتحركة على الستائر، ومتى ما تحركت الستائر تحركت الظلال عليها وعلى الزجاج الأجرد بين الستائر.

وحينما يلامس الضوء الأوراق تبدت كما لو أنها تشتعل، أخضر لاذع. وكل ما عداها رماديٌّ داكن وإما مائلٌ إلى السواد. وأسفل كل ورقةٍ من تلك الآلاف المؤلفة من الأوراق شبه المتراصة ما من نورٍ يقيم، فقط ديجورٌ دامس. ودون أن تلامس إحداها الأخرى،

فتلك الأوراق ما تنفك ترفُّ، في صمت، مع سائر الشجرة تتحرك في منامها.

تلقاء نافذته هناك شجرة. وخلف هذه النافذة المفتوحة، أيضًا، ستائر تتحرك وعليها تتحرك ظلال الأوراق المبعثرة. وما وراء هذه الستائر وما وراء الزجاج الأجرد بين الستائر، الغرفة كانت مظلمة تمامًا مثل غرفته الآن.

وسمع ليلة الصيف.

كل الهواء يتذبذب على آخر صيحة مجهدة أطلقها الجراد، مثل قرع ناقوسٍ متلاشٍ. القوارن[1] تتصادم وتتحد؛ قاطرة التحويل تلهث متثاقلة الأنفاس. محرك أطومبيل يحتمل صابرًا زعيق اللعان على عدم كفاءته. طرق الحوافر، على مد الشارع الأجوف، يُرجِّع الإيقاع الواهن المرهق لراقصي القبقاب، وفي دوائر لا نهائية، العجلات الحديدية الضيقة تصرُّ خلفه. وعلى امتداد الأرصفة، في كعوب ماضية حادة، تجرجر أقدامها الجلدية، الجموع الشابة من الرجال والنساء تكرُّ وتفر.

كرسيٌّ هزاز يفشي لحنه المتكرر الضجر، مثل صفير رئةٍ معطوبة؛ مثل دندنة قيثار يهودٍ[2] هائل، مثل رنين سلسلة أرجوحة معلقة في شرفة.

---

(١) القوارن آلية الوصل التي تستخدم في ربط عربات القطار

(٢) «jew's-harp»: قيثار اليهود وهي آلة موسيقية شعبية

في مكانٍ ما، على مقربة جدًا، بين تلك البيوت، حميًا مع حفنةٍ من العشب الندي، جدجدٌ راح يصيء، وكأنما صداه يجيب نداءه.

منسحقة أسفل صيحات أفواه الرضَّع المنتصرة، صيحاتٍ تمزق الظلمة بشهبٍ من نار، أصواتُ الرجال والنساء على شرفاتهم احتكت مبتهجة بعضها ببعض، وفي الغرفة المجاورة لغرفته، مثل ضجيج كدح المرفاع حاملًا الأثقال ومثل صبِّ الماء المنعش في أعذب دفق، تناهت إليه أصوات الرجال والنساء المألوفين لديه. همهموا، وكوفئوا؛ رُفِعوا، وأُريقوا: ومتأملًا النوافذ، مصغيًا في قلب ناقوس الظلمة الشامخ، اضطجع في سلامٍ تام.

أيتها الظلمة، أيتها الظلمة الرقيقة.

أيا ظلمتي. أتسمعينني؟ آهٍ، هل أنت جوفاء، بكماء، لا شيء سوى أذنٍ واحدة مصغية؟

أيا ظلمتي. أترينني؟ آهٍ، هل أنت مستديرة، لا شيء سوى عينٍ حارسة؟

أيا ظلمتي الرقيقة. أيا أرقَّ، أرقَّ الليالي. أيا ظلمتي. ظلمتي العزيزة.

تحت ملاذك كل شيء يجيء ويمضي.

الأطفال عنيفون وبواسل، يركضون ويصرخون مثل الظافرين في انتصارات مستحيلة، لكن قبل أن يمضي وقتٌ طويل، مثلي أنا، سيودعون في نومٍ عميق.

وكل أولاء البالغين أقوياء القلوب فصيحو اللسان من لا تعوزهم مهارة في أداء واجب الخدمة والدفاع، قبل أن يمضي وقتٌ طويل، هم أيضًا، وقبل أن يمضي وقتٌ طويل، مثلي أنا، سيُحْملون إلى مضاجعهم نائمين.

ولتلك الساعةُ دانية، ساعة لا يستيقظ أحد. لا الجراد، ولا حتى الجداجد، كلها ستخلد إلى الصمت، مثل الغدران المتجمدة في ملاذك العظيم.

أسمع أبي؛ لا حاجة بي أبدًا إلى الخوف.

أسمع أمي؛ أبدًا لن أكون وحيدًا، وأبدًا لن يعوزني الحب.

متى ما جعت هما من سيطعمني؛ متى ما فزعت، هما من سيطمئنني.

متى ما ارتبكت أو ذهلت، هما من سيصير الوحل أسفل روحي أرضًا ثابتة:

فيها أودعت إيماني وثقتي.

متى ما مرضت، هما من سيرسل في طلب الطبيب؛ ومتى ما عوفيت وفرحت، ففي عينيها أعرف يقينًا أني محبوب؛ وعاليًا نحو ابتسامتها المشرقة أرفع قلبي وفي ضحكتها أعرف منتهى بهجتي.

أسمع أبي وأمي وهما عملاقاي، ملكي وملكتي، من لا أحد في هذا العالم يضاهيها حكمةً ولا مقامًا ولا شرفًا ولا شجاعةً ولا جمالًا.

لا حاجة بي أبدًا إلى الخوف: ولا سيأتي عليّ يومٌ أفتقر فيه إلى عطف محبتها.

وأولاء من يتبادلان معها أطراف الحديث في الغرفة أسفلي، من بابها ونورها يقفان منتصبين مثل عبدٍ حارس، مثل عمودٍ من ذهب، هما خالي الذكي وخالتي الفتيّة: لَمّا أزل في حاجة إلى معرفتهما جيدًا، لكنهما، وأبي وأمي، جميعهم مولعون بعضهم ببعض، وأنا أحبهم، وأعرف أنهم جميعًا يحبونني.

أسمع في سمَرِهم وضحكهم الرنة العذبة.

لكن قبل أن يمضي وقتٌ طويل، هما أيضًا سيرحلان والبيت سيخيم عليه الصمت وقبل أن يمضي وقتٌ طويل فالظلمة، بمنتهى رأفتها، ستصحب أبي وأمي وتودعهما، مثلما أُودِعْتُ أنا، إلى فراشهما كي يخلدا إلى نوم عميق.

كل يوم تقبلين مرةً علينا وأبدًا ما طلع الصباح مشرقًا إلا وأنتِ خلفه تقفين؛ أنتِ فوقنا، تغمرينا، طوال كل ليل. أنتِ من يحررنا من العمل، أنتِ من تجمعين العوائل المتفرقة والأصدقاء المتباعدين معًا، ولأمدٍ قصير شعورٌ من الحرية والسكون يعم الناس، والكل مطمئنٌ في رفقة الآخر؛ لكن قبل أن يمضي وقتٌ طويل، وقتٌ طويل، الكل سيخلد إلى الصمت والجمود.

وأسفل ملاذك، ملاذك العظيم، لا شيء سوى الديجور.

وعبر هذا الصمت الرهيب تسرين كما لو أنَّ لا أحد عداكِ تنفَّس يومًا، حَلِم يومًا، كان يومًا.

أيا ظلمتي، هل أنت وحيدة؟

فقط أصغي إليّ، وسأصغي أنا إليك.

فقط انظري إليّ، وسأنظر أنا إلى عينيك.

فقط كوني واعية إلى يقظتي، إلى إدراكي وجودك، فقط كوني صديقتي، وسأكون أنا صديقك.

لا حاجة بك أبدًا إلى الخوف؛ إلى أن تكوني وحيدة؛ أو تتوقي إلى الحب.

أسرّي إليّ بأسرارك؛ ثقي بي.

اقتربي مني. اقتربي مني أكثر.

والظلمة اقتربت، اقتربت منه حقًّا. دفنت عينيها في عين روح الطفل، قائلة:

تنفَّسَ يومًا، حَلِمَ يومًا، كان يومًا.

ومثلما في ليلةٍ عشواء، على بحرٍ معتدل، يعي البحّار وجود جبل جليدي، يعي نابه المميت يدنو منه خفية، فهكذا العدم، مأخوذًا بفتنة أنفاس الظلمة، كشف عن نفسه: هو الليل السرمدي حيث النجوم الهالكة منذ أجيال لا تساوي في سطوعها حتى ومضة بعوضة، حيث غيمها السديمي لهو أتفه من غمامة النَّفَس الدافئ في برد الشتاء؛ هو الظلمة حيث الأبدية محدودبة شاحبة، أفعى ميتة في برطمانٍ زجاجي، واللانهاية ليست سوى تلألؤ صعوٍ حذفته في البحر الرياح؛ هو الهوة السحيقة من الصمت المنيع التي

لا يتصورها عقلٌ ولا خيال، حيث المجرات الهوجاء تتصادم صمّاء بعضها ببعض مثل أحجار الكهرمان.

الظلمة قالت:

متى لقاؤنا، طفلي العزيز، وأين نحن، ومن أنت، من أنت، طفلي العزيز، هل تعرف من أنت طفلي، هل تعرف من أنت؛ هل أنت؟

وكان يعرف أنه أبدًا لن يعرف، فالذاكرة، يكاد يقبض عليها، عصيّةٌ على الاسترداد، تعذبه بهواجسها التي لا تطاق. كان يعرف أنَّ هذا الولد الصغير الذي يستوطن جسده ليس سوى أقسى صور الخداع. أنه لا شيء سوى اللاشيء في العدم، أنَّ خيانةً حكمت عليه بهذا المصير، وحكمت عليه بأن يعي العدم. وكان يعرف أنه حتى في تلك القفار، ما كان محرومًا من الرفاق. إذ على الهاوية، تتحرك منيعةً بلا ملامح، غرائزه الوحشية. ومن أعماق حلقوم الأبدية العريض، تخترق الزقزقة الباردة، الهاذية، لوحوش أندر من الوحوش النادرة، أقسى من الوحشية ذاتها.

الظلمة قالت:

تحت ملاذي: في ملاذي العظيم.

في الزاوية، يصعب تمييزه عن الظلمة، مخلوقٌ تضخَّم وراح يراقبه.

الظلمة قالت:

أنت تسمع الرجل الذي تدعوه أباك: فكيف لك أبدًا أن تخاف؟

أسفل المغسلة، بمنتهى الحذر، شيءٌ تحرك.

أنت تسمع المرأة التي تظنك طفلها.

أسفل رأسه الراقد، الأبدية شرعت أبوابها.

اسمعه كيف يضحك عليك؛ وبأي متعة تتفق هي معه.

الستارة تنهدت، قوىً لا توصف عبرت خلالها.

الظلمة خرخرت في سرور:

ما هذا التبدل الذي تفشيه عيناك؟

أليس قبل لحظةٍ وحسب، كنتُ صديقتك، أو كذا ادَّعيْت؛ علام إذن هذا الخسران المفاجئ للحب؟

أليس قبل لحظةٍ وحسب كنتَ متحمسًا أيما حماس لمعرفة أسراري؛ فأين جوعك النهم الآن؟

والآن، عزيزي، حلوي، ثبِّت نفسك: فاللحظة أزفت، والجوع والحب إلى الأبد سَيُشْبعان.

والظلمة، مبتسمة، مالت نحوه في حميمية، مشرِّعةً فمها الضخم، المسنَّن.

آآآه هه...!

طفلي، طفلي، علامك تخون حبي؟

اقترب مني، اقترب مني أكثر.

أأوووه...!

أمصرٌّ أن تكون شقيًّا؟ إذ سينفطر قلبي على اضطراري إلى إجبارك.

أنت تعرف أنَّ ليس بيدك أبدًا الفرار مني: أنت حتى لا تود الفرار مني.

لكن، في تلك اللحظة، الطفل انشقَّ إلى مخلوقين، ومخلوقٌ منهما راح يصرخ مناديًا أباه.

الظلال بقيت حيث تنتمي، وظلَّ هو مضطجعًا يرجف في دموعه. رأى النافذة؛ وانتظر.

ما زال الجدجد يطرق بإزميله؛ الأصوات لَّما تزل مثابرة، رائقة سلسة مثل دفق النخالة.

لكن خلف رأسه، في ذاك الظل الطويل حيث يستحيل على عينيه الوصول، ثمة شيءٌ يتربص لحظته، لكن من ذا الذي سيجرؤ على مجرد تخيل كنه ذاك الشيء؟

الأصوات تحتك بعضها ببعض، دونما شيءٍ يعكر صفوها: تدمدم وتثرثر.

وعاد يصرخ في فزعٍ أشد مناديًا أباه.

بدا وكأنما خواءٌ أصاب الأصوات، كأنها قطعت للتوِّ جسرًا شاهقًا.

في سكونٍ تمددت الستارة، وفي سكونٍ همدت.

الظلال بقيت حيث تنتمي، ومهما حاول استطاعته، عجز عن تبين ما يتوارى في أشدّها عتمةً.

الأصوات ارتخت وعادت إلى تحجر قلبها الأول.

بسرعةٍ أدار رأسه وحدق عبر قضبان رأس مهده. ما استطاع رؤية الشيء الواقف هناك. بسرعة استدار ثانية. أيّا يكن الشيء فقد راوغه، لكن في لمحةٍ عاد: ينتصب، ساكنًا، للأبد، خلفه، ودونما أملٍ بأن يراه.

رأى الحوض وما كان سوى حوض؛ لكن عينه كانت جامدة كما عين الشرير.

حتى الستائر السكّرية، هي الأخرى كانت شريرة، فمّم يلهوج دونما تفكير؛ والأوراق، الأوراق المرتعشة، تخنق شجرتها مثل جحافل الحشرات.

قرب النافذة، بقعةٌ على ورق الجدران، بنيةٌ باهتة، على هيئة أفعى.

مثل العدو اللدود، حدجته النافذة المقابلة.

ويا ترى أي سرٍّ ثمين اكتنزه الجدجد لنفسه: أي تمثالٍ يا ترى، في تأنٍّ وصبر، نحته للرّهبة؟

الأصوات تطنّ، مسرورةً غافلة مثل الجراد. وما اكترثت له البتة.

راح يصرخ مناديًا أباه.

والآن الأصوات تبدلت. سمع أباه يسحب نفسًا عميقًا ويحبسه في حنكه، يزفره بخشونة عبر عظام أنفه في شخير طويل من الانزعاج. سمع صرير مقعد موريس مع نهوض أبيه وسمع أصواتًا من أمه تدل على اضطرابها لانزعاجه وأنها هي من ستتولى الأمر، جاي؛ خاله وخالته أصدرا أصواتًا مرافقة، صغيرة، سريعة، ثم انسحبا كليةً من النقاش، وصوت أبيه، أقل قسوةً الآن من صوت شخيره ومن الأسلوب الذي نهض به عن مقعده، وإن كان لا يزال منزعجًا حتى الآن، قال، «كلا، هو ناداني أنا، أنا من سيطمئن عليه»؛ وسمع خطاه المسيطرة، خطاه المتعبة، تسعى إليه. كان خائفًا، إذ ما عاد فزعًا مذعورًا؛ وكم كان ممتنًا لأثر الدموع دليلًا على وجنتيه.

باب الغرفة شُرِّع على نورٍ ذهبي، والده دخل الغرفة مطأطئ الرأس وأغلق الباب خلفه بكل هدوء؛ وبكل هدوء اقترب من السرير. وجهه كان حنونًا.

«ما المشكلة؟» سأله، يمازحه برقة، في أعمق نبرات صوته.

«بابا»، قال الولد في صوتٍ واهن؛ يتنشَّق البلغم من أنفه ويبتلعه.

صوت أبيه ارتفع قليلًا. «ما الأمر، من الذي أزعج ابني الصغير؟» قال يتحسس جيبه ويتناول المنديل. «ما الأمر! علام أراه يبكي؟» القماشة الخشنة كانت تفوح منها رائحة التبغ؛ وبأنامله، أزال أبوه فتات التبغ عن وجه الطفل الرطب.

«تمخَّط» قال له. «أنت تعرف أنَّ ماما لا تقبل بابتلاعك إياه». وهو يتمخط شعر باليد القوية أسفل رأسه ونوبة بكاء استولت عليه.

«ما بالك؟ ما الذي حصل؟» تعجَّب والده؛ والآن صوته بأسره بات حنونًا. رفع رأس الولد الصغير أكثر، ركع وتمعن جيدًا في عينيه؛ والآن استشعر الطفل قوة اليد الثانية، تغطي صدره، تربت بحنوٍّ عليه. حاول أن يستغل فرصة بكائه قدر المستطاع، إلا أنَّ اللحظة راحت وولَّت.

«حلمٌ مخيف؟».

هزَّ رأسه، نافيًا.

«إذن ما الخطب؟».

وراح ينظر إلى أبيه.

«خائفٌ من ـ خائفٌ من الظلمة؟».

أومأ موافقًا؛ شعر بالدموع تترقرق في عينيه.

«لاااااا»، قال له أبوه؛ في نبرةٍ رجولية. «أنت ولدٌ كبيرٌ الآن. والأولاد الكبار لا يخافون من ظلمةٍ بسيطة. والأولاد الكبار لا يبكون. وأين هذه الظلمة التي تخيفك؟ هل هي هنا» وبرأسه أشار إلى الزاوية الأشد ظلمةً. الطفل أومأ. بكل ثقة شدَّ الخطى نحوها، وأشعل عود ثقاب بحكة على بنطاله.

لا شيء هنا.

«لا شيء هنا يخيفك... في الأسفل هنا؟» أشار إلى خزانة الأدراج. الطفل أومأ، يمص شفته السفلى. أشعل عود ثقاب آخر، وأدناه من أسفل الخزانة، من ثم أسفل المغسلة.

لا شيء هنا. ولا هنا.

«لا شيء هنا سوى صابونة رضَّع قديمة. أترى؟» وحمل الصابونة إلى الطفل حتى يشمها؛ وبشمها، اعتراه إحساسٌ بأنه عاد رضيعًا. أومأ إلى أبيه. «أي مكانٍ آخر؟».

الطفل استدار وراح ينظر عبر قضبان المهد عند رأسه؛ أبوه أشعل عود ثقاب. «أوه، انظر مَنْ هنا! هذا صديقنا جاكي»، قال له. وصدقًا، ها هو جاكي، يجلس عميقًا في الزاوية.

نفخ الغبار عن دمية الكلب القماشية وعرضها على الطفل. «هل تريد جاكي؟».

هزَّ رأسه.

«لا تريد المسكين جاكي؟ القابع وحيدًا هنا؟ كل هذا الوقت، في تلك الزاوية المظلمة؟».

هزَّ رأسه.

«هل كبرت على جاكي؟».

أومأ موافقًا، غير واثق إن كان أبوه يصدقه.

«إذن فقد كبرت أيضًا على البكاء».

جاكي المسكين.

«جاكي المسكين».

«الصغير المسكين جاكي، وحيدًا دون أصحاب».

مدَّ الطفل يديه إلى الأعلى وتناوله، وبينما أخذ يواسيه، استعاد ذكرى واهنة، وفرةٌ من الشموع المضيئة، (وأشواكٌ مدببة) ورائحةٌ خضراء قوية، كلبٌ بألوانٍ أزهى وأكثر ضخامة، أثار فضوله ما إن رآه، ووجه أبيه الضخم، يبتسم قائلًا، «هذا كلب».وأبوه هو الآخر تذكر كيف اختار هذا الكلب بمنتهى السعادة وكيف تعجل منحه إياه في وقتٍ أبكر بكثير، وكيف يمنحه إياه الآن في وقتٍ متأخر جدًّا من الليل. في مواساته الكلب اطمأن قلبه وراح يتثاءب تثاؤبًا عميقًا، تثاؤبًا أخذه على حين غرة، فعجز عن كبته وإخفائه. ورمق أباه بقلقٍ شديد.

«نعست، إيه؟» قال له أبوه؛ حتى أنه بالكاد كان سؤالًا.

هزَّ رأسه.

«حان لك أن تنام، حان لنا جميعًا أن ننام».

هزَّ رأسه.

«ما عدت خائفًا؟».

تفكَّر في الكذب، وهزَّ رأسه.

«البعبع راح، اختفى، أنا وأنت أخفناه، إيه؟».

أومأ له.

«والآن بنيّ، عد إلى النوم»، قال أبوه. ورأى جليًّا على الطفل رجاءه الشديد إليه بأن يبقى، وأدرك لحظتها أنه لربما كذب بشأن كونه خائفًا، وتأثر قلبه، فوضع يده على جبين ابنه. «أنت وحسب لا تريد أن تكون وحيدًا»، قال له بكل حنوٍّ، «مثل صديقنا القديم جاكي، أنت لا تريد أن تُتْرك وحدك». الطفل ظل مستلقيًا في سكون.

«حسنٌ إذن، سأخبرك ماذا سأفعل، سأغني لك أغنية واحدة، من بعدها ستكون ولدًا شاطرًا وتخلد إلى النوم. هل ستفعل هذا لأجلي؟» الطفل شد بجبينه على يد أبيه الدافئة، يد أبيه القوية، وأومأ.

«ما الأغنية التي سنغنيها؟».

«ضفدوع المحبوب»، قال الطفل؛ الأطول بين أغاني أبيه.

«هذه أغنية طويلة»، قال أبوه، «أغنية طويلة وقديمة. أنت لا تنوي البقاء يقظًا كل هذا الوقت، أليس كذلك؟».

أومأ له.

«آه، حسنٌ إذن»، قال أبوه؛ والطفل حضن جاكي في عناقٍ جديد واستقر على فراشه، يتطلع إلى وجه أبيه. وأبوه راح يغني على مهل، في صوتٍ خفيض: ضفدوع المحبوب يبحث عن حبيبة هووووهوووو! ضفدوع المحبوب يبحث عن حبيبة هووووهوووو!

وسيرتدي لحفل الليلة كل ملابسه الأنيقة هوووهووو! وراح يغني ويغني عن الصعاب التي واجهت ضفدوع وعن نجاحه أخيرًا في التقاط حبيبة وعما قاله الجيران وعمن سيكون الواعظ الذي سيزوجهما وما رأيه هو في هذا الاختيار، هوووهووو! وأخيرًا ما العشاء الذي سيقدم في حفل الزفاف، هوووهووو! كرات السلور وكؤوس شاي الساسفراس، هوووهووو! أنشدها كلها وهو يحدق إلى الجدار والطفل يحدق إلى الوجه الذي يغني في الظلام وإلى العينين اللتين لم تبادلاه النظر. بين كل مقطع ومقطع كان الأب سيختلس نظرةً عجلى، لكن عينيَّ الطفل ظلتا على اتساعهما وسوادهما مع نهاية الأغنية الطويلة تمامًا مثلما كانتا مع بدايتها، وإن بات يتطلب منه جهدًا الآن الإبقاء عليهما هكذا.

كان مسرورًا ومستمتعًا، إذ ما إن يبدأ بالغناء سرعان ما يندمج فيه. وفي جعبته الكثير من تلك الأغاني القديمة التي يعرفها جيدًا، يهواها أكثر من غيرها، وكذلك بعض الأغاني الشعبية؛ ورغم أنه كان سيحرج إن أشار أحدهم إلى هذا، فهو أيضًا معجبٌ بصوته. «ألم تنم بعد؟» لكن حتى الطفل استشعر ألا مخاطرة هناك في مغادرة أبيه، فهزَّ رأسه بكل صراحة.

«غنِّ لي أغنية سَكْرتي» إذ أحبَّ رؤية المتعة تسري في ملامح وجه أبيه، وإن لم يفهم يومًا مغزاها. وشرع يغنيها، لكن في صوتٍ جد خفيض، لأنها أغنيةٌ وقحة ومرحة وسريعة وإيقاعها يحفز اليقظة في النفس. ومتعته تعود إلى أن ابنه دومًا ما أخطأ في نطق

اسم الأغنية، فيقول سَكْرتي بدل سُكّرتي، ولأنّ زوجته وعائلتها (وإن أقل منها حدة) لم يجدوا الخلط بين الكلمتين أمرًا مضحكًا. إذ شعروا، وهو يعرف ذلك، بأنه ليس بالرجل الذي عليه أن يستخف بتأثير تلك الكلمة ويأخذها على أنها مزحة؛ ليس أنّ شرب الخمرة قد سبب أي مشكلة، ليس مذ وقتٍ طويلٍ جدًّا. وراح يغني:

عندي امرأتي ولديَّ سَكْرتي، عسّولتي، حبُّوبتي
عندي امرأتي ولديَّ سَكْرتي، عسّولتي، حلوتي
عندي امرأتي ولديَّ أيضًا سكْرتي
امرأتي لا تحبني لكن سَكْرتي تعشقني
كلَّ صباحي، وكلَّ ليلي
متى ما ذبحوا دجاجة، تحتفظ لي بجناح، سَكْرتي، حبوبتي
متى ما ذبحوا دجاجة، تحتفظ لي بجناح، سَكْرتي، عسولتي
متى ما ذبحوا دجاجة، تحتفظ لي بجناح، سَكْرتي، حلوتي
امرأتي تحسبني أعمل لكني لا أفعل شيئًا
كلَّ صباحي، وكلَّ ليلي
كل ليلة بعد الثامنة، سَكْرتي، حبوبتي
كل ليلة بعد الثامنة، سَكْرتي، عسولتي
كل ليلة بعد الثامنة، سَكْرتي، حلوتي
سأنتظرك عند بوابة مخدومك الأبيض
كلَّ صباحي، وكلَّ ليلي

ما زال الطفل يحدق إليه؛ وربما لأن النور معتم، وربما لأن النعاس يغالبه، لكن عينيه بدتا غامقتين جدًّا، رغم أنَّ الأب يعرف أنهما فاتحتان مثل عينيه. رفع يده ونفخ عن جبين طفله قطرات العرق الجاف، مسِّد شعره، ثم أعاد يده عليه:

بحق السماء ما أنت فاعلة، يا ذات العينين الجاحظتين؟ راح يغنيها، ببطءٍ شديد، الأب والابن، كلٌّ يتطلع إلى عينيّ الآخر.

بحق السماء ما أنت فاعلة، يا ذات العينين الجاحظتين؟

بحق السماء ما أنت فاعلة، يا ذات العينين الجاحظتين؟

بحق السماء ما أنت فاعلة، يا ذات العينين الجاحظتين؟

عيناه تغمضان على مهل، فجأة تنفتحان، شبه متيقظتين، وها هما ثانيةً تغمضان.

من أين لكِ بتلكما العينين الهائلتين الواسعتين الجاحظتين؟

من أين لكِ بتلكما العينين الهائلتين الواسعتين الجاحظتين؟

أنتِ خير سمكةٍ هناك وأريدك الآن على مائدة العشاء

بحق السماء من أين لك بتلكما العينين الجاحظتين؟

انتظر. رفع يده. عينا الطفل انفتحتا وشعر كما لو أنَّ أحدهم وقع عليه يرتكب جرمًا ما. عاد ووضع يده ثانية على جبينه، في لمسةٍ أرق. «أخلد إلى النوم، حبيبي»، قال له. «أخلد إلى النوم الآن». الطفل واصل التطلع إلى أبيه ولحنٌ غير متوقع خطر إليه، ورافعًا صوته إلى طبقة التينور، راح يغني في صوتٍ شبه مكتوم:

أوه، أسمع قرقعة عجلات القطار

أوه آن، القطار قريبٌ، قريبٌ منّا الآن

أسمع قرقعة عجلات ذاك القطار

أسمع قرقعتها تشق السهول والجبال

هلمّ اركبوا القطار، أيها الأطفال الصغار

هلمّ اركبوا القطار، أيها الأطفال الصغار

هلمّ اركبوا القطار أيها الأطفال الصغار

فمكانٌ لنا جميعًا على متن ذاك القطار.

وفي عينيّ الطفل بدا كما لو أنّ أباه يرنو ناظرًا إلى مدىً بعيد، ومتطلعًا إلى تلكما العينين اللتين بدتا ناظرتين إلى المدى البعيد، هو أيضًا رنا بعينيه إلى المدى البعيد:

أوه، ومن أولاء الذين أراهم من بعيد

أوه آن، من تحسبين رأيت الآن قادمين من بعيد

زمرة من الملائكة النورانيين

قادمون لأجلي، على متن القطار من بعيد

هلمّ اركبوا القطار، أيها الأطفال الصغار

هلمّ اركبوا القطار، أيها الأطفال الصغار

هلمّ اركبوا القطار أيها الأطفال الصغار

فمكانٌ لنا جميعًا على متن ذاك القطار.

لم يخفض عينيه، بل ظل برهةً يحدق صامتًا إلى الجدار، ثم غنّى:

أوه، ومع مغيب كل شمس

أحفظ دولارًا في جيبي لسَكْرتي

الآن خفض عينيه. كان شبه واثق بأنّ الطفل أخلد إلى النوم. وفي صوتٍ خافت بالكاد يسمعه هو، في صوتٍ ينسل إلى الطفل شبه النائم مثل زمرة من الملائكة النورانية، مضى يغني:

هناك مثلٌ قديمٌ يقول، وكلكم تعرفون

كيف لك أن تقتفي أثر الأرنب دونما ثلجٍ يغطي السهول

وهنا أيضًا تريَّث، يده تصغي إلى الطفل، إذ دائمًا ما كان مولعًا بالبيت الأخير إلى الحد الذي يكره فيه اضطراره إلى إنهاء الأغنية قبل وصوله إليه؛ لكن البيت خطر له ورغب في غنائه بشدة وما عاد يقدر على مقاومة إغرائه لحظةً أطول:

أوه، وأبدًا لن تمطر بعد الآن، ولن تثلج أبدًا.

قشعريرةٌ باردة وغريبة سرت في نخاعه، ورأى تلألؤًا يتجلى أمامه في تمايل شجرة الأرز العظيمة وفي ترقرق الدموع في عينيه:

لكن الشمس ستعود تشرق، والريح ستعود تهب

شجرة أَرزٍ عظيمة، وألوان الكلس والصلصال؛ رائحة دخان الخشب، وفي أعماق نور المصباح البرتقالي، الحطب الصامت في الجدران، وجه أمه، يدها الطويلة المتشققة، لطيفةٌ على جبينه: كفَّ

عن التململ، جاي، كفَّ عن التململ. وقبل أوانه وحتى قبل أن يُحلَم به في هذا العالم، هي لا بد استلقت أسفل يد أمها أو أبيها، وهما، في طفولتهما، استلقيا أيضًا أسفل أيادٍ أخرى، بعيدًا في الجبال، بعيدًا في الماضي، أبعد ما قد يصل إليه الخيال، بعيدًا بعيدًا وصولًا إلى آدم، عدا أنَّ لا أحد وضع يدًا على جبينه؛ أو ألعلَّ الله فعل؟

وكم من طريقٍ قطعنا. جميعنا. كم من طريقٍ طويلٍ قطعنا بعيدًا عن أنفسنا. وبعد كلِّ هذا الطريق، في منتصف الطريق، سيستحيل عليك العودة إلى البيت. لك أن تستدير وتعود إلى البيت، من الرائع أن تعود إلى البيت، لكنك أبدًا لن يتسنى لك قطع كل الطريق عَوْدًا إلى البيت. ولأجل ماذا؟ من حاولتُ أن أكون، من أردتُ أن أكون، ما تركتُ البيت لأجله، كل هذا، كان لأجل ماذا؟

هناك طريقٌ واحدة، واحدة وحسب، تعيدك إلى البيت. تنجب ابنًا أو ابنة وبين آنٍ وآخر تتذكر، تدرك شعور طفلك اللحظة، فتشعر وكأنما عدت مرةً أخرى إلى نفسك، إلى أصغر نفسٍ تتذكرها.

ويعلم الله أنه مدركٌ كم هو محظوظ، مدركٌ وفرة النعم التي أغدقها عليه، ويعلم الله أنه شاكر. كل شيءٍ على ما يرام وحتى أفضل مما تأمله، وأكثر حتى مما يستحق؛ عدا أنَّ، مهما تؤول إليه الحياة ومهما تكن الأمور على ما يرام، فهي ليست أبدًا ما كنتَ يومًا عليه، ما خسرته، ما يستحيل عليك أبدًا الحصول عليه، وبين وقتٍ وآخر، بين وقتٍ طويلٍ وآخر، تتذكر، وتدرك كم طويلٌ الطريق الذي قطعته، فيصدمك وهلتها في الصميم، حدًّا ينكسر فيه قلبك.

شعر بالظمأ، وصورٌ من الاختلاس والخداع، من الصراحة، من الغضب والكبرياء، تملكته فورًا، وفورًا قاومها. إن حدث وسكرتُ مرةً أخرى، قال لنفسه، في إباء، سأقتل نفسي. ولديَّ العديد من الأسباب كي لا أقتل نفسي. لذا أبدًا لن أسمح لنفسي بأن تسكر ثانيةً.

كان واعيًا قوته، كفاءته في الدفاع عن نفسه والوقوف في وجه نفسه، وهذا الإحساس المرضي من الحزم نازع الذكرى المثالية الصافية التي عاشها لوهلة والتي، حزينًا، حاول عبثًا أن يعود ويلتقطها. لكن الآن. فتلك الذكرى، على جلائها، على معزتها، ما عادت تثير شيئًا في قلبه، وكان مغمورًا في هذا الحزن، يحدق إلى الجدار، خليًّا من أي خاطر، حين سمع الباب خلفه يفتح على مهل، وإذ بنوبةٍ من الغضب والفزع تباغته، ليلحقها خزيٌ عارمٌ على مشاعره هذه.

«جاي»، نادت عليه زوجته في صوتٍ رقيق. «ألم ينم بعد؟».

«إيه، نام»، ونهض ينفض الغبار عن ركبتيه. «أحسب الوقت قد تأخر كثيرًا، أكثر مما توقعت».

«آندرو وإميليا اضطرا إلى المغادرة»، همست قائلة، آتيةً إليه. مالت نحو الفراش وملَّست الملاءة. «ويتمنيان لك ليلة سعيدة». رفعت رأس الطفل بيدٍ واحدة، بينما زوجها، عابسًا، هزَّ رأسه بحدة؛ «لا بأس جاي، فهو مستغرقٌ في نومه»، ربتت على الوسادة، وتراجعت على مهل: «خشيا إن قدما إليك أن يثيرا ضجة ويوقظا روفس».

«أوه، آسفٌ أني لم أرهما. هل الوقت متأخر إلى هذا الحد؟».

«أظنك بقيت هنا أكثر من ساعة! علام كان منزعجًا؟».

«أحسبه كان كابوسًا؛ كان خائفًا من الظلمة».

«وهو بخير؟ أعني، قبل أن ينام؟».

«هو بخير الآن، لا تقلقي». وأشار إلى الكلب. «انظري ما الذي عثرت عليه».

«يا لطيف! أين كان كل تلك المدة؟».

«هناك في أقصى الزاوية، أسفل السرير».

«يا لعاري! لكن جاي، الكلب لا بد قذرٌ جدًّا!».

«لاااا، لا تقلقي؛ قد نفضته».

وخجلةً قالت، «سأكون سعيدة عندما يتسنى لي الانحناء ثانية».

وضع يده على كتفها قائلًا، «وأنا أيضًا».

«جاي!» ابتعدت عنه، وقد أهانها ما قاله.

«حلوتي!» قال لها، مستمتعًا ومشدوهًا، يطوّقها بذراعه. «أعني طفلنا الجديد! سأسعد عندما يأتينا!».

نظرت إليه بإمعان، (إذ لم تكن بعدُ قد أدركت انحسار بصرها)، فهمت مراده وابتسمت، ثم ضحكا برقة على حرجها. مسَّ شفتيها بإصبعه، وأشار برأسه نحو المهد. كلاهما استدار ووقفا ينظران إلى ابنهما.

«وأنا أيضًا، حبيبي جاي»، همست قائلة. «وأنا أيضًا».

أمه أيضًا غنت له. صوتها رقيقٌ ورماديٌّ ساطع مثل عينيها الرماديتين العزيزتين. كانت تغني له، «نم حبيبي نام، أبوك خارجًا يحرس الغنمات»، وكان سيرى أباه جالسًا على سفح تل يرنو إلى قطيعٍ من الخراف البيضاء في الظلمة لكن لماذا؛ «أمك ستهز شجرة الأحلام وستتساقط عليك أحلاها»، وكان سيرى الأحلام الصغيرة تطفو سفلًا في الهواء مثل ندف ثلجٍ كبيرة تنهمر ليلًا فتغطيه في هذه الظلمة، مثلما تتغطى صغار الحيوانات في الغابة بأوراق شجر عريضة وصامتة من النور الرقيق الوهّاج. غنت، «اذهب وأخبر عمتك رودا»، ثلاث مرات تكررها، بعدها، «الإوزة الرمادية العجوز ماتت»، بعدها، «وهي تستحق الإنقاذ»، ثلاث مرات تكررها، وبعدها «كي نصنع أنا وإياها فراشًا ناعمًا»، وتكررها. ثلاث مرات. اذهب وأخبر العمة رودا؛ ومرةً أخرى الإوزة الرمادية العجوز ماتت. لم يعرف ما الذي تعنيه بـ«وهي تستحق الإنقاذ»، كانت أمرًا من تلك الأمور التي حرص دومًا ألا يسأل عنها، لأنها وإن بدت رقيقة جدًّا في ظاهرها فقد كان موقنًا أيضًا أنَّ شيئًا فظيعًا مثيرًا للفزع يكمن في مغزاها لأنها أصلًا تبدو رقيقة جدًّا في ظاهرها، وكان سينتابه ذعرٌ رهيبٌ إن سأل وعرف عوضًا عن الخوف البسيط الذي يراوده إثر حدسه. وأكثر ما كان يخيفه، أنَّ كلما غنت أمه الأغنية كان سيرى الخالة رودا، وما كانت

تشبه في شيء أي شخصٍ آخر، كانت مثل اسمها، غامضة ورمادية. كانت طويلة جدًّا، تضاهي حتى قامة أبيه، وكانت تقف قرب بئر، في قلب قفارٍ جدباء، قريبة بما يكفي كي يراها، بما يكفي كي يدرك كم مهولٌ طولها. من خلفها، على وسع المدى، أشجارٌ حالكة عارية من الأوراق. كانت ستقف هناك وحسب، منتصبة الظهر، في منتهى السكون، كما لو أنها في انتظاره يأتيها بالخبر، أن الإوزة العجوز الرمادية ماتت، فيتسنى لها الرحيل. كانت ترتدي ثوبًا رماديًّا طويلًا حاشيته تلامس الأرض ويداها مختبئتان في غياهب طيات تنورتها المتهدلة. عدا أنه أبدًا ما رأى وجهها إذ كان مغمورًا في عتمة الظلال الحالكة أسفل قلنسوتها، الشيء الوحيد الذي كان له أن يتبينه هي لمعة عينيها، تنظران إليه، في نظرةٍ شاخصة، وما كانت بنظرة غضب، لكنها أيضًا ما كانت بنظرة عطف، هي وحسب تقف منتظرة. هي تستحق الإنقاذ.

هي غنَّت، «أيا التشاريوت[1] العذبة، اهبطي إليّ» وتلك كانت أحب الأغاني إلى قلبه. «المقبلة عليّ حتى تعود بي إلى البيت» في منتهى السرور والتسليم والسكينة. والتشاريوت عربةٌ جميلة لأن البيت بعيدٌ جدًّا، أبعد ما يكون عن الوصول إليه سيرًا، والطريق طويلة، جدُّ طويلة، لكنها أيضًا، وبالطبع، كانت كرزًا، لكن ما كان

(١) «Swing low, sweet chariot». أغنية روحانية من أغاني الفولكلور الأميركي الإفريقي، وهي مستوحاة من القصة الإنجيلية للنبي إيليًا ورفع الرب إياه نحو السماء في مركبة نارية وخيلٍ نارية (سفر الملوك الثاني). وفي هذا السياق وحفاظًا على خصوصية الأغنية ورنتها ارتأينا تعريب (التشاريوت) عوضًا عن استخدام المرادف العربي (مركبة أو عربة).

ليفهم كيف لهذه العربة الجميلة وحبة الكرز أن تكونا الشيء ذاته، لكن هكذا هما[1]. وطريق العودة إلى البيت طويلة، طويلة جدًا. بعيدًا جدًّا على وصولك إليه سيرًا ولا سبيل أمامك للذهاب إلا حينما يبعث إليك الرب بالتشاريوت. والتشاريوت ستعود بك إلى البيت. حتى أنه ما حاول مرة تخيل البيت لأنه موقنٌ أنه شبيهٌ ببيته وإن أجمل قليلًا، لكن دومًا عرف أن البيت هو بيته. ومتى ما سمع عن ذاك البيت الآخر أدرك السعادة التي تعتريه في هذا البيت لأنه دائمًا ما شعر أنَّ بانتمائه إلى هذا البيت فسيكون حتمًا بخير في انتمائه إلى البيت الذي ينتظره. أبوه أيضًا يحب ترديد هذه الأغنية، أحيانًا في الظلمة، إما على الشرفة، وإما مستلقين جميعًا على لحافٍ في الفناء الخلفي، ومعًا كانا سيغنيان. وهناك، ما كانا ليتحدثا، بل يصغيا وحسب إلى الأصوات الصغيرة، يتطلعان إلى النجوم، يغمرهما السكون والسعادة والحزن في ذات الآن، وفجأة، في صوتٍ خفيض جدًّا حدَّ الهمس، شرع أبوه في الغناء، وكأنما يغني لنفسه، «أيا التشاريوت العذبة»، وما إن وصل إلى «اهبطي إليَّ» حتى انضمت أمه إليه تغني، بالرقة ذاتها، فيعلو صوتاهما، أعلى وأعلى، يغنيان «المقبلة عليّ حتى تعود بي إلى البيت» وناظرًا بين رأسيهما من حيث يستلقي كان سيبصر النجوم، قريبة جدًّا وودودة، في سفىً[2] عظيمٍ من الذر المنثور على قبة السماء. أبوه لم يغنها مثلما تغنيها أمه.

---

(١) الشطر اللفظي الأول من «chariot» يقع على أذن الطفل شبيهًا بمفردة «cherry» والتي تعني الكرز.

(٢) سفى. ما تحمله الريح وتنثره من غبار أو نحوه.

فحينما يغني «اهبطي» الثانية، هي تغني «اهبطي إليّ»، على نغمتين، في صوتٍ صافٍ وبسيط، لكن أباه غناها «اهبطيي» على نغمتين، ينزلق من النغمة الأعلى إلى الأدنى التي تغنيها، وفي نبرةٍ غبشة كان سيشد على النغمة الأولى، فتنبجس منه «إليّ» بعد النغمة الثانية مبهمة وسوداوية، في إيقاعٍ يثير القشعريرة في جسد ابنه. ومتى ما بلغ «أخبري كلَّ صحبي أني قادمٌ أيضًا»، كان سيستهلها بطبقةٍ تعلو أمه بأربع نغمات، من ثم يتمهل، يسرح حالمًا بين نغمات إضافية هي لا تغنيها، وبعض تلك النغمات كانت مبهمة، مثل ضرب النغمة السوداء مع جارتها البيضاء على بيانو جدته في ذات الآن، وما كان سيغنيها «أني قادم»، بل «أنـ يي قادم»، وحتى هناك، وطوال غنائه، كانت سترن في صوته حماسة الإيقاع فتغريه بإغماض عينيه وهز رأسه طربًا. أما أمه فغنت المقطع ذاته جليًا صافيًا في صوتٍ عذبٍ وهادئ، بنغمات أقل وأبسط من أبيه. أحيانًا كانت ستحاول الغناء على طريقته وهو كان سيحاول الغناء على طريقتها، لكن سرعان ما يعود كلٌّ إلى طريقته، رغم أنَّ إحساسًا لازمه على الدوام أنَّ كلًّا منهما أحب طريقة الآخر في الغناء حبًا جمًّا. هو أحبَّ طريقتهما حبًا جمًّا، وأكثر ما كان يحب، متى ما غنيا معًا وهو برفقتهما، لمسه كليهما، كلًّا من جانب، بل أكثر ما كان يحب هو وصولهما في غنائهما إلى «أرنو ناظرًا أعلى نهر الأردن فماذا أرى»، والكل يتطلع إلى الأعلى متأملًا النجوم، فيغنيان، «زمرة من الملائكة آتية لأجلي» فيبدو وكأنما النجوم كلها آتية إليه ساطعةً براقة مثل فرقة عزف آلات نحاسية عظيمة بعيدة جدًّا عنه حدَّ ما كان ليسمع الموسيقى لكن قريبة جدًّا

حدًّا كان سيرى وجوههم، فيكادون في موكبهم يميلون نحوه ويرفعونه معهم بين أذرعتهم. آتون لأجلي حتى يعيدوني إلى البيت.

مع دنوهما من النهاية تباطأا في غنائها وكأنهما كرها الانتهاء منها وبعدها ما تبادلا كلمة، وبعدها بدقيقة كلٌّ أمسك بيد الآخر، طفلهما بينهما، والأجواء مالت أكثر نحو السكون، وبدا كل الأصوات الصغيرة المنبعثة عن ضجيج ليل المدينة عادت وارتفعت، الجراد، الجداجد، خبط الأقدام، طرق الحوافر، الأحاديث الخافتة، صرير المحولة، وبعدها ببرهة، وبينما الكل ناظرٌ نحو السماء، في تنهيدة نائية وغريبة، أبوه قال، «حسنٌ...» وبعدها بوهلة أمه أجابت، في نبرةٍ هادئة، في حزنٍ سعيدٍ غريب، «نعم...» وانتظرا وهلةً أطول، ما قالا فيها شيئًا، من ثم أبوه رفعه حاملًا إيّاه بين ذراعيه وأمه طوت اللحاف وجميعهم مضوا داخلًا وأودعاه الفراش.

قامته تكاد تصل إلى عظم حوض أمه؛ لكن ليس إلى هذا العلو مع أبيه.

هي ترتدي الفساتين، هو يرتدي البناطيل. هو أيضًا يرتدي البناطيل، لكن بناطيله قصيرة وناعمة. بناطيل أبيه خشنة متينة وتصل حدَّ حذائه. ملابس أمه ناعمة مثل ملابسه.

أبوه يرتدي أيضًا سترة متينة وياقة صلبة وأحيانًا صدرة متينة بأزرار صلبة. معظم ملابسه تخزه ما عدا قمصانه المقلمة وقمصانه المنقطة وقمصانه الموشاة بالنقشة الماسية. لكن كل ملابس أبيه لا تخزه قدر وجنتيه.

وجنتاه كانتا دافئتين ومنعشتين وكانتا ستظلان تخزانه قليلًا حتى وإن كان للتو حلقهما. ودائمًا كان سيدغدغه ملمسهما، على وجنته وأكثر حتى على عنقه، وأحيانًا كان سيجد الوخز مؤلمًا بعض الشيء، لكن كان سيظل الأمر ممتعًا لأنه صبيٌّ قوي.

رائحته كانت رائحة العشب الجاف، الجلد والتبغ، وأحيانًا كانت ستفوح منه رائحةٌ مختلفة، رائحة عنفوانٍ عظيم وبهجةٍ ضارية، لكن مع إحساسٍ بأن الأمور على الأغلب ستسوء. وكان يعرف اسم تلك الرائحة إذا تناهت إلى مسامعه وهما يتجادلان. ويسكي.

مَّرت فترة ربَّى فيها أبوه شاربًا كبيرًا ثم حلقه وأمه قالت، «أوه جاي، كم تبدو لطيفًا جدًّا، ألطف مئة مرة، فلديك فمٌ جميل وخسارة أن تخفيه». بعد فترة عاد أبوه وربَّى الشارب. صيَّره أكبر عمرًا، أكبر عمرًا بكثير، أطول قامةً وأقوى، ومتى ما عبس كان الشارب سيعبس معه فيثير الرهبة في نفوس الآخرين. لكنه عاد وحلقه مرة أخرى وأمه رضيت مرة أخرى ومذ ذاك أبقى على شاربه حليقًا.

كانت تدعوه «مستَش»، هو يدعوه «مستاش» وأحيانًا «مشتاش» لكن بداعي المزاح، إذ كان سيتقمص لسان السود. أبوه كان يهوى التكلم بلسان السود وكان يغني أيضًا مثلما يغني السود، عدا أنه حين يغني ما كان يغني بداعي المزاح.

عنقه كانت مسفوعة، التشققات في مؤخرها متصالبة محفورة.

يدا أبيه كانتا كبيرتين جدًّا حدًّا كانتا ستغطيانه من ذقنه حتى عورته، وفي ظاهر كل يد ثمة خيوطٌ زرقاء كبيرة ناتئة من أسفل جلده. عروق، كذا يدعونها. وعلى ظاهر أصابعه ثمة شعرٌ أسود وشعرٌ أكثر حتى على رسغيه؛ وفي ذراعيه عروقٌ كبيرة، مثلها مثل الحبال.

في الآونة الأخيرة بدت أمه مختلفة. أغلب الأحيان كانت ستحادثه وكأنها مشغولة البال بأمرٍ آخر مُلحّ، فتبذل مجهودًا مضاعفًا كي تبدو حنونة ومهتمة به. كما لو أنَّ ذاك الشيء الذي يشغل بالها أمرٌ مصيري. أحيانًا كانت ستنظر إليه وكأنها تضحك في سرها على شيء. وما كان ليعرف كيف يسألها عن ذاك الشيء الذي يضحكها فيمعن النظر إليها، متسائلًا عن كنه ذاك الشيء، وترى هي ملامح الحيرة على وجهه، وأحيانًا ملامحه هذه تزيد من سرورها، ومرةً حين تبدّى السرور جليًّا عليها، والحيرة تبدَّت جليَّة عليه، ابتسامتها ارتعشت وانقلبت ضحكًا، وعلى عجل تناولت وجهه بين يديها، تهتف قائلة، «أنا لا أضحك عليك، حبيبي!» ولأول مرة شعر أنها على الأرجح تضحك عليه.

وأوقاتٌ مرَّت بدت فيها وكأنّها لا تكترث له البتة، هي وحسب تؤدي واجباتها تجاهه لأن على أحدهم القيام بهذا الواجب. وشعورٌ غامض من الوحدة تملكه وراح يراقبها عن كثب. لاحظ تغيرًا طفيفًا على سلوك والده معها؛ إذ راح يعاملها وكأنها غرضٌ

ثمينٌ جدًّا وبات واعيًا طوال الوقت لنبرة صوته. أحيانًا في الصباح كانت نانا ستزورهم وإن كان موجودًا كانت ستطلب منه الذهاب خارجًا لبعض الوقت. جدته كانت شبه صماء ودومًا ما حملت معها بوق سمعٍ أسود، طرفه الذي تضعه في أذنها لزجٌ وغريب الرائحة؛ لكن مهما حاول استطاعته عجز عن سماع حديثهما إذ تبادلتاه في صوتٍ خفيضٍ جدًّا، كل ما التقطه بضع كلمات، ولا شيء مما سمعه أنار بصيرته حول ما يجري. ثمة كلمات كانت مميزة وقيلت في نبرة ترددٍ أو خجلٍ واضح، مثل الحَمْل، الرفس، الخروج، لكن كان ثمة كلمات أخرى، ماثلت سابقاتها غرابة، مثل كسوة الوليد، المهد السَّلي وحزام البطن، وإن تظل أقل إثارةً للخوف. حتى جدته تعاملت معه وكأنَّ شيئًا غريبًا كان يجري في البيت، لكن أيًا يكن، فمن الواضح أنه لم يكن بالأمر الخطير لأنها دائمًا كانت مرحة معه. أبوه وخاله آندرو وجدَّته بدوا وكأن لا شيء اختلف في تعاملهم معه، لكنه استشعر وجود توترٍ خفيٍّ في مشاعر خاله آندرو تجاه أمه. العمة هانا ظلت كما هي عليه، وإن صارت تبدي اهتمامًا أكثر الآن بأمه. الخالة إميليا، متى ما ظنت أن لا أحد يراها، كانت ستبقي عينيها دومًا على أمه، ومرةً لمحته يراقبها فأشاحت بعينيها فورًا واحمَّر وجهها.

الكل بدا إما ناظرًا إلى أمه في فضولٍ مفضوح أو يتعنَّى حتى لا ينظر، في نظرةٍ شاخصة وبهيجة، إلى أي شيءٍ آخر عدا عينيها. فهي الآن صارت منتفخة مثل زهرية، وهالةٌ غامضة من النعاس الخفيف أخذت تتبدى في ملامح وجهها وصوتها. وإحساسٌ جليٌّ

ما فتئ يساوره بأنَّ عليه ألا يسأل عما يجري لها. أخيرًا سأل خاله آندرو، «خالي آندرو، لماذا ماما سمينة جدًّا؟» وخاله أجاب، في نبرةٍ غضبى روَّعته، «ماذا! ألا تعرف؟» وعلى نحوٍ مفاجئ غادر الغرفة.

في اليوم التالي أخبرته أمه أنه عن قريبٍ جدًّا سيحصل على مفاجأة رائعة. حين سألها ما الذي تعنيه بالمفاجأة أخبرته بأنها مثل المفاجآت التي يحظى بها في الكريسماس عدا أنها ستكون أجمل بكثير. وحين سألها ما الذي سيحصل عليه، أخبرته بأنها لا تعني بكلامها أنها ستهديه هدية، هدية له وحده، يمتلكها، يحتفظ بها، بل شيئًا للجميع، لا سيما لأهل هذا البيت. وحين سألها ما هو ذاك الشيء أخبرته بأنها إن أعلمته الآن فلن تعود مفاجأة، أليس كذلك؟ وحين أخبرها بأنه على أية حال يريد أن يعرف، أخبرته بأنها صدقًا تود أن تخبره، إلا أنه سيصعب عليه تخيل المفاجأة قبل قدومها، لهذا هي ترى أن من الأفضل له أن يراها أولًا. وحين سألها عن موعد قدومها أخبرته بأنها لا تعرف بالضبط لكن عن قريبٍ جدًّا، في أسبوع أو أسبوعين، وحتى أقرب، ووعدته بأنه سيعرف فور وصولها.

نار الفضول فارت في صدره. كان صغيرًا جدًّا الكريسماس الماضي بحيث لم يخطر له حينذاك البحث عن هدايا مخبَّأة، لكن الآن راح يبحث في كل مكان له أن يتصوره إلى أن أدركت أمه ما الذي يفعله وأخبرته بألا جدوى من البحث عنها لأن المفاجأة لن

تكون هنا حتى لحظة قدومها. فسألها وأين مكانها إذن، وإذ يطلق أبوه ضحكة مدوية؛ أمه ذعرت وصاحت، «جاي!» وفورًا، أجابته بسرعة، «في السماوات؛ لا تزال موجودة في السماوات».

حوَّل نظره فورًا إلى أبيه طلبًا للتوكيد وأبوه، من بدا محرجًا، أشاح بعينيه عنه. كان يعرف بأمر السماوات لأنَّ أبانا يقطن هناك، لكن هذا كل ما يعرف عن ذاك المكان، وما كان راضيًا بالجواب. مع ذلك، مرةً أخرى، ساوره الإحساس بأن ليس من الحكمة بمكان الإلحاح في السؤال.

«لم لا تخبرينه، ماري؟» قال أبوه.

«أوه، جاي»، قالت منزعجة؛ ثم قالت، تحرك شفتيها وحسب، «إياك والتحدث في الأمر أمامه».

«أوه، أنا آسف» وقال، يحرك هو الآخر شفتيه وحسب -عدا أنَّ همسة تسربت من هذا الصمت، «لكن ما الفائدة؟ لم لا ننتهي من الأمر؟».

وهنا قررت أن خيرًا لها الحديث بصراحة. «كما تعرف جاي، فقد أخبرت روفس عن مفاجأتنا الآتية في الطريق. أخبرته بأني سأكون سعيدة بإعلامه عنها، عدا أنه سيكون من الصعب عليه تخيل مفاجأة رائعة كهذه قبل أن يراها أولًا. عدا ذلك، لديَّ إحساسٌ بأنه قد... يربط بين الأمور».

«سيفعل في كل الأحوال»، قال أبوه.

«لكن جاي، لا فائدة من إجباره على التـ..فـ..كـ..ر، على التفكر في الأمر، أهناك داعٍ جاي؟ أهناك داعٍ؟».

بدت مهتاجة جدًّا، وما كان ليفهم لماذا.

«معك حق، ماري، أرجوك لا تنزعجي. الخطأ خطئي. بالطبع أنا المخطئ». ونهض نحوها وضمَّها بين ذراعيه، وراح يربت على ظهرها.

«أظنني أتصرف بسخافة»، قالت له.

«لا، لست سخيفة البتة. عدا ذلك، إن كنتِ تصرفت بسخافة، فأنا أيضًا تصرفتُ بسخافة. أنت وحسب باغتّني بقصة السماوات، هذا كل ما في الأمر».

«حسنٌ، كيف كنت ستجيبه؟».

«فليلعني الر.. ما كنت لأدري، حلوتي، وخيرٌ لي أن أُبقي فمي مطبقًا».

عبست، ابتسمت، ضحكت عبر منخريها وهزَّت رأسها، كل هذا دفعةً واحدة.

ثم ذات يوم، وبلا أي إنذارٍ مسبق، أضخم امرأة رآها في حياته، سوادها الدامس يلمع في البياض الجليل، مع نظارةٍ ذهبية وابتسامةٍ قوية مثل ابتسامة عمته هانا، دخلت بيتهم وعانقت أمه قبل أن تنقض عليه وتحضنه صارخةً في بهجة، «يا الله، كم كبر صغيري!»، وللحظة دار في خلده أنَّ لا بد هذه هي المفاجأة وراح

يرمق أمه بنظرات متسائلة في غمرة انقضاض الأحضان، وأمه قالت «فيكتوريا؛ فيكتوريا، روفس!» وفيكتوريا صاحت، «أوه، فليبارك الرب قلبه الصغير، كيف له أن يتذكرني؟» وفجأة بينما هو واقفٌ يتأمل السفوح اللامعة الفسيحة على وجهها الباسم ونظارتها الذهبية تربض زاهية كما اليعسوب، لمعت في خاطره ذكرى، ومضةٌ من ذهب وصدرٌ حنون، وقبل أن يعي ما يفعل وجد نفسه يلقي بذراعيه حول عنقها وشهقت في بهجةٍ عارمة، «آهٍ يا صغيري، فليباركك الرب، فليبارك الرب صغيري». وحملته أمامها ووجهها كان أسعد وجهٍ رآه في حياته، «أوه أظنك حقًا تتذكرني! آهٍ حلوي، أنت صدقًا تتذكرني! أليس كذلك؟» وفي غمرة سعادتها هزته. «هل تتذكر فيكتوريا؟» وهزته ثانية. «هل تتذكرني حلوي؟» وما إن أدرك أخيرًا أنها في انتظار إجابة منه على سؤالها، أومأ في حياء، وثانيةً عادت تعانقه. وكم كانت طيبة الرائحة التي تفوح منها حدًّا كاد يميل برأسه عليها وفورًا ينام.

«ماما»، قال لها لاحقًا، حين غادرت فيكتوريا للتسوق. «رائحة فكتوريا راااائعة».

«اخرس، روفس»، قالت أمه. «استمع إليّ جيدًا الآن، هل تسمعني؟ أخبرني إن كنت تسمعني».

«أجل، أسمعك ماما».

«احرص جيدًا ألا تقول أي شيء أبدًا عن رائحة فيكتوريا متى

ما كانت فكتوريا هنا. إياك أن تقول شيئًا كهذا على مسامعها. هل فهمتني؟ أجبني بنعم إن كنت فهمتني».

«نعم».

«لأنك حتى وإن كنت تحب رائحة فيكتوريا، فقد تجرح مشاعرها بشدة إن قلت شيئًا كهذا، وأنت لا تريد أن تجرح مشاعر العزيزة فيكتوريا، أنا أعرف أنك لا تريد. لا تريد إيذاءها، أليس كذلك؟».

«لا».

«لأن فيكتوريا ـ فيكتوريا ملونة، روفس. لهذا السبب بشرتها غامقة إلى هذا الحد، والناس الملونون حساسون جدًّا فيما يخص رائحتهم. هل تعرف ما يعني حساسون؟».

أومأ في حذر.

«يعني أنَّ هناك أشياء تجرح مشاعرك جرحًا بليغًا، أشياء ليست بيدك وستدفعك إلى البكاء، هكذا تمامًا يشعر الناس الملونون الطيبون عن رائحتهم. لذا كن حذرًا جدًّا. هلا فعلت؟ قل لي إنك ستفعل؟».

«أجل».

«والآن أخبرني، ما الشيء الذي طلبت منك للتو أن تكون حذرًا حوله؟».

«ألّا أخبر فيكتوريا أنَّ رائحةً تفوح منها».

«وألا تقولها على مسامعها».

«وألا أقولها على مسامعها».

«لماذا؟».

«لأني سأجرحها وهي ستبكي».

«صحيح. وروفس، فيكتوريا نظيفة، نظيفةٌ جدًا. ناصعة البياض».

ناصعة البياض.

فيكتوريا لم تقبل أن تتولى أمه إعداد العشاء وبعد أن تناولوا الطعام تولت أيضًا توضيب بعضٍ من ملابسه في صندوق، مع أنها ما انفكت تسأل عن النصح كل مرة تتناول قطعة من الدرج. بعدها حممته فيكتوريا وألبسته ملابس خروج نظيفة ما أثار ذهوله، وما إن بات جاهزًا، حتى نادت أمه عليه وأخبرته أنَّ فيكتوريا ستصحبه معها في زيارة إلى جدو ونانا وخاله آندرو وخالته إميليا حيث سيقضي معهم عدة أيام وأنَّ عليه أن يكون ولدًا مطيعًا وطيّبًا جدًا وأن يعدها بأنه سيحاول ما استطاع ألا يبلل فراشه لأنه متى ما عاد، قريبًا جدًّا، بعد أيام قليلة، فالمفاجأة ستكون في انتظاره وسيعرف أخيرًا ما هي. فقال لها إن كانت المفاجأة ستصل عن قريبٍ جدًّا فهو يريد البقاء وانتظارها، وأجابته بأنَّ لهذا السبب بالذات هو ذاهبٌ إلى بيت نانا، كي يتسنى للمفاجأة أن تصل من تلقاء نفسها. وسألها لماذا المفاجأة ترفض القدوم ما دام هو موجودٌ هنا فأجابته

لأنه قد يخيفها والمفاجأة ستكون صغيرة جدًّا ومذعورة جدًّا، لذا إن أراد فعلًا للمفاجأة أن تأتي، فسيكون عونًا كبيرًا لأمه إن صار ولدًا طيبًا وذهب الآن إلى جدته. وفيكتوريا ستصحبه إلى البيت مرةً أخرى متى ما أصبحت المفاجأة جاهزة لاستقباله؛ «أليس كذلك، فيكتوريا؟» وفيكتوريا، من بدت طوال النقاش وكأنها تضحك في سرها على أمرٍ ما، ضحكات صغيرة مبلوعة تفلت منها وتدمدم قائلة ربّ بارك قلبه الصغير كلما تكلم، قالت إنها بالتأكيد ستفعل.

«وستتلو صلواتك»، ذكّرته أمه، فجأة تنظر إليه بحبٍّ عارم أربكه. «أنت ولدٌ كبيرٌ الآن، وفي وسعك تلاوتها وحدك؛ أليس كذلك؟» وأومأ لها. تناولته بكتفيه وراحت تنظر شاخصةً إليه كأنها تدخل خيطًا في إبرة. وبينما كانت تنظر إليه، شيءٌ من الذهول والخوف اعترى ملامح وجهها. وجهها راح يلمع؛ ابتسمت؛ فمها انتفض وارتعش. أدنته منها أكثر ووجنتها كانت رطبة. «فليبارك الرب ابني العزيز، ابني الصغير»، قالت هامسة، «أبد الدهور! آمين» ومرةً أخرى أبعدته عنها؛ وجهها بدا كما لو أنها للتو قطعت مسافات شاسعة في سرعةٍ مذهلة. «وداعًا، حبيبي، آه، وداعًا».

«والآن أمسك يدي جيدًا»، قالت له فيكتوريا، عدستا نظارتها تعكسان وهج الشمس في تلفتها يمينًا ويسارًا عند حافة الرصيف. من أمامهما، مُقوّسًا عنقه وقائمتيه الأماميتين، جوادٌ بنّي زاهٍ يجُرُّ بوجيَّة باسترخاء في إيقاعٍ جليّ؛ وبين برامق عجلاتها السود الباهتة، الضياء يرتعش. وفي البعيد، أقصى الضياء، مثل النحلة الطنانة، عربة ترام صفراء تطن. الأشجار تتمايل. لم ينتظرا.

«فيكتوريا».

«مهلك، صغيري»، أجابته فيكتوريا، لاهثة. «انتظر حتى نعبر الشارع بأمان».

«والآن، ما الذي تريده، حلوي؟» سألته، ما إن بلغا الرصيف المقابل.

«لماذا بشرتك هكذا، سوداء؟».

رأى عينيها الصغيرتين ترمقانه بنظرة ثاقبة عبر عدستي نظارتها الصغيرتين وأحس بدفقٍ من الألم ينبجس عنها ولربما حتى الخطر. وأدرك أنَّ خطئًا وقع. لم تجبه فورًا لكنها حدجته بحدة. الدفق الهائج خمد وأشاحت بعينيها عنه، تعيد ترتيب أصابعها كي تمسك يده. وجهها بدا نائيًا جدًّا، قوي العزم. «لأني هكذا، صغيري»، قالت في نبرةٍ صارمة لكن رقيقة. «لأن على هذه الصورة خلقني الرب».

«ولهذا أنت ملونة، فيكتوريا؟».

شعر بتغييرٍ في يدها حين نطق بكلمة «ملونة». ومرةً أخرى لم تجبه فورًا، ولا حتى نظرت إليه. «أجل»، قالت أخيرًا، «لهذا أنا ملونة».

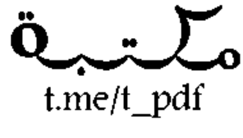
وانتابه حزنٌ عميق أثناء مسيرهما لكن ما كان ليعرف علام. بدت وكأن لا شيء لديها تقوله، وأحسَّ بأن ليس من اللائق أن يقول هو الآخر أي شيء. راح يتأمل وجهها العظيم، الحزين، أسفل قبعتها الساطعة، لكن بدا وكأنها غير مدركة لتأمله إياها أو

حتى لوجوده معها أصلًا. لكن بعد برهة أحس بيدها تضغط على يده، وبدوره شدَّ هو على يدها، وأحس بأنَّ أيًا كان الخطأ الذي ارتكبه فالأمور بينهما الآن غدت على ما يرام.

وبعد وقتٍ قصير قالت فيكتوريا، «صغيري، أريد أن أخبرك شيئًا». وانتظرها: يواصلان سيرهما. «فيكتوريا لن تعير بالًا إلى ما قلته التو، لأنها تعرفك جيدًا. وتعرف أنك ما كنت أبدًا لتقول كلامًا لئيمًا لأي أحد، ولو مقابل العالم كله. لكن هناك الكثير من الملونين الذين لا يعرفونك، حلوي. وإن قلت ما قلت، عن بشرتهم، عن لونهم، سيظنون أنك تتصرف بلؤمٍ معهم. سينتابهم شعورٌ سيئٌ جدًّا ولربما سيهتاجون غضبًا عليك، لكن فيكتوريا تعرف أنك لا تعني شيئًا بكلامك، بينما الآخرون لا يعرفونك كما تعرفك فيكتوريا. هل فهمتني، صغيري؟» كان ينظر رافعًا عينيه إليها بمنتهى الجدية. «إياك أن تقل شيئًا عن البشرة، عن اللون، على مسامع الملونين، لأنهم سيظنونك لئيمًا معهم. لذا كن حذرًا». ومرةً أخرى ضغطت على يده.

وبينما كانا يواصلان سيرهما أخذ يتفكَّر في فيكتوريا وتمنى لو كانت سعيدة، وشعر بأنه هو السبب أنها غير سعيدة الآن.

«فيكتوريا».



«أجل، حلوي؟».

«لم أقصد أن أكون لئيمًا معك».

توقفت فجأة وصريرٌ صدر عنها وهي تقرفص بصعوبة في

منتصف الرصيف ورجلٌ عابر تنحى فجأة ورمقها بنظرة باردة قبل أن يمضي في طريقه. وضعت كلتا يديها على كتفيه وها هو وجهها الضخم، الطيب، رائحتها الطيبة، قريبة جدًّا منه. «فليباركك الرب حبيبي، فيكتوريا تعرف أنك لم تقصد! فيكتوريا تعرف أنك أطيب ولدٍ في هذا العالم! لكن كان يجب عليها أن تخبرك. لأن الملونين يعانون كثيرًا في هذا العالم وهي تعرف أنك ما كنت لتود أبدًا أن تشعرهم بالسوء، حتى إن لم تكن تقصد».

«لم أرد أبدًا أن أشعرك بالسوء».

«فليبارك الرب قلبك الصغير. أنا لا أشعر بالسوء، ولا ذرة سوءٍ حتى. أنت تسعدني، وأمك تسعدني، ولا شيء في الدنيا ما كنت لأفعله لأجلكما حلوي، وأنت تعرف هذا. أنت تعرف هذا». قالت مرةً أخرى، تؤرجح رأسها مبتسمة، تربت على كتفيه. «لا تعرف كم اشتقت إليك، حلوي»، قالت له، لكن إحساسًا ساوره بأنها لم تكن تخاطبه هو تحديدًا. «ما كنت لأحبك أكثر لو كنت ابن بطني». صمتٌ انفتح حولهما وأحسَّ نفسه في فضاءٍ عظيم، في فضاءٍ وسع الظلمة نفسها، حيث السكون والطمأنينة؛ اتساعٌ يتخلله من أقصاه إلى أقصاه وجهُها الغامض وتذبذبُ الضوء المنسل من بين الأوراق. «والآن فلنمضِ في طريقنا»، قالت مع عظامها تصرُّ لدى وقوفها، تملس ملابسها المنشَّاة. «لا نريد أن نبقي جدتك في انتظارك طويلًا».

وها هو اللبلاب المُغبَّر يعترش الجدار، وها هي الدفيئة الصغيرة

في الفناء الأمامي، وعلى الشرفة، الخالة إميليا ونانا. وحتى قبل قطعه الشارع إليهما رأى خالته إميليا تلوح بيدها وفيكتوريا مرحة تلوح لها، في زقزقة ونقيق، «هللو»، وهو لوَّح مثلهما؛ وإميليا مالت نحو جدَّته ورآها تتلمس بوقها الصغير وترفعه وإميليا مالت قريبًا منه وكلتاهما الآن استدارتا نحوه وجدَّته نهضت وسمع ترحيبها الصادح «هللو»، وها هما الآن واقفتان عند الدرجات الأمامية، نانا تهبط درجات الشرفة بتأنٍّ، وكلهم اجتمعوا على الدرب المرصوف أسفل ظلال الماغنوليا، ومن خلف أمها أقبلت عليهم الخالة إميليا مبتسمة. وسرعان ما غادرتهم فيكتوريا؛ تلاشت عند ناصية الطريق، أعلى الشارع على بعد مربعات سكنية، خطاها تتسارع شيئًا فشيئًا، في منتهى الوسامة، مثل قاربٍ شراعي.

الجزء الثاني

الفصل الثامن

قبل العاشرة بدقائق، رنَّ جرس الهاتف. ماري هرعت إلى إخراسه. «هللو؟».

الصوت كان صوت رجل، مشدودًا وواهنًا، صوت رجلٍ ريفيٍّ. كان يسأل سؤالًا، لكن لم تسمعه بوضوح.

«هللو!» سألت مرةً أخرى. «رجاءً، هلّا تكلمت في صوتٍ أعلى؟ لا أستطيع سمـ...قلت لا أستطيع سماعك! هلّا تكلمت في صوتٍ أعلى أرجوك؟ شكرًا».

الآن، منفعلة نافدة الصبر، صار في وسعها سماعه، مع أنَّ الصوت ظلَّ يبدو وكأنه آتٍ من بعيد.

«هل هذه السيدة جاي فوليت؟».

«نعم؛ ما الأمر؟» (إذ لوهلة عمَّ الصمت)؛ «نعم، أنا هي».

وبعد وهلة قال الصوت، «قد وقع حـ... زوجك تعرض لحادث».

رأسه! قالت في نفسها.

«نعم»، قالت في إذعان. وفي اللحظة ذاتها قال الصوت، «حادثٌ خطر».

«نعم»، قالت ماري في صوتٍ أوضح.

«ما أريد سؤالك إياه، هل هناك رجلٌ في عائلته، قريبٌ ما، باستطاعته القدوم هنا؟ سنكون ممنونين إن أرسلت رجلًا إلينا هنا، حالًا».

«أجل؛ أجل، هناك أخي. إلى أين يأتيكم؟».

«أنا هنا في محطة باول، عند دكان برانيك الحداد، حوالي اثني عشر ميلًا من شارع بول كامب بايك».

«برالــــ».

«برر ـ اا ـ نيك الحد ـ اا ـ د. على اليسار مباشرةً من شارع كامب عند الانعطاف المؤدي إلى جانبكم، إلى جهة نوكسفيل من جسر بيل». سمعت غمغمة، وغمغمة أصوات أخرى. «فقط أخبريه أنه لن يضيع المكان. سنبقي الأنوار مضاءة وسنترك قنديلًا منارًا أمام المكان».

«هل لديكم طبيب؟».

«ماذا قلت سيدتي؟».

«طبيب؟ هل لديكم طبيب؟ هل عليَّ أن أرسل طبيبًا؟».

«لا بأس سيدتي. رجلٌ من الأقرباء هو ما نحتاج إليه».

«سيأتيكم فورًا بأقصى سرعته». أطومبيل والتر، خطر لها. «شكرًا جزيلًا على اتصالكم».

«لا بأس سيدتي. أكره حملي خبرًا سيئًا إليك».

«تصبح على خير».

«الوداع، سيدتي».

وجدت نفسها بالكاد قادرة على الوقوف، تكاد تتدلى من الهاتف. شدَّت ركبتيها، اتكأت على الحائط، واتصلت بآندرو.

«آندرو؟».

«ماري؟».

أخذت نفسًا عميقًا.

«ماري».

أخذت نفسًا عميقًا آخر؛ كما لو أنَّ رئتيها ما عادتا كبيرتين كفاية.

«ماري؟».

دائخة، بصرها مغبَّش، تحاول استطاعتها السيطرة على رجفة صوتها، قالت، «آندرو، قد وقع... رجلٌ اتصل للتو، من محطة باول، على بعد اثني عشر ميلًا من لافوليت، ويقول -يقول إنَّ جاي- قد تعرض لحادثٍ خطر. ويريد...».

«يا الله! ماري!».

«يقول إنهم يريدون رجلًا من عائلته يأتيهم بأسرع وقتٍ ممكن، أظن، حتى يساعده في العودة إلى هنا».

«سأتصل بوالتر، سيقلني إلى هناك».

«أجل اتصل به، إذن ستذهب آندرو؟».

«بالطبع سأذهب. لحظة».

«ماذا؟».

«عمتي هانا».

«هل لي أن أكلمها بعدك؟».

«بالتأكيد. وأين أصيب جاي، ماري؟».

«لم يخبرني».

«حسنٌ، وأنت لم تسـ... لا بأس».

«لا، لم أسأل»، أجابته، وقد فاجأها إدراكها الآن أنها لم تسأل. «أظن لأني كنت واثقة بأنه أصيب في رأسه. يقينًا في رأسه، لهذا لم أسأل».

«هل لديهم ـ أعني هل يجدر بي إحضار الدكتور ديكالب؟».

«سألته وأجابني بِـ لا؛ فقط أنت».

«إذن على الأرجح لديهم طبيب».

«على الأرجح».

«سأتصل بـِ... انتظري، هاك عمتي هانا».

«ماري».

«عمتي هانا، جاي تعرض لحادثٍ خطر. هلّا أتيت هنا وانتظرت معي وساعدتني في تجهيز البيت في حال... في حال كان وضعه جيدًا كفاية ليتعافى هنا بدلًا من المستشفى؟».

«بالتأكيد ماري، بالتأكيد سآتيك».

«وهلا أخبرت ماما وبابا أن لا يقلقا، أنَّ لا داعي لقدومهما، وأني أحبهما. خيرٌ للجميع إن بقينا هادئين إلى أن يتبين لنا ما حصل».

«بالطبع علينا أن نبقى هادئين. سآتيك فورًا».

«شكرًا، عمتي هانا».

مضت إلى المطبخ وأوقدت نارًا سريعة ووضعت عليها إبريقًا كبيرًا من الماء، وإبريقًا صغيرًا للشاي. الهاتف رن.

«ماري! إلى أين أذهب؟».

«أوه، محطة باول، خارج شارع كامب في اتجاه...».

«أدري، لكن أين بالضبط؟ ألم يخبرك؟».

«قال عند دكان برانك الحداد. بررانيك. هل سمعتني؟».

«أجل، برانك».

«قال إنهم سيبقون الأنوار مضاءة ولن تتوه عنه. المكان على يسار المنعطف الخارج من كامب نحو جانب نوكسفيل من جسر بيل. فقط قُدْ قليلًا في ذاك الاتجاه وستجدهم».

«حسنٌ، ماري، والتر قادمٌ إليَّ الآن وفي طريقنا سنحضر العمة هانا إليك».

«حسنٌ. شكرًا آندرو».

أضرمت النار أكثر وهرعت نحو غرفة النوم في الطابق السفلي. وكيف لي أن أعرف، سألت نفسها؛ فهو حتى لم يخبرني، وأنا حتى لم أسأله. لكن من أسلوب كلامه لربما ـ نزعت غطاء السرير، طوته، وملست الدثار. لا، لن أفكر في أي شيء حتى أعرف أكثر، قالت في نفسها. هرعت نحو خزانة البياضات وأحضرت ملاءات وأغطية وسائد نظيفة. لم يخبرها إن كان لديهم طبيب أم لا. فرَدَت ملاءة، دست أولًا حاشيتها السفلية تحت الفرشة، ومن هناك سحبتها وبسطتها، ثم راحت تدس سائر حواشيها. فردت راحتيْ يديها عليها؛ كم باردة الملمس وناعمة كانت تحت راحتيها حدًّا بعث في نفسها أملًا عظيمًا. يا الله، دعه يكن سليمًا كفاية كي يأتي البيت وأرعاه بنفسي، حيث لي أن أرعاه *جيدًا* بنفسي. ليت بالي يرتاح! لا بأس سيدتي. رجلٌ من أقربائه هو كل ما نريد. فردت الملاءة العليا. لا بأس سيدتي. قد يعني أي شيء. قد يعني أنَّ لديهم طبيبًا هناك ومع أنَّ الحادث خطر فالطبيب مسيطرٌ على الوضع، ليس سيئًا على نحوٍ مروِّع، رغم أنه قال إنه خطر أو لربما... لحافٌ خفيف في هذا

الطقس. لحافان، في حال برد الجو. هرعت وأحضرتهما، غير واعية إن كانت تصدر جلبة قد توقظ طفليها، وغير واعية أنها حتى في عجلتها هذه، فهي، بحكم العادة، تتحرك في صمت. أي رجلٍ من أقربائه. يعني أنَّ الأمر سيئ، وإلا لكان طلب حضوري. لا، لأن عليَّ البقاء مع طفليَّ. لكن ما أدراه أنَّ لدي أطفالًا. ومع ذلك، فمكاني في البيت، كي أستعد لاستقباله، وهو يعرف ذلك. لم يقترح عليَّ إعداد أي شيء. هو يعرف أني أعرف واجباتي. هو رجل، وما كان ليخطر له اقتراح أي شيء. تناولت طرف الوسادة بأسنانها وجذبت الغطاء إلى الأعلى ثم نفضتها ووضعتها مكانها على السرير. تناولت طرف الوسادة الثانية بين أسنانها، تعض بقوة حدًّا آلمتها جذور أسنانها، وجذبت الغطاء إلى الأعلى ثم نفضتها ووضعتها مكانها على السرير. أزاحت الوسادة الأولى حتى الحافة وأزاحت الوسادة الثانية حتى الحافة المقابلة وبيديها نفضتهما معًا وملستهما ووقفت بعيدًا تنظر إليهما وهي تميل برأسها جانبًا، وللحظة رأته جالسًا في الفراش مع صينية على ركبتيه كما حصل تلك المرة حين آذى ظهره، ونظر هو إليها، لا مبتسمًا بل شبه مبتسم، وكان لها أن تسمع صوته، نكدًا، يتظاهر أنه نكد حتى يغيظها ويمازحها. إن كان رأسه، عادت وذكرت نفسها، فسيتوجب عليه الاستلقاء تمامًا على ظهره.

كيف لي أن أعرف؟ كيف لي أن أعرف؟

تركت الوسائد كما هي عليه، استدارت حول السرير إلى الجانب المقابل، القريب من النافذة، وملست الفراش. وبمنتهى العناية أعادت طي اللحاف الثاني ووضعته عند الحافة السفلى من السرير،

لا، سيزعج قدميه. لذا علقته على لوح القدم. وقفت تتأمل الفراش المعد بكل عناية، ولثوانٍ قليلة، لم تكن متيقنة أين هي أو لماذا أصلًا تعد هذا الفراش. ثم تذكرت وقالت، «أوه»، في صوت خفيض، مصعوق، رقيق. شرَّعت النافذة، بدفَّتيها العلوية والسفلية، وحين هبَّت الستائر موجًا عارمًا أعادت ربطها بإحكام. توجهت نحو خزانة الردهة وأحضرت النونية وشطفتها وجففتها ووضعتها أسفل السرير. توجهت نحو خزانة الأدوية وتناولت مقياس الحرارة، هزَّته، شطفته في ماءٍ فاتر، جففته، ووضعته جانب السرير في كأس ماء. رأت أن منشفة اليد التي تغطي هذه الطاولة مغبرة، رمت بها في سلة الغسيل، وأبدلت بها منشفة نظيفة، ثم بدلت بهذه المنشفة منشفة ضيوف كتانية أنيقة حوافها مطرزة بزهور البنفسج والثالوث. رأت أنَّ الوسادة الأمامية ارتخت قليلًا، فأعادت نفضها. أسدلت حجاب النافذة. أطفأت النور وجثت على ركبتيها، تلقاء السرير، وأغمضت عينيها. لمست جبهتها، عظمة القصِّ في صدرها، كتفها الأيسر، كتفها الأيمن، وضمَّت يديها.

«إلهي، إن تكن هذي مشيئتك»، صلَّت هامسة. وما كان بيدها التفكير بقول أي شيءٍ آخر. لذا عادت ورسَّمت الصليب في تأنٍّ، من قلبها، على مدى نفسها، وشعرت بشيءٍ من شكل الصليب يتشكل في جسدها؛ الصلابة والسكون.

«فلتكن». ومرةً أخرى ما كان بيدها التفكير في أي شيءٍ آخر. نهضت عن ركبتيها ودون أن تنير المصباح أو تلتفت نحو السرير،

مضت إلى المطبخ. الماء لأجل الشاي شبه تبخر. الماء في الإبريق الكبير فاتر. والنار شبه خامدة. وبينما راحت تضرم النار، سمعت أصواتهم على الشرفة.

هانا دخلت، يداها ممدودتان، وماري مدَّت يديها وأمسكت بهما وقبَّلت وجنتها، تقولان بعضهما لبعض في اللحظة ذاتها «ماري»، «عزيزتي»؛ ثم هرعت هانا لوضع قبعتها على المشجب. آندرو بقي عند الباب المفتوح ولم يقل شيئًا بل ظلَّ ينظر إلى عينيها؛ عيناه كانتا متحجرتين ساطعتين مثل عينيّ طائر، تنطقان بشكٍّ مريرٍ وبارد، كأنما يتهم شيئًا أو أحدًا (ولربما حتى أخته) بتهمةٍ تعجز الكلمات عن النطق بها. شعرت كما لو كان يقول لها، «كل هذا وما زلت تؤمنين بربك الغبي؟» والتر ستار ظل واقفًا في الظلمة؛ كلُّ ما رأته ماري عدستا نظارته الكبيرتان، الظلال المعتمة لشاربه وكتفاه الضخمتان.

«تفضل، والتر»، قالت له، صوتها مفعمٌ بالحنان وكأنها تلاطف طفلًا.

«لا وقت لدينا»، قال آندرو في حدة.

والتر تقدم نحوها وتناول يدها، وبيده الأخرى لمس معصمها برقة. «لن نتأخر عليكم»، قال لها.

«فليباركك الرب»، دمدمت، وشدت على يده حدًّا ارتجف ذراعها.

ربَّت على معصمها المرتجف أربع مرات متتالية، ثم استدار

عنها قائلًا، «يجدر بنا أن ننطلق الآن، آندرو»، ومضى خارجًا. كان بإمكانها سماع صوت محرك الأطومبيل إذ تركه دائرًا، وللتو أدركت وبجلاءٍ لا لبس فيه كم أنَّ الخطب جلل.

«كل شيء جاهز في حال -تعرف- في حال كان - كان جيدًا كفاية لإحضاره إلى بيته»، قالت ماري لآندرو.

«حسنٌ. سأتصل، ما إن أعرف. أي شيء».

«حسنٌ، عزيزي».

عيناه تبدلتا وفجأة امتدت يده إليها وأمسكها بكتفها، قائلًا، يوشك على البكاء، «ماري، أنا آسفٌ جدًا».

«حسنٌ، عزيزي»، أجابته مرةً أخرى، وشعرت بأن إجابتها جاءت فارغة بلهاء؛ لكن ما إن خطر لها هذا، حتى كان آندرو يركب الأطومبيل. وقفت على الشرفة تراقبها إلى أن اختفت، ولدى استدارتها للعودة داخلًا، وجدت هانا جانبها.

«سأعد الشاي، فقد سخَّنت الماء وهو جاهزٌ الآن»، قالت تنظر خلف كتفها، تنطلق على عجل عبر الردهة.

دعيها، قالت هانا في نفسها، تهرع محاوِلةً اللحاق بها. دعيها تفعل ما تريد.

«يا لطيف! تبخر الماء! اجلسي عمتي هانا، تكَّة ويكون جاهزًا». وأسرعت نحو المغسلة.

«دعيني...» قالت هانا؛ ثم تراجعت، آملة أنَّ ماري لم تسمعها.

«ماذا؟» كانت تصب الماء في الإبريق.

«فقط أعلميني إن كان هناك من شيء أساعدك به».

«لا شيء، شكرًا عمتي». وضعت الماء على الموقد. «أوه، أرجوك اجلسي». هانا سحبت كرسيًا عند الطاولة. «أعددتُ كل شيء، كل ما تصورته ضروريًّا»، قالت ماري. «حسب ما نعرفه، حتى الآن». وجلست على الطرف المقابل من الطاولة. «جهزت غرفة النوم في الطابق السفلي» (ولوحت بشكلٍ مبهم إلى الغرفة) «ذاتها التي بقي فيها حين عانى المسكين من التواءٍ في ظهره، تذكرين». (بالطبع أذكر، قالت هانا في نفسها؛ دعيها تتكلم.) «فهي أفضل بكثير من الغرفة في الطابق العلوي. قريبة من المطبخ والحمام ولا درج يصعده، وبالطبع، هذا إن اضطر، إن احتاج إلى وجود ممرضة ليلية، فلها أن تقيم في غرفة الطعام وتتناول وجباتها في المطبخ، أو حتى نضع سريرًا نقالًا لها في الغرفة، مع ساترٍ بينهما، أو إن كانت تمانع فلها أن تنام على الأريكة في غرفة المعيشة وتترك الباب بينهما مفتوحًا. أليس هذا أفضل؟».

«بالتأكيد»، قالت هانا.

«سأرى إن كان بمقدوري إحضار سيليا، سيليا غن، إن كانت متوفرة، أو إن كانت ترعى مريضًا تسمح له حالته بأن تغادره، إذ سيكون خيرًا للجميع إن حصلنا على شخصٍ نعرفه، صديقٍ قديم، مثل فردٍ من العائلة، من أن نحضر شخصًا غريبًا علينا، أليس هذا أفضل؟».

هانا أومأت.

«حتى وإن، بالطبع، جاي لا يعرفها، فهي صديقة قديمة لي أنا، لا جاي، ومع ذلك، أظنه خيرًا لنا، أعني، سيخلق انسجامًا أكثر بيننا، أليس هذا أفضل؟».

«بكل تأكيد».

«لكن أرى من الأفضل أن ننتظر سماع الخبر من آندرو، لا داعي لأن نتسبب في أي إزعاج، أعني، لربما سيحتاج إلى نقله فورًا إلى المستشفى. فالرجل قال إنه حادثٌ خطر».

«قرارٌ حكيمٌ منك أن تنتظري»، قالت هانا.

«ما بال هذه الماء؟» التفَّت ماري في كرسيها كي ترى. «بحق الرب، لم تغلِ بعد». نهضت وأضرمت في النار جذىً أكثر، وتناولت من الأعلى علبة الشاي. «لا أدري إن كنت حقًّا أود شرب شاي، على أية حال، لا ضير إن شربنا شيئًا دافئًا بينما نحن جالستان ننتظر، أليس كذلك؟».

«سأود شرب شاي»، قالت هانا التي لم ترغب في أي شيء.

«حسنٌ، سنعد الشاي. ما إن تجهز الماء». وعاودت الجلوس. «ارتأيت أنَّ لحافًا خفيفًا واحدًا سيكون كافيًا لليلة كهذه لكني تركت لحافًا آخر على قدم السرير في حال برد الجو».

«سيكون كافيًا».

«يعلم الله»، قالت ماري، في صوتٍ مبهم، ثم لاذت بالصمت.

راحت تنظر إلى يديها على الطاولة، مضمومتين على نحوٍ مسترخٍ. هانا تنبهت إلى أنها تحدق في ماري عن كثب. خجلة من نفسها، سمَّرت عينيها الحزينتين أبعد قليلًا عنها. تساءلت في نفسها. لربما خيرٌ لماري ألا تواجه الحقيقة إلا حين تضطر إلى مواجهتها. إن تبيَّن قطعًا أن هذه هي الحقيقة. فقط أمسكي لسانك، قالت في نفسها. فقط أمسكي لسانك.

«أتدرين»، قالت ماري في تأنٍّ، «أغرب ما في الأمر برمته» تستدير على مهل وتفرك أصابعها المضمومة بعضها ببعض. هانا انتظرت. «حين اتصل الرجل»، قالت، تحدق بهدوء إلى أصابعها المتحركة، «وقال إنَّ جاي قد تعرض لـ... حادثٍ خطر»؛ هانا أدركت الآن أنَّها تنظر نحوها، وعيناها التقتا بعينيها الرماديتين البراقتين، «تيقنت لحظتها كما أنا متيقنة من جلوسي الآن على هذا الكرسي، *أنه رأسه*. ما رأيك بهذا عمتي؟» سألتها كما لو كانت فخورة بنفسها.

هانا أشاحت بعينيها عنها. فما الذي في وسع المرء قوله. مع ذلك، فماري قالتها في يقينٍ تام صيَّرها هي شبه متيقنة. رنت بعينيها إلى لوحة حيث الماء ساكن، صافٍ وعميقٍ جدًّا، ورغم العتمة، وضعف بصرها مذ أيام صباها، فقد رأت الرمل والغصينات والأوراق الميتة المتساقطة في قعر الماء. سحبت نفسًا عميقًا وزفرته في تنهيدة طويلة، بطيئة، طقطقت لسانها ودمدمت، «لا أدري».

«بالطبع علينا أن ننتظر لنرى»، قالت ماري بعد صمتٍ طويل.

«نعم». قالتها هانا في صوتٍ رقيق، وقد سحبت نفسًا عميقًا قبل نطقها بها، وأبقت على شفتيها مزمومتين بعدها.

وأخيرًا، في غمرة صمتهما العميق، بدأتا تسمعان فرقعة الماء. وحين نهضت ماري وجدت نصف الماء قد تبخر.

«ما زال لدينا ما يكفي لكوبين»، وتناولت المصفاة وصبت في الكوبين، ثم أضافت مزيدًا من الماء. رفعت الغطاء عن الإبريق الكبير. على حوافه، أسفل خط الماء، فقاعاتٌ تحتشد مثل خرز المسبحة؛ ومن قعر الإبريق لولبٌ ينبجس من فقاعات بالغة الصغر مثل حبات رملٍ بيضاء؛ وسطح الماء يلتفُّ بطيئًا حول نفسه. وتساءلت في نفسها ما النفع من غليها هذا الماء.

«في حال»، دمدمت في نفسها.

هانا قررت ألا تسألها عمّا قالته للتو.

«لدينا زوزس»[1]، قالت ماري، وتناولتها من خزانة الأطباق. «أو هل ترغبين في خبزٍ وزبدة؟ خبزًا محمصًا. بإمكاني أن أعد لنا خبزًا محمصًا».

«فقط الشاي. شكرًا».

«ها هو السكر والحليب. أو ترغبين في ليمون؟ فلنرَ، هل عندي لـ...».

---

(١) «ZuZus»: تشكيلة مكسرات من اللوز والجوز مغطاة بالزبدة.

«حليب، شكرًا».

«أنا أيضًا». وعاودت ماري الجلوس. «أوه، الجو قائظٌ هنا!» نهضت وفتحت الباب المطل على الشرفة، وعاودت الجلوس.

«يا ترى متى...» التفتت تنظر خلف كتفها نحو ساعة المطبخ. «في أي ساعة غادرا، هل تعرفين؟».

«والتر جاء لأجلنا العاشرة والربع. لذا، أظنهما غادرا بعدها بخمس وعشرين دقيقة».

«فلنرَ، والتر يقود بسرعة، وإن ليس في سرعة جاي، لكن الليلة يقينًا سيقود أسرع من المعتاد، والمسافة بالكاد تتعدى اثني عشر ميلًا. فهذا معناه، إن افترضنا أنه يقود بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة، والمسافة هي اثنا عشر ميلًا، إذن، ستة ضرب أربعة يساوي أربعًا وعشرين، وستة ضرب خمسة يساوي ثلاثين، وأربع وعشرون هي ضعف اثني عشر، آه، بحق الرب. لطالما كنت ضعيفة في الحساب..».

«فلنقل نصف ساعة، إن أخذنا الظلام في الاعتبار، وأنَّ الطرق هناك ليست مألوفة لدى والتر».

«إذن سنسمع خبرًا منهما عن قريبٍ جدًّا. عشر دقائق. خمس عشرة دقيقة على الأكثر».

«أجل، أظن ذلك».

«ربما عشرون، اعتمادًا على الطرق، لكن ذاك الطريق جيد مقارنةً ببقية الطرق هناك».

«ربما».

«*لماذا لم يخبرني!*» صاحت ماري فجأة.

«ما الأمر؟».

«*لماذا لم أسأل؟*» نظرت إلى عمتها ذاهلة غضبى. «حتى أني *لم أسأله*! إلى أي حد الحادث خطر! أين أصيب؟ هل هو حيٌّ أم ميِّت؟».

ها هي ذي، قالت هانا في نفسها. وفي ثبات وهدوء نظرت إلى عينيها.

«سنعرف، كل ما علينا فعله الآن هو الجلوس والانتظار».

«أدري!» صاحت ماري غاضبة. «*وهذا ما لا أطيقه!*» تجرعت نصف شايها دفعةً واحدة؛ حرقها وآلمها لكنها بالكاد أحست بشيء. ظلت وحسب تحملق غضبى إلى وجه عمتها.

هانا ما خطر لها كلمة بيدها أن تقولها.

«أنا آسفة»، قالت ماري. «أنت محقة تمامًا. عليَّ أن أتماسك، هذا كل ما في الأمر».

«لا بأس»، قالت هانا، وكلتاهما لاذتا بالصمت.

هانا كانت مدركة أنَّ الصمت في ذاته حملٌ لا يطاق على ماري، وأنه سيضعها وجهًا لوجه أمام احتمالات يشق عليها مواجهتها. لكن عليها أن تواجهها، قالت في نفسها؛ عاجلًا لا آجلًا. عدا أنها

هي نفسها وجدته شاقًّا عليها التواجد هنا، وعدم قولها شيئًا واحدًا يخفف عنها، أو يؤجل المحتوم. كانت على وشك الكلام حين انفجرت ماري غضبى، «بحق الرب، لماذا لم أسأله! لماذا لم أسأله! لماذا لم أكترث؟».

«لأنه وقع فجأة»، هانا قالت لها، «كنتِ في حال صدمة».

«لكن لتوقعتني أن أسأل، أليس كذلك؟ كنت تتوقعين مني أن أسأل؟».

«ظننتِ لحظتها أنك تعرفين. أنت أخبرتني أنك كنت متيقنة أنه أصيب... في رأسه».

«لكن إلى أي حد الإصابة خطرة؟ إلى أي حد!».

أنا وأنت نعرف، قالت هانا في نفسها. لكن من الأفضل أن تقوليها أنت، أن تجبري نفسك على الإقرار بها. «بالتأكيد لم يكن بسبب عدم اكتراث..».

«لا، لا، بالتأكيد لا، لكن أظنني أعرف ما السبب. أظن، أظنني كنت خائفة جدًّا من سؤاله عمَّا جرى حقًّا».

هانا نظرت إلى عينيها. أومئي، قالت لنفسها. قولي لها *أجل، أظن هذا ما حدث*. التزمي الصمت وستزيدين الأمر سوءًا عليها. لكنها سمعت نفسها تقول ما عزمت على المجازفة بقوله قبل أن تقاطعها ماري: «هل تفهمين لماذا جـ... لماذا أبوك وأمك بقيا في البيت؟».

«لأني طلبت منهما ألا يأتيا».

«ولماذا فعلت ذلك؟».

«لأنَّكم إن جئتم جميعًا، واحتشدتم هنا، فسيبدو وكأننا نتوقع ـ كأننا نتوقع الأسوأ قبل حتى أن نعرف به».

«ولهذا السبب بقيا في البيت. أبوك قال إنك ستتفهمين الأمر».

«بالطبع سأتفهم».

«علينا وحسب ألا ننجرف وراء أي افتراضات ـ لا *الجيدة* منها ولا السيئة».

«أعرف، أعرف أنَّ هذا ما يتوجب بنا فعله. الأمر وحسب، أنَّ هذا الانتظار، هكذا في العتمة، لأثقلُ عليَّ بكثير مما أطيق».

«حتمًا سنسمع خبرًا في القريب العاجل».

ماري التفتت نحو الساعة. «أي لحظةٍ الآن». واحتست قليلًا من الشاي.

«لا يسعني الكفُّ عن التساؤل، لماذا لم يخبرني المزيد. *حادثٌ خطر*، كذا قال. لكن لم يقل، *حادثٌ خطرٌ جدًّا*. فقط *خطر*. مع أن، والله يعلم، *خطر* تكفي. لكن لماذا لم يخبرني؟».

«كما قال أبوك، أراهن أنه مجرد ريفيّ أحمق لعين»، قالت هانا.

«لكن لا شيء أهم من هذا كي يقوله، ولا أبسط، ليته على الأقل منحني فكرة أوضح. إن كان في حالٍ جيدة كي يعود إلى

البيت، أو يتوجب إرساله إلى المستشفى، أو... لم يقل أي شيء عن سيارة إسعاف. فسيارة الإسعاف يقينًا تعني المستشفى. وحتمًا إن كان يعني ـ *الأسوأ*، لقالها مباشرةً ولَمَا تركني هكذا معلقة في هذا الجمر. أعرف أنه ليس من شأننا نحن العباد على هذه الأرض أن نسأل في أمور الغيب، إن كان القضاء الواقع خيرًا *أم* شرًّا، لكن إحساسًا يساورني، في قلبي، أنَّ لدينا كل الأسباب كي نكون مطمئنين، عمتي هانا. يهيأ لي أنَّ...».

الهاتف رن؛ وصوته أفزع كليهما فزعًا ما عاشته إحداهما من قبل. كلٌّ نظرت إلى الأخرى، نهضتا واستدارتا نحو الردهة. «أنا ...» قالت ماري، تلوح بيدها في وجه عمتها كما لو أنها تمحوها عن الوجود.

وهانا وقفت في مكانها، أحنت رأسها، أغمضت عينيها، ورسَّمت الصليب على صدرها.

وقبل الرنة الثانية رفعت ماري السماعة، لكنها للحظة عجزت عن وضعها على أذنها، عن النطق بكلمة. ربّ *ساعدني*، *ساعدني*، *ساعدني*، همست في قلبها. «آندرو؟».

«بولي؟».

«بابا!» الخوف والارتياح فيها على كفتين متساويتين. «وصلكَ خبر؟».

«وصلكِ؟».

«كلا. أنا قلت، *وصلكَ خبرٌ من آندرو*؟».

«كلا. ظننتك لا بد عرفتِ الآن».

«لا. لا ليس بعد. ليس بعد».

«لا بد أني أخفتك».

«لا بأس بابا، لا تقلق».

«آسفٌ جدًّا، بولي، ما كان يجدر بي الاتصال».

«لا بأس».

«متى ماعرفتِ شيئًا، أعلمينا فورًا».

«بالطبع سأفعل بابا. أعدك. بالطبع سأفعل».

«هل تودين منا الحضور؟».

«لا، بارك الرب قلبك بابا، خيرٌ لكما ألا تأتيا، ليس بعد. لا داعي لإزعاج الجميع قبل أن نعرف حقًّا ما جرى».

«هذه هي فتاتي القوية!».

«أبلغ حبي إلى ماما».

«وهي تبلغك حبها حلوتي. ولا داعي إلى أن أقول حبي أنا أيضًا. أعلمينا فورًا».

«بالتأكيد بابا. وداعًا».

«بولي؟».

«نعم؟».

«أنت تعرفين شعوري حول ما يجري الآن».

«أجل بابا، أعرف، وشكرًا لك. لا حاجة بك إلى أن تخبرني».

«حتى إن حاولت، ما كنت لأستطيع. أبدًا ما كنت لأستطيع. لا شعوري تجاهك وحسب بل تجاه جاي أيضًا، وأمك. أنت تفهمين ما أعني».

«أفهم بابا. وداعًا».

«كان بابا»، قالت لهانا، تجلس متثاقلة على كرسيها.

«ظننته آندرو».

«أجل...» احتست الشاي. «أفزعني حتى الموت».

«ما كان يجدر به الاتصال. حماقةٌ بالغة منه».

«لا ألومه. أظن الأمر أسوأ عليهم وهم جالسون هناك، بعيدًا عنا».

«لا شك أنَّ الأمر صعب».

«بابا يخفي مشاعره أكثر مما يظهرها».

«أدري. وسعيدة أنك تدركين ذلك».

«أعرف أنَّ بابا يُقدِّر جاي كثيرًا».

«رائع ـ إلهي، آمل أنك صدقًا تعرفين!».

«حسنٌ، لزمنٍ طويل لم يكن لديَّ سبب لأتيقن من مشاعره هذه»، ردَّت ماري في نبرةٍ حاسمة، «ولا حتى من مشاعر ماما». تمهلت لحظة. «وأنت أيضًا عمتي هانا. أنت تعرفين. حاولتِ جهدك ألا تظهري مشاعرك، لكني عرفتُ بها وكنتِ على علم بمعرفتي بها. لا بأس الآن، فقد مرَّ وقتٌ طويل، لكنك تعرفين».

هانا واصلت النظر إلى عينيها. «أجل، هذه هي الحقيقة، ماري. انتابنا وقتئذ الكثير من ـ الكثير من الهواجس الفظيعة؛ لكن كانت لدينا للأسف مبررات جيدة، كما بتُّما تعرفان».

«كومة من المبررات الجيدة، لكن مشاعركم هذه ما سهَّلت أبدًا الأمر علينا».

«ولا علينا»، قالت هانا. «بالتأكيد ما كان سهلًا عليكما أنت وجاي، لكن أيضًا ما كان سهلًا على أمك وأبيك، وكل شخصٍ يحبك، وأنت تعرفين هذا».

«أعرف، *أنا* أعرف، عمتي. لا أعرف كيف انقلبت حياتي هكذا. لكن ما عاد من شيء يثير فيَّ الاستياء، ما عاد من شيء يثير فيَّ القلق، ولا حتى الحزن، لا فيَّ ولا فيه، وحمدًا للرب، لوقتٍ طويلٍ الآن هذا هو شعورنا. آه، علام حديثي هذا الآن! بتاتًا ليس وقته! دعنا لا نقل كلمةً أخرى حوله».

«كلمة واحدة وحسب، لأني لست واثقة أنك تعرفين بهذا. هل تعرفين كم أبوك يقدِّر جاي كثيرًا، *ودائمًا*، مذ لقائهما الأول؟».

ماري نظرت إليها، نظرة شكٍّ ثاقبة. وفكَّرت مليًّا قبل أن تجيبها.

«أعرف أنه أخبرني *ذلك*. لكن كل مرة كان يلحق كلامه هذا بتحذيرٍ شديدٍ لي. أعرف أنَّ، مع مرور الوقت، صار يقدر جاي كثيرًا».

«بل يرى فيه خيرة الرجال»، صرَّحت هانا بحزم.

«ولو، لا أصدق أنه فعلًا أحبَّه، أو احترمه لحظة التقاه، ولن أصدق هذا يومًا. ما كان سوى تملقٍ منه».

«وهل تظنين جاي رجلًا يقبل بالتملق؟».

«لا»، ابتسمت قليلًا، «بالتأكيد هو ليس هذا النوع من الرجال، أو على الأقل ليست عادته. لكن ما الذي تتوقعينه مني؟ ها هو يمدح جاي رافعًا إياه حتى السماء وفي الآن ذاته، بل في النفس ذاته، ينهال عليَّ بالسبب تلو الآخر لِمَ زواجي به لن يكون سوى حماقة بالغة. كيف سيكون شعورك لو كنت مكاني؟».

«ألا ترين أن أباك لربما كان محقًّا في الجهتين ـ أو على الأرجح، كان صادقًا في إحساسه تجاه الأمرين؟».

ماري تفكرت للحظة. «لا أعرف، عمتي. لا، لا أراه هكذا».

«لكنك رأيتِ بنفسك، ماري».

«رأيت!».

«عرفتِ أنَّ هناك صحة في الكثير مما قاله أبوك –في هواجسنا– لكن حتى معرفتك هذه لم تبدل شيئًا من رأيك في جاي، أليس كذلك؟ أدركت أنَّ بإمكانك تقبله في الحالين».

«معك حق. أجل، فعلت».

«نحن تسنى لنا أن نعرف أكثر وأكثر عن الصالح فيه، وأنت اضطررت إلى أن تعرفي أكثر وأكثر عن السيئ فيه».

نظرت إليها ماري في ابتسامة تحدٍّ. «أيًا يكن، حتى مع عمايَ في بداية زواجي، أظل محقة أكثر من أبي، أليس كذلك؟ لم يكن *خطأً*. بابا كان محقًّا في كلامه عن الصعوبات -أكثر بكثير مما تصور ومما تتصورين- لكن *لم* يكن خطأً. هل كان؟».

لا *تسأليني*، طفلتي، بل *أخبريني*، قالت هانا في نفسها. «من الواضح لا».

لوهلة، ظلت ماري صامتة، ثم قالت، في حياءٍ واعتزاز، «في الأشهر القليلة المنصرمة، عمتي، أنا وهو بلغنا مرحلة من -نوعٍ من التناغم الذي- الذي»، وراحت تهزُّ رأسها. «ليس من حقي الحديث عن هذا الأمر». رجفةٌ سرت في صوتها. «يقينًا ليس وقته الآن!» عضت شفتيها، هزَّت رأسها ثانية، وابتلعت قليلًا من الشاي، بصوتٍ مسموع. «النحو الذي صرنا نتكلم عليه الآن»، انتفضت فجأة، صوتها يفيض بالشاي، «وكأننا نرثيه!» ألقت بوجهها بين يديها ترتجف في نحيبٍ خاوٍ من الدموع. هانا قمعت رغبتها الملحة في النهوض ومواساتها. فليكن الرب بعونها، همست. فليحفظها الرب. لحظات ورفعت ماري عينيها إلى عمتها؛ عيناها كانتا هادئتين مشدوهتين. «إن مات»، قالت لها، «إن كان ميتًا، عمتي، لا أعرف ما الذي سأفعله. لا أعرف ما الذي سأفعله».

«الرب سيعينك»، قالت هانا، تمد يدها وتتناول يد ماري.

«الرب سيحفظك». ووجه ماري بأسره اهتاج. «ستكونين على ما يرام. أيًا يكن ما جرى، ستكونين على ما يرام. إياكِ وأن تشكي في ذلك. إياكِ أن تخافي». هدَّأت ماري من روعها. «لا بأس في أن نكون مستعدين للأسوأ»، قالت هانا، «لكن علينا ألا ننسى أننا لا نعرف شيئًا بعد».

كلتاهما، معًا، نظرتا نحو الساعة.

«يقينًا، في أي لحظةٍ الآن، سيتصل»، قالت ماري. «إلا إن تعرَّض هو الآخر لحادث!» وضحكت في انفعالٍ حاد.

«أوه، سنسمع منه عن قريبٍ جدًّا، أنا متأكدة»، قالت هانا. ولكنّا سمعنا منه طويلًا قبل الآن، قالت في نفسها، لو كان الخبر أي شيء عدا الاحتمال الأسوأ. شدَّت على يدي ماري المضمومتين، ربتت عليهما، وسحبت يدها، يساورها الإحساس أنَّ لا سلوان لها أن تقدمه الآن، فالأحرى بها أن تحتفظ به إلى أن يحين وقته.

ماري لم تقل شيئًا، وعجزت هانا عن التفكير في كلمة واحدة تقولها. فالأمر عبث، وهي مدركة لذلك، لكن مع كل ما يجري، استشعرت أيضًا حرجها الاجتماعي من عجزها عن قول أي شيء.

لكن، في النهاية، صدقًا، ما الذي بيد المرء *أن يقوله*! أي عونٍ سأقدمه أنا، أو أي بشرٍ مثلي؟

وإذ، بغتةً، ثقلٌ كبيرٌ يجثم على صدرها، إرهاقٌ شديدٌ انتابها، تمنت معه لو أنَّ لها أن تميل بجبينها على حافة الطاولة وتغفو.

«لا شيء نفعله سوى الجلوس والانتظار»، قالت ماري.

«أجل»، قالت هانا في تنهيدةٍ عميقة.

فلأشرب قليلًا من الشاي، قالت في نفسها، وهكذا فعلت. ولكونه مريرًا وفاترًا، زاد الشاي من تعبها.

وعلى مرِّ دقيقتين كاملتين جلستا دون أن تنطقا بكلمة.

«على الأقل مُنِحنا رحمة الوقت»، قالت ماري في بطء، «رغم هول هذا الانتظار، حتى نعد أنفسنا لما هو آتٍ». كانت تحدق جاهدة إلى كوبها الفارغ.

هانا عجزت مطلقًا عن قول أي شيء.

«أيًّا يكن»، واصلت ماري، «فقد *كان* وقُضي الأمر». كانت تتكلم في نبرةٍ عملية خالية من المشاعر؛ وهانا أيقنت، أن ماري بدأت الآن، وقد تجاوزت عواطفها، تدرك حقيقة ما حدث وما الذي ستواجهه. وها هي الآن ترفع عينيها إلى هانا، كلٌّ الآن تنظر إلى عيني الأخرى بثبات.

«احتمالٌ من ثلاث»، قالت ماري في بطء. «إما أنه مصابٌ إصابات خطرة لكنه سينجو، وفي أحسن الأحوال سيشفى تمامًا، وفي أسوئها سيصبح مقعدًا أو معتلًا أو فاقدًا لعقله». هانا تمنت لو أنَّ بيدها أن تشيح بعينيها عنها، لكنها كانت أدرى بأن عليها ألا تفعل. «أو إنَّ إصابته خطرة جدًّا وهو ميت لا محالة، ربما في ساعات، وربما أيام، وسيعاني معاناةً شديدة، ولربما اللحظة يتنفس

نفسه الأخير متسائلًا عن مكاني، ولماذا لست إلى جانبه الآن». صكّت على أسنانها وزمّت شفتيها للحظة، ثم قالت، «أو لربما كان ميتًا أصلًا حين اتصل بي الرجل والمسكين لم يطاوعه قلبه على أن يكون الشخص الذي يبلغني خبر موته».

«إما هذا وإما ذاك، وإما ذاك. لا يهم أيُّها يتحقق، فلا شيء بيدنا فعله، لا في هذا العالم بأسره ولا في عالم الغيب، لا شيء نأمله أو نخمنه أو نتمناه أو نصلي لأجله سيغير ذرة مما حصل أو يردُّه عنّا. لأنَّ أيًّا يكن، فقد كان. رُفِع القلم. وكل ما بيدنا فعله هو الاستعداد لما هو آتٍ، التحلي بالقوة في مواجهته، أيًّا يكن. فقد رفع القلم. وهذا كل ما يهم الآن. هذا كل ما يهم الآن لأنه الشيء الوحيد الذي بيدنا فعله، أليس كذلك، عمتي؟».

تتكلم، وبصوتها، بعينيها، بكل كلمةٍ تنطق بها، إنما كانت تفتح جرحًا غائرًا في هانا، كل تلك الساعات المنسية، مذ ثلاثين عامًا، وقتَ وجدت صليب الحياة يُلْقى على ظهرها بكل ثقله، بكل واقعيته، لتبدأ مذ ذاك تعلم الصبر والتسليم. *والدور حان عليك الآن، طفلتي*، قالت في نفسها؛ شعرت كما لو أنَّ صفحة هائلة تُقْلب اللحظةَ في صمت، والنَّفَس المنبعث من تقليب الصفحة يلامس روحها في روعٍ باردٍ ورقيق. روحها التي بدأت تدنو من منتهاها، كذا جال في خاطرها؛ ففي غضون هذه اللحظات هي نفسها هرمت، دنت قريبًا جدًّا من موتها، واللحظة هي راضية به. قلبها ازدهى فخرًا بهاري، فخرًا بكل أسىً تتذكره، سواء كان

أساها أم أسى الآخرين (والذكريات اجتاحتها)؛ فخرًا بعزيمتها وجلدها ومضيها قدمًا في حياتها. أرادت أن تصيح فيها *أجل، هو ذا تمامًا، أجل، أجل، افتحي عينيك. فاللدور حان عليك*. تمنت لو بيدها معانقة ابنة أخيها من ذراعيها وإبداء إعجابها بنضوجها هذا. تمنت لو بيدها ضمها إلى صدرها والأنين إلى الله *أجل أجل باتت تعرف معنى أن تكون حيًّا*. لكن فوق كل شيء هي أرادت أن تظل على سكونها حتى تسمع صوت هذه المرأة اليافعة، حتى تتأمل عينيها وجبهتها الدائرية وهي تتكلم، حتى تتقبل وتختبر من جديد التجربة التي عاشتها في شبابها، والتي ترفع روحها الآن وتخترقها مثل موسيقى حادة مدوية.

«أليس كذلك، عمتي؟» كررت ماري سؤالها.

«هو ذا، وأكثر بكثير».

«تعنين رحمة الله؟» سألت ماري برقة.

«لا أعني شيئًا من هذا القبيل»، ردَّت هانا بحدة. «ما أعنيه، أحبذ ألا أقوله الآن». (لكني أوشكت على قوله، قالت في نفسها، وقد روَّعتُها، آلمتُها، وكأني تفوهت ضد الرب). «فأنا أرى أن من الأفضل لك أن تعرفي بنفسك. *من تلقاء نفسك*».

«ما الذي تعنينه؟».

«أيًا يكن ما سنسمعه، فاعرفي، ماري، أنه يقينًا سيكون أمرًا صعبًا. صعبًا على نحوٍ مأساوي. وها أنت بدأت تدركين ذلك

وتواجهينه: بمنتهى الشجاعة. ما أعنيه أن هذه هي البداية وحسب. مع الأيام ستعرفين أكثر بكثير. بدايةً من أي لحظةٍ الآن».

«أيًّا يكن، فأنا أتوق إلى أن أكون *على قدر* الامتحان»، قالت ماري، عيناها تلمعان.

«لا تجهدي نفسك وتشقيها فقط كي تثبتي أنك على قدر الامتحان، ماري. لا تفكري هكذا، حتى للحظة. فقط ابذلي جهدك على تحمله ودعي سؤال الاستحقاق عند صاحبه. وسيكون أكثر من كافٍ إن فعلتِ».

«أشعر بأني أخذت على حين غرة، لست مستعدة البتة. ولم أُمْنح سوى نزرٍ قليلٍ من الوقت كي *أستعد*».

«ليس شيئًا يستعد له أي إنسان؛ كل ما عليك فعله وحسب أن تعيشيه».

استشفَّت هانا طموحًا في نبرة ماري، شاعرية، أو زهوًا، زهوٌ خطر جدًّا وأبدًا ليس في مكانه الصحيح. لكنها لم تكن متيقنة بعد مما عنته بكلامها؛ أن تضلل نفسها الآن، من بين كل الأوقات، بأمرٍ كهذا، أن تجادلها هانا فيه، أن تحذرها منه! المسكينة لمَّا تزل بعد يافعة، قالت في نفسها. لكنها ستتعلم؛ روحها المسكينة ستتعلم.

وبينما هانا كانت تنظر إليها، وجه ماري استنار خشوعًا. *أوه، لا، ليس بعد*، هانا همست يائسة لنفسها. لكن ماري قالت في حياء، «عمة هانا، هلَّا ركعت معي لدقيقة؟».

ليس بعد، أرادت أن تقول. ولأول مرة في حياتها تشك في جدوى الصلاة وإلى أي حد يسيء الناس استخدامها، لكن لم تعرف علام شكها هذا. *ما الذي بيدي قوله*، دار في خلدها، شبه مذعورة. *كيف لي أن أحكم*؟ صمتها طال؛ وماري ابتسمت لها، متهيبة، ملامح الارتباك تعلوها؛ تعاطفًا معها ورغم شكها نهضت هانا عن الطاولة والتفت حولها، وهي وماري ركعتا جنبًا إلى جنب. نحن مرئيتان، أدركت هانا؛ فحجاب النافذة كان مرفوعًا. *فلننته من الأمر*، غضبى قالت لنفسها.

«باسم الآب والابن والروح القدس، آمين»، قالت ماري في صوتٍ خفيض.

«آمين»، رددت هانا من ورائها.

كانتا صامتتين، لا شيء يُسمَع سوى تكة الساعة، تقلُّب الجمر، والهذر المتصاعد عن الإبريق الكبير.

الله ليس هنا، قالت هانا في نفسها؛ وفورًا رسَّمت صليبًا صغيرًا على عظمة القص في صدرها اتقاء تجديفها على الله.

«يا الله»، همست ماري، «أعِنّي على القبول بمشيئتك، أيًّا تكن». ثم لاذت بالصمت.

رَبّ *اسمعها*، قالت هانا لنفسها. ربّ اغفر لي. ربّ اغفر لي.

وما أدراني أنا عن اللحظة المناسبة لها، قالت لنفسها. ربّ اغفر لي.

ومع ذلك، ما استطاعت نزع الشك من قلبها: شيءٌ ما ليس في مكانه الصحيح، مثيرٌ للشفقة حدًّا لا يطاق، خبثٌ لا متناهٍ يجوس حرًّا طليقًا في إيمانها؛ عاجزة تمامًا عن صده أو حتى معرفة طبيعته.

وإذ، فجأة، تنشق فيها هوةٌ سحيقة لا قرار لها ومن أعماقها فاضت أنفاس الظلمة الأبدية وشلَّتها.

أنا لا أؤمن بشيء. لا أؤمن بأي شيء.

«أبانا» سمعت نفسها تقول، في صوتٍ غريبٍ عليها؛ وماري، البريئة من جرم ذعرها، انضمت إليها تصلي. وبينما هما تصليان، هانا أصغت أكثر وأكثر إلى الصوت اليافع، الدافئ، المتعبد، مخلوع الفؤاد، يعلو على صوتها هي، وإذ لحظة الكفر المرعبة تغدو مجرد ذكرى، إغواءٌ نجحت في مقاومته بفضل النعمة الإلهية.

نجنا من الشرير، رددت في صمت، عدة مرات بعد انتهائهما من الصلاة. لكن الخبث كان لمَّا يزل هناك، وكذلك الرحمة.

ومعًا نهضتا.

حين بات جليًّا، مع كل دقيقة تمر وبعدها مع خفق كل تكة، أنَّ آندرو قد حظي بمتسع من الوقت كي يصل، كي يهاتفهما، ماري وهانا انسحبتا أكثر وأكثر نحو الصمت. لبرهة قصيرة بعد صلاتهما، وفي ارتياحٍ عميق، راحت ماري تهذر عن أمور غير ذي علاقة بالحدث؛ حتى أنها أطلقت نكتًا صغيرة وضحكت عليها، ضحكًا يتوارى في أعماقه مسٌّ من الهستيريا؛ وخلال حديثها هذا كله، رأت

هانا أنَّ حريًّا بها (وفي هذه الحالة، الشيء الوحيد الممكن فعله) مسايرتها؛ لكن سرعان ما تلاشت هذه الحالة؛ وما كانت لتعاود الظهور؛ والآن ها هما مستغرقتان في الصمت، كلٌّ على جانبها من طاولة المطبخ، كلٌّ تشيح بعينيها عن الأخرى، تحتسي الشاي الذي لا رغبة لها فيه البتة. ماري أعدت إبريقًا جديدًا من الشاي، تبادلتا بضع كلمات حول الماء المغلي الذي سيغمر فيه الشاي، تناقشتا فيه لوهلة؛ لكن كل نقاشٍ يبدأ سرعان ما يوأد. ماري، تستأذن همسًا *اعذريني*، انسحبت إلى الحمام، في إحساسٍ هجين من المهانة والتواضع على استجابة المرء في وقتٍ كهذا إلى نداءٍ وضيعٍ كهذا؛ وللحظات شعرت بأنها ليست سوى غبية ومستعبدة مثل الطفل الجالس على نونيته، عدا أنها أكثر بلهًا منه وسوقية؛ من ثم، مع يديها المبللتين مغمورتين في حوض الماء البارد، راحت تحملق بعينين شكاكتين إلى وجهها الخدر المنعكس على صفحة المرآة، والذي بالكاد بدا حقيقيًّا لها، إلى أن، خجلة من نفسها، أدركت أنها من بين كل الأوقات، اختارت اللحظة كي تتأمل وجهها على المرآة. هانا، المتروكة وحدها، كانت ممتنة أننا في النهاية مجرد حيوانات؛ فالاحتياج الحيواني فينا، هذا الاحتياج اللحوح السخيف والمذل، هو ما يصون عقلانيتنا في أوقات كهذه، مثله مثل الصلاة؛ ومع بلوغها نهاية عزلتها، عقلها حرٌّ من حيل الرأفة المخادعة، أطلقت العنان للسانها، هامسة، همسًا عاليًا، «هو ميت. ولا ذرة شك في حقيقة موته»؛ ورسَّمت الصليب على نفسها وصلت عليه صلاة الميت، لكنها، وبحدة، ذكرت نفسها نحن لا نعرف بعد، وشعرت

كما لو أنها اللحظة تسلط قوىً خبيثة عليه، تحبط نية صلاتهما طلبًا لرحمة الله ورأفته به، أيًا يكن وضعه الآن. وحين عادت ماري، ألقت حطبًا أكثر في النار، نظرت إلى الإبريق الكبير، رأت أن ثلث مائه تبخر، وصبّت مزيدًا من الماء فيه. ولا واحدة منهما نطقت بكلمة، لكن كلٌّ عرفت ما الذي يجول في بال الأخرى، وبعد أن جلستا ولاذتا بالصمت زهاء عشر دقائق، ماري نظرت إلى عمتها، والتي ما إن أحست بعيني ماري عليها، حتى راحت تنظران إليهما؛ من ثم، في سكونٍ عميق، قالت ماري، «أتمنى لو أنه يتصل الآن، فأنا مستعدة».

هانا أومأت، إذ استشعرته بها: أنت الآن مستعدة. وخيرٌ أنك لا ترغبين حتى في مد يدك إليّ. وشعرت بشيءٍ ينتصب جليلًا ساطعًا في غمرة ظلمتها وكأنما يقول للرب قبالته: ها هي ذي وهي الآن مهيأة لتقبل الأسوأ وقد فعلتها من تلقاء نفسها، لا بمساعدتي، ولا حتى بعونك. فاحرص على أن تقدِّر فيها تسليمها بمشيئتك.

ماري مضت تقول: «إذ بالكاد لنا أن نتصور أن الخبر أقل سوءًا بكثير مما نتوقعه حدًّا أبهج آندرو ابتهاجًا عظيمًا فقرر أن يتجاهل الاتصال، ويعيد جاي مباشرةً إلى البيت كي تكون مفاجأةً رائعة. لكانت من شيم آندرو إن فعل. لو كانت هذه هي الحال. ولكان أيضًا من شيم جاي، إن كانا، إن كان واعيًا كفاية، كي يسايره في مفاجأته ويستمتع بها، كي ينفجر ضاحكًا على ذعرنا». في بريق عينيها، في وجهها شبه المبتسم، بدت وكأنها على وشك تصديق

ما قالته للتو، أنَّ في أيِ لحظةِ الآن سيؤول الوضع إلى هذا المنتهى. لكنها مضت قائلة، «بالكاد يعقل تصوره، احتمالٌ واحدٌ من مليون، لكن حتى مع *هذا* فالاحتمال قائم، وما دمنا لا نعرف يقينًا، فلن أطرد هذا الاحتمال من عقلي. لن ينطقها لساني، عمتي هانا، لن أقول إنه ميت، إلى أن أعرف أنه ميت».

«بالتأكيد لا !».

«لكني، مع ذلك، أكاد أجزم أنه ميت»، قالت ماري؛ وبقولها هذا، عيناها في عيني عمتها، عجزت للحظات عن تذكر ما كانت تنوي قوله. ثم تذكرت، وبدا لها خسةً منها أن تقول ما ستقول، وتمهلت إلى أن انقشع الضباب في عقلها والواقع بثقله تجلى صافيًا؛ «على ما أظن فالاحتمال الأرجح أنَّه كان ميتًا أصلًا لدى اتصال الرجل بي، وأنه ما احتمل نقل الخبر إليّ، ولا ألومه، بل أنا ممتنة له. عليَّ أن أسمعها من رجلٍ في العائلة – من شخصٍ مقرب من جاي، ولي. أظن آندرو كان شبه متيقن –من حقيقة ما جرى– لدى مغادرته البيت، وما كان بنيَّته أبدًا أن يتركنا معلقتين هكذا في حبال الأمل. كان ينوي الاتصال بنا. أنه طوال طريقه إلى هناك، ما انفك الأمل يراوده، أملٌ يائسٌ من كل أمل، مثلنا أنا وأنت، لكن حين –حين *رأى* جاي– عرف أنه ما كان بخبرٍ ينقل على هاتف، عرف أنه كان أكثر مما أطيق سماعه على الهاتف، حتى منه هو، لذا لم يفعلها، وكم أنا ممتنة له من كل قلبي أنه لم يفعلها. لا بد أنه أدرك، بسماحه لوقتٍ طويلٍ كهذا يمر علينا دون خبرٍ منه – على هذا النحو المريع، أننا في

النهاية سنستنبط بأنفسنا ما جرى ويتسنى لنا وقتٌ حتى - وقت. وخيرًا فعل. هو أراد أن يكون معي، إلى جانبي، وقت أسمع منه الخبر. وهذا هو الفعل الصائب. لذا فليكن. ومن شفتيه سأسمعها. أرى أنَّ ما فعله - ما يفعله الآن...».

ورأت هانا أن ماري الآن أقرب ما تكون إلى الانهيار، وبصعوبةٍ شديدة قاومت رغبتها في مد يدها إليها؛ وتدبرت، رغم فجيعتها، منع نفسها. وبعد لحظة، واصلت ماري، في سكونٍ ورباطة جأش، «ما يفعله الآن هو نقل جثمان جاي المسكين إلى الحانوتي وقريبًا سيأتينا هنا ويخبرنا».

هانا أبقت عينيها على عيني ماري الرقيقتين الشكاكتين البرَّاقتين؛ ورأت أنَّ ليس بيدها النطق بكلمة، هي ما تفتأ تومئ وحسب، إيماءة مقتضبة، سريعة، وكأنها مصابة بشلل ارتجافي. جبرًا منعت نفسها عن الإيماء.

«هذا ما أظنه»، قالت ماري، «وهذا ما أنا مستعدة له. لكني لن أنطقها، ولن أسلِّم بها، لن أهين شرف زوجي أو أعرضه للخطر - إلى أن أعرف يقينًا، ومن فم آندرو أسمعها».

كلٌّ ظلت تنظر إلى عيني الأخرى؛ هانا تشعر بحرقة في عينيها لأنها أحسَّت بأن من الواجب عليها ألا ترمش؛ وبعد لحظات طويلة مرَّت كما الدهر، عويلٌ باكٍ انفجر من المرأة اليافعة وفي صوتٍ خفيضٍ ومرتجف قالت، «أتوسل إليك يا الله ألا تدع ظني يصيب»، وهانا همست، «وأنا أيضًا»؛ ومرةً أخرى لاذتا بالسكون، لا تعرفان

سوى أقل القليل، لا تبصران شيئًا سوى الأسى في عين الأخرى؛ وكانتا على هذه الحال حين سمعتا خبط أقدامٍ على الشرفة. هانا نظرت جانبًا ثم أطرقت برأسها؛ نفسٌ عميقٌ متقَطع أطلقته ماري؛ كلٌّ سحبت كرسيها إلى الوراء ومعًا مضتا نحو الباب.

الفصل التاسع

كانت تترقب قدومه بقلق لدى دخوله غرفة المعيشة؛ مال نحو أذنها وقال، «لا شيء».

«لا خبر بعد؟».

«لا». جلس. مال نحوها. «ربما من المبكر جدًّا توقع سماع خبر».

«ربما». ولم تعد إلى الرتق بين يديها.

جويل حاول معاودة قراءة «ذا نيو ريبيلك».

«هل بدت لك على ما يرام؟».

يا لطيف، قال جويل في نفسه. مال نحوها، «على ما يرام كفاية في وضعٍ كهذا».

أومأت.

هو عاد إلى «ذا نيو ريبيلك».

«ألا يجب علينا الذهاب إليها؟».

هذا ما ينقص ماري، قال جويل في نفسه، اضطرارها إلى الصياح في وجهينا. مال نحوها واضعًا يده على ذراعها. «الأفضل لنا ألا نذهب»، قال لها، «إلى أن نعرف حقيقة ما جرى. فكثيرٌ من الجلبة».

«كثيرٌ من ماذا؟».

«*الجلبة*. هرجٌ ومرج. ناسٌ كثر».

«أوه، ربما. لكن يبدو لي أنه الأمر الصائب فعله، جويل».

هراء! قال في نفسه. «الأمر الصائب فعله»، قال لها، في صياحٍ أقرب منه إلى حديث، «أن نبقى حيث طلبت منا أن نكون». ثم بدأ يدرك أنها لم تعنِ *الأمر الصائب* من باب اللباقة الاجتماعية. اللعنة، قال في نفسه، لماذا لا *يمكنها* التواجد هناك! لامس كتفها. «حاولي ألا تقلقي بهذا الشأن، كاثرين. أنا سألت بولي، وأخبرتني، أنَّ من الأفضل ألا نذهب. قالت ألَّا داعي لإثارة الجلبة إلى أن نعرف يقينًا».

«عقلانيةٌ منها»، قالت، في نبرةٍ متشككة.

«عقلانية *لعينة*»، أجابها، باقتناع. «هي وحسب تحاول أقصى استطاعتها الحفاظ على رباطة جأشها»، فسَّر لها.

كاثرين أدارت رأسها إليه في تساؤلٍ دمث.

«تحاول ـ الحفاظ ـ على ـ رباطة ـ جأشها!».

جفلةً قالت، «إياك - لا تصرخ عليَّ، جويل. فقط تكلم بوضوح وسأسمعك».

«أنا آسف»، قال لها؛ وعرف أنها لم تسمع اعتذاره. مال أدنى إليها. «أنا آسف»، قالها مرةً أخرى، بحذر دونما صياح. «أنا متوتر، هذا كل ما في الأمر».

«لا بأس»، قالت في نبرة صوتها تلك والتي باتت الآن مثلها، مسنةً هرمة.

راح يتأملها للحظة، يتنهد أسىً عليها، وقال، «عن قريبٍ سنعرف».

«أجل»، قالت له. «قريبًا سنعرف». أرخت يديها اللتين كانت تحيك بهما ورنت بنظرها عبر ظلال الغرفة.

رؤيتها وهي على هذه الحال عذابٌ لا طائل منه؛ فعاد إلى «ذانيوريببلك».

«أتساءل كيف وقع؟» سألته، بعد برهة.

مال نحوها، «وأنا أيضًا».

«لا بد أن آخرين أصيبوا معه».

ومرةً أخرى مال نحوها. «ربما. لا ندري».

«وربما قتلوا».

«نحن لا ـ نحن لا نعرف، كاثرين».

«لا».

جاي يقود أطومبيله مثل الهارب من نيران الجحيم، جويل قال

في نفسه؛ لكن ما كان لينطق بها. أيًّا يكن ما حدث، فقد ارتأى أنَّ لا داعي إلى الخوض في حديثٍ كهذا عنه. أو حتى التفكر فيه.

وبدأ يدرك، متهكمًا، أنه بتفكيره هذا إنما يتطيَّر، بل حتى يتصرف بكياسة. فأنا أيضًا لا أريد الذهاب هناك قبل سماعنا الخبر، قال في نفسه. كُفَّ يديك. دع الأمر لله. إياك وأن تهز القارب.

لا سيما القارب الغريق.

«لكن، أحيانًا، يبدو لي أنَّ جاي يقود بسرعة وتهور»، قالت كاثرين، في حذر.

«*الكل* يقود هكذا»، قال لها. *أحيانًا! بل قولي دائمًا!*

«أتذكر *قلقي الشديد* حول قرارهما شراء تلك الأطومبيل».

وها الحياة أثبتت صحة قلقك.

«التطور»، أخبرها.

«أستميحك عذرًا؟».

«التطور. لا يجدر بنا ـ الوقوف ـ في طريق ـ التطور».

«لا»، قالت في ارتباك. «لا أظن يجدر بنا».

يا لطيف! كاثرين!

«هذه مزحة، كاثرين، مزحة ـ سمجة ـ جدًّا».

أوه.

«لا أظنه الوقت المناسب للمزاح، جويل».

«ولا أنا».

في كياسة، أمالت رأسها قليلًا صوبه. مراعيًا ألا يصيح، قال لها، «معك حق. ولا - أنا».

أومأت.

شاقًّا طريقه عبر افتتاحية رئيسة أخرى كمن يقطع حقلًا من الأسلاك الشائكة، قال جويل في نفسه: ما كان لائقًا أبدًا الاتصال بها. لماذا لم أثق بأنها ستعلمني بالخبر بمجرد سماعه. على الأقل هانا كانت ستفعل.

واندفع يقرأ.

ثقلٌ راح يرزح على صدره مذ لحظة سماعه بخبر الحادث -*آهها*- قال حينها في نفسه، وأومأ بحدة. وكأنه دومًا توقع حدوث شيءٍ كهذا أو شيءٍ مشابه له، أنَّ حادثًا حتمًا سيقع، عاجلًا أم آجلًا؛ كان قلقًا أكثر منه مصدومًا. وهذا الثقل ما انفك يزداد وطأةً مع جلوسه وانتظاره، كما لو أنَّ هواء الغرفة في ذاته استحال حديدًا وها هو يتذوق طعم الحديد على لسانه وفي فمه، باردًا مريرًا صموتًا. حسنٌ، وما عسانا كنا سنتوقع غير ذلك؟ قالها في نفسه. هي ذي الحياة. وراح يستجمع نفسه في سكون حتى يتقبل الخبر ويحتمله، متلذذًا لا في الجهد الجهيد الذي يبذله وحسب، بل في قسوة الحديد ووحشيته وكآبته، لأنَّ القسوة هذه هي المعيار الذي يقيس به

شجاعته ويثبتها لنفسه. أليس غريبًا كم أني غير آبه؟ سأل نفسه. فكَّر في صهره. أجل، يكنُّ له الاحترام، يحمل له المودة، وحزنٌ عميقٌ يساوره الآن عليه. لكن لا أسى، ولا فجيعة. بعد كل هذا الكفاح، بعد كل ما أبداه من شجاعة وطموح، أين بات مآله؟ لا شيء. جود المغمور[1]، فجأة خطر إلى باله؛ وتدميره الحثيث لآماله التي بناها على ثلاثين عامًا. إن كان لا بد من الاختيار بين الإعاقة، العجز العقلي، الموت، فلنأمل خروجه منها. حتى وإن كان خيارًا بين الموت وبين ثلاثين أو أربعين عامًا قادمة؛ خيرٌ له أن يخرج منها. *اللعنة*، هو ذا رأيي، فحياته هي ليست وحسب حياته. هو فكَّر في ابنته: روحُها المفعمة بالحياة، والتي قاومت اعتراضهم عليه مقاومةً مثيرة جدًّا للإعجاب حتى تتزوجه، تحطمت شذرًا وذابت في ورعها اللعين؛ كل ذكائها الفطري، الذي بالكاد يكلفها أي جهد، ضاع عبثًا في زواجها، في تدبر لقمة العيش، ومرةً أخرى، فوق هذا كله، في ورعها اللعين؛ حميَّتها البريئة هذه، وكأنَّ لا شيء في الدنيا له أن يقتل، ما تزال ترفع ذقنها في إباء منتظرةً المزيد. وها هو ذا مرةً أخرى، بالكاد يشعر بأي ارتباطٍ شخصي. هي من أعدت فراشها، وكم أبدعت في استلقائها عليه؛ ما أنَّت حتى مرةً واحدة. فإن هو الآن -إن كان- إن الأمر انتهى، فأبواب الجحيم ستشرع عليها، وليس بيديَّ سوى القليل أفعله لأجلها. وها هو يتذكر جليًّا الآن، في حماسةٍ وحزن، تلك الأعوام القليلة التي قضياها صديقين

---

(١) الشخصية الرئيسة وعنوان رواية توماس هاردي «جود المغمور»، «Jude The Obscure».

عزيزين، وللحظة جال في خلده، *لربما نعود*، لكن فورًا لجم اندفاعته في شخرة من ازدراء النفس. ما بالي أراهن على موته، كما لو أني خطيبٌ مرفوض، أتأنق وأتزين علَّ وعسى أحظى بمحاولةٍ ثانية: *اهجموا على الصدع من جديد*(١). عدا ذلك، فليس هنا مكمن التجافي الحقيقي بينهما؛ بل المستنقع النتن من التديُّن الغارقة فيه، هو الذي فرَّق حقًّا بينهما، ومع ما يحدث فعلى الأرجح سيزداد سوءًا ونتانة. على الأرجح؟ بل محتومٌ كما الموت.

وزوجته، مستغرقة في الرتق، راحت تفكر: يا لها من مأساة. يا للحمل الثقيل الذي ستنوء به. حبيبتي ماري، مسكينتي ماري. كيف بحق الرب ستدبر أمورها. بالطبع لا زال محتملًا أنه ليس - لم يغادرنا. لكن من شأن بقائه أن يزيد الأمور سوءًا عليهما - كلاهما وقتئذ سيعيش المأساة. رجلٌ مفعمٌ بالحيوية مثله، عاجزٌ عن إعالة أسرته. يا لهولها من حياة، عليه وعليها. بالطبع، سنمد يد العون. لكن لن ينفع عوننا مع الحمل الأثقل. طفلتي الحبيبة المسكينة. حفيداي المسكينان. وتحت ثقل كلماتها غير المنطوقة، انحنت نحو رتقها كي تبصره بعينيها الحسيرتين، وإذ بأسىً أعمق من أن تنطقه الكلمات غمر روحها الكريمة الطيبة، وعزمٌ وطيدٌ ترسَّخ فيها أقوى من أي حديث نفسٍ عابر. ما أسرع الحياة! قالت في نفسها. وكأنَّ البارحة ماري كانت صغيرتي، كأنَّ البارحة قدم إلينا جاي أول مرة. رفعت عينيها عن الرتق ورنت نحو النور الصامت بين

---

(١) اقتباس عن مسرحية «هنري الخامس» لشكسبير، «once more unto the breach».

الظلال، وتنهيدةٌ صادقة طويلة فاضت من قلبها والتي، إلى جانب عزفها الموسيقى، هي سبيلها الوحيد نحو التسليم بحزنها.

«علينا أن نكون صالحين جدًّا معهم، جويل»، قالت لزوجها.

جويل جفل، شبه مذعور، على صوتها المفاجئ، وفي تعبيرٍ انتقامي عن سخطه، رغب في سؤالها عمَّا قالته للتو. لكنه عرف أنه سمعها، فمال نحوها، يجيبها، «بالطبع سنكون».

«مهما حدث».

«بالتأكيد».

ثم أدرك العاطفة، الوحدة الكامنة خلف اعتيادية ما قالت؛ وخزيٌ اعتراه من نفسه على إجابته إياها وكأن الأمر تافهٌ واعتيادي. تمنى لو بيده أن يفكر الآن في شيء يقوله كي يعوض عليها، لكن لا شيء خطر إلى باله. كان شبه متيقن، في حنانٍ وسرور، أنَّ زوجته غافلة تمامًا عن قسوة مشاعره وأفكاره، وأنها سترتبك في عجزها عن فهمه إن حاول تفسير دواخله لها والاعتذار منها. فلنمسك لساننا إذن، قال في نفسه.

هو يخفي أكثر مما يبدي، أسرَّت كاثرين في قلبها، تواسي نفسها؛ لكنها تمنت لو أنه يعبِّر، ولو مرة واحدة، عن مشاعره. أحست بيده على معصمها ورأسه قريبًا منها. ومالت نحوه.

«أفهمك، كاثرين».

ماالذي يعنيه بأنه يفهمني، تساءلت كاثرين. لا بد أنَّ شيئًا فاتني

سماعه، لا بد، رغم أن الكلمات التي تبادلاها كانت جد قليلة. لكنها فورًا قررت ألا ترهقه بسؤاله؛ هي متيقنة من نيته الطيبة، وتأثرت أبلغ التأثر بها.

«شكرًا، جويل»، قالت له، تضع يدها الأخرى على يده، تربت عليها، عدة مرات. هكذا ودَّ، متى ما وقع خارج سياقه الاجتماعي، يحرجها، ولطالما خشيت أنه يحرجه هو أكثر؛ والآن، رغم عجزها عن مقاومة رغبتها في تمسيد يده، وفي نيلها سلوانًا أكثر من شدِّ يده الرقيق على معصمها، سريعًا سحبت يدها، وسحب هو الآخر يده. وللحظة راودها امتنانٌ غاضبٌ ووقور كونها قضت كل تلك الأعوام العديدة، في انسجامٍ كهذا، مع رجلٍ صالحٍ كهذا، ومع ذلك فمشاعرها هذه لا يُنْطقَ بها؛ ثم عادت تفكر في ابنتها والحياة التي ستواجهها.

جويل، في غضون ذلك، كان مستغرقًا يفكر: هي في حاجة إليه (الشد على معصمها)، وعندما سحبت يدها مني في حياء، تمنيت لو كان بيدي أن أفعل أكثر؛ وفجأة، لا لأجلها بل بدافعٍ منه، رغب في احتضانها بين ذراعيه. محال. عوضًا عن ذلك، راح يراقب عينيها الحسيرتين، وجهها الحليم، ترنو عبر الغرفة مرةً أخرى، ولحظةٌ من الفخر المشوب بالذهول والسرور تملكته تجاه شجاعتها العظيمة العصية على الكسر، لحظةٌ من الامتنان الفخور، بغض النظر عن كل الندم ومعه، أنه حظيَ بكل تلك الأعوام العديدة مع امرأةٍ مثلها؛ غير أنَّ مشاعر كهذه لا يُنْطق بها؛ ثم عاد يفكر في ابنته وفي ما مرَّت به والحياة التي عليها الآن أن تواجهها.

«أحيانًا قد تبدو الحياة أشد -أشد قسوةً- مما نطيق»، قالت له. «حياتهما، بالي مشغولٌ بهما. حياة المسكين جاي، والعزيزة ماري».

شعرت بيده عليها وانتظرت، لكنه لم ينطق بشيء. نظرت إليه، ترتسم على ملامحها، بحكم العادة، تساؤلها المهذب، ابتسامتها المعتذرة؛ ورأت رأسه الملتحي، وقد فاجأها قربه وضخامته في النور؛ يومئ عميقًا وببطء، مراتٍ خمس.

الفصل العاشر

آندرو لم يتعنَّ طرق الباب، بل فتحه ثم أغلقه بهدوء من خلفه، ومبصرًا الظلال المتحركة عند عتبة المطبخ، سارع في خطاه أسفل الردهة. في العتمة كان عصيًّا عليهما رؤية وجهه، لكن من مشيته المشدودة، الرصينة، تيقنتا. حيث تقفان كانتا تسدان عليه الطريق. عوضًا عن ملاقاته في الردهة، كلٌّ انزاحت جانبًا كي يدخل المطبخ. لم ينتابه التردد مع ترددهما بل دخل مباشرةً، فمه خطٌّ مستقيم وعيناه شظيتا زجاج، ودونما أن ينطق بكلمة طوَّق عمته بذراعيه بشدة قطعت عنها الأنفاس، رافعًا إياها عن الأرض. «ماري» همست هانا في أذنه؛ رفع عينيه؛ ها هي ذي تقف منتظرة، عيناها، وجهها، مثل طفل مشدوه على حافة الرجاء. أوه، لا تضربني؛ وقبل أن يتسنى له الكلام سمعها تقول، برقةٍ وصوتٍ خفيض، «هو ميت آندرو، أليس كذلك؟» وعجز عن الكلام، لكنه أومأ، وبات واعيًا إلى رفعه عمته عن الأرض، يسحق عظام صدرها، وأخته قالت، في الصوت الخفيض ذاته اللابشري، «كان ميتًا حين وصلت هناك»؛

ومرةً أخرى أومأ لها؛ وعلى مهل أعاد عمته على قدميها، ومستديرًا نحو أخته، أمسكها بكتفيها وقال، بصوتٍ أعلى مما توقع، «قُتِل فورًا»، وقبَّلها على فمها وتعانقا، ودونها دمعةٍ واحدة لكن في رجفةٍ عنيفة انتحب مرتين، وجنته تلقاء وجنتها، وعبر شعرها المتهدل راح يحدق سفلًا إلى ظهرها المنحني ووميض أرضية اللينوليوم الجديدة؛ من ثم، يشعر بها تثقل بين ذراعيه، قال «ماري» يلتقطها من أسفل كتفيها حتى يعاونها على الجلوس، بينما هي، وقد شعرت بالقوى تخور في ركبتيها، شهقت «ساعدني على الجلوس» ومخلوعة الفؤاد نظرت نحو عمتها، من في ذات اللحظة قالت، في صوتٍ متهدج، «اجلسي، ماري»، واقفة على جانبها الآخر، ذراعها تطوق خصر ماري ووجهها مرعبٌ مثل جمجمة وشاحبٌ شحوب الأموات. طوقت كلًّا منهما بذراع وحضنتهما إليها في امتنانٍ وسرور، تستمد منهما صلابة ودفء جسديهما المتحركين، والثلاثة تحركوا، جنبًا إلى جنب (مثل الأصدقاء الصدوقين، مثل الفرسان الثلاثة) إلى أقرب كرسي؛ وكان لها أن ترى آندرو يلف الكرسي تجاهها بيده اليسرى الممدودة، وبينهما، على مهل، أجلساها عليه، وحينها كل ما رأته كان وجه عمتها، ينحني عميقًا أعلاها، ضخمًا جدًّا وقريبًا جدًّا، العينان ثاقبتان ودامعتان في الآن ذاته خلف عدستي نظارتها السميكتين، الفم القوي مرتخٍ ورقيق، الوجه بأسره محبٌّ ومفجوع، عارٍ ومتجرد على نحوٍ ما سبق لها قط أن رأته عليه.

«أبلغ بابا وماما»، همست، «فقد وعدتهما».

«سأفعل»، قالت هانا، تنطلق نحو الردهة.

«والتر سيحضرهما حالًا»، قال آندرو. «لا بد عرفا الآن». أحضر كرسيًّا آخر. «اجلسي، عمتي»، جلست وتناولت كلتا يدي ماري في يديها، على ركبتي ماري، وأدركت أنَّ ماري تشد الآن على يديها بكل قوتها، بأقصى قوتها. وبكل حنان استجابت لهذا الضغط المتواصل، هذا التلوي المؤلِم ألمًا لا يطاق.

«اجلس معنا، آندرو»، قالت ماري في صوتٍ أعلى بقليل؛ كان يسحب كرسيًّا ثالثًا حين سمعها والآن جلس عليه، ووضع يديه على أيديهما، يداها أسفل يديه تختلجان، وقال في نفسه، إلهي، كأنها في مخاض. *وهي صدقًا في مخاض*. ولدقائق جلسوا على هذا النحو في صمت بينما راح يتفكّر: الآن عليَّ أن أخبرهم كيف وقع الحادث. بحق الرب، من أين أبدأ!

«أريد ويسكي»، قالت ماري، في صوتٍ باردٍ، صغير، وحاولت النهوض.

«أنا سأحضره لك»، قال آندرو، يهمُّ بالنهوض.

«أنت لا تعرف أين نحتفظ به»، قالت وهي تزيح أيديهما عنها حتى بعد أن رفعاها عن يديها. هي نهضت وهما وقفا معها احترامًا لها ومشت بينهما تمضي نحو الردهة؛ سمعا صوت تنقيبٍ في الخزانة، وراحا يرمقان بعضهما. «هي في حاجة إليه»، قالت هانا.

آندرو أومأ. هو وحسب فوجئ، بسبب جاي، فوجئ أنَّ هناك أصلًا ويسكي في البيت؛ لكن سرعان ما انتابه الغثيان من نفسه على تفكيره اللحظة بأمرٍ كهذا. «كلنا في حاجة إليه»، أجاب عمته.

ودون أن تلقي نظرة على أيٍّ منهما، مضت ماري نحو خزانة المطبخ وأحضرت قدحًا كبيرًا إلى الطاولة. القنينة كانت شبه ممتلئة. صبت في القدح حتى آخره بينما وقفا يشاهدانها، كلٌّ يشعر أنه ليس من شأنه التدخل، عبَّت جرعة كبيرة واختنقت فيها، ابتلعت معظمها.

«خففيها»، قالت هانا، تصفع ظهرها بقوة بين كتفيها وتمسح شفتيها وذقنها بمنشفة الصحون. «فأنت لا تطيقين شربها قويةً هكذا».

«سأفعل»، قالت تتنحنح في صوتٍ أجش، «سأفعل»، كررت في صوتٍ أوضح.

«اجلسي ماري، رجاءً»، هانا وآندرو قالا في الآن ذاته، آندرو أحضر لها كأسًا من الماء وهانا ساعدتها على الجلوس.

«سأشرب معك»، قال آندرو.

«بحق الرب، افعل!» قالت ماري.

«سأعد لنا مزيج توديّ[1] قوي»، قالت هانا. «سيساعدك على النوم».

«لا أريد أن أنام»، قالت ماري؛ احتست الويسكي وتجرعت الكثير من الماء. «أريد أن أعرف الآن كيف وقع الحادث».

---

(١) توديّ: شراب حار مسكر ومحلًّى.

«عمتي»، سأل آندرو هانا في هدوء، مشيرًا إلى قنينة الويسكي. «رجاءً».

وبينما راح يكسر الثلج ويحضر الكؤوس وإبريق الماء، لا أحد نطق بكلمة؛ ماري جلست عاجزة، تنتظره في وضعية غريبة من الغضب والخنوع. لاحقًا، بعد شهورٍ عدة، آندرو كان سيرى حصانًا خرَّ واقعًا في الشارع، وكان سيتذكرها؛ وكان سيتذكر أن الشمالة لم تكن ما رآه على وجه أخته. بل صفعة الموت.

«دعني أصبُّ كأسي»، قالت ماري. «لأنَّ»، أردفت في تروٍّ وهي تصبها، «أريدها قوية بقدر احتمالي لها». تذوقت المشروب المظلم، أضافت القليل من الويسكي، تذوقت مرة أخرى، ووضعت القنينة جانبًا. هانا راقبتها بقلقٍ عارم، وتفكَّرت، لو أنها ثملت الليلة، وإن أتت أمها ورأتها سكرانة، ستموت من خجلها، ثم عادت وتفكرت، لا، هذا هراء. شربها الويسكي هو أعقل شيءٍ لها أن تفعله الآن.

«اشربيها على أقل من مهلك، ماري»، قال آندرو برقة. «فأنت لست معتادة عليها».

«سآخذ حذري»، قالت ماري.

«هذا ما نحتاج حتى نفيق من الصدمة»، قالت هانا.

آندرو صبَّ جرعتين صغيرتين وناول عمته إحداهما؛ تجرعاها بسرعة وتناولا الماء، ثم أعد كأسين أخريين من الويسكي المخفف.

«الآن آندرو، أريد أن أسمع منك كل ما جرى»، قالت ماري.

ونظر هو إلى هانا.

«ماري»، قال آندرو. «بابا وماما سيكونان هنا في أية لحظة. وستضطرين حينها إلى الاستماع إلى ما سأقول مرةً أخرى. بالطبع، إن أردت، سأخبرك الآن حالًا -لكن- هل بإمكانك الانتظار؟».

وحتى قبل أن ينهي كلامه راحت ماري تومئ له، وهانا قالت، «أجل طفلتي»، إذ ثلاثتهم تفكروا في كل الارتباك والتكرار الواقع حتمًا. لذا، بعد دقيقة صمت، قالت ماري، «على أية حال، قلتَ إنه لم يعانِ. *فورًا*، كذا قلتها».

أومأ لها، ثم قال «ماري، قد رأيته ـ عند روبرت. علامة واحدة وحسب على جسده».

تطلعت إليه وقالت: «على رأسه».

«بالضبط عند وقب ذقنه، رضةٌ بسيطة. جرحٌ صغيرٌ جدًّا حدًّا – حدًّا أغلقوه بغرزةٍ واحدة. ورضةٌ زرقاء صغيرة على شفته السفلى. حتى أنها لم تكن متورمة».

«هذا كل شيء؟» قالت له.

«كل شيء؟» قالت هانا.

«هذا كل شيء»، قال آندرو. «الطبيب قال إنه ارتجاجٌ في المخ. كان فوريًّا».

ركنت ماري إلى الصمت؛ واستشعر شكًّا فيها. بحق المسيح، تفكَّر حانقًا على الرب، على الأقل اعفها من *هذا*.

«يستحيل أن يكون عانى من أي ألم، ماري، ولا حتى لجزءٍ من الثانية. ماري، أنا رأيت وجهه. ولم أرَ فيه ذرة ألم. كل ما رأيت –ما كان سوى– اِنشداه. ذهول».

مع ذلك ظلَّت على صمتها. عليَّ أن أجعلها متيقنة مما أقول، قال في نفسه. لكن ما الذي بيدي فعله أكثر كي أطمئنها؟ إن كان لا بد سأتصل بالطبيب وأجبره أن يخبرها بنفـ...

«إذن لم يعرف أبدًا أنه يموت»، قالت. «ولا حتى للحظة، لحظة واحدة، يعرف فيها، ها هي حياتي تنتهي».

هانا سارعت بوضع يدها على كتفها؛ آندرو خرَّ على ركبتيه أمامها؛ تناول يديها وقال، صادقًا من كل قلبه، «ماري، احمدي الله أنه لم يعرف! لهو إحساسٌ مريع يعيشه الرجل في ريعان عمره حتى ولو للحظة. فهو لم يكن مسيحيًا، وأنت تعرفين ذلك». انفجر حانقًا. «وما كان في حاجة ليتصالح مع الرب. كان رجلًا، زوجًا وأبًا لطفلين، وسأقولها لك، أنَّ إعفاءه هذه المعرفة المريعة لهو الشيء الوحيد الذي يستحق الرب أن نحمده يومًا عليه!» وأردف، في صوتٍ بائس، «أنا آسفٌ جدًّا ماري، لم أقصد!».

لكن هانا، من كانت تقول في صوتٍ رقيق، «معه حق ماري، معه حق، احمدي الله على ذلك»، أخبرته الآن في هدوء، «هوِّن عليك، آندرو»؛ وماري، من تسمَّرت عيناها على عينيه، هول الصدمة

والرعب يتملكها مع كل كلمة يقولها، قالت له الآن، في نبرةٍ حنونة، «لا بأس حبيبي. لا تتأسف. أفهمك. ومعك حق».

«هذا السم الذي نطقته الآن عن المسيحيين»، قال آندرو بعد لحظة، «لن أسامح نفسي يومًا عليه، ماري».

«أرجوك آندرو، لا تبتئس. أرجوك، لا. انظر إليّ، أرجوك». ورفع عينيه إليها. «صحيح، كنت أفكر فيما يفكر فيه أي مسيحيٍّ مؤمن، لكني نسيت أيضًا أننا بشر، وأنت أعدتني إلى صوابي، وصدقني أنا شاكرة لك. أنت محق. جاي لم يكن -لم يكن متدينًا، ليس على ذاك النحو، وإدراكه لحظتها كان سيـ- مثلما قلت. وأظن أنه حتى لو كان متدينًا، يظل خيرًا له أنه لم يعرف». ونظرت إليه في سكينة. «لذا أرجوك كن موقنًا أني لست مجروحة ولا غاضبة. كان عليَّ أن أعي ما تخبرني به وأحمد الله على رحمته».

كانت هناك جلبة على الشرفة؛ آندرو نهض عن ركبتيه ولثم جبين أخته. «لا تتأسف»، قالت له. نظر إليها، زمَّ شفتيه، وهرع نحو الباب.

«بابا»، قال وتنحى جانبًا كي يفسح له المكان. أمه، مرتبكة، راحت تتملس ذراعه، وقبضت عليها بشدة. وضع يده بحنو على كتفها ومال نحو أذنها، «هما في المطبخ؟» ولحقت بزوجها. «تفضل، والتر».

«أوه، لا. شكرًا». قال والتر ستار. «هذه أمورٌ عائلية. لكن إن كان هناك من شيء...».

آندرو تناوله بذراعه. «على الأقل، ادخل لدقيقة. أعرف أنَّ ماري ستود شكرك بنفسها».

«في هذه الحال...» وآندرو رافقه داخل البيت.

«بابا»، قالت ماري، نهضت وقبّلته، ومعه استدارا نحو أمها. «ماما؟» قالت في صوتٍ مخنوق، أشبه بالنحيب، وتعانقا. «هوني عليك، هوني عليك، هوني عليك»، راحت أمها تقول في صوتٍ متهدج، تصفق ظهرها بقوة. «ماري، طفلتي الحبيبة، هوني عليك!».

رأت والتر ستار، ينظر إليها كما لو كان موقنًا أنه غير مرحب به. «أوه، والتر!» همست، وهرعت إلى لقائه. مذعورًا، مدَّ يده إليها، وقال، «سيدة فوليت، ما كنت أبدًا لـ...».

ألقت بذراعيها عليه وقبلته على وجنته. «فليباركك الرب»، همست له، في بكاءٍ رقيق.

«هوني عليك»، قال لها، وقد احمرت وجنتاه في محاولته احتضانها ومواساتها دون مسِّها على نحوٍ حميمي. «هوني عليك»، كررها ثانية.

«لا بد أن أكف عن *هذا*»، قالت، تنسحب من عناقه، تتلفت حولها بضراوة بحثًا عن شيء.

«هاك»، قال آندرو وأبوها ووالتر ستار، كلٌّ يمد إليها منديلًا. تناولت هي منديل أخيها، تمخطت فيه، جففت عينيها، وجلست. «اجلس والتر».

«أوه، شكرًا لك، لكن لا. لا أظن»، قال والتر. «وددت وحسب أن أدخل لدقيقة؛ يجدر بي المغادرة فورًا».

«أوه، والتر، ما هذا الهراء الذي تقوله، أنت من العائلة»، قالت ماري، وأولاء من سمعوها أومؤوا ودمدموا «بالطبع»، رغم معرفتهم بالإحراج الذي ينتابه، وأملوا بمغادرته اللحظة إلى بيته.

«للطفٌ غامرٌ منك»، قال والتر. «لكن صدقًا، لا أستطيع البقاء. عليَّ أن أغادر فورًا. والآن إن تسمحي...».

«والتر، أريد أن أشكرك»، قالت له؛ إذ اللحظة حتى هي عادت وتفكرت في أمر بقائه.

«وجميعنا نشكرك»، قال آندرو.

«أكثر مما تتصور»، ختمت ماري.

هزَّ رأسه. «ما كان بشيء، ما كان بشيء»، قال لها. «ما أريد منك أن تعرفيه، إن كان هناك أي شيء لي أن أقوم به، أكون عونًا به، بأي طريقة، رجاءً أعلميني، أرجوك لا تترددي بالاتصال بي».

«شكرًا والتر. وإن كان هناك من أي شيء، بالتأكيد سنتصل بك. ممتنة لك».

«إذن، تصبحون على خير».

ورافقه آندرو إلى الباب الأمامي. «فقط أعلمني آندرو. *أي شيء*».

«سأفعل، وشكرًا لك»، أجابه آندرو. وعيناهما التقتا، وللحظة ذهولٌ باغت كليهما. يتمنى *لو كان أنا!* قال آندرو في نفسه. يتمنى *لو*

كان هو! قال والتر في نفسه. *ولربما هذا ما أتمناه، أنا أيضًا*، قال آندرو في نفسه، ومرةً أخرى، عاوده الشعور الذي خالجه لحظة وقعت عيناه على الجسد الميت، الشعور بالعبث، الخزي، الذنب، الغش، بل القتل حتى، فقط بكونه الحيَّ بينهما.

«لماذا جاي، من بين كل الناس؟» قال آندرو، في صوتٍ خفيض.

مع عينيه ما تزالان مسمرتين في عيني آندرو الزجاجيتين، هزَّ والتر رأسه المثقل.

«تصبح على خير، آندرو».

«تصبح على خير، والتر».

وأطبق الباب.

والد ماري رمقها بعينه؛ وبذقنه أومأ لها أن تحادثه عند ركنٍ في المطبخ. «أريد أن أكلمك وحدك لدقيقة»، قال في صوتٍ خفيض.

نظرت إليه بإمعان، ثم حملت كأسها عن الطاولة، قائلة من خلف كتفها: «اعذرونا لدقيقة»، ورافقته نحو الغرفة التي كانت قد أعدتها لزوجها. أنارت المصباح على المنضدة جانب السرير، بهدوء أغلقت كلا البابين، ووقفت تنظر إليه، مترقبة.

«اجلسي، بولي»، قال لها.

نظرت حولها، أحدهما سيضطر إلى الجلوس على الفراش. والفراش كان مفتوحًا في منتهى العناية والترتيب، منعشٌ ومبهج أسفل الوسائد المنفَّضة.

«أعددتُ كل شيء»، قالت له، «لكنه لم يعد».

«ماذا؟».

«لا شيء، بابا».

«لا تظلي واقفة على قدميك»، قال لها. «دعنا نجلس معًا».

«لا يهمني».

مضى نحوها وتناول يدها، ناظرًا يتصفح وجهها. ومرةً أخرى أدركت، قامته بطول قامتي. ورأت كم أنَّ عينيه، في شفقتهما وألمهما، تماثلان عيني أخته المنهكتين، الحنونتين، العازمتين أسفل جفنيها المرهقين الواهنين. ما كان ليستهل هو بالكلام.

أنت رجلٌ صالح، قالت لنفسها، وشفتاها تحركتا. رجلٌ جدُّ جدُّ صالح. أنت أبي. وفي لحظة استرجعت كل صداقتهما وجفائهما. عيناها ترقرقتا دمعًا وفمها أخذ بالارتعاش. «بابا». أدناها منه وبهدوء بكت بين ذراعيه.

«لهو الجحيم، بولي»، سمعته يقول. «جحيم. الجحيم عينه». وعلى نحيبها الشديد امتنع عن قول أي شيءٍ آخر، راح وحسب يمسد حافة ظهرها، المرة تلو المرة، من كتفها حتى خصرها، باكيًا في صدره، يصرخ في غضبٍ واشمئزاز، *اللعنة! اللعنة! اللعنة على هذه الحياة!* هي جدّ *يافعة على مصيرٍ كهذا*. ومتفكرًا في ذلك، خطر له أنه كان في عمرها هذا، حين أمسك القدر بخناقه ولوى عنقه، لكن ما كانت يد الموت، بل يد ولادتها وولادة أخيها.

«لكن سيتحتم عليك المضي قدمًا»، قال لها.

وعلى كتفه شعر بها تومئ بحميَّة. وستمضين قدمًا، قال في نفسه؛ فأنت تملكين الشجاعة.

«لا سبيل غير ذلك»، قال لها.

«أظن سأجلس الآن». تحررت من عناقه وشعورٌ غامضٌ من الحقد أثقلها لانتهاكها الفراش بجلوسها على حافته، تمامًا عند الطية العلوية للحاف، بمحاذاة الوسائد المنفضة. أدار الكرسي وجلس مقابلها، ركبتاه إزاء ركبتيها.

«هناك شيءٌ يجب أن أقوله لكِ».

انتظرته يتكلم، ناظرة إليه.

«هل تذكرين كيف كانت ابنة عمك باتي؟ حين خسرت جورج؟».

«لا أذكر جيدًا، فقد كنت في الخامسة أو السادسة».

«حسنٌ، أنا أذكر. ركضت حول نفسها مثل الدجاجة مقطوعة الرأس *أوه، لماذا أنا، لماذا أنا من بين كل الناس؟ ما الذي فعلته كي أستحق مصيرًا كهذا*. خبطت رأسها بالأثاث، حاولت طعن نفسها بمقصها، تصرخ مثل خنزيرٍ على خازوق؛ لكنت سمعت صراخها من على بعد حي».

عيناها تجمدتا. «لا داعي لأن تقلق بشأني»، قالت له.

«ولست قلقًا، لأنك لست حمقاء. لكن خيرٌ لك الآن أن *تقلقي*، وهذا ما أود أن أحذرك منه».

ظلت تحدق إليه.

«اسمعيني، بولي»، قال لها. «الوضع سيئ بما فيه الكفاية الآن، لكن سيتطلب استيعابك إياه وقتًا. ومتى ما استوعبته لن يكون الأمر أسوأ وحسب، بل أسوأ بكثير حدَّ أنك سترين احتمال الحياة فوق طاقتك. فوق طاقة أي إنسان. والأسوأ من هذا، أنك ستضطرين إلى معايشته وحدك، لأن لا شيء هناك بيد أي أحد منا أن يفعله حتى يعينك ويخفف عنك، لا شيء سوى التعاطف الحيواني الأعمى».

كانت قد مالت برأسها جانبًا، تحدق صبورةً إلى الأرض في تجاهلٍ بارد، وعلى مرآها اعتراه غثيانٌ حتى الموت من نفسه.

«انظري إليّ، بولي»، ونظرت إليه. «وقتها ستحتاجين إلى كل ذرة عقلانية تملكينها»، قال لها. «الشجاعة وحدها لن تنفعك؛ عليك أن تتحلي أيضًا بالذكاء. عليك أن تبقي نصب عينيك أن لا أحد من البشرية مذ قيامها وحتى زوالها يحظى بصفوةٍ عند القدر؛ الفأس تهوي أية لحظة، على أي عنق، دونما تحذير ولا أي اعتبار لأي عدالة. عليك أن تطردي من عقلك التحسر على حظك النتن والعواء عليه. عليك أن تتذكري أن أمورًا بهذا السوء وأسوأ بكثير قد وقعت على ملايين البشر وها هم جميعًا مضوا قدمًا ومثلهم أنت ستمضين. ستحتملين الحياة لأن لا خيار آخر أمامك ـ إلا الانهيار. هناك طفلان في رقبتك. وحتى بصرف النظر عنهما، فأنت تدينين لنفسك وتدينين له بالنجاة. هل تفهمينني».

«بالطبع».

«أعرف أنها حماقةٌ بالغة وصفاقة أيضًا محاولة قول أي شيء. ألَّا تقول شيئًا وقحًا في موقفٍ كهذا. لكن كل ما أريد هو تحذيرك أنَّ القادم أسوأ بكثير مما تتصورين، لذا كرمى للرب، استجمعي نفسك وحافظي على رباطة جأشك». قال لها، في إلحاحٍ مفاجئ، «لَهُو امتحان، ماري. الامتحان الوحيد الذي يحمل أي قيمة، متى ما وقع شيءٌ عفنٌ كهذا. وعليك حينها أن تختاري إحدى الإجابتين. إما أن تعيشي حياتك حقًّا، أو تذوين حتى الموت. هو ذا الامتحان». وبينما كان يتأمل عينيها، انتابه خوفٌ عليها، «أظنك تتفكرين في دينك».

«أجل»، أجابته، في كبرياءٍ بارد.

«لا بأس، مزيدٌ من القوة لك»، قال لها. «أعرف أنك تملكين مساعدةً لن أحظى بها أبدًا. لكن دعيني أقل شيئًا واحدًا وحسب: احرصي أشد الحرص ألا ـ ألا تجعلي من دينك جحرًا تزحفين إليه وتختبئين فيه».

«سأحرص بابا».

تعني ألا شيء بيدي قوله حول هذا، قال في نفسه؛ وهي محقة.

«تحدثي إلى هانا بهذا الشأن».

«سأفعل، بابا».

«أمرٌ آخر، واحدٌ وحسب».

«أجل؟».

«سيكون هناك مصاعب مالية. سنرى ما هي، وكيف سنتدبرها، مع الوقت بالطبع. أريد فقط أن أرفع هذا الهم عن كتفيك. إياك أن تقلقي بشأنه. سنتدبر الأمر».

«باركك الرب، بابا».

«لا عليك. أنهي شرابك».

شربت دفعةً واحدة وارتجفت.

«اشربي قدر ما تريدين لكن دون أن تثملي»، قال لها. «عن نفسي لا أكترث إن سكرتِ، أفضل ما بيدك فعله الآن. لكن هناك الغد». والغد والغد.

«لا يبدو أن له أي تأثير عليّ»، قالت، صوتها لمّا يزل رطبًا. «المرات القليلة التي شربت فيها، رأسي كان سيدوخ فورًا من الرشفة الأولى، كأسٌ واحدة وكنت سأترنح ثملة. لكن الآن يبدو ألا تأثير لها عليَّ البتة». وشربت أكثر.

«لا بأس»، قال لها. «قد يحدث هذا. من الصدمة، التوتر. أعرف أنَّ حين مرضت أمك مرضها الشديد كنت...» وكلاهما تذكر مرضها. «لا يهم. اشربي قدر ما تريدين، ولديَّ المزيد إن أردت، لكن راقبي نفسك. قد تشعرين لاحقًا وكأنَّ طنًّا من الآجر انهال عليك».

«سآخذ حذري».

«حان وقت عودتنا إليهم». ساعدها على النهوض على قدميها،

ووضع يدًا على كتفها. «فقط تذكري ما قلته لك. هو امتحانٌ وحسب، امتحانٌ ينجح فيه الأبرار».

«سأفعل بابا، وشكرًا».

«لي مطلق الثقة بك»، قال لها، متمنيًا لو كان صادقًا تمامًا في كلامه، لو أنها حقًّا ستكترث.

«شكرًا بابا»، قالت له. «لَعَونٌ كبيرٌ لي أن أسمعها منك».

يدها على مقبض الباب، أطفأت النور، وسبقته إلى المطبخ.

الفصل الحادي عشر

«أوه أين...» راحت ماري تقول، إذ لم تجد أحدًا في المطبخ.

«لا بد أنهم في غرفة المعيشة»، قال أبوها، وتناول ذراعها.

«متسعٌ أكثر هنا»، قال آندرو، لدى دخولهما. ورغم أنَّ الليلة دافئة، رأته يوقد نارًا صغيرة. وكل الظلال، لاحظت ماري، انجذبت نحو أسكفَّة النافذة.

«ماري»، نادتها أمها في صوتٍ عالٍ، جالسة على الأريكة تربت على الفسحة جانبها. ماري جلست وتناولت يد أمها. أمها تناولت يد ماري اليسرى وضمتها بين يديها، حملتها إلى حجرها، وبكل قوتها، شدَّت عليها فوق فخذيها النحيلتين.

عمتها كانت جالسة عند ناحيةٍ من الموقد، والآن أبوها تناول كرسيًّا وجلس في الناحية المقابلة. مقعد موريس بقي شاغرًا جانب مصباح القراءة. وحتى بعد أن استقرت النار الهادئة، قرفص آندرو أمامها يقلّب جمرها. لا أحد نطق، ولا أحد ألقى نظرة واحدة على

مقعد موريس ولا على أي شخصٍ آخر. خُطى رجل، يمشي ببطء، تدوي أكثر وأكثر على امتداد الممشى، تجاوزت البيت، ثم تلاشت إلى صمت؛ وفي صمت الكون جلسوا يصغون إلى نارهم الصغيرة.

أخيرًا همَّ آندرو على قدميه ووقف منتصبًا أمام النار والكل نظر إلى وجهه اليائس، عيونهم تفشي أسفهم على وضعه في هذا الموقف. واقفًا، تأمَّل وجه كل واحدٍ منهم، ثم مضى وانحنى عميقًا نحو أمه.

«دعيني أخبرك، ماما»، قال لها. «فهكذا، سيتسنى لنا جميعًا الاستماع. أنا آسفٌ، ماري».

«عزيزي»، قالت أمه في امتنان، تتلمس بحثًا عن يده وتربت عليها. «بالطبع»، قالت ماري، وأفسحت له مكانها جانب الأذن «الجيدة»، وجلست هي جانب أذن أمها الصماء. ومرةً أخرى، أمسكت أمها بيدها وسجتها على حجرها؛ وبيدها الأخرى، حملت بوقها تميل برأسها. جويل مال نحوهم، يده خلف أذنه؛ هانا حدَّقت في نار الموقد المرتعشة.

«كان وحده»، قال آندرو، ليس في صياحٍ عالٍ لكن في حرصٍ شديد على وضوح مخارج كلامه. «لا أحد آخر تعرض للأذى، أو تواجد أصلًا في الحادث».

«رحمةٌ من الله»، قالت أمه. وقد كانت رحمةً من الله، الجميع أدرك ذلك؛ ومع ذلك كلٌّ صدم على ما سمعه منها. آندرو أومأ بحدة كي يسكتها.

«وبذا لن نعرف أبدًا بالضبط ما الذي جرى»، مضى قائلًا، «لكننا نعرف ما يكفي»، ونطق الكلمة الأخيرة في مرارةٍ مريعة وقاسية.

«ممم»، نخر أبوه، يومئ بحدة؛ هانا استنشقت وزفرت نفسًا طويلًا.

«تحدثت مع الرجل الذي عثر عليه. هو الرجل الذي اتصل بك ماري. وانتظرني هناك كل تلك المدة لأنه ارتأى أنه سيكون عونًا كبيرًا إن ـ إن كان أول من رأى جاي موجودًا كي يخبر أحدنا بكل ما يعرفه. وبالطبع، أخبرني بكل ما يعرف»، قالها مستذكرًا إياه، بالإحساس نفسه الذي لن ينساه أبدًا، الروع في ملامح الوجه الريفي الطيب، الهادئ، وصوته المتأني، المراعي، نصف الأميّ. «كان رجلًا طيبًا، أطيب ما يكون في مواقف كهذه». وامتنانٌ غاضبٌ اعتراه أنَّ رجلًا كهذا هو من كان هناك، وهو أول من رأى جاي. وجاي ما كان ليأمل برجلٍ خيرًا منه، قال في نفسه. ولا نحن.

«أخبرني أنه كان في طريقه إلى البيت، حوالي الساعة التاسعة، متجهًا نحو البلدة، وسمع أطومبيلًا قادمة من خلفه، في سرعةٍ مخيفة، تقترب منه أكثر وأكثر، وخطر له، ها أنَّ أحدهم متعجلٌ جدًّا على الوصول إلى وجهته» («كان يتعجل القدوم إلى البيت»، قالت ماري) «أو لربما ليس سوى رجلٍ مجنون» (هو قال *سكيرٌ مجنون*).

«ما كان مجنونًا»، قالت ماري. «كان يحاول وحسب الوصول إلى البيت (بارك الرب قلبه)، إذ تأخر جدًّا عن الموعد الذي حدده».

آندرو نظر إليها بعينين جافتين، برَّاقتين، وأومأ.

«أخبرني ألا أنتظره على العشاء، لكنه أراد الوصول إلى البيت قبل أن يخلد الطفلان إلى النوم».

«ماذا؟» سألت أمها، في تهذيبٍ متوتر.

«لا شيء مهم، ماما»، قال آندرو برفق. «سأشرح لك لاحقًا». سحب نفسًا عميقًا بحدة، وما عاد موشكًا على ذرف الدموع.

«وفجأة، سمع دويَّ صوتٍ مرعب، لثانية أو ثانيتين، وبعدها خيَّم صمتٌ رهيب. وعرف أن خطبًا لا بد أصاب الرجل في تلك الأطومبيل وأنه واقعٌ في مشكلة، لذا استدار وقاد في الاتجاه المعاكس، على بعد ربع ميل، على الجانب الآخر من جسر بيل. أخبرني أنه كاد ألا يراه لأنَّ لا شيء كان هناك على الطريق ومع ذلك كان يتوقع شيئًا كهذا لذا راح يقود على مهل، يتأمل جيدًا جانبي الطريق، وحتى مع تأنيه كاد يفوته لأن الحادث وقع تمامًا عند جانب الجسر، عند الجرف الحدر من جانب الطريق».

«أعرفه»، ماري همست.

«لكن ما إن بلغ نهاية الجسر - فالطريق ينحدر في شبه زاوية..».

«أعرف ذلك»، ماري همست.

«إذ به يلمح شيئًا في ضوء المصباح الأمامي وكانت إحدى عجلات الأطومبيل». نظر عبر أمه وقال، «كانت ما تزال تدور، ماري».

«أستميحك عذرًا؟» سألته أمه.

«كانت ما تزال تدور»، قال لها. «العجلة التي رآها».

«يا الله، آندرو»، قالت هامسة.

«هه!» تعجب زوجها، في صوتٍ شبه مكتوم.

«ترجَّل فورًا وهرع أسفل الجرف. الأطومبيل كانت مقلوبة وجاي...».

ورغم أنه لم يشعر بأنه على وشك البكاء فإنه للحظة وجد نفسه عاجزًا عن الكلام. وأخيرًا قال، «كان راقدًا هناك على الأرض، جانبها، على ظهره، على بعد قدمٍ منها. لا تجعيدة حتى في ثيابه».

ومرة أخرى وجد نفسه عاجزًا عن الكلام. بعد لحظة أجبر نفسه على المواصلة.

«لا يدري كيف، لكن الرجل أدرك لحظتها، ما إن وقعت عيناه عليه، بأنه لا بد ـ لا بد ميت. لا يدري كيف عرف. هو ذاك السكون في رقاده. ومع ذلك، أشعل عود ثقاب، كي يقترب ويتأكد. حاول أن يسمع خفق قلبه وتلمس باحثًا عن نبض. أدار أطومبيله حتى ينير المكان بضوء مصباحيها الأماميين. لم يجد أي خطبٍ فيه سوى هذا الجرح الصغير جدًّا، تمامًا على وقب ذقنه. نافذة أطومبيل جاي الأمامية كانت مهشمة حتى أنه تناول قطعة زجاجٍ منها واستخدمها كمرآة كي يرى إن كان هناك من أي نفس. بعد ذلك، انتظر عدة

دقائق إلى أن سمع قدوم أطومبيل أخرى فأوقفهم وناشدهم إحضار المساعدة بأقرب وقتٍ ممكن».

«هل أحضروا طبيبًا؟» سألت ماري.

«ماري قالت، *هل أحضروا طبيبًا*»، قال آندرو لأمه. «أجل، طلب منهم إحضار طبيب وقد فعلوا. وأناسٌ آخرون، من ضمنهم برانك، بابا»، قال مستديرًا إلى أبيه؛ «ذاك الحداد الذي تعرفه. تبين أنه يقطن على مقربة من هناك».

«هه!» قال جويل.

«الطبيب أخبر الرجل أنه كان محقًّا»، قال آندرو. «قال إنه حتمًا قتل فورًا. عرفوا هويته، من الأوراق في جيبه، وهنا اتصل بك، ماري.

«رجاني أن أخبرك كم روَّعه نقل خبرٍ كهذا إليك، تاركًا إياك معلقة كل هذا الوقت. هو فقط لم يُطِق أن يكون الشخص الذي يخبرك بالأمر برمته ـ هكذا بغتة، وعلى الهاتف. ارتأى أن أحدًا من عائلتك هو من يجب أن يتولى إخبارك».

«هذا ما تصورته»، قالت ماري.

«وكان محقًّا»، قالت هانا؛ وجويل وماري أومأا قائلين، «أجل».

«لدى وصولي أنا ووالتر كانوا قد نقلوه. كان في دكان الحداد. حتى أنهم أحضروا الأطومبيل. تخيلوا، كانت لا تزال تعمل بشكلٍ مثالي. عدا الغطاء والزجاج الأمامي، لا أثر فيها لأي ضرر».

جويل سأل، «هل لديهم أي فكرة عمّا جرى؟».

آندرو قال لأمه، «بابا يقول، هل لديهم أي فكرة عمّا جرى؟» وأومأت، تشكره بابتسامتها، ومالت ببوقها أكثر نحو فمه.

«أجل، فكرة ما»، قال آندرو. «فقد أروني. وجدوا أنَّ دبوسًا خابوريًّا كان محلولًا في الماكينة -وعلى ما يبدو، انحل بالكامل- وهذا الدبوس الذي انحل هو ما يدعم آلية القيادة بأكملها».

«هه؟».

«هكذا ماما - انظري»، قال بنبرةٍ حادة، يدفع بقبضتي يديه أسفل أنفها.

«أوه، اعذرني»، قالت له.

«انظري هنا»، قال لها؛ وأدخل برجمة بين برجمتين في اليد الأخرى. «وكأنها يمسك بتلك البراجم معًا - أرأيت؟».

«أجل».

«لكان هناك ثقبٌ بين تلك البراجم وفي هذا الثقب يدخل الدبوس الخابوريّ. تخيليه دبوس شعرٍ ثقيل. متى ما أدخلته في كامل الثقب سيفلت من الجهة الأخرى وتنفتح البراجم -وبسط يديه فجأة- هكذا...» أراها إبهامه وسبابته، ملتصقين معًا، ثم فجأة باعدهما عن بعضهما بأوسع ما يكون. «هل فهمتِ؟».

«لا يهم».

«دعك من الأمر، بنيَّ»، قال أبوه.

«لا بأس، ماما»، قال آندرو. «هو شيءٌ يضمُّ جزئين معًا -وفي هذه الحال، عجلة قيادته- ما يوجه به الأطومبيل. الـ...».

«فهمت»، قالت في نفاد صبر.

«حسنٌ، ماما. هذا الدبوس، الذي يمسك بآلية القيادة في الهيكل أسفل الأطومبيل، والذي ما كان من مجالٍ أبدًا لرؤيته، قد وقع. لم يتمكنوا من العثور عليه في أي مكان، رغم أنهم مشطوا أرجاء موقع الحادث بحثًا عنه ووسعوا بحثهم على مئتي ياردة من الطريق، في الجهتين. لذا برأيهم فإن الدبوس قد تخلخل ووقع قبل مسافة ليست بقريبة - تصل لربما إلى أميال، وإنْ على الأرجح ليس بأبعد من ذلك. لأنهم أروني». ومرةً أخرى رفع براجمه كي يتسنى لها أن ترى، «أنَّ حتى بدون الدبوس الخابوريّ، لظلَّ هذان الجزءان متصلين معًا»، وراح يلوي براجمه، «حتى أنَّ لك أن تدير عجلة القيادة بهما، وما كنت لتشك لحظة أنَّ هناك خطبًا ما، إن كنت على طريقٍ ممهد، أو لم تضطر إلى الانحراف فجأة بالأطومبيل وبشدة، لكن إن ارتطمت بمصدٍّ حاد أو أخدود أو حجرٍ مرميٍّ فحينها الجزءان سينفصلان وستفقد كامل السيطرة على الأطومبيل برمتها».

ماري غطت وجهها بيديها.

«برأيهم فلا بد أن إحدى العجلتين الأماميتين اصطدمت بصخرة، فانخضَّ الهيكل بأكمله وتعرض لالتواءٍ مريع. لأنهم عثروا على صخرة، بنصف حجم رأسي، أسفل الجرف، وعليها

آثار كشطٍ بالغ وعلامات عجلة. أروني إياها. يظنون أن العجلة لا بد فلتت من سيطرته والأطومبيل قذفت به إلى الأمام بقوة بحيث ارتطم ذقنه، في ضربة حادة، ضربة واحدة وحسب، بعجلة القيادة. وحتمًا هذا ما قتله فورًا. لأنه ارتمى بعيدًا عن طريق الأطومبيل بينما هي واصلت انحرافها عن الطريق ـ قد أروني. ما سبق لي قط أن رأيت شيئًا مماثلًا. هل تعرفين ما حدث؟ تلك الأطومبيل رمت به أرضًا لدى انحدارها سفلًا نحو هذا الخندق المستوي الواسع، على بعد خمسة أقدام أسفل الطريق؛ ثم واصلت طريقها صعودًا على ساترٍ ترابي بارتفاع ثمانية أقدام. أروني علامات صعودها، تقريبًا نحو القمة، قبل أن تتداعى إلى الوراء وتنقلب على جنبها، بمحاذاته تمامًا، دون أن تدهسه!».

يا لطيف همست ماري. *تست* طقطقت هانا بلسانها.

«ولماذا هم متيقنون من أنه كان – فوريًا، آندرو؟» سألت هانا.

«لأنهم متيقنون أنه لو كان واعيًا لما رُمِي من الأطومبيل. هذا سبب. لكان تشبث بالعجلة، أو داس على مكبح الطوارئ، على الأقل حتى يحاول السيطرة عليها. لكن ما تسنَّت له لحظة. ما تسنى له أي وقتٍ على الإطلاق. لربما أقصى ما حظي به شذرةٌ من ثانية شعر فيها بالرجَّة وعجلة القيادة تلتوي في يده، وقذفه خارجًا. الطبيب يقول إن الاحتمال الأرجح أنه لم يعرف حتى ما الذي أصابه - بالكاد حتى شعر بقوة الصدمة، شديدةً كانت وسريعة».

«ولربما كان غائبًا عن الوعي وحسب»، تأوهت ماري من

خلف يديها. «أو واعٍ ومشلول؛ عاجزٌ عن النطق أو لم يبد عليه أنه يتنفس. لو فقط كان هناك طبيب، هناك، لربما...».

آندرو مدَّ يده أمام أمه ووضعها على ركبتي أخته. «كلا ماري»، قال لها. «الطبيب تعهد لي بأنَّ ما أقوله لك الآن هو ما حصل. يقول بأن الشيء الوحيد الذي كان سيتسبب بموته هكذا هو ارتجاجٌ في المخ. يقول إنه متى ما ـ متى ما قَتَل، فقتله فوري، إما هذا وإما يعاني المرء منه لأيام ولربما أسابيع قبل أن يلقى حتفه. كنت حريصًا على سؤاله بنفسي لأني ـ أعرف أنك كنت ستريدين أن تكوني واثقة مما حدث. أنا مثلك تساءلت. قال من المستحيل حتى أنه عاش ثواني فاقدًا الوعي قبل موته. لأن لا شيء آخر كان سيحدث، بعد تلك الضربة القوية الواحدة، كي يزيد الأمر سوءًا. قال إنه وقع فجأة، أسرع حتى من صعقة الكهرباء. الدماغ تلقى صدمةً هائلة. كان أسرع موتٍ قد يلقاه أي إنسان». عاد إلى أمه. «آسف، ماما». قال لها. «ماري كانت تقول، إنه لربما كان فاقدًا الوعي. أنَّ لو كان من طبيبٍ هناك وقتها، لكان بيده إنقاذه. وأنا قلت لا. لأني سألت الطبيب عن كل شيء قد يخطر لماري سؤاله. وهو أجابني بِـ لا. قال إنَّ ارتجاج المخ ـ قاتل ـ أسرع موتٍ قد يلقاه أي إنسان».

ناظرًا إلى كل واحدةٍ منهما على حدة، أخبرهما، في هسيس، وكأنما يشفي غليله منهما، «يقول إن موته هكذا كان احتمالًا من مليون».

«بحق الرب، آندرو»، قال أبوه.

«هذه الدائرة الصغيرة جدًّا من ذقنه، تلك الزاوية، شدة الضربة

هذه. لو أنَّ الضربة أتت على بعد نصف بوصة من تلك الدائرة، من أي جانب، لكان الآن حيًّا يرزق».

«اخرس، آندرو!» نهره أبوه بشدة؛ إذ مع الكلمات الأخيرة التي نطقها اتساعٌ تملَّك من ماري، وفي محاولتها النهوض عن الكرسي، بدت أضخم مما هي عليه، قبل أن تنهار إلى حطامٍ من الدموع المريرة.

«أوه، ماري»، تأوَّه آندرو، وهرع نحوها، أمها حضنت رأسها إلى صدرها. «أنا آسفٌ جدًّا. إلهي، ما الذي تملكني! لا ريب فقدت عقلي!» وهانا وجويل نهضا عن كرسيهما ووقفا جانبًا، عاجزين عن الكلام.

«ذرة ـ ذرةٌ من رحمة اعطف بها عليّ» رددت في نشيجٍ باكٍ. «ذرةٌ من رحمة».

وكل ما كان بيد آندرو قوله، «أنا آسف. أنا آسف جدًّا، ماري». ثم خرس عن الكلام.

«دعيها تبكي»، قال جويل لأخته، وهي أومأت له. فلا قوة في هذا العالم لها أن تمنعها الآن عن البكاء، قال في نفسه.

«ربّ، اغفر لي»، عوت ماري. «اغفر لي! اغفر لي! أشد مما أطيق! أشد مما أطيق! ربّ سامحني!» وجويل، فاغر الفم، استدار نحو أخته، يحدق إليها؛ وتحاشت هي عينيه، تردد في نفسها، لا، لا، *احمها، ربّ احمها، احم طفلتك المسكينة وامنحها القوة*؛ وآندرو، وجهه جامدٌ في ملامح اشمئزاز القاتل من ضحيته، واصل قذف

كلماته المهلكة الغضبى، حممها المتفجرة في صدره تتحرَّق أن يُنْطَق بها، لكنه عواها في نفسه، *ربِّي، إن كنت موجودًا، تعال هنا ودعني أبصق في وجهك. تعال وسامحها هي على جريمتك!*

نَحَّته هانا جانبًا وعلى ركبتيها انحنت أمام ماري، أمسكت بمعصميها وفي نبرةٍ جدية راحت تتحدث إلى اليدين تفيضان دمعًا: «ماري، اسمعيني. ماري. لا شيء البتة فعلته يستدعي توسلك الغفران من الله. لا شيء البتة فعلته يستدعي توسلك الغفران، ماري. هل سمعتني ماري؟ هل سمعتني؟ هل تسمعينني ماري؟» ماري أومأت خلف يديها. «ما كان الله أبدًا ليطلب منك ألا تفجعي، ألا تبكي. هل تسمعين؟ ما تفعلينه أمرٌ طبيعي، بل الصواب. هل تسمعين! إذ لن تكوني إنسانة إن لم تفعلي. هل تسمعينني، ماري؟ بتوسلك مغفرته فأنت لست إنسانة. بل مخطئة. ومخطئة خطأً عظيمًا. هل تسمعينني، عزيزتي؟ هل تسمعينني؟».

ماري، تسمع هانا، من خلف يديها، تومئ آنًا وآنًا تهز رأسها، في اعتراضٍ دائم على كلام عمتها، الآن، قالت لها، «ليس الأمر كما تظنين. كنت أتحدث *إليه* وكأنَّ لا رحمة *لديه*!».

«آندرو؟ آندرو وحسب كان...».

«لا، إلى الله. وكأنما الله يريد أن يغيظني. يعذبني. على ظني هذا أتوسل منه الغفران».

«هوني عليك، ماري»، قالت أمها؛ هي لم تسمع شيئًا مما قيل، لكنها أحست أن موجة النحيب العارمة بدأت تخبو.

«اسمعي، ماري»، قالت هانا، ومالت أقرب إليها حدًّا صار كلامها همسًا. «يسوع على الصليب»، قالت، في صوتٍ جد خفيض حدًّا لم يسمعها سوى ماري وآندرو، «هل تتذكرين؟».

«إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟».

«أجل، وهل تراه طلب المغفرة حينها؟».

«لكنه الرب. ليس بحاجة إلى طلبها».

«لكنه كان بشرًا أيضًا. وبشرًا لم يطلبها. ولا طلبها الله منه، مثلما لن يطلبها منك. ويسوع ما كان ليريدك أن تطلبيها. وما الذي قاله يسوع، عوضًا عن طلبه المغفرة؟ آخر ما قاله».

«يا أبتِ، في يديك أجعل روحي» ورفعت يديها عن وجهها تنظر في خنوعٍ إلى عمتها.

«في يديك أجعل روحي»، قالت عمتها.

«هوني عليك، حبيبتي»، قالت أمها، واستقامت ماري في جلستها تنظر شاخصةً أمامها.

«أرجوك آندرو، لا تتأسف. كنت محقًّا في إبلاغي كل كلمة وكل حرفٍ سمعته. أنا أريد أن أعرف -أريد أن أعرفها كلها. الأمر وحسب- أهالني للحظة».

«ما كان يجدر بي أن أخبرك كل هذا كومةً واحدةً».

«لا، بل خيرًا تفعل. خيرٌ من سماعي إياها نتفًا -نتفًا فظيعة

جديدة، تسمعها بعدما ظننت أنك عرفت الأسوأ وبدأت تعتاد عليه».

«معك حق، بولي»، قال أبوها.

«هلمَّ واصل. أخبرني كل شيء، أطلق كل ما في جعبتك. وإن انهرت، فلا توبخ نفسك. تذكر أني أنا من *طلب* منك. لكني سأحاول جهدي ألا أنهار. أظنني سأكون على ما يرام».

«حسنٌ، ماري».

«أحسنت، بولي»، قال أبوها. والكل عاد يجلس في مكانه.

«آندرو، إن كنت لا تمانع، أود كأسًا أخرى من الويسكي».

«بالطبع، سأحضرها لك». أحضر القنينة؛ تناول كأسها ووضعها على الطاولة.

«لكن لا أريدها قوية كما المرة الماضية، رجاءً. أريدها قوية، لكن ليس كسابقتها».

«هل هذا جيد؟».

«زد الويسكي قليلًا، رجاءً».

«بالتأكيد».

«يبدو مناسبًا».

«هل أنت بخير، بولي؟» سألها أبوها. «ألن يثقل رأسك كثيرًا؟»

«لا أظنه أثقل رأسي بمقدار ذرة».

«حسنٌ».

«أظن من الأفضل لنا لو أننا لانطيل نقاشنا الليلة»، قالت كاثرين، بمنتهى تهذيبها ولباقتها الاجتماعية، تُربّت على ركبة ماري.

الجميع نظر إليها مذهولًا وفجأة ماري من ثم آندرو ضحكا، هانا لحقت بهما، وجويل قال، «ما بالكم؟ علام كل هذا الضحك؟».

«ماما»، صاح آندرو مبتهجًا، وهو وهانا شرحا كيف أنها لَمَّحت، في أرق آداب سلوكها الاجتماعي الراقي، أن يفض هو وأبوه نقاشهما الليلة بينما كل ما كانا يتحادثان حوله هو مقدار تحمل ماري للويسكي، فبدا وكأنها قصدت أن ماري عطشى جدًّا على انتظارها آندرو وأباها يفرغان من جدالهما؛ نخر جويل والتقط عدوى الضحكة الهستيرية، وكلهم قهقهوا، يضحكون ملء رؤوسهم، بينما جلست كاثرين هناك تتأملهم، تستهجن طيشهم في وقتٍ كهذا؛ وحزينةً، خامرها شعورٌ قوي، أنَّ لسببٍ ما، كانوا يضحكون عليها؛ لكن في لباقة تخبئ خلفها التقريع، تتوقع منهم إخبارها النكتة، ابتسمت ورفعت بوقها. لكن لا أحد أعار بالًا إليها؛ حتى أنهم بالكاد وعوا إلى وجودها بينهم. عدوى الضحك كانت ستضعف وتبهت بين الآن والآن والكل كان سيتأوه ويسحب نفسًا عميقًا، يجفف دمع عينيه الضاحكتين؛ وحينها كانت ستتذكر ماري، تقلد بدقة تربيت أمها على ركبتها بيدها حيث خاتم الزواج، أو آندرو كان سيقلد بدقة ترنيمها الكلام، لا سيما ارتفاع طبقة صوتها مع تشديدها على *نطيل*، أو أيٌّ من الأربعة كان سيعود

ويتذوق على طرف لسان عقله هذا المزيج المتقلقل من العبثية والرعب والوحشية والارتياح، أو لربما أحدهم كان سيرمق كاثرين ناظرًا إلى ابتسامتها وبوقها، وفجأة يقبق وينفجر ضاحكًا، وآخرُ يَعلق في عدواها، وهكذا الكل كان سيعاود الضحك ثانية. لبعض الوقت جاهدوا وراء الضحكة، إطالتها، بعثها من جديد إن ماتت، ولوقتٍ آخر حاولوا جهد أيمانهم الكفَّ عن الضحك، وإن توقفوا، حاولوا ألا يضحكوا من جديد. واكتشفوا أنهم بكبتهم الضحكة إنما ستفلت منهم أقوى وأعلى، لذا فضلوا هذه الحيلة. واستمروا هكذا ضاحكين إلى أن أنهك الضحك قواهم وآلمتهم بطونهم. ليدركوا بعدها بوضوحٍ جليٍّ كم أنَّ النكتة التي ضحكوا عليها سخيفة وسمجة، افتقارها إلى أي فكاهة تبرر هذا القدر الفاحش من الضحك، وبإدراكهم هذا عادوا وضحكوا من جديد؛ لكنهم في النهاية رانوا إلى الهدوء، فقواهم خارت، وفي قلب هذا الصمت المتوتر الموشك على الانفراط تكلمت كاثرين، «حسنٌ، في حياتي بأسرها ما شهدت تصرفًا صادمًا وصاعقًا كهذا»، والكل انفجر ضاحكًا.

لكن سرعان ما خبت الضحك، إذ استنزف طاقتهم؛ وفوق هذا، صورة الجسد الميت المنطرح جانب الأطومبيل المنقلبة تراشقت سهامها في عقولهم، قبل أن تنتصب باردة، ضخمة، راسخة لا تتزحزح؛ وها هم راحوا يستوعبون كليًّا، الآن، كم مخجلٌ كان تصرفهم تجاه المرأة الصماء.

«أوه، ماما»، آندرو وماري هتفا معًا، وماري عانقتها وآندرو قبَّل جبينها وفمها. «كان مريعًا ما فعلناه»، قال لها. «أرجوك حاولي أن تسامحينا. كان ضحكًا هستيريًّا ليس إلا».

«من الأفضل أن تخبرها، آندرو»، قال أبوه.

«أجل، المسكينة»، قالت هانا؛ وحاول بكل رفق أن يشرح لها، أنهم ما كانوا يضحكون عليها، ولا حتى على النكتة، إن كانت أصلًا نكتة، إذ ما كانت مضحكة البتة، وهو يعترف بهذا، لكنها كانت نعمةً من الرب أن منحنا داعيًا كي نضحك، «ألا ترين ماما؟».

«أرى»، أجابته. («وها أنا أرى، قال الأعمى»، تمتمها آندرو في نفسه) وأطلقت ضحكتها الصغيرة، المهذبة، المدغدغة والمرتبكة. «لكن، طبعًا، لم أقصد الويسكي بما قلت. أنا وحسب شعرت أنه يجدر بنا لأجل المسكينة ماري أن نغاد...».

«أكيد»، صاح آندرو. «نحن نفهمك ماما. لكن ماري تفضل سماع كل شيءٍ الآن. وقد قالت ذلك بنفسها».

«أجل، ماما»، زعقت ماري، تميل من أمامها نحو أذنها «الجيدة».

«حسنٌ، في هذه الحال»، قالت كاثرين في نبرةٍ متزمتة، «لكان لطفًا منك لو أعلمتني».

«أنا جدُّ آسف ماما»، قال آندرو. «كان يتوجب بنا أن نفعل، وكنا سنفعل، في دقيقة».

«حسنٌ»، قالت كاثرين؛ «لا يهم».

«كنا سنفعل، ماما، صدقيني»، قالت ماري.

«حسنٌ، حسنٌ» قالت كاثرين. «ليست سوى زلةٍ بريئة. أعرف أني أحيانًا – صعبةٌ جدًّا، وأحاول جهدي ألا أكون».

«أوه ماما، لا».

«لا. أنا لست مستاءة. أنا وحسب أقترح عليك أن تتجاهلني الآن، لمصلحة الجميع. جويل سيخبرني لاحقًا بكل شيء».

«هي تعني ما تقول»، قال جويل. «ما عادت مستاءة».

«أعرف ذلك»، قال آندرو. «لهذا فليلعنني الرب إن أقصيتها عن حديثنا. صدقًا، ماما»، وراح يقول لها، «دعيني أخبرك. وهكذا جميعنا سنسمع. وخيرٌ لنا أن نسمع معًا، ألا ترين ماما؟».

«حسنٌ، إن كنت واثقًا من الأمر؛ بالطبع سأكون جدَّ ممتنة لك. شكرًا». أحنت رأسها، ابتسمت، وأمالت بوقها.

طبعًا الأمر سيتطلب منه الحديث المباشر. فذاك البوق مثل فم البجعة، *التِ فيها* سمكة، قال في نفسه. «اعذريني ماما»، قال لها. «أمهليني لحظة أستجمع فيها نفسي».

«لا بأس بنيَّ»، قالت أمه.

أين وصلت ـ آه. الطبيب. أجل.

«كنت أخبركم عمَّا قاله الطبيب».

ماري شربت.

«نعم»، أجابت كاثرين في صوتها الجليّ. «كنت تقول كيف أنها محض صدفة مؤلمة، المكان حيث تلقى الضربة، احتمالٌ في المليون، أنَّ...».

«أجل، ماما. أمرٌ لا يصدق. لكن هذا ما حدث».

«آه»، تنهدت هانا.

ماري شربت.

«يتجاوز ـ كل ـ منطقٍ ـ لعين»، قال جويل. كان يفكر في توماس هاردي. ها هو ذا رجلٌ يعرف الحياة على حقيقتها. (وهي *تتوسل إلى الله أن يغفر لها!*) نخر في صوتٍ مسموع.

«ما الأمر، بابا؟» سألت ماري في هدوء.

«لا شيء»، قال لها، «أتفكر في الحياة ومآلنا فيها. كالذباب للصبية العابثين نحن للآلهة. هذا كل ما في الأمر».

«ما الذي تعنيه؟».

«كالذباب للصبية العابثين نحن للآلهة؛ يقتلوننا ملهاةً لهم»[1].

«لا»، ماري قالت؛ تهز رأسها. «لا، بابا. الحياة ليست هكذا».

واللحظة، استشعر في صدره فورة حمم حمضية؛ لكنه كتمها في نفسه. إن حاولت مجرد إقناعي بأن ما حدث هي رحمةٌ من رحمات

(١) اقتباس عن مسرحية «الملك لير» لشكسبير، الفصل الرابع، المشهد الأول (تعريب جبرا ابراهيم جبرا).

الرب الغامضة، قال في نفسه، سأترك لها المكان فورًا. «تجاهلي ما قلتُه، بولي»، قال لها. «لا أحد منا يعرف شيئًا لعينًا عن هذه الحياة. أنا نفسي الأكثر جهلًا. لذا سأبقي على فمي مطبقًا».

«لكني لا أطيق حتى مجرد تفكرك في أمور كهذه بابا».

زمَّ آندرو شفتيه وأشاح بنظره بعيدًا.

«ماري»، قالت هانا.

«أخشى أنَّ ما تطلبينه ليس بيد أحد أن يطلبه ـ أو يغيره»، قال أبوها.

«أجل، ماري»، قالت هانا.

«لكن دعيني أؤكد لك، بولي، أنَّ تأملاتي بهذا الشأن قليلة ولا واحدة منها تستحق قلقك عليها».

«هل هذا شيءٌ يجدر بي سماعه؟» سألت كاثرين.

كان الصمت قد عمَّ للحظة. «لا شيء، ماما»، قال آندرو. «استطرادٌ وحسب. لو كان مهمًا لأخبرتك».

«كنت ستواصل إخباري، بما قاله الطبيب لك».

«أجل، كنت. وسأفعل. أخبرني عدة أمور أخرى، وأريدكم أن تكونوا موقنين –جميعًا– أنَّ على قسوتها، فعلى الأقل تحمل في طيها شيئًا من السلوان».

عينا ماري التقت بعينيه.

«أخبرني أنَّ لو حادث كهذا كان مقدرًا على أي امرئ منا، ما كنا لنرجو عاقبةً أفضل. إذ مع ارتجاج مخٍّ كهذا، لكان محتملًا جدًّا أن يصبح عاجزًا وأبله».

«يا الله، آندرو» صاحت ماري.

«لبقية حياته، وبقية حياته هذه لامتدت بسهولة إلى أربعين عامًا. أو ربما لأصبح شبه عاجز، يضطر إلى الرقود أيامًا بين حينٍ وآخر، يعاني نوبات قوية من الصداع الفظيع، أو نوبات متقطعة من فقدان الذاكرة، من البله. هذه هي الاحتمالات التي لم تقع، ماري»، أخبرها متألمًا. «وأظن خيرًا لنا إن مررنا عليها جميعًا وننتهي منها الآن».

«أجل»، قالت له من خلف يديها. «أجل، معك حق. هلمَّ آندرو. فلننتهِ من الأمر».

«أشار إلى ما كان سيحدث لو أنَّه ظل واعيًا، لو لم تقذفه الأطومبيل خارجها. القيادة السريعة، في وضعٍ ميؤوسٍ خارج السيطرة، صعودًا ثمانية أقدام على ذاك الساتر الترابي من ثم عودةً إلى الأسفل، متقلبًا، كل هذا لكان سحقه، ماري. لشوَّه جسده، ولو قدّر له الموت لمات ميتةً بطيئة موجعة، لكان عذابًا لا يطاق، ماري. ولو كتبت له الحياة، لعاش عاجزًا مشلولًا بقية عمره».

«يا للهول» صاحت كاثرين عاليًا.

«أبله، أو عاجز، أو مشلول»، قال آندرو. «لأن الشيء الآخر

الذي قد يفعله الارتجاج بك هو شلُّك. بلا أي أملٍ في الشفاء. ولا واحدة منها مصيرٌ يعقل لأي أحد أن يوثره على الموت. لا سيما رجلٌ مثل جاي، بكل زهوه وعنفوانه، الجسدي والذهني، استقلاليته، ازدرائه الرقود نهارًا واحدًا على السرير. تتذكرين كم كان مستحيلًا علينا إبقاؤه هادئًا في فراشه حين أصيب بالتواءٍ في ظهره».

«أجل، أتذكر»، قالت ويداها بعدُ على وجهها، تضغط أصابعها بشدة على مقلتي عينيها.

«عوضًا عن ذلك...» عاود آندرو الحديث؛ وتذكر الوجه الميت، مسلوب الحياة، الجسد المسجى على الطاولة أسفل الضوء الوهَّاج. «عوضًا عن ذلك، ماري، مات أسرع ميتة وأقلها ألمًا على الإطلاق. في لحظة كان مفعمًا بالحياة. ولربما كان حيًّا أكثر من ذي قبل، إذ فجأة وقع خطبٌ ما وكل ما فيه فار غضبًا وإصرارًا على إصلاحه - فأنت تعرفين طبيعة جاي، ماري، أنت أكثر من يعرفه في هذا العالم. جاي كان رجلًا لا يعرف الخوف، لا يهاب الخطر بل يهتاج غضبًا - وحواسه كلها تتيقظ متنبهة أمامه. وهذا ما صنع منه الرجل الذي هو عليه. وفي طرفة عين كل شيءٍ كان قد انتهى. لم تتسنَّ له حتى كسرة ثانية يعي فيها عجزه، ماري. ولا شذرة ألم، لأن صدمةً كهذه من فرط عنفها وقوتها لا تسبب حتى ألمًا. ألمًا فوريًّا. حين باغتته كانت كل حاسةٍ فيه في قمة تيقظها، كانت صدمةً مروعة أعمته، ثم لا شيء. هل ترين، ماري؟».

أومأت.

«أنا رأيت وجهه، ماري. بدا مشدوهًا، عازمًا، حانقًا. ما من أوهى أثر لخوف ولا لألم».

«على الأقل أعرف أنه ما كان ليكون من خوف»، قالت ماري.

«أنا رأيته -مجردًا من كل ملابسه- عند الحانوتي»، قال آندرو، «ماري، ما رأيت علامةً واحدة على جسده. فقط ذاك القَطع الصغير جدًّا على ذقنه. الرضَّة الصغيرة على شفته السفلى. ولا علامة أخرى على جسده. كان أروع وأبهى جسدٍ بشري أراه في حياتي».

طويلًا ساد الصمت بينهم؛ ثم قال آندرو، «كل ما بيدي قوله، إنَّ متى ما أزف وقتي، آمل أن أموت نصف ميتته».

أبوه أومأ؛ هانا أغمضت عينيها وأطرقت برأسها. كاثرين انتظرت، في صبر.

«في زهو عنفوانه»، قالت ماري؛ ورفعت يديها عن وجهها. عيناها ما تزالان مغمضتين. «هكذا أخذه الله»، قالت في صوتٍ حنونٍ رقيق؛ «في زهو عنفوانه. حتى أني أراه يغني» وتهدج صوتها، «سعيدًا، وحده، يسابق الوقت عائدًا إلى البيت إذ كم أحبَّ قيادة الأطومبيل سريعًا وما كان ليقودها هكذا إلا وحده، ولأنه ما كان ليرضى أبدًا بأن يخيِّب أمل طفليه. ثم، وكما قلتها آندرو، لحظةٌ من المتاعب، خطبٌ وقع وقد يكون خطرًا -وقد كان؛ كان الموت نفسه- وكل حواسه الفطرية فيه انبجست فائرة حتى تقاومه، حتى تسيطر عليه، دونما ذرة خوف. بل في شجاعة ونبل وغضب وكامل الثقة أنَّ بيده دحره. هو هكذا نظر إلى الموت، محدقًا فيه بلا وجل.

وهكذا أُخِذ! في زهو عنفوانه. تلك هي الكلمات التي أريد لها أن تنقش على شاهد قبره، آندرو».

وهذا هو الغرض من نقش الشاهد، فجأة أدرك جويل. حتى تظن أنَّ لك سيطرةً ما على الموت، أنت *تملكه*، تختار اسمًا له. هو الغرض نفسه من رغبتك في معرفة كل ما هنالك معرفته حول كيفية وقوعه. من محاولة تخيله، كما تفعل ماري، وكذلك آندرو. أيَّة حيلةٍ بائسة ستكفيني[1]؛ كل الخيالات مرحبٌ بها.

«ألا تظن، آندرو؟» سألت ماري في حياء؛ إذ لم يعقِّب على ما قالت.

«أجل، أظن ذلك»، أجابها، وهانا قالت، «أجل، ماري»، وجويل أومأ لها.

هانا: أريد أن *أعرف* متى سأموت، لا لأسباب دينية وحسب.

«ماما»، نادت ماري عليها، تمسكها بذراعها. أمها استدارت متلهفة، شاكرة، مع بوقها. «كنت أخبر آندرو»، قالت ماري، «إني أعرف الآن ما الكلمات، النقش، التي لا بد أن تحفر على ـ شاهد قبر جاي». أمها أمالت رأسها بتهذيب. «في زهو عنفوانه»، قالت ماري. ملامح أمها غدت أكثر تهذيبًا. «في -زهو- *عنفوانه*»، صاحت ماري. بحق المسيح، لا أظنني قادرًا على التحمل أكثر، قال آندرو في نفسه. «لأن هكذا أخذه الله، ماما. فجأة، بلا تحذير، ولا

(١) اقتباس عن بيانكا، بطلة المسرحية التراجيدية «فاريو»، الفصل الثالث، للشاعر والمؤرخ الإنجليزي هنري ميلمان.

معاناة، ولا وهن، ولا مرض. كان ـ كان فجاء. في ريعان حياته. ألا ترين؟».

أمها ربتت على ركبتها وتناولت يدها. «لائقٌ جدًّا، عزيزتي».

«أظن هذا، ماما»، قالت ماري؛ وتمنت لو أنها لم تنطق به.

«هو لائقٌ، ماري»، طمأنها آندرو.

«لماذا لم تجاوبني حين سألتك؟».

«كنت أتفكر فيه».

صمتٌ خيَّم عليهم؛ كاثرين، من كانت لا تزال رافعةً بوقها أملًا في سماع المزيد، استدارت بعيدًا.

«كان في السادسة والثلاثين»، قالت ماري. «بلغها قبل شهرٍ ويوم».

لا أحد نطق بكلمة.

«والليلة الماضية – *رحماك يا الله*، كانت الليلة الماضية! تصوَّروا! قبل أقل من أربع وعشرين ساعة، ذاك الهاتف المشؤوم رن وجلسنا معًا في المطبخ – نفكر في *أبيه*! كلانا ظن أنَّ أباه من يقف على عتبة الموت. ولهذا السبب مضى إليه. لهذا السبب وقع ما وقع! فذاك البائس رالف كان سكيرًا ثملًا حدًّا عجز جاي عن التأكد منه إن كان هناك من حاجة أصلًا إلى وجوده. وجد نفسه مضطرًّا إلى الذهاب، في حال احتاجوا إليه. يا الله، لا كلمات تصف فاجعتي!».

أنهت شرابها ونهضت كي تحضر كأسًا آخر.

«سأحضره لك»، قال آندرو سريعًا، وتناول الكأس من يدها.

«لا أريده قويًّا، آندرو»، قالت له. «شكرًا».

«مثل رقعة الداما»، قال أبوها.

«ما الذي يشبه رقعة الداما؟».

«ما تقولينه الآن. تظنين أنَّ كل الأحجار تتحرك في اتجاه موت شخص، وبحق الرب، شخصٌ آخر من يقع في قبضته. في لحظة ترين المربعات السود مقابل الحمراء وفي طرفة عين ترين الحمر مقابل السوداء».

«أجل»، قالت ماري، في نبرة أمها ذاتها متى ما ارتبكت.

«لا أحد منا يعرف حقيقةً ما الذي يفعله، في أي لحظة من حياته».

يا ترى كيف تتدبر قضاء حياتك دونما إيمانٍ في رب، أرادت هانا أن تسأله، فمجرد تصور حياةٍ كهذه يهولني. لكنها أمسكت لسانها.

«إنها حكايةٌ يحكيها معتوه... ولا تعني أي شيء»[1].

«بل تعني شيئًا»، قال آندرو، «عدا أننا لا نعرف أي شيءٍ هذا».

---

(١) اقتباس عن مسرحية مكبث لشكسبير، الفصل الخامس - المشهد الخامس، في وصف مكبث الحياة: «إنها حكايةٌ يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف، ولا تعني أي شيء». (تعريب جبرا ابراهيم جبرا)

«وأين الفرق. كأنك تخيرني بين أفعى مجلجلة وظربان».

«جاي يعرف؛ بات يعرف الآن»، قالت ماري.

«حتمًا لن أقسم على أنه لا يعرف»، قال أبوها.

«صار يعرف، ماري»، قالت عمتها.

«طبعًا يعرف»، قالت ماري.

أوه طفلتي، خيرٌ لك أن تصدقي هذا، تفكرت عمتها، وقد اضطربت على «طبعًا» التي سمعتها منها.

«أتساءل»، قالت كاثرين؛ والكل استدار نحوها. «اقتراح ماري -عن النقش- جميلٌ جدًّا ولائق، لكني *أتساءل*، إن كان الناس -سيفهمونه».

«*آغغ*»، دمدم جويل.

«وإن لم يفهموا؟» قال آندرو.

ماري مالت نحوها. «أجل، ماما! ما شأننا إن *لم* يفهموا! نحن نفهمها. *جاي* يفهمها. لم عسانا نهتم إن *هم* فهموها أم لا!».

كانت مجروحة ومصدومة من العنف الذي أحسته في هجوم ابنتها المباغت عليها. «ليس سوى اقتراح لا أكثر ولا أقل»، قالت في إباء. «ففي نهاية المطاف، الشاهد سينصب في *مكانٍ عام*. الكثير من الناس سيرونه، لا نحن وحسب. ولطالما افترضت أنَّ مهمة الكلمات -هي *التواصل*- *بكل جلاء*».

«أوه، ماما، لا تغضبي»، صاحت ماري. «أفهمك. وأقدِّر اقتراحك. لكني لا أرى أنَّ في هذه الحالة، هذه الحالة بالذات، سيعنيني حقًّا ما يظنه الناس. جاي من يعنيني. لا الآخرون. ألا ترين ماما؟».

«أرى، بنيتي، أرى؛ أظنك محقة. ليس من شأني أن...».

«بل نحن سعداء أنك أثرت الموضوع، ماما. نقدر جدًّا إثارتك إياه. إذ لم يخطر لي الأمر إطلاقًا، وكان يجدر بي أن أتفكر فيه. لكن الآن، وقد خطر لي، بعد أن سمعته منك، أجد نفسي مصرة أكثر على النقش. هذا كل ما في الأمر».

«*انسي الموضوع كاثرين، بحق الرب انسي الموضوع!*» قال جويل في صوتٍ خفيض؛ لكنها أومأت والتزمت الصمت.

«كم أكره جرح مشاعر ماما»، قالت ماري، «لكن *بالله عليها!*».

«لا بأس، ماري»، قال آندرو.

«انسي الموضوع، بولي»، قال أبوها.

«نسيته»، قالت ماري؛ واحتست شرابها.

«علينا أن نبلغهم بالخبر»، قالت ماري. «أمه. علينا أن نتصل برالف. آندرو، هلا فعلت ذلك؟».

«بالطبع، سأفعل». وهمَّ ناهضًا.

«أخبرهم أني آسفة، أني لم أستطع محادثتهم على الهاتف. هلا فعلت، آندرو؟ أنا واثقة بأنهم سيتفهمون».

«بالطبع سيتفهمون».

«فقط أخبرهم - كيف حدث. أخبر رالف أني أبعث كل حبي إلى أمه». أومأ لها. «وآندرو. احرص على السؤال عن والد جاي». أومأ لها. «ودعهم يعرفون متى - أوه؛ نحن حتى لا نعرف متى، هل نعرف؟ متى الـ - أي يومٍ سيدفـ - ستكون - جنازته، آندرو!».

«لست أكيدًا. أخبرتهم أني سألتقي بهم صباح الغد بشأن ذلك».

«حسنٌ، إذًا علينا أن نخبرهم أننا سنعلمهم بالموعد حالما نعرف. وسنحرص أن يكون هنالك متسع من الوقت. أعني كي يأتوا هنا».

«ما الرقم، ماري؟».

«الرقم؟».

«رقم هاتف رالف؟».

«آه ـ لا أتذكر. لا أظن أني أعرفه جيدًا. سيكون عليك أن تسأل السنترال. جاي من تولى دومًا الاتصال بهم».

«لا بأس، ماري».

«لافوليت»، نادت عليه، وهو ماضٍ نحو الردهة.

«حسنٌ، ماري». واستدار مغادرًا.

«آندرو!».

«أجل، ماري؟» أطل برأسه.

«تحدث في صوتٍ خفيض، بقدر استطاعتك، لا نريد أن نوقظ الأطفال الآن».

«بالطبع، ماري».

«غريبٌ أني لا أعرف رقمهم». أخبرت الآخرين. «لكن جاي من تولى دومًا الاتصال بهم».

«أخبري أمك عمَّا يجري الآن»، قال أبوها ناصحًا. إذ رأى التساؤل على ملامح زوجته. وماري انحنت نحوها.

«الحمَّام؟» همست أمها في تحفظ.

«لا، ماما. بل مضى نحو الهاتف كي يتصل بشقيق جاي».

كاثرين أومأت، تميل ببوقها أكثر نحو ماري، لكن ما كان لدى ماري أي شيءٍ آخر تقوله.

«أتمنى أن يبعث لهم بخالص -تعازينا- القلبية»، قالت أمها.

ماري أومأت بحدة تقارب الوقاحة. «لا تقلقي، حرَّصت عليه أن يفعل»، قالت كاذبة.

بعد لحظات استسلمت كاثرين، وبين يديها الذاويتين، سجَّت بوقها على حجرها.

الفصل الثاني عشر

كان آندرو قد أطبق الباب، لكنهما ظلتا تسمعانه يحاول التحدث بهدوء. وبالفعل، كان يتحدث في صوتٍ خفيض، فمه لصيقٌ بفم السماعة التي حاوطها بيده؛ وحتى مع ذلك، كان بإمكان ماري وهانا سماع معظم ما يقول. لم ترغب أيهما في الاستماع، لكن ما كان بيدهما حيلة.

قال، «أريد أن أجري مكالمة بعيدة المدى، رجاءً» والهدوء في صوته أجبرهما على أن ترهفا السمع. إذ رأيا فيه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

«هللو؟ هللو؟ المكالمات بعيدة المدى؟ أريد أن أجري اتصالًا برالف فوليت، رالف، فوليت، فو... ليت. كلا، سنترال، فو فو، هل سمعت؟ ليت. ليت. فوليت. في لافوليت، تينيسي. لا، لا أملكه. شكرًا لك، قلت شكرًا لك».

«لا أدري كيف لأمه أن تحتمل وقع الخبر»، قالت ماري، تتمالك

نفسها. «قلت إني لا أرى كيف لأم جاي أن تحتمل وقع الخبر»، قالت لأمها.

«زوجها يترنح على عتبة الموت»، قالت لهانا، «والآن هذا. كان قرة عينها، أثير قلبها».

«هللو؟».

«هي امرأةٌ شجاعة، عن ألف رجل»، قالت هانا.

«رالف؟ رالف فوليت؟».

«لو ما كانت هكذا، لما عاشت حتى اليوم»، قالت ماري.

«رالف، معك آندرو لينش». جلستا ساكتتين وما تكلفتا ادعاء عدم إصغائهما.

«أجل. آندرو. رالف، عليّ أن أخبرك شيئًا عن جاي». هانا وماري تبادلتا النظر. ومذ تلك اللحظة، مع كل كلمةٍ كان سيقولها آندرو على الهاتف، كانتا ستدركان على نحوٍ فشلتا فيه سابقًا، أنَّ ما حدث قد وقع فعلًا ولا عودة عنه.

«رالف، جاي توفي الليلة. قد مات».

«مات في حادث سيارة، في طريقه إلى البيت، قريبًا من محطة باول. قتل فورًا».

ماري أطرقت برأسها، تتأمل كأس الويسكي بين يديها، وراحت ترتجف.

«فورًا. الطبيب أكد لي هذا. مات دون أن يعرف ما أصابه. ارتجاجٌ في المخ، رالف. ارتجاج – في المخ. صدمةٌ قوية على الدماغ قتلته فورًا».

وفجأة قالت ماري، «عليهم ألا يخبروا أباه. الخبر سيقتله».

«لا أدري كيف سيتحاشون إخباره»، قالت هانا. «ماري تقول إنَّ عليهم ألا يخبروه، والد جاي»، قالت هانا لأخيها. «ففي حالته معرفته بالخبر قد تقتله. أخبرتها أنني ببساطة لا أعرف كيف لهم أن يتحاشوا إخباره. إذ، في نهاية المطاف، سيضطرون إلى تفسير حضورهم هنا لأجل الجنازة».

«فليخبروه أنه مصابٌ وحسب»، اقترح جويل.

هرعت ماري نحو الردهة. «آندرو»، همست في صوتٍ عالٍ. وفزعت على مرأى تقاسيم وجه أخيها المنقبضة يلتفت إليها صافعًا الهواء بكف يده كما لو كانت بعوضة. «مكانٌ واحد وحسب، على وقب ذقنه»، كان يقول. استدار نحو ماري، لكن الصوت ظل يلاحقه فاستدار ثانيةً صوب الهاتف. «لربما قاد أميالًا على هذه الحال. لا أحد يعرف. بحثوا في كل مكان ولمسافة بعيدة على مر الطريق -أجل، بالطبع كانت لديهم مصابيح ضوئية - لا، لم يتمكنوا من العثور عليه». ثانيةً سمعت الصوت، يتلوى مثل سلك. «لا، لا فكرة لديهم. عدا أنَّ الشوارع في تلك الطريق قد تكون وعرة وجاي كان يقود مسرعًا. لحظة رالف». غطى فوهة السماعة. «ما الأمر ماري؟».

كان لها أن تسمع الصوت المهتاج يتلوى عبر الأثير، مثل دودةٍ يائسة علقوها على خطاف صنارة. تلك الدودة المقرفة السمينة! «أخبر رالف ألا يعلم أباه»، همست له. «ففي حالته هذه قد يقتله سماع الخبر. إن كان لا بد أن يقولوا شيئًا، عن -قدومهم هنا- فليخبروه أنه أصيب في حادث». آندرو أومأ.

«رالف»، عاد إلى سماعة الهاتف. «اذهبي»، همس لأخته، إذ كانت لا تزال تتلكأ جواره. «نريد أن نذكرك، لربما من الخطر جدًّا على أبيك» (كانت ماري الآن تسمعه عبر الباب؛ وقد جلست على كرسيها) «إعلامه بالخبر الآن. بالطبع الأمر يعود إليك وإلى والدتك، أنتما أدرى، لكن في حال اضطررتم إلى تفسير حضوركم الجنازة، لعل من الأفضل إخباره أن جاي تعرض لحادث؛ أنه ليس في وضعٍ خطر. ألا تتفق معي؟».

«ما الذي قلته؟».

«أوه، لا، نحن...».

«هو لدى دار روبرت. حملته إليه هذه الليلة».

«أوه، أظن أنَّ...».

«*رحماك يا الله!*» هتفت ماري، في صوتٍ عالٍ أفزع أباها. «رالف حانوتي!».

«بالطبع، أفهمك رالف».

«لا. ليس بعد».

«ليست مسألة توفير مال...».

«اسمعني، رالف، هلا...».

«هلَّا انتظرت على الهاتف دقيقة، رجاءً؟ أرى أنه يجدر بنا ترك القرار لماري، ألا تتفق معي؟».

«بالطبع هي... وأنت أيضًا. أنا...».

«لا شك لديَّ مطلقًا».

«لا، أقدِّر لك صنيعك، رالف، وأعرف أنَّ ماري ستقدِّره، لكن دعني أستشيرها ونتأكد من رغبتها، رجاءً. فقط انتظر».

سمعوا خطاه المتعجلة نحو الغرفة قبل أن يقحم وجهه المغتاظ من خلف الباب.

«رالف»، أعلن لهم، «هو حانوتي. وأتصورك تعرفين ما الذي يرغب فيه. أخبرته أنَّ القرار بيدك».

«يا ـ لطيف!» ثار جويل حانقًا.

«آندرو، سيتحتم عليك إخباره -أني- أني ببساطة لا أستطيع».

«إنه يلوم نفسه على وفاة جاي... ويريد فرصةً يكفِّر بها عمَّا فعل».

«وعلام بحق السماء يلوم نفسه!».

«لاتصاله بجاي من الأساس».

«يا له من هراء»، قالت هانا.

«لكن جاي لدى روبرت...».

«يقول رالف إنَّ من السهل ترتيب تلك الأمور. وهو مستعد للمجيء غدًا صباحًا، مع طلعة الشمس».

«في هذه الحال أخبره أني لا أستطيع. لن أقبل أبدًا، تحت أي ظرفٍ كان. أخبره أنني أقدر جدًّا *جدًّا* صنيعه وأشكره عليه، لكن لن أستطيع. أخبره أنني جد منهكة على التعامل مع أمرٍ كهذا. لا يهمني ما تقوله له آندرو، فقط تصرف معه».

«سأتصرف معه». وعاد إلى الهاتف.

«أقرب ما يكون إلى زنا المحارم»، قال جويل.

وأفلتت من هانا ضحكةٌ جشاء.

«لا شيء مهم، ماما»، قالت ماري. «أمرٌ يتعلق بترتيبات الـ – الجنازة».

لا شيء مهم! قال جويل في نفسه. السبيل الوحيد أمام الناس للمضي قدمًا في هذه الترتيبات هي الخوض فيها ببصيرةٍ عمياء، على الأقل نصف الوقت. لكن لا: ماري وحسب اختارت الطريق الأسهل مع كاثرين.

«ومتى ستقام الجنازة؟».

هانا كبتت ضحكة أخرى لكن جويل لا. تقاسيم وجه ماري تلبَّست ملامح ابتسامة غامضة وهي تقول لأمها، «لا نعرف بعد. تلك كانت مسألة أين. هنا أم في لافوليت؟».

«أرى أنَّ موطنه هنا، في نوكسفيل».

«وهذا ما نراه نحن أيضًا. وعلى هذا استقررنا».

«خيرًا فعلتم».

آندرو دخل. «حسنٌ، كان إما رالف أو أنت. واخترتك أنت».

«أوه آندرو، لا بد أنك جرحته».

«لم يترك لي حلًّا آخر. ما كان ليقبل أبدًا بالرفض».

«والآن سينوح عند أمه».

«وينوح، ما همنا».

«أمه امرأة عاقلة، ماري»، قالت هانا.

«أحتاج كأسًا»، قال آندرو، *«يا الله!»* تأوه محبطًا، «محاولة الحديث بمنطق مع ذاك الأحمق لا يقل عبثًا عن محاولة إلباس أخطبوط جواربه!».

«أوه، آندرو»، ضحكت ماري، إذ ما سبق لها أن سمعت بهذا التعبير. «لا تعرف كم أنا ممتنة لك، حبيبي، لا بد أنه أنهك أعصابك حتى آخر نفس».

«كلنا منهكون»، قالت هانا. «وأنت بالذات ماري. خيرٌ لنا أن نحظى ببعض النوم».

«أعرف ذلك، لكني صدقًا لا أشعر أنَّ *باستطاعتي* النوم. لكن أنتم في حاجة ماسة إليه».

«نحن بخير»، قال آندرو. «عدا ماما، ولربما بابا، خيرٌ لكما أن...».

«نحن لا ننام أبدًا قبل الثانية صباحًا»، قال جويل. «وأنت تعرف ذلك».

«دعيني أعد لك كأس توديّ»، قالت هانا. «سيساعدك على النوم».

«أخشى أنه سيوقظني أكثر».

«سأعده حارًا».

«ربما كوبًا من الحليب. *لا، لن أشربه!*» صاحت باكية، دموعٌ مفاجئة تنهمر من عينيها؛ حدقوا إليها ثم أشاحوا بأعينهم عنها. سريعًا عادت واستجمعت شتات نفسها.

«كان آخر شيء فعله جاي لي»، فسرت لهم، «في الصباح الباكر جدًّا قبل ـ قبل رحيله. أعدَّ لي حليبًا دافئًا حتى يساعدني على النوم». وعادت تبكي من جديد. «فليبارك الرب قلبه، فليبارك الرب قلبه العزيز».

«هل تعرفون آخر شيء قاله لي، تقريبًا آخر شيء؟».

«سألني ما الذي أرغب فيه لأجل عيد ميلادي. *ضمن المنطق*، أردف قائلًا، كان يمزح. وأخبرني ألّا أنتظره على العشاء، لكنه ـ لكنه سيحاول العودة قبل أن يخلد الأطفال إلى النوم، وعدني أنه سيفعل».

سيتنابها شعورٌ أفضل مع مرور الوقت إذا ما احتفظت بتلك القصاصات لنفسها، قال جويل في نفسه. لكن هل يا ترى ستفعل. لفعلتُ أنا. لكنني لست بولي.

«روفس ما كان – ما كان *ليستسلم* أبدًا. ما قبل أبدًا بالخلود إلى النوم. كم فخورًا كان بقبعته، خالة هانا. كم تلهف قلبه على أن يريها أباه».

هانا سارت نحوها وانحنت تطوق كتفها.

«أفرغي ما في صدرك، ماري»، قالت هانا. «إن كنت تظنين أنَّ الفضفضة ستساعدك. لكن حاولي ألَّا تعزفي كثيرًا على وترها».

«وكم غاضبة كنت أنا منه، قبل ساعات قليلة وحسب، على عدم اتصاله بي طوال اليوم، على خيبة أمل روفس. إذ كنت قد أعددت عشاءً طيبًا، *وانتظرت وانتظرت*، و...».

«لم يكن خطؤه أنَّ العشاء كان طيبًا»، قالت هانا.

«*أعرف* أنه ليس خطأه وما كنت مجبرة على انتظاره لكني *انتظرت*، وكم غاضبة كنت أنا منه –حتى أني – حتى أني...».

لا، لا يمكنها البوح لهم عن هذا. حتى *أني ظننته سكران*، كبتتها في صدرها. وليكن سكران، ما شأن العالم به. وآمل إن كان حقًّا ثملًا أنَّ الثمالة أسعدته، بارك الرب قلبه، وليبارك قلبه دائمًا. *ولأبد الدهور*.

وإذ بخاطرٍ مفزع يباغتها، والتفتت تنظر نحو آندرو. لا، قالت

في نفسها، ما كان أبدًا ليكذب عليَّ إن كانت هذه هي الحقيقة. لا، أبدًا لن أسأله. فلا يسعني حتى تخيلها. أعرف أني لن أطيق الحياة إن عرفتها.

لكنه كان هناك، يقضي النهار بأكمله برفقة رالف. حتمًا فعلها. على الأرجح فعلها. وإن فعل، ما كان ضمن وعده لي. ما كان وعدًا قطعه لي. لكن ليس حدَّ *الثمالة*. ليس إلى حد عجزه عن ـ القيادة. القيادة في أمان.

كلا.

أوه، كلا.

لن أدنِّس ذكراه الحبيبة حتى بمجرد السؤال. حتى بسؤال آندرو سرًّا. كلا، لن أفعلها.

تفكَّرت بعين بصيرتها، وبمنتهى حبها رأت وجه زوجها ينجلي بكل تقاسيمه، سمعت صوته، لامست يديه، رأت ابتسامته الحنونة تدفئ قلبها رغم لمحة الحزن التي ما فارقت يومًا عينيه، ونجحت في دحر ذاك الخاطر المفزع عنها.

«ششش!» همست هانا.

«ما الأمر؟».

«ششش! اسمعوا!».

«ما الأمر؟» سألها جويل.

«اصمت، جويل، *رجاءً*. هناك شيءٌ ما».

والكل راح يصغي بانتباه.

«لا أسمع شيئًا»، همس آندرو.

«لكن *أنا* أسمع»، قالت هانا، في صوتٍ خفيض. «أسمعه أو أشعر به. لكن حتمًا هناك شيءٌ ما».

ومرةً أخرى، في سكون الصمت، الكل راح يصغي.

وها هي ماري الآن، يخامرها إحساس عمتها هانا ذاته، بأنَّ هناك أحدًا آخر في البيت عداهم. فكرت في طفليها؛ لربما استيقظ أحدهما. لكن باستراقها السمع، بأقصى استطاعتها، شكَّت أنَّ هناك صوتًا ما؛ وأنَّ أيًا يكن ذاك الصوت وأيًّا يكن ذاك الشيء، فهو حتمًا ليس بطفل، إذ سمعت فيه قوةً وقلقًا وتململًا فظيعًا، لا يمت أبدًا إلى طفل.

«هناك شيءٌ ما»، همس آندرو.

وأيًّا يكن ذاك الشيء، ما كان ليرتاح لحظة في مكانٍ واحد. ها هو في الغرفة المجاورة؛ ها هو في المطبخ؛ ها هو في غرفة الطعام.

«سأذهب لأرى»، قال آندرو؛ وهمَّ ناهضًا.

«انتظر آندرو، لا، ليس بعد»، همست ماري. «لا؛ أرجوك لا؛» وها هو الآن صاعدٌ إلى الأعلى، قالت في نفسها؛ وها هو الآن يعبر - الرواق- هو في غرفة الأطفال. هو في *غرفتنا* الآن.

«هل أتى أحدهم إلى البيت؟» سألت كاثرين في نبرة صوتها الجليَّة.

آندرو شعر بالدم يتجمد في عروقه. انحنى نحوها. «ما الذي جعلك تظنين هذا، ماما؟» سألها في هدوء.

«ها هو معنا الآن، هنا في الغرفة»، قالت ماري في صوتٍ بارد.

«أوه، يا لغبائي، ظننتني سمعت صوت خطى». وضحكت ضحكتها القصيرة المدغدغة. «لا بد أني هرمت وخرَّفت». ومرةً أخرى ضحكت.

«ششش!».

«إنه جاي»، همست ماري. «أنا موقنة الآن أنه هو. إذ للتو كنت مستغرقة في التساؤل حول إذا ما... جاي. حبيبي. نور عينيَّ، هل تسمعني؟

هلَّا أعلمتني إن كنت تسمعني، حبيبي؟

هل باستطاعتك؟

هل باستطاعتك؟

أوه، حاول *أقصى* جهدك، حبيبي. ابذل قصارى جهدك كي تعلمني.

ليس بيدك، أليس كذلك؟ ليس بيدك، مهما *جاهدًا* حاولت.

آه حبيبي، اسمعني، اسمعني جيدًا جاي. أدعو الله من كل قلبي أنك تسمعني، فأنا أريد أن أطمئنك.

إياك أن تقلق حبيبي، أرجوك لا تتكدر. ابقَ قربنا قدر ما

تستطيع. قدر ما تريد. لكن إياك أن تكدر قلبك. هما بخير، حبيبي، زوجي العزيز. وأنا سأكون بخير. إياك أن تقلق حبيبي. سنتدبر أمورنا. ارتحْ في سلام، حبيبي. ارتحْ فقط، ارتحْ يا قلبي. وإياك أن تحمل همًّا ثانية. إياك أبدًا أن تحمل همًّا ثانية، حبيبي. أبدًا، أبدًا».

«ولترقد الأرواح المؤمنة برحمة الرب في سلام»، همست هانا. «مباركون هم الأموات».

«ماري!» همس آندرو باكيًا.

«ما عاد هنا»، قالت له. «لنا أن نعاود الحديث».

«ماري، بحق الرب، ما كان هذا؟».

«كان جاي، آندرو».

«كان *شيئًا*. لا شك لديَّ في هذا، لكن -بالله عليك- ماري».

«كان جاي. أنا *موقنة!* فمن عساه سيأتي الليلة، مهمومًا شديد القلق ومتكدرًا، عداه! كما أني -/حسست به، وكان جاي».

«تعنين...».

«أعني أني أحسست بحضوره».

«وأنا أيضًا»، قالت هانا.

«أكره مقاطعتكم»، قال جويل، «لكن هلا تفضل أحدكم وفسر لي ما الذي يجري هنا؟».

«هل أحسست به أنت أيضًا، بابا؟» سألته ماري متحمسة.

«أحسست بماذا؟».

«هل تذكر حين قالت العمة هانا أنَّ هناك شيئًا ما حولنا، شيئًا أو أحدًا ما في البيت؟».

«أجل، وأمرتني بالصمت، فأطبقت فمي».

«أنا بكل بساطة رجوتك أن تبقى هادئًا كي يتسنى لنا أن نسمع».

«حسنٌ، وما الذي سمعتموه؟».

«لا أدري إن كنتُ سمعتُ شيئًا جويل. لست موقنة تمامًا. لا أظنني سمعت شيئًا. لكني *أحسست* شيئًا، بمنتهى الجلاء. وهكذا أحس آندرو».

«أجل بابا».

«وماري».

«أوه، أحسست به من كل قلبي».

«وما الذي تعنينه بِـ*أحسست*؟».

«إذن أنت لم تشعر بشيء، بابا؟».

«ساورني الشعور بوجود توترٍ ما في الغرفة، شيءٌ ما بينكم أنتم الثلاثة؛ ماري بدت لي وكأنها رأت التو شبحًا؛ *كلكم* بدوتم...».

«قد رأت، بابا» قال آندرو. «أعني، هي لم تر شيئًا بالتحديد، لكنها أحست بوجوده. كانت موقنة من وجود شيءٍ معنا. وتقول إنه جاي».

«هه؟».

«جاي. العمة هانا تظن ذلك أيضًا».

«هانا؟».

«أجل، أظن ذلك جويل. لست موقنة قدر ماري، لكن بدا لي أنه هو».

«وما هو هذا *الشيء*؟».

«الشيء بابا، وما أدراني، فليكن ما يكون. *الشيء* الذي أحسسنا به جميعًا».

«وما هو الإحساس الذي شعرتم به جميعًا؟».

«مثل...آه...».

«وتظنينه جاي؟».

«كلا، لا فكرة لديَّ ما هو ذاك الشيء. لكني أعرف أنه كان *موجودًا* معنا. أمي أيضًا شعرت بذلك».

«كاثرين؟».

«أجل. ويستحيل أنها التقطت ذلك من خلالنا لأنها كانت غافلة تمامًا عما كنا نقول ونفعل، ثم فجأة قالت، *هل أتى أحدهم إلى البيت؟* وحين سألتها لم عساها تظن ذلك قالت إنها سمعت صوت خطى».

«لربما توارد أفكار».

«لا أحد منا ظنَّ وقتها أنه صوت خطى».

«سيانَ لدي. يستحيل أن يكون ما تظنون».

«لا أدري ما كان ذاك الشيء، بابا، لكن أمامك أربعة أشخاص وكلٌّ منا بمعزلٍ عن الآخر موقنٌ بأن شيئًا كان حاضرًا بيننا».

«جويل، أعرف أنك لو رأيت الرب بأم عينيك يقود عجلة يد ما كنت لتقتنع بوجوده»، قالت أخته. «نحن لا نحاول هنا إقناعك بشيء. لكن إن كنت ستلتزم أقصى عقلانيتك حتى في هذه الظروف، فأرجوك، لم لا تكون عقلانيًّا كفاية لتدرك أننا على الأقل اختبرنا ما اختبرناه».

«أقل ما يمكنني فعله هو قبول واقع معايشة ثلاثة أشخاص هلوسة مشتركة، وأحترم اعتقادهم هذا. هذا بيدي فعله، على ما أظن. سأصدقك، لأجلك هانا. لأجل كل واحدٍ منكم. لو أني عشت تلك الهلوسة معكم لكنت اقتنعت أكثر. لكن حتى حينها، كانت الشكوك ستراودني».

«بحق الرب ما الذي تعنيه *بالشكوك*، بابا، إن كنت نفسك ستحس به؟».

«لشككت أنها هلوسة».

«يا الله! كنت ستشك في كل الأحوال، أليس كذلك بابا؟».

«أخنجرٌ هذا الذي أرى أمامي[1]؟ لا لم يكن، كما تعرفين. لكن ما كنتِ أبدًا لتقنعي مكبث بغير ذلك».

---

(١) اقتباس عن مسرحية «مكبث» لشكسبير (الفصل الثاني - المشهد الأول).

«آندرو»، قاطعت ماري أباها، «أخبر ماما. فهي تموت وتعرف ما الذي يجري...» وتاهت كلماتها منها. لا بد أني جننت، قالت في نفسها. *تموت!* وبمنتهى الذهول والاشمئزاز تفكرت في أسلوب حديثهم، هي نفسها بالذات. كيف نطيق الثرثرة في أصواتنا الطبيعية هذه! ما بالنا ننطق بكلمات عادية، ما بالنا ننطق أصلًا بكلمات! ومتى، الآن! بينما المسكين يلم شتات روحه المبعثرة، مثلنا مثل الدجاج المتكالب على ـ ورأت دودة في عين خيالها وبكفَّيْ يديها غطت وجهها في غثيان. سمعت أمها تقول، «أوه آندرو، يا له من أمرٍ *مذهل!*» ثم سمعت آندرو يلح عليها في السؤال، هل ساورها شعورٌ غريب عن *ماهية* الشخص أو الشيء، أي، إن كان ساكنًا أو نشطًا، شابًّا أم مسنًّا، مرتبكًا أم هادئًا، أو ما هو هذا الشيء أصلًا: وأمها أجابت بأن لا انطباع محدد لديها سوى أنَّ شخصًا كان في البيت معهم، وما كان بأحد الطفلين، شخصٌ ناضج، دخيل؛ لكن حين رأت أنَّ لا أحد تعنَّى النهوض للتحقق من الصوت، قررت في نفسها أنَّ ما سمعته لا بد هلوسة ـ وما زاد من يقينها، هو ظنها أنها أصلًا سمعت أحدًا، إذ كيف كان لها أن تسمعه مع أذنيها الهرمتين العطبتين (ضحكت بلباقة) ببساطة لكان أمرًا مستحيلًا. أوه، أتمنى أن يتركوه في سلام، قالت ماري في نفسها. اكتشافٌ مذهل. يا له من *دليل!* لم لا نكرمه باللواذ إلى صمتٍ وقور! لكن آندرو ما انفك يسأل أمه، هل حدث أن، بعدها بلحظات، ظلت تشعر بوجود أحدهم، أم لا؟ وأخبرته أنها فعلًا تكوَّن لديها هذا *الانطباع*. أين؟ ليس بيدها أن تعرف أين، عدا أنَّ *الانطباع* بات أقوى من قبل،

لكن، بالطبع، كانت قد أدركت حينها أنها مجرد هلوسة. لكنهم شعروا به أيضًا! غير معقول!

«ماري تظن أنه جاي»، قال آندرو.

«أوه، أنا...».



«وكذلك العمة هانا».

«أوه كيف ـ أمرٌ مذهل، آندرو!».

«تظن أنه كان قلقًا حول...».

«أوه، آندرو!» صاحت ماري. «آندرو! أرجوك كفَّ عن الحديث في الموضوع! هلَّا تكرمت؟».

نظر إليها وكأنها للتو صفعته. «أوه، ماري، طبعًا!» وراح يشرح لأمه: «ماري تفضِّل أن نكف حالًا عن التكلم في الموضوع وألا نتحدث فيه ثانيةً».

«أوه، لا أعني ذلك، آندرو. ما حدث ـ ما حدث يعني أكبر بكثير من أي كلمةٍ لنا أن *نقولها* أو نفكر فيها. أعطي كل ما لديَّ اللحظة مقابل الجلوس في هدوء والتفكر فيه لبرهة! ألا ترى ما نفعل هنا؟ كأننا ندفع به بعيدًا عنا بينما كل ما يتوق إليه الآن هو الوجود بيننا، معنا، لكن يجد نفسه عاجزًا عن ذلك».

«أنا *آسف*، حقًّا *آسف* ماري. بالطبع، أجل، أفهم ما تعنين. كما لو أننا بانشغالنا عنه ندنس روحه».

لذا جلس الجميع في سكون وفي هذا الصمت حاولوا الإصغاء

من جديد. في البدء ما كان من صوتٍ هناك، لكن بعد عدة دقائق همست هانا، «هو هنا». آندرو همس، «أين؟» وماري قالت في صوتٍ هادئ، «مع الطفلين»، وبسرعة، بمنتهى الهدوء، نهضت وغادرت الغرفة.

ما إن عبرت باب غرفة الأطفال حتى استشعرت وجوده القوي منتشرًا في الغرفة كما لو أنها اللحظة فتحت باب فرنٍ مضطرم: استشعرت قوته، رجولته، عجزه، وسكونه العميق. وفي وسط أرضية الغرفة خرَّت على ركبتيها وهمست، «جاي، حبيبي. حبي الوحيد. أنت بخير الآن، حبيبي. ما عدت تحمل همًّا، أليس كذلك حبيبي؟ لا همَّ بعد اليوم. لا ذرة هم مطلقًا، يا قلبي. أعرف بما تشعر به الآن. أعرف، أعرف يا أعز الناس. فظيعٌ رحيلك الآن. وأنت لا تريد أن ترحل الآن. بالطبع لا تريد. لكن عليك الرحيل. وكن موقنًا أنهما سيكونان بخير. كل شيءٍ سيغدو على ما يرام، حبيبي. الرب أخذك. والرب سيحفظك، جاي، محبوبي جاي. وسيغمرك الله بنوره الإلهي». وحتى وهي تهمس، استشعرت وجوده يخفت، وفي لحظة ذعرٍ صاحت مرتاعة «جاي!» وهرعت نحو مهد ابنتها. «ابقَ معي بعد، ابق معي لدقيقة واحدة»، قالت هامسة، «دقيقة واحدة وحسب حبيبي»؛ وبقوتها أعادته؛ شعرت به جانبها، يتأمل طفلته. كاثرين كانت تغط في نومٍ عميق وإبهامها مدسوسٌ بالكامل في فمها؛ كم عبوسًا بدا وجهها. «فليرحمك الرب، طفلتي»، همست ماري، مبتسمة، وبأناملها لامست جبينها الحار تمسد تقطيبها، والطفلة الصغيرة هرَّت. «فليباركك الرب، فليحفظكِ الرب»، همست

أمها، ومضت في صمت نحو سرير ابنها. ها هي القبعة هناك، على الأرض جانبه، لَمَّا تزل في كيسها الورقي؛ نومه أخف من نوم أخته، ذقنه مرفوعة، وجبينه مدفوعٌ إلى الوراء؛ بدا وقورًا، مترقبًا، راقدًا في سكينة.

«ابقَ معنا قدر استطاعتك»، همست. «ذي هي ساعة الوداع». ومرةً أخرى جثت على ركبتيها. الوداع، قالتها مرةً أخرى، في قرارة نفسها؛ لكن ما شعرت بشيء. عجزت عن الشعور بشيء. «ربّ ساعدني على *إدراكه*» همست، وضمَّت كفيها قبالة وجهها: لكن كل ما أدركته هو إحساسها به يتلاشى، وأنَّ ذي حقًّا ساعة الوداع، وأنها حتى في هذه الساعة ما تزال عاجزة عن الإحساس بهول تلك الحقيقة.

وها هو ذا قد غادر الغرفة، غادر البيت، غادر هذا العالم.

«عن قريب، جاي. عن قريب، حبيبي»، همست في الهواء؛ لكنها عرفت أنَّ ليس عن قريب. عرفت أنَّ حياةً طويلة تنتظرها، تربي فيها طفليها، والله وحده يعلم كم من التبدلات والأقدار ستجري عليهم جميعًا، قبل أن يأتي الوقت الذي فيه يلتقيان. وفي وهلة تملكها إحساسٌ من العدم والسكون؛ امتلاءٌ باردٌ وغامر استحوذ عليها.

«فليكن الرب في عوننا جميعًا»، همست. «فليحفظنا برحمته ومحبته».

رسَمت الصليب على صدرها وغادرت الغرفة.

تبدو مثلما تبدو دائمًا لحظة ترحيبها بهم في بيتها، كذا دار في خلد هانا ما إن رأت ماري داخلة تأخذ مكانها على الأريكة؛ فماري كانت تحاول، بأقصى استطاعتها، وبنجاح، إخفاء كربها؛ وفور جلوسها بينهم، في غمرة هدوئهم، بدأ كربها يتضاءل. إذ بالرغم من كل شيء، قالت في نفسها، هو صدقًا *كان هناك*. ووجوده هناك كان أقوى مما كان عليه هنا في هذه الغرفة. على أية حال، كانت ممتنة لصمتهم.

أخيرًا قال آندرو، «عمتي هانا لديها فكرة عما جرى، ماري».

«ربما تفضلين عدم الخوض في الحديث عنه»، قالت هانا.

«لا؛ لا بأس؛ بل أظنني أفضل ذلك». وفوجئت بأنها حقًّا تفضله.

«حسنٌ، بكل بساطة كنت أتفكر في كل الحكايات القديمة والمعتقدات عن أرواح الناس من يلقون حتفهم فجأة، أو يتعرضون لميتةٍ عنيفة. أو، كما يوثر جويل، ليست أرواحًا، بقدر ما هي طاقة حياتهم. هالة وعيهم. حياتهم ذاتها».

«لا سبيل لديَّ لإنكاره»، قال جويل. «هانا كانت تقول إن كل شيءٍ ذي أهمية يغادر الجسد لحظة الموت. وبالتأكيد أنا أتفق معها».

«وبذا، سواء كنت تؤمن بالحياة بعد الموت أم لا»، قالت ماري، «في الروح ككائنٍ خالد، مخلوق، أم لا، سيظل منطقيًّا لك ومعقولًا أنَّ ولبرهة قصيرة، فتلك القوة، تلك الحياة، ستظل موجودة. تطوف في الأرجاء».

«بالكاد أراه محتملًا، لكني، نعم، أراه معقولًا».

«مثل التحديق إلى الضوء ثم إطباقك جفنيك فجأة. لا، ليس كذلك بل – لكن يظل هناك. لا سيما إن كان شخصًا في أوج قوته، حيويته، من لم يذوِ مع الكبر، من لم يهن جسده في مرضٍ عضال وطويل».

«بالضبط هو ذا»، قال آندرو. «ينخطف كاملًا بلا نقصان، لأنه سريعٌ جدًّا».

«قديمة قدم السهول والجبال، تلك المعتقدات العتيقة».

«أتصورها قديمة قدم الموت والحياة»، قال آندرو.

«ما أعنيه، أنهم لا يُرْفعون إلى الله مباشرةً»، قالت هانا. «فالميتة العنيفة التي تعرضوا لها، الصدمة المريعة، تتطلب منهم وقتًا كي يعوها».

«لهذا تَطلَّب الأمر منه وقتًا طويلًا كي يأتي هنا»، قالت ماري. «كأنما روحه ذاتها فقدت وعيها إثر الصدمة».

«أراه محتملًا».

«وفوق كل هذا، رجلٌ مثل جاي، شاب، له طفلان وزوجة، ولا للحظة تصوَّر أن الموت قادمٌ إليه، لا وقت يعيد فيه ترتيب أموره، يستعد فيه لملاقاته».

«هو ذا»، قال آندرو. وهانا أومأت.

«وأول شعورٍ كان سيستحوذ عليه، *أنا مهموم. الموت خطفني*

دونما إنذار. ما أكثر المهام بين يديَّ ولم أنهها. لا، كيف لي أن أتركهم هكذا. لكان هذا شعوره، أليس كذلك! بلى، لأن هذا كان شعوره، وهذا ما أحسسناه في حضوره. قلقٌ جدًّا، مهمومٌ جدًّا، ومضطرب. بلى، ذا تمامًا كان شعوره!

«وفقط حين يقتنعون بأنك تعرف يقينًا قدر اهتمامهم، بأن كل شيءٍ سيغدو على ما يرام، على أفضل صورةٍ ممكنة، حينها وحسب للقلق أن يكف يديه عنهم ويخلدون إلى الراحة».

الجميع أومأ ولدقيقة الكل لاذ بالصمت.

ثم ماري، وفي صوتٍ حنون، قالت، «يا له من أمرٍ مروع، مثير للشفقة، تعجز عن وصفه الكلمات، أن ينتابك هذا القلق المريع على من تحب، على مصلحة من تحب، وتقف عاجزًا عن فعل شيء، حتى عن قول شيء. ألا تكون بعد اليوم عونًا لمن تحب. يا للأرواح المسكينة.

ويا الله، كم هي *في أمس الحاجة* إلى من يطمئنها. في حاجة إلى الرقود في طمأنينة. وكم أنا ممتنة أني استطعت طمأنته. فهو يستحق الخلود إلى الراحة. كم أنا *سعيدة*». وإذ بقلبها يُبْعَث من كربه، ويعود حنونًا محبًّا، شبه مكتمل.

وثانيةً عادوا إلى صمتهم، متأملين، وفي هذا الصمت تكلم جويل في هدوء وعلى مهل، «*لا ـ أعرف. أنا* وحسب *ـ لا ـ أعرف*. كل ذرة عقلٍ فيني تقول لي إن كل هذا مستحيل، لكن إن كان هذا ما حدث، فهو ليس بالشيء الذي يدرك بالعقل. *ما ـ عدت ـ أعرف*».

«إن كنتِ محقة وأنا المخطئ، فالاحتمال الأكبر أنك محقة بكل شيء، بشأن الرب، وسائر طاقمه. وفي هذه الحال لن أكون سوى مغفلٍ أحمق».

«لكن إن كنتُ عاجزًا عن الوثوق بعقلي، في المنطق ـ وأعرف أنه ليس بالشيء الكثير بولي لكنه كل ما أملك. إن عجزت عن الوثوق فيه، بحق الجحيم فيم عساني أثق!».

«أنتِ وهانا ستقولان لي، في الرب. لكن بالنسبة إليَّ، هذا الخيار مرفوضٌ تمامًا».

«ولماذا، جويل؟».

«لا يبدو لي أن الأمر يحرج إحساسكما بالمنطق، لا أنتِ ولا بولي، وفي هذا الشأن لن أدلي برأيي. فأنت وهانا امرأتان ذكيتان. لكن كيف لكما أن تجمعا بين الرب والعقل، لأمرٌ يحيرني».

«يتطلب الإيمان، بابا»، قالت ماري في رفق.

«وها هي الكلمة، الكلمة وراء كل هذه الفوضى. تنط في وجهك مثل عفريت العلبة. وتحلُّ كل شيء. لكنها لا تحلُّ شيئًا لأجلي، فلا ذرةً منها أملكها في صدري. وما كانت لتضرني لو أني ملكتها. لكني لا أؤمن بها. الإيمان ليس لي. بل لكِ، ولكل امرئٍ يملك تدبرها، وهنيئًا لكما بإيمانكما. قوةٌ إضافية تواجهان بها الحياة. ولعلني كنت سأسعد بها لو كان بيدي تدبرها. لكن ليس بيدي. ليس أني ملحد، أنتما تعرفان هذا. على الأقل، لا أعتبر نفسي ملحدًا.

إذ يبدو لي غير منطقي ادعاء عدم وجود الرب بلا برهان مثلما هو غير منطقي ادعاء وجوده. فليس بيدك إثبات أيٍّ من الافتراضين. المحك عندي هو هذا: أرني البرهان. ما لم ترني البرهان، فاللعنة عليَّ إن قفزت أعمى في أيٍّ من الافتراضين. ما أود قوله هو، أني آمل أن تكونا مخطئتين، لكن لا أدري، لا أدري».

«ولا أنا»، قال آندرو. «لكني أيضًا آمل أن تكونا مخطئتين».

رأى ماري وهانا تنظران إليه آملتين.

«لا أعني المسألة برمتها»، قال لهما. «فما أدراني أنا. لكن أعني بشأن الليلة».

لا، ليس بيدك أن تمسك العصا من الوسط، قال أبوه في نفسه.

مثل صفع طفلٍ على وجهه، تصوَّر آندرو؛ بدا ردُّه أقسى مما انتوى عليه.

«لكن، عزيزي آندرو»، كانت ماري على وشك أن تقول، لكنها لجمت لسانها. إذ علام الجدل، خطر لها؛ وهل هذا أصلًا وقت التشاحن حول موضوعٍ كهذا!

كلٌّ منهم أدرك أن الآخرين راودهم الخاطر نفسه، ولبرهة، ما كان لدى أيٍّ منهم شيءٌ يقوله. أخيرًا، قال آندرو، «أنا آسف».

«لا بأس»، قالت أخته. «لا بأس، آندرو».

«كلٌّ على دينه يعينه الله»، أردفت هانا، بعد دقيقة.

«حتى أنت جويل. عقلك ومنطقك هو دينك».

«ليس إلى هذا الحد: هو وحسب كل ما لديَّ. كل ما بيدي التيقن منه».

«وهذا ما أعنيه».

«دعونا لا نخوض أكثر في هذا الحديث»، قالت ماري. «الليلة»، أردفت قائلة، تحاول ألا يبدو طلبها حاسمًا، متعجرفًا.

لكن الكلمة رنَّت توبيخًا في آذانهم جميعًا، قاتمة أكثر مما انتوت ماري عليه، لذا، وحتى يعفوها من أي إحساسٍ بالندم، كلهم تعجلوا، في لطفٍ بدا أقرب إلى اللامبالاة، «لا، دعنا لا نخوض فيه».

وفي غمرة إحراجهم من ردِّهم الذي أتى جماعيًّا دون قصدٍ منهم، جلسوا عاجزين يلفُّهم الحزن، واثقين بأنَّ الصمت، وإن كان وقعه عليهم وعلى ماري أليمًا، يظل أهون من احتمال التجريح بكلمة. ماري تمنت لو أنَّ بيدها التخفيف عليهم؛ موقنة أن صمتها إنما يعمِّق من إحساسهم بتوبيخها إياهم؛ لكنها، هي الأخرى، شعرت بأنَّ أي محاولة للكلام لَأسوأُ بكثير من الصمت.

وفي قلب هذا الصمت جلست أمها، تبتسم بعصبية وتهذيب، تميل ببوقها في كل الاتجاهات نحوهم. أدركت أنَّ لا أحد منهم كان يتكلم. وعادةً، في أوقات كهذه، كانت تطمئن إلى أنَّها إن تكلمت فلا أحد سيقاطعها، لكنها خشيت أنها إن قالت شيئًا الآن فلعلها ستقول شيئًا مريعًا، أو لعلها ستقطع حبل أفكارهم أو تأملهم مشاعرهم والتي بالكاد تستوعب حركة دفقها فيما بينهم.

لحظات وخطر لها أنَّها حتى بإمالة بوقها هكذا ستبدو وكأنها تريد طلب شيءٍ منهم؛ لذا عادت وسجَّت بوقها على حجرها. لكن خشية أن يظنَّ أحدهم أنها بإنزالها البوق إنما توبخهم، أو يساوره ذرة شفقة عليها، أبقت على ابتسامتها الصغيرة، توبخ نفسها، يا لي من حمقاء، يا لها من حماقة كبيرة، ابتسامي في وقتٍ كهذا.

تبتسم في وجه الأسى، تفكَّر جويل. تساءل إن كانت أخته وابنه وابنته، هذا إن كانوا أصلًا يتفكرون في تلك الابتسامة، قد فهموها كما فهمها هو. تمنى لو كان بيده أن يربت على يدها. بحق الرب، خيرٌ لهم أن يدركوا معنى ابتسامتها.

آندرو جلس عاجزًا عن طرد صورة صهره التي رآه عليها الليلة لأول مرة. من ملامح الخجل، من جمود الوقفة التي انتصب بها الرجال لحظة دخل عليهم هو ووالتر، واقفون بينهما وبينه، أدرك، فورًا، وقبل أن ينطقها أحدهم، «هو ميت». أحدهم، متحرِّجًا، تمتم طلبه الهوية، فردَّ عليه بحدة أنهم تدبروا الاتصال بالعائلة، أليس كذلك؟ ومرةً أخرى، متحرجًا، عاد يطلبها، وخجلًا من حدة رده، وافق، وهناك في ضوء اللمبة الواحدة أحد الرجال رفع برفق الملاءة (إذ كان سيدرك بعد قليل أن زوجة الحداد، وقد وجدته مغطى بلحاف حصانٍ نتن، هرعت وأحضرت هذه الملاءة)؛ وكان هو؛ آندرو أومأ، أجبر نفسه على نطقها «أجل»، وسمع صوت والتر العميق، أنفاسه الهادئة على كتفه، ينطقها «أجل»، وتنحى قليلًا كي يفسح مكانًا لوالتر، ومعًا

وقفا في صمت يتأملان الرأس غير المغطى. التقطيبة القوية كانت ما تزال في جبينه، لكن، حتى بينما وقفا يتأملانها، بدا وكأنها آخذة في التلاشي، على مهل؛ وها هو اللحم آخذٌ في التيبس حول عظام الجمجمة الراقدة؛ الصدغان، الجبين، ومحجرا عينيه، كلها آخذة في التقولب، كلها تنحو نحو حدةٍ ما سبق لها أن بدت عليها في حياته والأنف ما بدا يومًا أدق تقوسًا؛ الذقن مرفوعٌ إلى الأعلى في زهو، في نفاد صبر، والقطع الصغير على الوقب نظيفٌ غير دامٍ كما لو كان ثلم إزميلٍ في خشبٍ ليِّن. وقفا يتأملانه بكل الدهشة التي تعتري الروح متى ما وقفَتْ في حضرة شيءٍ جديدٍ وعظيم، متى ما وقفت، لوهلة، في مكانٍ شهد للتو عنفًا شديدًا؛ كانا واعيين، يحدقان في الرأس الساكن، إلى طاقةٍ مذهلة تحوم حولها. ودون أن يدير رأسه، وعى آندرو إلى الدموع المنسابة على وجنتي والتر؛ أما هو فاعتراه البرود، الذهول، مرارةٌ يجمد معها الدمع. بعد زهاء نصف دقيقة، قال في نبرةٍ باردة، «أجل، إنه هو»، وبنفسه غطى الوجه وأشاح سريعًا بعينيه؛ والتر راح يجفف الدمع على وجهه ونظارته. واعيًا إلى عقبةٍ أمامه، رمق آندرو سفلًا نحو سندانٍ أقرن، مرضوض؛ ووضع كف يده المنبسطة على الحديد الأملس البارد؛ بدا كما لو أنَّ جبهة السندان تبوح إلى راحة يده ظِلَّ كل ضربةٍ قاصمةٍ تلقاها.

والآن ها هي ذي الصور في مخيلته تتعدد أوجهها في سرعةٍ مذهلة، حول مركزها الثابت، الذقن المزهو، المجروح، ولا شيء كان ليطرد تلك الصور من ذهنه سوى صورتين أخريين، جاي كما رآه في عين خياله، إثر صدمة الحادث، مستلقيًا، كما أخبروه، مستقيما

على ظهره بلا عيب ولا شائبة، جانب أطومبيله، النجوم تبرق في عينيه الميتتين واليد لمَّا تزل جامدة في وضعية القبض والصراع؛ ثم صورته كما رآه بعينيه، عارٍ على الطاولة العارية، قطعة آجر أسفل قذاله.

أحدهم تنهد، من كل قلبه؛ رفع عينيه، كانت هانا. كلهم كانوا جالسين مطرقي الرأس، في نظرات مواربة. وفي قلب هذا الصمت، رأى ملامح وجه أخته وقد تبدلت على نحوٍ غريب؛ باتت هزيلة، خجولة، حييّة مثل عروس. تذكر زفافها في بنها؛ أجل، هو الوجه نفسه. وأشاح بعينيه عنها.

«عمتي هانا، هلَّا قضيت الليلة معي، رجاءً؟» سألت ماري.

ماما، خطر فورًا إلى آندرو، وأشفق قلبه عليها ما إن رأى ابتسامتها الصماء.

«أوه بالتأكيد، ماري».

جويل قرر ألا ينظر إلى ساعته. آندرو، خلسةً، رمق الساعة على الموقد. الساعة كانت...

«أرجو أن ماما لن تمانع كثيرًا. أرجو أنها ستتفهم. المسكينة. أمي المسكينة»، فجأةً هتفت، ووضعت يدها على يد أمها وعلى البوق. وبلهفة حملت أمها البوق وأمالته. «أرى أنَّ الوقت قد حان، كلنا في حاجة إلى قسطٍ من النوم». أمها أومأت، وبدت كما لو كانت ستقول شيئًا؛ لكن ماري شدت على يدها وواصلت، «ماما، قد طلبت من

العمة هانا أن تقضي الليلة معي». أمها أومأت، وثانيةً بدا أنها على وشك أن تقول شيئًا. وثانيةً شدت ماري على يدها: «لوددت لو كان بإمكانك البقاء معي، لكني أعرف أنَّ الأمر سيتسبب بإزعاجٍ لك وقد أزفت الساعة على الحادية عشر والربع»، ـ «هه!»، هتف أبوها متعجبًا ـ «أنا وحسب...».

«*أخبريها*، بولي!».

«كذلك، ماما. أنا وحسب... أتمنى أنك ستتفهمين الوضع ولن تمانعي، أمي الحبيبة – الأمر وحسب أنه سيصعب علينا مواصلة *الحديث*، في صوتٍ خفيض، مع الطفلين نائمين، أنا وحسب أرى أنَّ...».

«أوه، بالتأكيد ماري»، أمها قاطعتها، في نبرة صوتها الرنانة. «أنا أتفق معك تمامًا. وأراه لطفًا جميلًا من هانا بقاؤها معك الليلة!» أردفت قائلة، وكأنَّ ماري وهانا ليستا سوى فتاتين صغيرتين.

«أرجو أن تدركي ماما، *كم أنا!* – أرجو أنك صدقًا لا تمانعين. أنا ممتنة لك كثيرًا، لا فكرة لديك...».

أمها راحت تربت على يدها. «لا بأس، طفلتي، لا بأس. هوني عليك. ما فعلته هو *عين الصواب*».

ماري طوقت أمها بذراعها وعانقتها عناقًا شديدًا؛ أمها أدارت وجهها المسن إليها وابتسمت ابتسامتها المشرقة، الدموع تترقرق في عينيها. كانت عاجزة عن الكلام ورأسها يرتعش في محاولتها التعبير

عن حبها وكل مشاعرها تجاهها. «*أي شيء بيدي فعله، طفلتي الحبيبة*»، قالت بعد لحظات. «*أي شيء!*».

«فليباركك الرب، ماما!».

«أستميحك عذرًا؟».

«قلت، فليباركك الرب، أمي الحبيبة!».

كاثرين ربتت على ظاهر يد ماري، تزمُّ أكثر ابتسامتها المشدودة.

كم أحبك حبًّا عظيمًا، ماما! هتفت ماري في قرارة نفسها.

«لربما الطفلان»، قالت كاثرين. «أتولى أنا الاعتناء بهما، إن ـ إن كان أكثر، *ملاءمةً* للظرو...».

«أوه، لا أرى حاجة إلى إيقاظهما!» قالت ماري.

«هي لا تعني...» بدأ آندرو يقول.

«أعني الغد»، قالت أمها. «ربما، على الأقل – في هذا *الانتقال*...».

«سيكون رائعًا، ماما، وعلى الأرجح سأقرر هذا وأضعهما في رعايتك. أنا *شديدة الامتنان* لك ماما. أنا وحسب، في حيرةٍ من أمري الآن، كما لو أني عالقة في دوامة، لا أعرف ما سأفعل، ولا أعرف أي خطط سأضع. لا أستطيع التفكير في شيء. في الغد، ماما».

«في الغد، إذن».

«شكرًا، ماما».

«لا داعي، بنيَّتي».

«بل لا بد من قولها، ماما».

أمها ابتسمت وهزّت رأسها.

جويل وأخته نهضا.

«ماري، قبل أن نذهب»، قال آندرو.

«؟».

«لا، الوقت بات متأخرًا جدًّا، ماري، وأنت منهكة تمامًا».

«ليس إن كان أمرًا مهمًا، آندرو».

«دعنا نؤجله حتى صباح الغد».

«ما الأمر، آندرو؟».

«فقط عدة أمور علينا أن نناقشها في أقرب وقتٍ ممكن». سحب نفسًا عميقًا وقال في صوتٍ عالٍ. «تأمين قبر، تدبير ترتيبات الجنازة؛ مسألة النقش على الشاهد. لا بأس، سنناقشها صباح الغد».

قبر، شاهد، تابوت. مهنة الحانوتي القبيحة ها هي ذي تنجلي أمامها واقعية، ملموسة، كما لو أنها لمستها كلها للتو بيدين جامدتين. وبعينين جامدتين حدَّقت إليه.

«لدينا متسع من الوقت لتقرير ذلك، ماري»، سمعت عمتها تقول.

«بالطبع، لدينا وقت»، قال آندرو. «كانت حماقةً مني إثارة الموضوع الليلة».

«حسنٌ، ما دام لدينا وقت»، قالت في نبرةٍ مبهمة. «أجل، *ما دام* لدينا وقت، آندرو»، قالت في وضوحٍ أبلغ. «إذن، أجل، أوثر تأجيل الحديث فيه إلى صباح الغد، إن لم يكن من مانع». ورمقت الساعة.

«يا لطيف! نحن الآن في *صباح الغد*»، هتفت متعجبة.

«بالطبع لا مانع»، قال آندرو. واستدار نحو عمته، يقول لها في صوتٍ خفيض، مثل من يتحدث أمام مريضٍ عقلي، «ساعديها على أن تنام الليلة. اتصلي بي».

هانا أومأت.

«عليَّ أن...» قال جويل، ومضى نحو الردهة.

«ماذا...» راحت هانا تقول.

«أظنه ذهب يتناول قبعته. وقبعتي أيضًا». آندرو غادر الغرفة؛ وفي الردهة التقى بأبيه، حاملًا قبعته، قبعة زوجته، وقبعة آندرو.

«كنت قد تركتها في المطبخ»، قال أبوه.

«شكرًا، بابا». وتناول آندرو قبعته.

كاثرين وقفت متقلقلة في وسط الغرفة، تحمل بوقها وحقيبة يدها، ناظرة نحو باب الردهة. «شكرًا، جويل»، قالت لزوجها. استعادت رباطة جأشها، تتلمس بيدها شكَّ الدبوس في قبعتها، والقبعة استقرت عوجاء على رأسها، ثم نظرت نحو هانا متسائلة.

«كل شيءٍ على ما يرام، كاثرين»، قال زوجها.

آندرو وقف يرقب أخته. بدا وكأن ترتيبات مغادرتهم بيتها قد دفع بها في نوبة ذعرٍ صامتة. لربما يتوجب بنا البقاء معها، قال في نفسه. طوال الليل. أنا عن نفسي بيدي البقاء. لكن ماري كانت واقفة تحدق إلى أمها تعاني مع قبعتها. لا، هو بطؤنا في المغادرة، صحح لنفسه. كلما تعجلنا الرحيل كلما التأم الجرح أسرع.

«حسنٌ، ماري»، قال يخطو نحوها ويطوقها بذراعيه. رأى التشظّي في عينيها؛ كأنَّ أحدهم سحق قزحيَّتيها إلى شذرات؛ وها هو في عينيها، في حضورها، يستشعر من جديد الصدمة والطاقة التي انبعثت مشعةً من الجسد الميت. هي امرأةٌ جديدة الآن؛ متبدلة. ولا شيء بيدي فعله لأجلها.

«شكرًا على كل شيء»، قالت له. «آسفة جدًّا على كل ما مررت به».

وقف عاجزًا عن الرد عليها، عن مواصلة النظر إلى عينيها؛ لذا حضنها إلى صدره. «ماري»، قال أخيرًا.

«أنا بخير، آندرو»، قالت له في هدوء. «لا خيار أمامي سوى أن أكون بخير».

أومأ بحدة.

«تعال صباحًا. وسنـ... سنعد معًا الترتيبات».

«أرجوك نامي إن استطعت».

«أرجوك احضر في بكرة الصباح لأني واثقة أنَّ هناك الكثير لفعله والقليل من الوقت».

«حسنٌ».

«تصبح على خير، آندرو».

«تصبحين على خير، ماري».

«فليباركك الرب»، انفجرت أمها قائلة، كما لو كانت تلعن؛ صماء، شبه عمياء، قبضت على ابنتها وضمتها بكل قوتها إلى صدرها وربتت على ظهرها بكلتا يديها، تتفكر في نفسها، كم هي يافعة، كم رائحتها شهية!

كم هي متلهفة على تقديم يد العون، أدركت ماري. كم تود البقاء! وعلى ملمس يديها تمسدانها، استشعرت الكتفين المستديرتين اليابستين، عمودها الفقري الناتئ، وقد احدودب مع العمر. وما إن مالت إلى الوراء، حتى عدَّلت ماري قبعة أمها، تأملت الوجه المرتعش، ولثمت فمها من كل قلبها. أمها ردَّت قبلتها قبلتين، ثم وقفت جانبًا، تستجمع تنورتها الطويلة وترفعها استعدادًا لهبوطها درجات الشرفة.

«بولي»، قال أبوها؛ وشعرت بلحيته على وجنتها وسمعته يهمس في أذنها: «هي ذي ابنتي القوية. إياك أن تستسلمي».

وأومأت له.

«تصبحون على خير»، قالت هانا.

«تصبحين على خير، عمتي هانا»، أجاب آندرو.

«تصبحين على خير، هانا»، قال أخوها. وسار يقود كاثرين بمرفقها، وآندرو بمرفقها الآخر؛ ومضوا جميعًا نحو الشرفة.

«الأضواء»، هتفت ماري.

«ماذا؟» آندرو وهانا سألا، جفلين.

ماري أنارت الشرفة. «لا بأس»، قال أبوها في انزعاجٍ طفيف. «شكرًا»، قالت أمها، في نبرتها الرنانة، بتهذيب. ماري وهانا وقفتا عند الباب بينما الثلاثة يهبطون درجات الشرفة بتأنٍّ، ووقفتا ترقبان إلى أن بلغوا الناصية وقطعوا الشارع آمنين. أسفل إنارة الناصية، آندرو أدار رأسه رافعًا يده قبل أن يتركها تهوي في شبه تلويح. الآخران لم يستديرا؛ والآن آندرو التفت إلى أبويه، والثلاثة مضوا في طريقهم على امتداد الممشى، آمنين، وماري أطفأت الأضواء، وواقفة ظلت ترقبهم. هانا ما عادت قادرة على رؤيتهم، وبعد لحظات، تخلت عن تظاهرها برؤيتها إياهم وراحت تتأمل ماري تلاحقهم بعينيها، في نظرةٍ ثاقبة، وكأنَّ أهم شيءٍ في الوجود الآن إبقاء عينيها عليهم حتى آخر لحظة. وما زالت ماري قادرة على رؤيتهم، أخيلتهم أشد عتمةً من الظلمة، تتهادى بقامات متباينة، تتضاءل مع كل خطوة، ومع ذلك لم تكن الظلمة هي التي ابتلعتهم وأعمتها عنهم، بل ناصية بيت آل بيدل.

حين اختفوا عن ناظريها واصلت البحث عنهم، ترنو بنظرها إلى أقصى الشارع وأدناه. وها هناك على الناصية يتوهج الضوء

الكربوني، وفي ناصيةٍ أبعد غربًا وهج ضوءٍ غير مرئي؛ وشرقًا، ضوءٌ آخر، أبعد وأبعد. ما من صوتٍ في المدى، وما من نورٍ في أي بيتٍ من البيوت. الهواء يمس جبينها برقة. استدارت، ورأت عمتها واقفة ترقبها، ونظرت إلى عينيها.

«آن وقت النوم».

أغلقت الباب؛ كلٌّ ما تزال تنظر إلى عيني الأخرى.

«كان حواليْ هذه الساعة، ليلة البارحة».

هانا تنهدت، تنهيدةً عميقة؛ وبعد لحظة لمست يد ماري. لمَّا تزالا تنظران بعضهما إلى عيني بعض.

«أجل، حواليْ هذه الساعة»، همست في صوتٍ غريب.

وفي سكون الصمت سمعتا تكّات ساعة المطبخ.

«دعنا لا *نحاول* حتى الحديث في أي شيءٍ الآن»، قالت ماري. «فكلتانا منهكتان».

«دعيني أعد لك كأس توديّ ساخن»، قالت هانا في طريقهما نحو غرفة المعيشة. «سيساعدك على النوم».

«صدقًا لا أظنني *بحاجة* إليه، عمتي».

على أي حال سأعد لك كأسًا ولك أن تشربيه أو لا، كذا أوشكت هانا أن تقول؛ غير أنها أدركت فجأة: ليست سوى محاولة مني حتى أشعر أني عونٌ لها. وبذا ما قالت شيئًا.

إحساسٌ غريبٌ من الخجل أو التكلف ساد بينهما، إحساسٌ عجزتا عن فهمه. ومرةً أخرى وقفتا ثابتتين، في غرفة المعيشة؛ الصمت بينهما يؤلمهما، كلٌّ يراودها هاجسٌ على حساب الأخرى. هل حقًّا تريد مني البقاء معها، تساءلت هانا؛ فما النفع أصلًا من وجودي! هل تظن أني لا أريد بقاءها في البيت، تساءلت ماري، فقط لأني عاجزة الآن عن الكلام؟ لا، هي ليست أصلًا من النوع الذي يهوى الكلام.

«أنا فقط لا أستطيع التكلم الآن».

«بالطبع ليس باستطاعتك، طفلتي».

هانا شعرت بأنَّ عليها تولي زمام كل الأمور، لكنها فطنت إلى أنَّ عليها الآن احترام رغبات ماري، أو، في هذه الحال، احترام انعدامها.

لا أطيق *إرسالها* إلى الفراش، تفكَّرت ماري.

«كل شيءٍ جاهز»، قالت ماري فجأة، في نبرةٍ خشيت أنها قاسية، وانطلقت بسرعة نحو غرفة الطابق السفلي وفتحت الباب. «أترين؟» مضت داخلًا وأنارت المصباح ووقفت إزاء عمتها. «كنت قد أعددتها لجاي في حال...» وبلا وعي منها راحت تنفض الوسادة. «كل شيءٍ على أتم ما يكون».

«ماري، امضي نحو غرفتك الآن»، قالت هانا. «وإن كان من شيءٍ أساعدك فيه...».

ماري مضت نحو المطبخ؛ ثم سمعتها في الردهة؛ لحظة وعادت. «تفضلي عمتي، قميص نومٍ نظيف، وإزار»، ووضعتها على كفيّ عمتها المحرجتين. «أخشى أنَّ مقاسه كبير، الإزار، فقد كان لـ... كان... لجاي، لكن إن رفعت الكمين أظن سيصغر مقاسه قليلًا». وتخطَّت عمتها في طريقها نحو غرفة المعيشة.

«دعي الأمر لي، ماري»، هرعت هانا خلفها، كانت ماري قد بدأت أصلًا في جمع الأقداح على الصينية.

«يا لطيف!» هتفت ماري رافعةً القنينة. «أنا شربت *كل هذا*؟» كانت القنينة فارغة حتى ثلاثة أرباعها.

«كلا. آندرو شرب، وأنا كذلك، وكذلك جـــ أبوك».

«لكن كلٌّ شرب قدحًا واحدًا، عمتي. لكن أنا، لا بد أني أنا من شرب معظمها».

«ما كان له من أثر عليك».

«كيف بحق الرب!» وأدنت القنينة إلى عينيها وراحت تحملق في القليل المتبقي من الويسكي كمن يحاول إدخال خيط في ثقب إبرة. «*يقينًا* لست في حاجة إلى تودي *ساخن*»، قالت لعمتها. «ما سبق لي قط أن سمعت بشيءٍ كهذا في حياتي!» هتفت في صوتٍ خفيض.

«ربما، أسبرين».

«أسبرين؟».

«قد تستيقظين مع صداعٍ مؤلم».

«لا بدَّ أنَّ هذا ما حدث، بابا يقول، بابا قال، إنه أحيانًا لا يؤثر، في حال الصدمة أو شيء من هذا القبيل... عمتي هانا؟» نادت عاليًا عليها. «عمتي هانا؟» عليها ألا توقظها، ذكَّرت نفسها. وانتظرت. عمتها أقبلت من الردهة مع كأس ماء وحبتي أسبرين.

«هاك»، قالت لها، «تناوليها».

«لكني...».

«فقط ابلعيها. فلا حاجة بك إلى الاستيقاظ مع صداعٍ مؤلم، وسيساعدك أيضًا على النوم».

طيِّعةً تناولت الحبتين؛ هانا جمعت الأقداح على الصينية ورفعتها.

الفصل الثالث عشر

على امتداد جادة لوريل، الظلمة تشتد عتمةً؛ أوراقٌ كثيفة تحجب إنارة الشارع الوحيدة في الأرجاء. كل ما كان في وسع آندرو سماعه كان خطى أقدامهم؛ أما أبوه وأمه، فلا أحد منهما كان في وسعه حتى سماع ذلك. كم ساكنة أنتِ في رقادك. أجل، وبين قمم الأشجار؛ الزخارف المحفورة الشاحبة والشرفات ونوافذ البيوت المعتمة تطفو في الظلمة على جانبيْ مسيرهم البطيء، وما من نورٍ في أي بيت، وهكذا الحال لأميال، في كل شارع سكني وكل شارع تجاري؛ أجل؛ من أعلى منامك العميق الخاوي من الأحلام، صامتة تبهت النجوم في سمائك[1].

(١) «O little town of Bethlehem» ترتيلة من تراتيل الكريسماس عن مولد المسيح ويقول مطلعها: أيا بلدة بيت لحم الصغيرة، كم ساكنة أنت في رقادك! من أعلى منامك العميق الخاوي من الأحلام، صامتة تبهت النجوم في سمائك. لكن في ظلمة شوارعك ها يشرق ساطعًا بهيًّا، نور الربّ الأبدي! وآمال ومخاوف كل السنين الليلةَ اجتمعت فيك

ساعد أمه على النزول من حافة الرصيف؛ هذه القعقعة البطيئة المتقطعة لقدميها الصغيرتين.

النجوم أُزهقت بحلول الآن. الليل يوشك على الانتهاء.

ساعدها على ارتقاء حافة الرصيف المقابل.

الهواء على وجوههم مذهلٌ في نقائه، خليٌّ الهم وحنون؛ وصمتُ آخرِ ليل المدينة، والنجوم غامضةٌ وجليلة أكثر من مثيلاتها في سماء الريف البعيدة. البيوت الصغيرة، البيوت الأكبر، الشرفات المزخرفة الفسيحة، النوافذ المعتمة، أوراق الشجر الغنَّاء بربيع أيَّار، بيوتٌ تضم غرفًا تؤوي نائميها مثلما يؤوي القفير عسله الأثير، كلها تطفو عابرةً على جانبي مسيرهم البطيء وكلها خلَّفوها وراءهم وما من نورٍ في أي بيت. الظلمة على امتداد جادة لوريل تشتد وتشتد عتمة. ضوء الإنارة خلفهم ما عاد يلقي ظلالهم؛ وفي ضوء الإنارة أمامهم، حرفٌ من الرصيف، صغيرٌ وناءٍ، بدا مسفوعًا بنار الخواء، أوراقٌ قليلة متساقطة مسَّها لهيبٌ كبريتيّ، وفي بياضها تبدَّت برامقُ شرفةٍ وأعمدتها المتواجهة قاسية جلفاء. وفي مساعدته أمه على المشي في الظلمة، وجد آندرو نفسه يمشي أبطأ بكثير من المعتاد، وكل تلك الأشياء تغلغلت فيه بهدوء. ورغم الهم الذي يفيض به قلبه، وجد نفسه مستغرقًا في جمال ولا مبالاة الليل الربيعي، مثلما هو مستغرقٌ في الموت الآن. وكأني لا أكترث، تفكر متأملًا؛ لكنه ما اهتم. هو يعرف أنه يكترث؛ وشعر بالامتنان للَّيل وللمدينة التي قلما اهتم لها. كم ساكنة أنت في رقادك، سمع عقله

يترنم بها. ورددها هو في نفسه، في نبرةٍ جافة، يسمع لحنها؛ صوت طفل، صوته هو، من كان يرنمها في عقله.

همم.

حاول أن يتذكر متى كانت آخر مرة سار فيها ليلًا في ساعةٍ كهذه. لم يكن واثقًا حتى من أنه... يا إلهي، مرَّت أعوام. سبعة ـ وقت كان يبلغ ستة عشر عامًا، حين كان لا يزال يظن نفسه شيللي[1]، يرقب النهر متكئًا على حاجز الجسر وحرفيًّا يصلي بامتنان كونه على قيد الحياة.

غريزيًّا أشاح بوجهه كي لا يفطن إلى وجهه أبواه.

حتى أنا لا أريد رؤية النهر، قال في نفسه.

وقتذاك، كان جاي يحاول تعليم نفسه المحاماة.

أعلى منامك العميق الخاوي من الأحلام، صامتة تبهت النجوم في سمائك.

لطالما مسته تلك الكلمات؛ كل عام تعيد إليه بهجة الميلاد، لسببٍ ما، هي وحدها، من بين كل ما عداها. وها هو يستحضرها الآن قصيدًا جميلًا مثل أي شعرٍ عرفه في حياته.

ردَّدها على نفسه في سكونٍ وبطءٍ شديدين: تصريحًا، دونما ترنيم.

---

(١) الشاعر الإنجليزي بيرسي شيللي، الذي اتهم بالهرطقة على مقاله «ضرورة الإلحاد»

للحق هي كذلك، تفكر متأملًا، ناظرًا نحو السماء. للحق هي كذلك. ويا الله، كم تبدو منهكة!

ذي هي الساعة من الليل.

صامتة تبهت النجوم في سمائك، قالها عاليًا، لا همسًا، لكن في هدوءٍ حرص معه ألا يسمعاه.

عيناه فاضتا دمعًا؛ حنجرته، صدره انقبض في نشيجٍ عميقٍ كتمه، والدموع المنسابة خدشت وجنتيه.

لكن في ظلمة شوارعك ها يشرق ساطعًا بهيًا، غناها عاليًا، حانقًا، في نفسه: *نور الرب الأبدي!* وعلى وقع تلك الكلمات نشيجٌ انبثق بغتة من صدره وكل ما أمله ألا ينتبه إليه أي منهما.

وما انتبها.

محض جنون! قالها لنفسه بكل ما يعتريها من شك. *منافٍ للعقل!*

نور الرب الأبدي!

آمال ومخاوف، صوتٌ هادئٌ عنيد ظل يرددها في نفسه؛ وفي هدوءٍ نطقها: *كلّ السنين*.

الليلة اجتمعت فيك، همسها: وفي وسط السهل الفسيح، وسط البلدة المظلمة الصامتة، يابسًا راقدًا أسفل ضوءٍ لا ظل له، رأى الرجل الميت، وعلى فخذه انهال ضربًا بكلتا قبضتيه[١].

(١) سفر رؤيا يوحنا (19:16): ورأيت السماء مفتوحة، وإذ فرسٌ أبيض يدعى فارسه

كل ما كان في وسعه سماعه كان خطى أقدامهم؛ أما أبوه وأمه، فلا أحد منهما كان في وسعه حتى سماع ذلك.

ساعد أمه على النزول من حافة الرصيف؛ هذه القعقعة البطيئة المتقطعة لقدميها الصغيرتين؛ ومعًا قطعوا النور المرير.

ساعدها على ارتقاء حافة الرصيف المقابل؛ الثلاثة تتقدمهم ظلالهم الغريبة حتى عادت واستحالت ظلًّا واحدًا من جديد.

لا أحد من الثلاثة نطق بكلمة، طوال مسيرهم؛ وما إن بلغوا الناصية التي منها ينعطف إلى بيتهم الطريق، حتى بدا وكأنما الثلاثة تكلموا، تقبَّلوا الواقع: إذ كل رجل منهما، برفق، شدَّ يده على مرفق المرأة، وهي، تطرق برأسها، شدَّت على يديهما. انحدروا نزولًا على التل، خطاهم تتباطأ ورُكبهم تنقبض، أبصروا الضوء الوهَّاج الوحيد، ودخلوا البيت، خلسةً مثل اللصوص، من الدرب الخلفي.

* * *

وقفتا عند بادي السلم.

«ماري»، سألت هانا، «هل من شيءٍ بيدي فعله؟».

تريدين الصعود معي، أدركت ماري. «أظن من الأفضل لو بقيت وحدي»، أجابتها، «لكن شكرًا لك، شكرًا عمتي».

«فقط نادي عليَّ. تعرفين كم نومي خفيف».

الأمين الصادق، وبالعدل يقضي ويحارب. . وعلى ردائه وعلى فخذه اسمٌ مكتوب: ملك الملوك وربُّ الأرباب.

«سأكون بخير، صدقيني».

«ارتاحي في الصباح. سأعتني أنا بالطفلين».

حملقت إليها ماري بعينين ساطعتين، قائلة، «عمتي، سأضطر إلى إخبارهما».

هانا أومأت، تتنهد: «أجل. لذا أرجوك نامي». قبَّلت ابنة أخيها، وفي صوتٍ متهدج قالت، «فليباركك الرب».

ماري نظرت إليها نظرةً متمعنة، «فليكن الله بعوننا جميعًا».

استدارت وصعدت الدرجات، وقبل أن تختفي، مالت، مبتسمة، هامسة، «تصبحين على خير».

«تصبحين على خير، ماري»، همست هانا.

أطفأت نور الردهة ونور غرفة المعيشة ومضت نحو غرفة النوم المضاءة وأسدلت الستار وأغلقت بابي المطبخ وغرفة المعيشة. خلعت فستانها وأسدلته على ظهر كرسي وجلست على حافة السرير كيما تفك خيوط حذائها، ترددت، إلى أن تيقنت أنها تذكرت إطفاء النور في المطبخ وغرفة المعيشة. ارتدت قميص النوم ما عدا الكُمين ومن تحته أكملت خلع بقية ملابسها؛ كان كبير المقاس عليها واضطرت إلى جمعه ورفعه حولها. ركعت جانب السرير وصلت الصلاة الرَّبيَّة والصلاة المْريَميَّة، ووجدت أنَّ قلبها وعقلها خاويان من أي صلاة وحتى من الإحساس. عسى *أرواح المؤمنين*، حاولت جاهدة؛ تكزُّ على أسنانها، بعد لحظة، صلَّت

غاضبة: عسى أرواح الجميع، كل من اضطر إلى الحياة يومًا على هذه الأرض والموت عليها، في ثلة الإيمان أو خارجها، ترقد في سلام. روحه هو بالذات!

اِلعنِّي الآن. أرسِلْ عليَّ صواعقك. فما عدت أكترث. ما عدت أكترث.

إن أكن مخطئة فاغفر لي. إن كان بمقدرتك. إن تكن مشيئتك. لكن هذا هو شعوري، ولن تجد فيَّ سواه.

وحتى الآن قلبها وعقلها خاويان؛ عدا أنفاس الهاوية السحيقة الواقفة على حافتها، لا تستشعر أي شيء، لا الخوف حتى ولا الاكتراث.

ربّي، أنا مؤمنة. أعِنّي الآن على كفري اللحظة بك.

إذ أني اللحظة جاهلة.

عاجزة عن الصلاة لك. اللحظة عاجزة. حاول أن تغفر لي. فروحي أنهكها الإرهاق والرَّوْع.

في السادسة والثلاثين من العمر.

في السادسة والثلاثين.

لكن، ولم لا؟ لم ساعة موتٍ أسوأ من ساعة موت؟ فالرب أعلم أنَّ الحياة ما هي بنزهة ولا هو انتواها نزهة من الأساس.

في يديك أجعل روحي.

رسَّمت الصليب، رفعت الستار، فتحت النافذة، واندست في الفراش. وبينما قدماها العاريتان تنزلقان على الملاءة النظيفة الباردة، تستشعر برودتها، نعومتها الباردة النظيفة، تلفُّها من أسفلها حتى أعلاها، بهتت على الرجفة والوحدة التي اجتاحتها، وتذكرت لمسها وجنة أمها الميتة.

يا الله، لماذا أنا حيَّة!

نزعت عنها نظارتها ووضعتها بعناية في متناول يدها عند قاعدة المصباح، وأطفأت النور. استقامت على ظهرها، ضمَّت يديها على صدرها، وأغمضت عينيها.

لا طاقة بي الليلة على القلق حول أي شيء، أسرَّت لنفسها. فليتولَّ هو البيت وأهله بعنايته.

حتى الصباح.

ماري ما تعنَّت حتى إنارة الغرفة؛ النور المنسل من النوافذ كان كافيًا. ارتدت قميص نومها وخلعت ملابسها تحته، حرصت على ترك باب غرفتها مواربًا لطفليها، وتسلقت فراشها قبل أن تعي أن هذه هي الملاءات نفسها وقبل أن يخطر لها أنها غفلت عن تلاوة صلواتها؛ مع أنَّ رغبتها في أن تُترك وشأنها ما كانت أصلًا إلا حتى يتسنى لها الصلاة!

الأمور على ما يرام، همست لنفسها؛ الأمور على ما يرام، همست عاليًا. كانت تعني أنها واثقة بأنَّ الله سيتفهم ويغفر لها عجزها عن

الصلاة، لكنها أدركت أيضًا أنها تعني أن كلّ شيءٍ على ما يرام، كل شيء، التجربة برمتها، كلها على ما يرام. فلتكن مشيئتك. كل شيءٍ سيكون على ما يرام. يقينًا كل شيءٍ سيكون على ما يرام. استلقت مستقيمة على ظهرها مع راحتيْ يديها مفتوحتين إلى الأعلى، على كل جانب من جانبيها، وكان لها أن تتبيَّن، في عتمة النور، تلك البقعة المألوفة والتي في أوقات مختلفة تتبدى لها قِططًا، غليونًا، سمكة، رأسًا مستغرقًا في التفكير. أما الليلة فالبقعة ما تلبست أي هيئة سوى هيئتها، عينٌ واحدة لا معنى لها. بدا لها وكأنها تهوي على ظهرها، سفلًا، خاضعة، في هاوية الأبدية؛ لا ذرة قلق واحدة تثقلها. وخليَّة البال من القلق سمعت صوتًا ينادي فيها: من الأعماق صرخت إليك يا ربِّ؛ يا سيّدُ استمع صوتي، وراحت مع الصوت تصلّي. لتكن أذناك مصغيتين إلى صوت تضرُّعي. والآن الصوت الأول لاذ بالصمت، وواعيةً إلى حضوره الصامت، ماري واصلت، تهمس عاليًا: إن كنتَ يا ربُّ للآثامِ مُراقبًا، فمن يبقى، يا سيّدُ قائمًا؟[1] ومع تلك الكلمات الأخيرة أجهشت في البكاء، راحتا يديها انقلبتا، تتحركان على وسع الفراش.

أوه، جاي! أوه جاي!

ثفل الماء أسفل غطاء الإبريق الكبير فتر؛ آخر الفقاعات المتراصة حول دائر القبة، الواحدة تلو الأخرى، تفقع وتتلاشى.

---

(١) المزمور 130.

هانا تستلقي مستقيمة على ظهرها مع يديها مضمومتين على صدرها؛ وفي محجريها العميقين، أسفل جفنيها الواهنين، كلُّ مقلةٍ من مقلتيها قبةٌ سماوية. وجهها لا خط فيه ولا تجعيدة؛ ولظنَّها الرائي شابةً صبيّة. شفتاها مفترقتان، كلُّ نفسٍ تنهيدةٌ خفيفة.

ماري مستلقية تحدق في السقف: من ذا الذي سيبقى قائما، تردد في همس.

وفي سكون الصمت

ورقة شجر تلو ورقة، الملايين الملايين منها، في عين الفجر العالمة بالغيب، في ذاك النصف من العالم، رفَّت.

بيت روفس كان على طريق المدرسة في خارطة العديد من الأطفال القاطنين في الأحياء المجاورة، وفي غضون دقائق قليلة من تلويح أبيه الأخير له واختفائه، سرعان ما كانت ستمتلئ المماشي بمنظرٍ مثيرٍ آخر يتأمله أمام بيته: مرور الأولاد والفتيات البالغين كفاية للذهاب إلى المدرسة. في البدء كان قانعًا بمراقبتهم عبر النافذة الأمامية؛ رآهم مخلوقات تنتمي إلى عالمٍ آخر يستحيل عليه تخيله؛ فهو لا يعرف طفلًا آخر يذهب إلى المدرسة، ولا حتى إلى الحضانة. مع الوقت شعر برابطٍ أخوي يجمعه بهم، فضولٌ أقوى اعتراه بشأنهم، حسدٌ أكبر، ودهشةٌ خالصة. لم يكن قد خطر له بعد أنه يومًا ما سيكبر ويصبح واحدًا منهم، لكنه استشعر أنَّ على نحوٍ ما فهم جميعًا ينتمون إلى الجنس البشري ذاته. ذات يوم انسلَّ خارجًا إلى الفناء،

إلى المشى، وراح يجول إلى أن، أخيرًا، بلغ الناصية حيث سيتسنى له رؤيتهم يندفقون معًا من الجهات الثلاث. كان مذهولًا بمنظرهم، الأولاد في ملابس ضارية والبنات في ملابس فاتنة كما لو كن ذاهبات إلى حفلة. تقريبًا الكل سار في أزواج أو مجموعات من ثلاث، وأفراد كل مجموعة غالبًا ما تنادي على أفراد من بقية المجموعات. وكنت سترى كيف أنَّ الجميع يعرف جيدًا الجميع؛ أيّ عددٍ من الناس، عالمٌ بأسره. الكل يمشي حاملًا كتبًا مختلفة الألوان، مختلفة السماكة، مع وجبة غدائه محفوظة في كيسٍ أو علبة؛ وأقلامه الرصاص في علبة أخرى؛ ومنهم من يحملها كلها في حقيبة مدرسية. كم أحبَّ الطريقة التي يحملون بها تلك الأشياء، بدا وكأنها تمنحهم إحساسًا رائعًا من الكرامة والغاية، علامة تميزهم عن البقية في عالمهم القائم على الامتيازات. هو، على الأخص، أعجب بالطريقة التي يحمل فيها بعض الأولاد كتبهم في أربطة بنية قنبية، يحسدهم عليها كلما رآهم يؤرجحونها في الهواء، خلا طبعًا متى ما صوَّبوها اتجاه رأسه. لحظتها كان سيذعر ويبهت، والولد الذي تظاهر بضربه، وكل من شهد الموقف، كان سيضحك على مرأى الذعر والتفاجؤ على وجهه، فيقف مرتبكًا تغمره التعاسة على ضحكهم.

عدا أن الحادثة ما تكررت إلى الحد الذي يحبطه عن معاودة القدوم؛ ومع الأيام، بات ذهابه إلى الناصية وقت ذهابهم إلى المدرسة، والوقت المتوقع لعودتهم، عادةً لديه، عادة تسعده وتثير فيه الحماس، تقريبًا بقدر حماس ترقبه اللمحة الأولى من أبيه لدى عودته في ساعةٍ متأخرة من الظهيرة. أحيانًا، متى ما جاءت عينه في

عين أحدهم، كان سيجرؤ ويقول «هللو» محرجًا لكن أيضًا متلهفًا على التواصل. وبالطبع نادرًا ما نال ردًّا؛ الأولاد كانوا سيحدقون إليه لثانية، والتحديق كان سينقلب إما تحديًّا غاضبًا وإما على الأغلب تجاهلًا باردًا، والفتيات، فوفق أعمارهن ومواقع سلطتهن، إما كن سيقهقهن فيُحرج ويشيح بوجهه بسرعة، وإما يدَّعين عدم رؤيتهن إياه أو سماعه. لكن، بما أنه لا يتوقع ردًّا من الأساس، كان سيسر سرورًا عظيمًا إن حدث، بين وقتٍ وآخر، وابتسم صبيٌّ كبيرٌ له قائلًا «هللو!»؛ حتى أنهم أحيانًا كانوا سيمدون أيديهم ويعبثون بشعره. وهناك تلك المرة، حين قال «هللو» لمجموعة من الفتيات الأكبر سنًّا بكثير، فصاحت إحداهن في ذاك الصوت الغريب الحاد الذي كثيرًا ما يسمعه صادرًا عن النساء البالغات، «أووه، انظرن إليه، كم أنت ولدٌ لطيفٌ وجميل!».

أُحرج للحظة لكن شعر بإطراءٍ كبير؛ ثم سرعان ما سمع أولادًا آخرين يزعقون الكلمات ذاتها في عويلٍ حاد، وما كانوا صادقين، بل قالوها في كرهٍ وازدراءٍ أرعبه، وتمنى لو أنَّ الأرض تنشق اللحظة وتبتلعه.

وأبدًا لم يعرف أكثر من اسمين أو ثلاثة من أسماء أولاء الأولاد، إذ معظمهم يعيش على بعد مربعات سكنية؛ لكن قلة منهم، مع الوقت، باتوا يعرفونه جيدًا. كانوا سيأتونه، دومًا، حاملين السؤال ذاته: «ما اسمك؟» بدا غريبًا له استعصاؤهم تذكر اسمه من يومٍ إلى التالي، إذ دومًا ما حرص على أن يجيبهم بكل وضوح، لكنه،

مع ذلك، شعر بأنهم إن نسوا، وسألوه ثانيةً، فواجبه أن يجيبهم، ومتى ما أجابهم، بكل تهذيب، كانوا سينفجرون ضاحكين. بعد فترة بدأ يدرك أنَّ سؤالهم إياه، يومًا بعد يوم، ليس لأنهم نسوا، بل حتى يضايقوه. لذا بات أكثر حذرًا. متى ما سألوه ما اسمك؟ كان سيعتريه الإحراج فيقول، «أوه، أنتم تعرفون اسمي، أنتم فقط تضايقونني».

بعضهم كان سيكبت ضحكته، لكن، وكل مرة، الولد السائل كان سيقول في نبرةٍ مهذبة وجدية، «لا، لا أعرف اسمك، ما سبق أن أخبرتني اسمك»، ومحتارًا كان سيتساءل في نفسه؛ هل أخبرته أم لا.

«بلى، أخبرتك»، كان سيقول، «أذكر ذلك جيدًا، كان اليوم قبل البارحة».

ومرةً أخرى كان سيسمع الضحكات المكبوتة، لكن السائل كانت ستعتريه ملامح أكثر جدية ولطفًا، وأحد الأولاد حوله أو اثنان منهم كانا سيبدوان على الجدية ذاتها، وكان سيقول، «لا، صدقًا لا، بالتأكيد لم يكن أنا. فأنا لا أعرف اسمك».

وأحد الأولاد الآخرين كان سيقول، بكل عقلانية، «هيه صاح، لماذا سيسألك إن كان يعرف اسمك؟».

وروفس كان سيقول، «أوه، لأنكم تحاولون مضايقتي. كلكم تعرفون اسمي».

وأحد الأولاد كان سيقول، «لكني نسيته. كنت أعرفه لكن اللعنة نسيته. ولكنت أخبرته باسمك لو كان بيدي، لكني لا أتذكره».

وهو الآخر كان سيبدو صادقًا جدًّا. والسائل الأول كان سيقول، في رجاء، في نظرةٍ حنونة، «أوه، هلّا أخبرتنا اسمك. ربما أخبرته هو باسمك لكن كما ترى فهو لا يتذكر. ولو كان يتذكر لأخبرني به، أليس كذلك؟ أما كنت ستخبرني؟».

«بالطبع كنت سأخبرك لو كان في وسعي تذكره. وأتمنى لو يخبرني به ثانيةً».

وسرعان ما كان سينضم إلى رجائه ولدان أو ثلاثة، على النبرة اللطيفة ذاتها، المحترمة، المراعية، «أوه، هيًّا، أخبرنا باسمك».

وكان سيؤخذ بكل تلك الطيبة والمراعاة المفاجئة، إذ كان سيبدو له أنهم ما تصرفوا معه هكذا من قبل، مع ذلك كانوا سيبدون صادقين في رجائهم. وبعد لحظة تفكُّر كان سيقول، ناظرًا بكل حذر وجدية، إلى الصبي الناسي، «هل تعدني أنك فعلًا نسيت اسمي؟».

ويبادله النظرة الجدية ذاتها، كان الولد سيقول، «وحقّ الصليب»، ويرسِّم الصليب على قلبه.

كان سيسمع أحدهم يهلس، فيدرك روفس أن بعضهم بلا شك جاء كي يضايقه؛ لكن في نفسه ما كان ليعير بالًا لهم، لأن الأولاد المهمين في المجموعة طيبون معه. غير مكترث لتلك

الضحكات المكبوتة كان سيقول لكل وجهٍ من وجوه الأولاد الطيبين الجديين، «هل تعدونني، صدقًا، أنكم الآن لا تضايقونني؟» وكانوا سيعدونه. ثم كان سيقول، «وإن أخبرتكم هذه المرة هلّا وعدتموني أن تبذلوا قصارى جهدكم في تذكر اسمي، وعدم سؤالي عنه ثانيةً؟» ولأجابوه بأنهم حتمًا يعدونه، يرسمون الصليب على قلوبهم. وفي آخر لحظة، متى ما أوشك على إخبارهم، دائمًا كان سيعتريه شعورٌ مفاجئ من الشك العميق في صدقهم حدًّا يرغب معه في عدم الإفصاح عن اسمه، لكن، ودائمًا، كان سيراوده شعورٌ آخر، ربما هم حقًّا صادقون. وإن كانوا صادقين، لَمِن اللؤم إذن عدم إجابتهم. لهذا دائمًا ما أجابهم «حسنٌ»، دائمًا في نبرة شك، وكان سينطق اسمه في صوتٍ مكبوتٍ حيّي (إذ بات يشعر بأن اسمه ذاته صار مُجرَح، وما كان ليريد لاسمه أن يُجرَح ثانيةً) «حسنٌ، اسمي روفس».

لحظة يفارق اسمه شفتيه كان سيدرك أنه أخطأ مرةً أخرى، أنَّ لا روح واحدة من أرواحهم عنت ما قالت، إذ كل ولدٍ منهم كان سيصيح عاليًا ملء رئتيه في بهجةٍ وحشية، كأنما الزمرة بأسرها انفجرت وشظاياها المقذوفة انطلقت تمزِّق الحيّ بأكمله، تزعق اسمه في متعةٍ تنضح بالازدراء؛ وصياحٌ آخر كان سينطلق من أفواه أولاء الأولاد، ينشدون بيتًا يظنونه مضحكًا جدًّا، رغم أنَّ روفس ما كان ليفهم ما المضحك فيه.

روفس، راستس، جونسون، براون

ما أنت فاعل متى ما حلَّ عليك الإيجار؟

وآخرون كانوا سيزعقون «اسمٌ زنجي، اسمٌ زنجي» ينشدون أهزوجة كثيرًا ما سمعهم يصيحون بها خلف ظهور الأطفال الملونين وحتى خلف الملونين البالغين.

زنجيٌّ، زنجيٌّ، أسود كما القار

حاول بائسًا ركوب عربة الترام

لكن العربة تحطمت وقصمت ظهره

والزنجي الآن ينوح يريد سِنْته.

ثلاثةٌ أو أربعة منهم، عوضًا عن الجري، كانوا سيقفون ويصيحون اسمه مع الأهزوجة، يصيحون عليه زنجي زنجي، يتنططون حوله، ينقرونه بأصابعهم في صدره وبطنه ووجهه، بينما هو واقفٌ بينهم في ارتباكٍ عارم، وما إن يمضوا في طريقهم، كان سيعود ملؤه التعاسة إلى البيت.

كم أربكه وحيره تصرفهم. إن كانوا يعرفون اسمه طوال الوقت، ومن الواضح جدًّا أنهم يعرفونه، فلِمَ إذن استمرارهم في سؤاله وكأنهم أبدًا ما سمعوا به؟ لمجرد مضايقته. لكن لماذا يريدون مضايقته؟ ولماذا مضايقته تمتعهم إلى هذا الحد؟ لماذا هي متعةٌ كبيرة، الادعاء بأنك لطيفٌ جدًّا وصدقًا مهتمٌّ جدًّا، أن تتظاهر به حدَّ الإقناع فيصدقك أحدهم رغم الشك في قلبه، فقط كي تريه كم سهلٌ خداعه ثانيةً، لأنك إن كنت تعني ما تقول حقًّا، هذه المرة،

فما كان ليرغب في أن يكون لئيمًا معك، ليس وأنت تبدو صادقًا في لهفتك على معرفة اسمه. لماذا متى ما سأله أحدهم، مع الآخرين من زمرته إما يؤازرونه أو يكتفون بالنظر، استشعر في الهواء قوةً غريبة من حولهم، تطوقهم في دائرة محكمة فتصيِّرهم جمعًا واحدًا لا ينفرط وتصيِّره هو وحيدًا جدًّا، متلهفًا من كل قلبه على الانضمام إليهم والدخول في دائرتهم؟ لِم استمراره في تصديقهم؟ فهذا ما يحدث المرة بعد المرة، وما استطاع تذكر مرة واحدة بدوا فيها جد طيبين ومهتمين وودودين معه إلا واتضح بعدها أنهم ما عنوا شيئًا من أقوالهم ومشاعرهم. الأولاد الذين كانوا حقًّا لطفاء معه، من لم يخدعوه وما ضايقوه يومًا، كانوا ثلة قليلة من الأولاد الأكبر عمرًا بكثير، وما ادعوا يومًا هذا اللطف الغامر أو الاهتمام الشديد، كانوا وحسب سيحيونه عرضًا «هللو، صاح» مبتسمين لدى مرورهم به، أو لربما كانوا سيعبثون بشعره أو يصوبون لكمة صغيرة، لا لإيذائه أو إخافته، بل لهوًا. أولاء الأولاد الكبار كانوا مختلفين جدًّا عن تلك الزمرة، ما كانوا ليعيروه هذا الانتباه الشديد وما كانوا ليبدوا ودودين معه، لكن مع ذلك فالأولاد الكبار هم اللطفاء وتلك الزمرة هي اللئيمة معه، كل مرة. وكل مرة، كانت ستسلك الأمور المنحى ذاته. متى ما استهلوا حديثهم معه كان سيكون موقنًا أنَّ هذه المرة لن يقع في حبالهم؛ لكن كل مرة، مع مواصلتهم حديثهم، يقينه يهن. وكلما وهن يقينه، زاد يقينه، فيرتبك ويحتار، وكلما زاد يقينه بأن هذه الطيبة الظاهرة ما هي إلا خداع ولؤم منهم، تمعَّن أكثر في تصفح وجوههم راجيًا أنهم هذه المرة لربما صادقون. وكلما قلَّ

تصديقه لهم، زاد الإغواء بتصديقهم، وسهل عليه تصديقهم. وكلما زاد إحساسه بالوحدة، رغب أكثر في الشعور بأنه ليس وحده، بل واحدًا منهم. وكل مرة يستسلم أخيرًا فيها، كان سيكون أكثر يقينًا، قبل استسلامه بلحظة، أنه لن يقع هذه المرة في حبائلهم. وكل مرةٍ كان ينطق فيها اسمه، كان سينطقه في حياءٍ أشد، في خزيٍ أشد، إلى أن صار خَجِلًا من الاسم نفسه. وكل مرة، مع هذا النحو الذي يصيحون فيه جميعًا باسمه، يصيحون الأهزوجة التي جميعًا يضحكون عليها، يراوده إحساسٌ أقوى بأن لا بد من خطبٍ في الاسم ذاته، وبذا أحيانًا، حتى في البيت، متى ما نطقته ماما، إن سمعه دونما يتوقعه، كان سيجفل، وإحساسٌ صادمٌ مبهم من الخزي كان سيداهمه. لكن حين سألها إن كان روفس هو حقًّا اسمٌ زنجي، ولماذا من شأن ذلك أن يدفع بالجميع إلى الضحك عليه، استدارت إليه بحدة وقالت في صوتٍ حاد، وكأنما تتهمه بشيء، «من قال لك هذا؟» وهو أجابها، مذعورًا، أنه لا يعرف من قالها، وردَّت هي عليه، «لا تلقِ بالًا إليهم. فروفس اسمٌ جميلٌ وقديم. بعض الملونين اتخذوه اسمًا لهم، لكن لا بأس البتة في ذلك ولا شيء يدعوهم إلى الخجل منه ولا يدعو البيض إلى الخجل ممن يحمله. فقد سميناك بهذا الاسم تيمنًا بجدك الكبير من عائلة لينش، وإنه لاسمٌ تفتخر به. وروفس، إياك ثم إياك تنطق بكلمة زنجي».

لكنه شعر بأنها حتى لو كانت، ربما، فخورةً بالاسم، فهو ليس بفخور. كيف لك أن تفخر باسمٍ يثير ضحك الجميع عليك؟ ذات مرة، يوم أثاروا جلبةً أقل، أحدهم قال له، في هدوء، «هذا

اسمٌ زنجيّ» ومحاولًا استحضار إحساس الفخر قال، «لا، ليس باسمٍ زنجي، بل اسمًا جميلًا وقديم وسموني به على اسم جدي الكبير لينش»، وإذ يصيحون، «إذن جدك زنجيٌّ مثلك» وانطلقوا راكضين في الشارع يصيحونها عاليًا، «روفس زنجي، جدُّ روفس زنجي، زنـزنـزنـزنـزنجي» وكان سيصيح في إثرهم، «جدي ليس زنجيًّا، هو اسم جدي الكبير، وهو أيضًا ليس زنجيًّا!» بعدها باتوا يستهلون نقاشهم معه بسؤاله، «كيف حال جدك الزنجي؟» وكان سيجد نفسه مجبرًا على محاولة الشرح لهم من جديد أن الاسم هو اسم جده الكبير وهو ليس ملونًا، لكن ولا مرة أعاروا أي اهتمام لما يقوله.

وما كان ليفهم سر استمتاعهم الشديد بهذه اللعبة، أو لم ادعاؤهم كل تلك الطيبة والاهتمام فقط لأجل خداعه إلى فعل ذات الشيء كرةً أخرى لا سيما وهو يعرف أنهم أدرى من أن يفعلوا شيئًا كهذا، لكن مع الوقت صار جليًّا له أنهم مهما تظاهروا بالطيبة، فنيَّتهم دومًا لئيمة، وأن السبيل الوحيد لحماية نفسه من لؤمهم هو في عدم تصديقه إياهم أبدًا، عدم القيام بما يطلبونه منه. وهكذا، مع الوقت، وجد أنهم مهما ادعوا اللطف في سؤاله، فما عاد ينخدع بهم وما عاد يخبرهم باسمه، مما حسَّن كثيرًا من شعوره، عدا أنهم الآن بدوا أقل اهتمامًا به، أقل بكثير. ما كانت رغبته أن يمروا عليه دونما النظر إليه، ولا كانت رغبته أن يرموه بكلماتهم اللئيمة والسخرية منه، التظاهر بنيّتهم ضرب رأسه بأرجحة كتبهم، فيحني رأسه اتقاءها؛ كل ما أراده منهم شيءٌ واحدٌ وحسب، ألا يضايقوه ويستغبوه؛ كل

ما أراده منهم أن يكونوا لطفاء معه ويحبوه. وبذا وجد نفسه متأهبًا على الدوام لفعل كل ما يتطلبه الأمر لنيل إعجابهم، عدا ذاك الأمر الواحد، إخبارهم باسمه، والذي بات واضحًا جليًّا له ألا خير في فعله. وهكذا، طالما لا يسألونه عن اسمه (وسرعان ما أدركوا هم أيضًا أن تلك المزحة ما عادت تجدي) ظلَّ على أمله اليائس أنهم لن يحاولوا مضايقته واستغباءه بأي طريقةٍ أخرى. والآن، الأولاد الأكبر عمرًا، صاروا يقبلون عليه تعلو وجوههم ملامح رصينة، قائلين، وكأنما يطرحون عليه سؤالًا في منتهى الجدية،

روفس راستس جونسون براون

ما أنت فاعل متى ما حلَّ عليك الإيجار؟

ودومًا ما ساوره الشعور بأنهم ما زالوا بطريقةٍ ما يستهزؤون من اسمه، كلما سألوه هذا السؤال. شيءٌ ما لفت انتباهه في كلمة راستس، وكيف يقولونها في نبرةٍ تَشفُّ عن مقتهم وازدرائهم الاسمين، وما كان ليفهم لماذا مناداته بكل تلك الأسماء بينما اسمٌ واحدٌ وحسب هو اسمه الحقيقي، واسم عائلته هو فوليت. لكن يكفيه أنهم على الأقل باتوا يعرفون اسمه، حتى وإن لفظه معظمهم رووفيس؛ يكفيه تخليهم عن ادعائهم عدم معرفتهم باسمه؛ إذ كان ادعاؤهم ذاك أسوأ بكثير. كذلك، ففي الحقيقة، كل ما فعلوه أنهم طرحوا سؤالًا عليه، «ما أنت فاعلٌ متى ما حلَّ عليك الإيجار؟» مع أنهم كانوا سيسألونه إياه كل مرة، وكل مرة كان سيبدو السؤال سخيفًا. لكنهم سألوه إياه بمنتهى الجدية، وبمنتهى الجدية أرادوا

أن يعرفوا منه الجواب، ولو تسنى له أن يجيبهم، أن يخبرهم بأمرٍ هم حقًا لا يعرفونه إذن لربما سيعجبون به صدقًا ويكفُّون عن مضايقته. مع ذلك كان مدركًا أنهم بسؤالهم هذا إنما يضايقونه. فهم لا يريدون حقًا معرفة الجواب. إذ كيف لهم أن يريدوا معرفته إن كان السؤال ذاته لا معنى له؟ فما هو الإيجار؟ وما الشكل الذي سيبدو عليه متى ما حلَّ عليه؟ على الأرجح يبدو لئيمًا جدًّا أو لربما يبدو لطيفًا لكن متى ما عرفته جيدًا يكشف لك عن لؤمه. وما أنت فاعلٌ متى ما حلَّ عليك؟ ما أنت فاعلٌ إن كنت حتى لا تعرف شكله؟ أو لعله شيءٌ ابتدعوه، ليس حيًّا حتى، بل مجرد قصة؟ أراد أن يسألهم عمَّا هو الإيجار، لكنه شكَّ بأنَّ هذا تمامًا ما يريدون منه فعله، وأنه إذا أو متى ما طرحه، سيتضح أن المسألة برمتها ما هي إلا مكيدة، مزحة، وأنه في طرحه السؤال يكون قد ارتكب عندها فعلًا سخيفًا ومشينًا. وها هو ذا أمرٌ واحدٌ بات حكيمًا كفاية بحيث لا يفعله أبدًا: أبدًا ما سأل عمَّا هو الإيجار، كذلك ساوره إحساسٌ من اليقين، دونما سببٍ واضح، أنَّ خيرًا له كذلك ألا يسأل عنه أمه وأباه. لذا، حين صاروا يقبلون عليه الآن، بات متيقنًا أنهم سيسألونه السؤال الأحمق نفسه، ومتى ما فعلوا وقف أمامهم عنيدًا وخجولًا، عازمًا على ألا يسألهم عمَّا هو الإيجار؛ ومتى ما طرحوا السؤال ووقفوا ناظرين إليه في فضول، في نظرةٍ باردة كأنهم جياع، بادلهم التحديق إلى أن يعتريه الإحراج، فيلمح على وجوههم بداية ابتسامة، ابتسامة لئيمة أو لربما حتى ودودة، وعلى احتمال أنها قد تكون ودودة، كان سيبتسم ابتسامة غير واثقة، يطرق برأسه ناظرًا

إلى الرصيف، متمتمًا، «لا أعرف»؛ والذي بدا جوابًا يمتعهم تقريبًا قدر استمتاعهم بجوابه متى ما ذكر لهم اسمه، عدا أنهم ما كانوا ليضحكوا بصوتٍ عالٍ؛ وأحيانًا كان سيدير ظهره لهم ويمضي بعيدًا عنهم، وبعد فترة أدرك أنَّ خيرًا له ألا ينطق بشيء إجابةً على سؤالهم مثلما الحال مع سؤالهم عن اسمه.

متى ما أدار لهم ظهره ومضى بعيدًا، أو متى ما رفض الإجابة، كان سيدرك أنه بطريقةٍ ما قد هزمهم، لكن إحساسًا آخر كان سيساوره، إحساسٌ من الوحشة والوحدة، لهذا، فأحيانًا، كان سيعاود الالتفات إليهم بعد عدة خطوات، ناظرًا إليهم، فيقبلون عليه من جديد ويتحلقون حوله، وفي أحيان أخر، عندما يواصل مضيه بعيدًا، وحشةٌ أعمق وتعاسةٌ أقوى كانت ستقبض صدره، فينحدر في طريقه بين البيوت قاصدًا الفناء الخلفي لبيته حيث كان سيبقى لبرهة، خشية أن تراه أمه. صار يمضي إلى الناصية بقلبٍ تعس يحدوه الأمل، وأحيانًا ما كان سيذهب على الإطلاق؛ ومتى ما عاود الذهاب، بعد عدم ذهابه، كان سيُسأل أين كان ولماذا لم يكن موجودًا نهار البارحة، وما كان ليعرف بم يجيبهم، وكان سيتشجع كثيرًا، إذ كانوا سيحادثونه على نحوٍ بدا أنهم صدقًا مكترثون به. وفي الأيام اللاحقة بدت الأمور وكأنها فعلًا تغيرت. الأولاد الأكبر عمرًا فطنوا إلى أنَّ شكل اللعبة قد تغير وأنهم إن كانوا سيعتمدون على وجوده، على غبائه الأزلي، فحريٌّ بهم أن يتظاهروا بمودتهم له؛ الأولاد الأغبياء في الزمرة، وقد رأوا كيف نجحت تلك الحيلة، قلدوا الأولاد الأذكياء قدر استطاعتهم. سرعان ما راود روفس

الشك في تلك المبالغات الفاضحة لمودتهم، لكن الأولاد الأكثر دهاءً، وجدوا، ويا لسعادتهم، أنهم إن نوَّعوا في مشاعرهم الظاهرة، في الطُّعْم، من وقتٍ إلى آخر، فغالبًا كانوا سينجحون في خداعه. إذ لديه استعدادٌ فطريٌّ للإرضاء. وكيف بدأت هذه اللعبة، لا أحد منهم يتذكر ولا حتى يكترث، لكنهم جميعًا عرفوا أنهم إن ظلوا يخدعونه بما يكفي فسيغني لهم أغنيته، وسيكون أحمق كفاية كي يظن أنهم فعلًا معجبون بها. كانوا سيقولون، «غنِّ لنا الأغنية، رووفيس»، ولبدا شكّاكًا في نيتهم مضايقته فيقول، «أوه، أنتم لا تريدون سماعها».

ولقالوا إنهم صدقًا يريدون سماعها، وإنها لأغنيةٌ جميلة، وهو يتقن غناءها أكثر منهم، وأنهم، أيضًا، يحبون رقصه عليها متى ما غناها. ولأنهم تعلموا باكرًا تَحمُّل مشقة ادعاء المودة والاحترام لدى استماعهم إلى الأغنية، فسرعان ما كان سيقنع وبسهولةٍ بالغة. وإحساسٌ غامض تشوبه الغرابة والحماقة كان سيراوده، لا لأنه ظنَّ فعلًا أنهم يخدعونه أو ينوون الضحك عليه، بل لأنه مع كل أداءٍ علني للأغنية استشعر أكثر سخافتها وقلّ يقينه في أنها فعلًا جميلة وممتعة كما راق له أن يظن. وهكذا، كان سيصوب نظرة قلق أخيرة إليهم، وهذه النظرة بالذات كانت ستدغدغهم، فيرفع ذراعيه في الهواء ويدور ويدور حول نفسه، يغني،

أنا نحلةٌ صغيرة، نحلةٌ صغيرة، نحلةٌ صغيرة

أجمع الرحيق وأغني في روضتي الجميلة

ولدى غنائه ورقصه، كانت ستتناهى إليه، مخترقةً صوته، قهقهات متقطعة، مبهمة، لكن معظم الوجوه التي تلفُّ حوله، وجوه الأولاد الأكبر عمرًا، كانت رصينة متنبهة ومبتسمة، تعوض عليه ملامح الازدراء التي رآها على وجوه الأولاد متوسطي الحجم؛ ولدى انتهائه من إنشادها، واقفًا يلتقط أنفاسه، الأولاد الكبار كانوا سيصفقون له في حرارة، في قبولٍ حقيقي، قائلين، «يا لها من أغنيةٍ جميلة، روفس، من أين تعلمتها؟».

ومرةً ثانية كان سيشك في خبث نيتهم وراء سؤالهم فيمتنع عن الإجابة إلى أن ينجحوا في تملقه ووقتها تخرج من فمه، «ماما»؛ ولأوشك الأولاد الأصغر على إفساد كل شيء بصياحهم وضحكهم، لكن حتى إن حدث هذا، فالأولاد الأكبر كانوا سينقذون الموقف برمته بتقريعٍ حازم، «اخرسوا جميعكم! ما بالكم أيها الحمقى لا تميزون أغنية رائعة متى ما سمعتموها؟» وباستدارتهم إليه، بوجوهٍ أقصت أولاء الأولاد الصغار وضمته هو إلى زمرة الأولاد الكبار، كانوا سيقولون، «لا تكترث لهم، روفس، فهم جهلة ولا يعرفون شيئًا. هيَّا، هيَّا غنِّ أغنيتك لنا». وآخرُ كان سيقاطعه متحمسًا، «هيَّا، روفس، غنها ثانيةً، فيا لها من أغنيةٍ رائعة»؛ وثالثٌ كان سيقول، «ولا تنسَ الرقصة»؛ وأمام هذا الجمهور الصَّفيّ كان سيعيد الأمر برمته ثانية.

عندها، أحدهم كان سيقاطعهم فجأة، قائلًا «هيَّا، علينا الذهاب» وهكذا، كما لو أنَّ أحدهم سحب الكرسي فجأة من

أسفله، كان سيُتْرَك روفس وحده؛ بالكاد يصفقون له قبل مضيهم بعيدًا عنه. لكن بعض الأولاد، ذوي الوجوه اللطيفة، دائمًا كانوا سيحرصون، قبل مغادرتهم إياه، أن يقولوا له، «أوه، شكرًا لك روفس، قد أمتعتنا حقًّا» وكانوا أيضًا سيقولون، «إياك أن تنسى، انتظرنا هنا الغد»؛ ودائمًا قولهم هذا كان سيعوض عليه حيرته التي تستبد به. إذ لم مغادرتهم إياه هكذا، فجأة؟ لم التفاتهم الدائم إلى الوراء وإطلاقهم تلك الضحكات الغريبة؛ كلامهم المكبوت، رؤوسهم المتلاصقة، يعقبها هدير الضحك المفاجئ؟ وكأنهم يضحكون عليه. ومرةً، حين ألقى أحد الأولاد الكبار ذراعيه في الهواء وراح يلتف حول نفسه في الشارع، يزقزق، في صريرٍ عالٍ، «أنا نحلةٌ صغيرة، أنا نحلةٌ صغيرة» أيقن أنهم لا يحبون الأغنية، أو لا يحبونه على غنائه إياها. لكن إن كان هذا صحيحًا، فلِمَ سؤالهم إياه أن يغنيها؟ ومرةً سمع أحدهم، من آخر المربع السكني، يصيء عاليًا «ماما» وإذ يشعر كما لو أنَّ سهمًا اخترق بطنه للتو، وكلهم انفجروا ضاحكين، والآن صار يعرف أنَّ، على الأقل، في عين أولاء الأولاد، فالمسألة برمتها ما هي إلا مزحةٌ لئيمة. لكن سرعان ما كان سيتذكر لطف الأولاد الذين يحبهم ويثق بهم، إذ كان يعرف أنهم أبدًا ما كانوا ليعمدوا إلى مضايقته والاستهزاء به.

لكن، وبعد فترة، بدأ الشك يساوره حتى في نية أولاء الأولاد. لربما لطفهم الزائد ما هو إلا طريقتهم في إجباره على القيام بأشياء ما كان ليفعلها لو أنهم كانوا لطفاء معه فقط لبعض الوقت وفي

أوقات أخرى يضحكون عليه. لكن إن كانوا لطفاء طوال الوقت فلا بد أنهم صدقًا يحبونه. ومع ذلك، فضحك الآخرين عليه، لا بد يعني أنَّ ما يفعله سخيف أو خاطئ. المرة القادمة سيلزم حذره أكثر. سيلزم حذره في ألَّا يفعل شيئًا ولا ينطق بشيء يسأله أحدهم فعله، إلا إن كان واثقًا متيقنًا أنهم صدقًا لطفاء معه. والآن، حتى أولاء الأولاد الذين يحبهم ويؤثرهم على الجميع، صار ينظر إليهم بعين الريبة، وهم رأوا أنهم إن لم يحرصوا على ممارسة لعبتهم هذه بدهاء أكثر فقد يفسدوها ثانية. لذا صاروا يعدونه بمكافآت، شريط علكة، عقب قلم رصاص، طبشور، قطعة حلوى، وبدا أنَّ تلك المكافآت تقنعه. الأقل دهاءً من بين الأولاد ما كانوا ليَفُوا بوعدهم له ويمنحوه مكافأته، وبالطبع تصرفهم هذا زاد من متعة اللعبة، لكن الأولاد الأذكى ظلوا دائمًا على ثباتهم، حتى لا يتسنى له أبدًا رفض طلبهم. في الحقيقة، كانت خدعة سهلة جدًّا، ومملة جدًّا. لذا بدؤوا يقدِّرون الحيل التي يؤديها الأولاد الأغبى، أحدهم كان سيقرفص خلفه لدى رقصه وآخرُ يدفع به إلى الخلف، لكنهم كانوا أذكياء كفاية بألا يشاركوا أبدًا في تلك الحيل، كانوا سيتظاهرون برفضهم ما جرى، دومًا يساعدونه على الوقوف على قدميه وينفضون التراب عنه ويواسونه إن حدث وارتطم رأسه وراح يبكي، ودومًا كانوا سيخفون ابتهاجهم وانشداههم على حيرته وسذاجته اللامعقولة، ازدراءهم وذهولهم من افتقاره إلى أي حمِيَّة تدفعه إلى رد الإساءة على معذبيه، افتقاره العجيب، حتى، إلى أي غضبٍ حقيقي. ولأنهم دومًا كانوا هناك،

ودومًا بدا وكأنهم واقفون في صفه، صار في إمكانهم على الدوام خداعه إلى العودة ونيل المزيد، عودةٌ ما كان لأحدٍ في كامل عقله أن يفعلها.

الأكبر سنًّا بدأ يساورهم إحساسٌ غامضٌ من الخجل، وكذلك الضجر. فهم جميعًا أكبر سنًّا منه وأذكى بكثير؛ حتى الأولاد الأصغر في زمرتهم من يؤمون المدرسة يظلون أكبر وأذكى منه، فلا عجب إذن من وقوعه كل مرة في حيلهم، في عدم دفاعه عن نفسه. فمثلًا، شعروا بأن تلك الأغنية الصغيرة مخنثة جدًّا وما عادت تسليهم. شعروا بأن اللعبة باتت تستدعي حيلًا أعنف. لكن هم أنفسهم ما كانوا ليشاركوا فيها. إذ إن أروه، ولو لمرة واحدة، أنهم لا يقفون في صفه، فاللعبة ستفسد عليهم نهائيًّا. وحتى إن لم يحدث هذا، شعروا أنه سيكون ظلمًا منهم اشتراكهم في تلك الأفعال العنيفة ضد ولدٍ أصغر حجمًا وعمرًا منهم بكثير والتي حتمًا ستستدعي في الآخر رد فعلٍ عنيف، مهما كان أحمق كبيرًا. عدا ذلك، فقد استشفوا ما يكفي من تصرفاته أنه حتى إن دفعوا به إلى القتال، ما كان ليجرؤ عليه، على الأرجح هو جاهلٌ أصلًا حقه في القتال. اعتراهم الفضول على معرفة ما سيفعل. شرّعوا اللعبة على مصراعيها أمام الأولاد الأصغر والأقسى والأبسط عقلًا. لكن لا فائدة. مهما حدث له، كان سينظر إليهم مشدوهًا، متألمًا، عاتبًا، وينهض عن الأرض ويمضي بعيدًا؛ وفي حال أقدم أحد الأولاد الكبار الودودين على الاقتراب منه ومواساته، كان سينهمر في البكاء والنحيب، ولأقرفهم بكاؤه وأبهجهم في الآن ذاته.

طويلًا بعد ذلك، عثروا على الوصفة الصحيحة. كانوا سيضمون أولادًا من حجمه إلى زمرتهم ويحثونهم على فعل ما لا يحق لولدٍ كبيرٍ فعله.

* * *

بعد العشاء كل الرضع والأطفال الصغار عدا روفس حُمِلوا إلى الأسِرَّة حتى ينالوا قيلولتهم، أمه ظنت أنَّ هو الآخر عليه أن يستلقي معهم، لكن أباه قال لا، وما حاجته بقيلولة، لذا سُمِح له بالبقاء. جلس خارجًا مع الرجال على الشرفة. كانوا متخمين ونُعَّس بالكاد الواحد فيهم قادرٌ على الكلام، هو كان متخمًا ونعسًا بالكاد قادرٌ على أن يرى ويسمع، ينوس بين ركبتي أبيه في الظل الواهن، يحاول مستميتًا إبقاء عينيه مفتوحتين، عاجزٌ عن سماع أي شيء عدا همهمة أصوات الرجال الكسلة، وثرثرة النساء الأشد زخمًا في المطبخ، يتبادلن الحديث في أصوات خفيضة مخافة إيقاظهن الأطفال، وقرقعة الأطباق التي يغسلنها، وخطى إحداهن، بين الفينة والأخرى، تذرع المكان؛ وبعينين شبه مغمضتين، تبصران تارةً وتارةً يغشاهما النعاس، راح يتأمل بريق ملايين الأوراق الكثيفة المتدلية عن الأشجار، وميض أنصال الذرة تتلألأ على مهل، والدجاج، على مقربةٍ منه، ينقر تراب الفناء المتبّر وحافة أرضية الشرفة المثلّمة؛ كل شيءٍ حواليه يتدلّى حالمًا في سديمٍ ساطعٍ فضيّ، وسفحٌ طويلٌ خفيضٌ من الفضي الأزرق يحجب كل شيء قبالة سماءٍ زرقاء بيضاء، وبين ركبتي أبيه الصلبتين تحدّانه من جانبيه،

مال بظهره على صدر أبيه يصغي إلى خفق قلبه وقرقرة بطنه، وأول ما وعى إليه فَتْحُه عينيه ليرى وجه أمه تحدق إليه راقدًا في الفراش تقول له إنَّه حان وقت الاستيقاظ لأنهم ذاهبون في زيارة لرؤية جدة جدّه وهي حتمًا ستكون متلهفة على رؤيته لأنه البكر من بين أحفاد أحفادها. وهو وأبوه وأمه وكاثرين ركبوا المقعد الأمامي، بينما جده فوليت وعمته جيسي ورضيعها وجيم -ويلسون وإيتي- لو والعمة سادي ورضيعها ركبوا المقعد الخلفي والعم رالف ظل واقفًا على عتبة الأطومبيل الجانبية لأنه واثقٌ من تذكره الطريق ولأن لا مكان آخر له يجلس فيه، وانطلقوا منحدرين بمنتهى الحذر، حتى لا ترتج بهم الأطومبيل، وقبل حتى وصولهم الشارع طلبت أمه من أبيه التوقف دقيقة، وأصرت على ركوب إيتي-لو معهم في المقعد الأمامي، لإفساح مكانٍ في الخلف، ومع إصرارها، أذعنوا لها، ثم عادوا وانطلقوا من جديد، وقاد أبوه الأطومبيل بمنتهى العناية عبر الأخاديد العميقة إلى أن بلغوا الشارع، على الطريق الأخرى من لافوليت كما أخبره رالف أن يفعل («أجل، أعرف» قال أبوه «على الأقل أتذكر هذا») وبالكاد ارتجَّت بهم الأطومبيل، وأمه أثنت على قيادة أبيه الحذرة والسلسة متى ما لم ينسَ وينطلق بها مسرعًا، وتوردت وجنتا أبيه، وبعد دقائق قليلة بدأت ملامح عدم الارتياح تظهر على أمه، كما لو أنها تريد الذهاب إلى الحمام لكن لا تريد قول شيء، وبعد دقائق أكثر قالت، «جاي، أنا آسفة لكني أظنك قد نسيت».

«نسيت ماذا؟».

«أعني خفف من سرعتك، فأنت مسرعٌ جدًا عزيزي».

«الطريق أمامنا ممهدة»، قال لها. «وعلينا أن نعوض الوقت طالما نحن على الطريق الممهدة». بطَّأ قليلًا من سرعته. «كما أذكر، فأمامنا طرق ضيقة جدًا حتى البغل يشق عليه قطعها، أليس كذلك رالف؟».

«رحماك يا الله»، قالت أمه.

«أغيظك وحسب، لا تقلقي»، قال لها. «ليست كلها بتلك السوء. لكن مع ذلك علينا تعويض الوقت كلما تسنى لنا ذلك»، وزاد قليلًا من سرعته.

بعد ميلين أو ثلاثة، قال العم رالف، «هناك عند منعطف النهر طريقٌ فرعية، امِضِ بها ثم انعطف يمينًا»، ومضوا في الطريق الفرعية وانعطفوا إلى طريق غابة رملي وأبوه بطَّأ قليلًا من سرعته ونسيمٌ عليلٌ هبَّ عليهم جميعًا وأمه قالت كم رائعٌ القيادة في الظل بعد تلك الشمس الحارقة الفظيعة، أليس كذلك، وكل البالغين في الأطومبيل تمتموا أنها محقة، وفورًا بعد ذلك اندفعت بهم الأطومبيل خارج الغابة واجتازوا ميلين على طريق الريف الملتهب حيث جذول الأشجار وأحيانًا جذوع أشجار كاملة تنتأ قاسيةً حادة، حيث العليق وصريمة الجدي تتعرش في كل الأرجاء، وسفح تلٍّ يفيء بظله أمامهم. ولدى اقترابهم من الفيء، قال العم رالف في صوتٍ خفيض، «اذهب الآن نحو التل، وعند قاعدته انعطف يسارًا إلى أن ترى المدخل الثاني على يمينك وادخله». لكن لدى وصولهم المكان

ما وجدوا سوى الطريق المنعطفة يسارًا ولا مداخل إلى اليمين وأبوه كتم غيظه والكل سكت، وبعد دقيقة قال العم رالف، «أحسب لا خيارات كثيرة أمامنا، أليس كذلك؟» وتعيسًا ضحك.

«لا بأس»، قال أبوه، وابتسم.

«أحسبني بالغت في التباهي بذاكرتي، ليست حادة كما ظننت».

«قد أبليت بلاءً حسنًا»، قال أبوه، وأمه وافقته.

«لأقسمت أني واثق أن الطريق هنا تتفرع إلى طريقين»، قال رالف، «لكن مضى عشرون عامًا مذ أتيت هنا آخر مرة». يا لطيف! قالت أمه، إذ حينها كانت تظن صدقًا أنه يتمتع بذاكرة مذهلة.

«ومتى آخر مرة كنت هنا، جاي؟» لم يقل شيئًا. «جاي؟».

«أتفكر في الطريق»، قال لها.

«ها! ها هو ذا منعطفك»، قال رالف فجأة، وكان عليهم العودة إلى الخلف كي ينعطفوا فيه.

وفي صعود بطيء وطويل قطعوا الطريق المتمعج، روفس يلتقط نتفًا من حديثهم ونادرًا ما يفهم شيئًا منها. أبوه لم يأت هنا مذ حوالي ثلاثة عشر عامًا؛ آخر مرة قدم إلى هنا كان قبيل قدومه إلى نوكسفيل. لطالما كان الأثير لديها، قال رالف. أجل، قال جده مؤكدًا، بلا شك، إذ دومًا ما تشرق أساريرها على رؤية جاي. وأبوه قال في هدوء إنه دومًا ما ينشرح قلبه على رؤيتها. تبين أن أباه هو آخر من رآها من بين الموجودين في الأطومبيل. سألوه عن حالها،

وكأنما مضى على رؤيته إياها زهاء شهرٍ أو شهرين. أخبرهم أن العجز قد تملك منها، لا سيما قدرتها على المشي، فآلام مفاصلها إثر الروماتيزم مستفحلة لا تطاق، غير أنَّ ذهنها واعٍ وبراق مثل دولارٍ فضي، بالطبع كلامه هذا لا يعني بالضرورة أن هذه هي حالها الآن، تلك الروح الهرمة المسكينة؛ لا فائدة من أي كلام يقوله الآن. لا فائدة ترجى، قال عمه رالف، فهذا واقع الحياة، الوقت يطير، أليس كذلك؛ ما إن تستوعب هذه السنة وإذ بها تغدو السنة الماضية، لكن حتى الآن ما سبق لها أن رأت أطفال جاي، أو رالف، أو جيسي، أو سادي، تصوَّرْ فرحتها اليوم برؤيتها إياهم. ستكون فرحةً ومفاجأة. أجل، ستكون كذلك، قال أبوه، مصرًّا على افتراضه الدائم أنها لا تزال بعد في وعيها وقادرة على التعرف عليهم. هل من احتمال أنها ميتة؟ أرادت أمه أن تعرف. أوه، لا، كل آل فوليت أجابوها، إذ حتمًا لكانوا سمعوا بالخبر لو أنها ماتت. في واقع الأمر سمعوا أن صحتها تدهورت مؤخرًا. ذاكرتها وهنت والأمور بدأت تختلط عليها، العجوز المسكينة. أمه قالت أنَّ بالتأكيد ستكون هذه حالها، العجوز المسكينة. ثم سألت، في حذر، إن كانت تتلقى عنايةً جيدة. أوه، أجل، الكل أجابها. أفضل عناية. فسادي وهبت حياتها لها. وسادي هي أخت الجد فوليت الكبرى وسادي الصغيرة سميت تيمنًا بها. عاشت معها ترعاها وتقضي كل حوائجها، ليلًا ونهارًا. أليس هذا رائعًا، قالت أمه. والجميع اتفق فيما بينهم أنَّ ما كان لأحدٍ آخر أن يقوم بهذه المهمة. الكل تزوج ورحل، وما كانت لتقبل بالعيش في بيت أيٍّ منهم. الكل عرض عليها الإقامة لديه، المرة بعد المرة، لكن

ما كانت أبدًا لتترك بيتها. هنا ربَّيت أبنائي، كانت ستقول، عشت حياتي بأكملها هنا، مذ كنت في الرابعة عشرة، وأنوي الموت هنا، كلامها هذا مرَّ عليه زهاء خمس وثلاثين، بل حتى أربعين عامًا، وقت مات جدهم الكبير. يا لطيف! قالت أمه، وحتى حينذاك كانت امرأة جدَّ عجوز! ثم قال أبوه في صوتٍ رزين، «هي تبلغ من العمر مئة وثلاثة أعوام، بل لربما حتى مئة وأربعة. إذ ما كانت لتتذكر بالضبط عام مولدها. لكنها واثقة أنها لم تولد بعد عام ١٨١٢. ولطالما رجحت أنها ولدت في ١٨١١».

«يا الله، جاي! هل حقًّا تعني ذلك؟» أومأ وحسب، مبقيًا عينيه على الطريق. «تصور روفس»، قالت أمه، «تصور ذلك!».

«هي امرأة جد جد عجوز»، قال أبوه في وقار؛ وفي وقارٍ وفخر، وافقه رالف.

«تصور كل الأشياء التي رأتها!» قالت ماري، في هدوء. «الهنود الحمر. الحيوانات المفترسة». جاي ضحك. «أعني الحيوانات آكلة البشر، جاي. الدببة والقطط البرية ـ أمور فظيعة».

«كانت هناك سنورٌ في هذه الجبال، ماري - كنا ندعوها بالرقطة -أي مثل القطة- كانت لا تزال تحوم في الأرجاء حين كنت ولدًا. وعلى حد زعمهم فالدببة لا تزال موجودة».

«بحقك جاي، هل سبق أن رأيت واحدًا؟ سِنَّورًا؟».

«رأيت واحدًا بعد إطلاقهم النار عليه».

«يا الله».

«كان مفترسًا».

«أعرف ذلك، جاي»، قالت له. «أعني، واثقة أنه كذلك. أنا وحسب عاجزة عن تصور ـ تخيّل! عمرها تقريبًا من عمر البلد، جاي».

«أوه لا»، ضحك أبوه. «لا أحد عجوزٌ إلى هذا الحد. لكن سبق أن قرأت في مكانٍ ما، أنَّ هذه الجبال، هي الأقدم ...».

«عزيزي، عنيت الأمة»، قالت له. «الولايات المتحدة الأميركية. دعني أرى. بالكاد كانت أميركا في عمري الآن حين ولدت جدتك الكبرى». وكلهم راحوا يحسبون للحظة. «بل حتى أصغر مني»، قالت في نبرة انتصار.

«غولي!»[1] قال أبوه. «ما فكرت أبدًا بالأمر على هذا النحو. غولي! هذه حقيقة لا تقبل الشك».

«لكان إبراهام لنكولن في الثانية من عمره وقتها»، دمدمت، «أو حتى في الثالثة»، أردفت حاسدة. «هل لك أن تتخيل هذا روفس»، قالت بعدها بلحظة. «قبل أكثر من مئة عام». لكنها رأت أنه لم يستوعب الأمر. «هل تعرف من هي؟» سألته. «هي جدة جدك فوليت!».

(١) «by golly»: تعبير عامي في الريف الأميركي عن التفاجؤ، بمعنى يا الله!

«هي الحقيقة، روفس»، قال جده من المقعد الخلفي، وروفس التفت إلى الوراء، قادرًا على تصديقها لكن عاجزًا عن تصورها، والرجل المسن ابتسم وغمز له. «ما كنت لتتخيل أبدًا سماعي أنادي امرأة بِـ جدتي، إيه؟».

«لا، سيدي»، قال روفس.

«حسنٌ، قريبًا ستسمعها»، قال جده. «فور أن أراها».

رالف راح يتمتم شيئًا مع ملامح القلق تتبدى عليه وأخيرًا قال أخوه، «ما الذي يتآكلك، رالف؟ هل ضللت الطريق؟» ورالف قال إنه ليس متأكدًا إن كان فعلًا قد ضلَّ الطريق، لا، ما كان ليقسم على هذا، ليس بعد، لكن فليلعنه الرب إن أقسم أنه واثق من الطريق، ليس بعد الآن.

«أوه رالف، عزيزي، يا له من أمر سيىء»، قالت ماري، «لكن لا تقلق، ربما سنعثر عليه. أعني، ربما عن قريب ستتعرف على مَعلمٍ ما وتعيدنا إلى الطريق الصحيح».

لكن أباه، وقد تجهم وجهه وبدا عليه نفاد صبره، بطَّأ من سرعة الأطومبيل إلى أن أوقفها في مكانٍ ظليل. «ربما علينا أن نعرف الآن».

«لا شيء هنا أعرفه»، قال رالف بائسًا. «ما أعنيه»، قال أبوه، «علينا أن نعرف الآن إن كان يجدر بنا العودة ما دمنا لا نزال نعرف طريق العودة. ونحاول الأحد القادم».

«أوه، جاي».

«صدقيني أنا لست راضيًا لكن لا تنسي أنَّ علينا العودة إلى المدينة الليلة. سنجرب في أحدٍ آخر، ويومها نطلق باكرًا». لكن البقية أجمعوا على المضي قدمًا، على الأقل لفترة. انحدروا إلى وادٍ ضيقٍ وطويل عبر الغابات التي في المعتاد ما كانوا ليروا منها سوى قممها الحالكة والطريقُ ظلت تسلك اتجاهًا كان رالف واثقًا من أنه خاطئ، وهناك عثروا على كوخ، بالكاد خارج الغابة، كذا كانوا سيعلّقون لاحقًا، دونما حتى رقعة مزروعة بالذرة جانبه، أشبه بزريبة كبيرة؛ لكن الناس القاطنين فيه، في وجوهٍ كالحة وأعين متيقظة، أخبروهم أنهم ما سبق لهم أبدًا أن سمعوا بها؛ وطويلًا بعد ذلك انفتح الوادي قليلًا ورالف قال إنه لربما تعرف على المكان، لكن بالتأكيد لا يبدو مثلما رآه آخر مرة، وفجأة ظهر منحنىً يُفضي إلى طريقٍ يقطع مرجًا أشبه بغابة ولاح لهم من بعيد متأرجحًا خلف مجازٍ من صفوف الأشجار ملامحُ بيتٍ رمادي وصاح رالف، «غولي!» وعاد يهتف بها مرةً أخرى، «غولي! هو ذا البيت، هو ذا البيت. عدا أننا الآن مقبلون عليه من الخلف!» وأبوه بدأ يتيقن هو الآخر، والبيت استحال أكبر وأكبر، وانعطفوا حوله كي يروا واجهته الأمامية، وأبوه وعمه رالف وجده كلهم قالوا «لا شك هو البيت» وبلا شك كان البيت: «وها هي هناك» وهناك كانت: كانت كوخًا كبيرًا رماديًا من الحطب ومن أمامها ممرٌ مسقوف، مع طابقٍ ثانٍ، وشجرة سنديان عظيمة منبثقة من الفناء الترابي الأمامي، وحلقةٌ حديدية كبيرة، حتار عجلة عربة، معلقة في سلسلة متدلية عن غصن السنديان والغصن يبتلع حلقات السلسلة في عُجْرِه، وفي

فيء السنديان المنبسط، انبساطًا فسيحًا يوازي رقعة ذرة، أبصروا امرأة مسنة تنهض عن كرسي المطبخ، مع الأطومبيل تتأرجح بهم لدى عبورهم الساحة الترابية على مهل ووقوفهم أسفل حافة الفيء، ومسنة أخرى ظلت جالسة بكل سكون على كرسيها.

المرأة الأصغر بين الاثنتين كانت العمة الكبيرة سادي، وعرفتهم ما إن وقعت عيناها عليهم وأقبلت فورًا إلى جانب الأطومبيل قبل حتى خروجهم منها. «يا الله»، قالت في صوتٍ خفيضٍ أجش، ووضعت يديها على حافة الأطومبيل تتأملهم الواحد تلو الآخر. يداها كانتا طويلتين ونحيفتين وكبيرتين مثل يدي رجل وكل برجمٍ من براجمها متورمٌ ومفلوق. عيناها كانتا سوداوين حالكتين، ورذاذٌ من اللون الأرجواني منثورٌ على جانب وجهها الأيسر. حملقت إليهم، تحول نظرها في صمت من شخصٍ إلى آخر، فظن روفس أنها لا بد غاضبة عليهم، ثم راحت تهز رأسها خلفًا وأمامًا. «يا الله» قالت ثانية. «هاودي، جون هنري».

«هاودي، سادي»، أجابها جده.

«هاودي عمتي سادي»، قال أبوه وعمته سادي.

«هاودي، جاي»، قالت، ترمق أباه بنظرةٍ متجهمة، «هاودي، رالف»، ورمقت عمه بنظرةٍ متجهمة. «لا بد أنك جيس، وأنت سادي. هاودي، سادي».

«هذه ماري، عمتي سادي»، قال أبوه. «ماري، هذه عمتي سادي».

«فخورة بمعرفتك»، قالت العجوز، تتصفح وجهها بتمعن شديد. «خمنتُ أنك لا بد هي»، قالت وقتما أمه كانت تقول، «وأنا أيضًا سعيدة جدًّا بمعرفتك». وواصل أبوه، «وهذا روفس وكاثرين وأطفال رالف جيم –ويلسون وإيتي– لو وابن جيسي شارلي على اسم أبيه وابنة سادي جيسي تيمنًا بجدتها وعمتها جيسي».

«يا الله!» قالت العجوز. «هلموا إذن خارجًا».

«كيف حال جدتي؟» سألها أبوه، في صوتٍ خفيض، قبل أن يهم بالخروج.

«جيدة بقدر ما نملك الحق في توقعه منها»، أجابته، «لكن لا تحبط إن لم تعرف أحدًا منكم. قد تعرفكم وقد لا تعرفكم. هي حتى نصف الوقت لا تعرفني أنا».

رالف هزَّ رأسه وطقطق لسانه، «العجوز المسكينة»، قال مطرقًا رأسه. أبوه زفر تنهيدة بطيئة من خديه المنتفخين.

«لو كنت مكانكم لأخذت الأمور بروية»، قالت العجوز. «إذ مَّر زمنٌ طويل مذ رأت عددًا كبيرًا من الناس دفعةً واحدة. وأنا مثلها. قد يخيفها رؤيتكم مندفعين نحوها فجأة كما القطيع».

«بالتأكيد»، قال أبوه.

«آه» همست أمه.

أبوه استدار ونظر خلفه. «لم لا تذهب أنت أولًا بابا وتراها؟» سأله في صوتٍ خفيض. «فأنت الأكبر».

«لست أنا من تريد رؤيته»، قال الجد فوليت. «الصغار من يتلهف قلبها على رؤيتهم».

«أحسبك محقًا، إن كان لها أن تميزهم أصلًا»، قالت العجوز. «أوه كم ابتهجت بسماع خبر ولادة ابنك، كادت ترقص من فرحتها»، قالت لجاي. «فليكن مؤمنًا أو كافرا، فليكن إبليس الملعون نفسه. ما همها. المهم أنه الأول». قالت لماري.

«أجل، أعرف»، قالت ماري. «أول أحفادها».

«هل تلقيت بطاقتها البريدية، جاي؟».

«أي بطاقة بريدية؟».

«أوه كلا، لم نتلقَّ أية بطاقة»، قالت ماري.

«أملتني ما تريد قوله لأكتبه على بطاقة بريدية وأودعها البريد إلى كليكما وهكذا فعلت. أيعقل أنكما لم تتلقياها؟».

جاي هزَّ رأسه. «أول مرة أسمع بشأن هذه البطاقة».

«أنا متيقنة أني أرسلتها في البريد. أتذكر ذلك جيدًا. لأني قطعت الطريق كله إلى بولي كي أشتريها وثانيةً قطعت الطريق إليها كي أرسلها في البريد».

«لم نحصل عليها»، قال جاي.

«على أي شارع أرسلتها، عمة سادي؟» ماري سألت. «لأننا قبل الولادة بقليل كنا انتقلنا إلى...».

«ما أرسلتها أبدًا إلى شارع»، قالت العجوز. «ما ظننت أبدًا أني في حاجة إلى ذلك، فجاي يعمل في مكتب البريد».

«أوه، عمتي، لكني تركت العمل في مكتب البريد قبل وقتٍ طويل. طويلًا قبل الولادة».

«أوه، أحسب أنَّ هذا ما وقع. لأني بعثت بالبطاقة إلى مكتب البريد في كريستوبل، منطقة القنال، بنما، حتى أني حرصت على تهجئتها بشكل صحيح، ك..ر..ي».

«أوه»، قالت ماري.

«أوه»، قال جاي. «ظننتك تعرفين عمتي سادي. فنحن نقطن الآن في نوكسفيل، انتقلنا إليها قبل عامين من ولادة روفس».

حدجته بنظرةٍ حانقة، رفعت كفيها على مهل عن حافة الأطومبيل، وصفقتهما بقوة على جانبيها حدًّا أذعر روفس فقفز عن مكانه. ثم راحت تومئ، أكثر من مرة، دون أن تقول شيئًا. أخيرًا قالت، في نبرةٍ باردة، «حسنٌ، فليجروني خارجًا ويطلقون رصاصتين على رأسي».

«أوه، لا تقولي هذا»، قالت ماري برفق، لكن لا أحد أعارها أي انتباه.

بعد لحظة واصلت العجوز كلامها في نبرةٍ كئيبة، تحدق إلى عيني جاي: «كنت أعرف ذلك مثلما أعرف اسمي لكن تاه عن عقلي».

«أوه، يا للأسف»، قالت ماري متعاطفة.

«ليس الأسف ما أشعر به»، قالت العجوز، «بل بألمٍ يعتصر بطني».

«أوه، لم أعنِ...».

«هنا!» وصفعت بطنها بقوة وعادت تضع يدها على حافة الأطومبيل. «إن حدث لي هذا أنا الأخرى»، قالت لجاي، «فمن ذا الذي سيعتني بها؟».

«أوه، عمتي سادي، الأمر ليس بهذا السوء»، قال جاي. «كلنا ننسى بين آنٍ وآخر. أنا نفسي أنسى وما بلغت بعد نصف عمرك. وليتك ترين ماري».

«أوه بحق الرب، أجل»، قالت ماري. «لا أحد مشتت الفكر مثلي».

التفتت العجوز إلى ماري لوهلة ثم عادت تنظر إلى جاي. «ليست المرة الوحيدة»، قالت، «قبل ثلاثة أيام وحسب...» لكنها توقفت. «لا ينفع أحدًا حديثك عن متاعبك». ثم أردفت، «انتظرا هنا لدقيقة».

استدارت ومشت نحو المرأة الهرمة ومالت عميقًا نحو أذنها وفي صوتٍ عالٍ، لكن ليس صراخًا، قالت «جدتي، لديك ضيوف». ونظروا إلى المرأة الهرمة وعينيها الشاحبتين، واللتين ما انفكتا ترقبانهم من أسفل فيء قلنسوتها، دونما تغييرٍ يطرأ عليهما،

بالكاد تطرفان، كي يروا إن كانت العينان ستتغيران الآن، لكن ما تغيرتا البتة، وما من حركة حتى في رأسها ولا على شفتيها. «هل تسمعينني، جدتي؟» فتحت وأغلقت فمها الغائر، لكن ليس كما لو أنها قالت شيئًا. «هذا جاي وزوجته ماري وطفلاهما، أتوا كل الطريق من نوكسفيل كي يروك»، هتفت في أذنها، ورأوا اليدين تزحفان في حجرها والوجه يستدير نحو المرأة الأصغر وكان لهم جميعًا أن يسمعوا طقطقةً جافة واهنة، لكن لا كلمات.

«ما عاد بقدرتها الكلام»، قال جاي، همسًا.

«أوه لا»، قالت ماري.

لكن سادي استدارت نحوهم، عيناها القاسيتان تبرقان. «قد عرفتكما»، قالت في هدوء. «تعالا». في حياء وعلى مهل، صعدوا الدرجات الأمامية نحو الأرضية المكنوسة. «سأخبرها عن بقيتكم لاحقًا»، قالت سادي.

«لا نريد خلط الأمور عليها»، قال رالف مفسّرًا، والكل أومأ.

المسير إلى المرأة الهرمة بدا طويلًا لروفس إذ تحركوا بمنتهى الحذر والحياء؛ كما لو أنهم داخلون إلى كنيسة. «لا تصيحا»، نصحت العمة سادي أبويه. «الصياح يرعبها. فقط ارفعا صوتكما عند أذنها».

«أعرف»، قالت أمه. «أمي صمّاء أيضًا».

«أجل»، قال أبوه. وانحنى مائلًا نحو أذنها. «جدتي؟» نادى

عليها، ثم ابتعد قليلًا عنها كي تراه، زوجته وطفلاه وقفوا ناظرين إليها، كل طفلٍ يمسك أمه بيد. شاخصةً نظرت إلى عينيه وما رأى في عينيها ولا على وجهها أي تغيير، كما لو أنها الآن ترنو بنظرها إلى نقطةٍ صغيرة في المدى البعيد، نظرة نافذة لكن لا مبالية، كأنَّ ما تنظر إليه الآن لا يثير اهتمامها بشيء. أبوه مال نحوها ولثمها برفق على فمها وتراجع خطوتين إلى الوراء كي تراه بأكمله، وابتسم ابتسامةً صغيرة، قلقة. وجهها استعاد نفسه من قبلته مثل العشب متى ما وطئتْ عليه قدمٌ برفق؛ عيناها ما تبدل فيهما شيء. جلدها بدا مثل حجر رخام بنّي ظلَّ الماء يندفق منحدرًا عليه إلى أن صيَّره أملسًا مصمتًا مثل قطعة صابون. عاد ومال نحو أذنها. «أنا جاي»، قال لها. «ابن جون هنري». يداها زحفتا في ثنايا تنورتها: كل عظمةٍ بيضاء وعرقٍ أسود تبدى جليًا من أسفل الجلد المبقع البني؛ البراجم المتجعدة شبيهة بالأجربة؛ وأعلى خاتم زواجها كانت ترتدي واقيًا أحمر مطاطيًا. فمها انفتح وانطبق وسمعوا طقطقتها الخفيضة الجافة، لكن عينيها ما تغيرتا. كانتا لامعتين في فيء قلنسوتها الواهن، لكن بريقهما الجامد ما فرق عن بريق عينين منحوتتين من زجاج.

«أحسبها تعرفت عليك»، قالت سادي في هدوء.

«ليس في وسعها الكلام، أليس كذلك؟» قال جاي، والآن إذ ما عاد ينظر إليها، بدا وعمته كأنهما يتبادلان الحديث حول جذل شجرة.

«أحيانًا في وسعها»، قالت سادي. «وأحيانًا لا. أصلًا نادرًا ما يكون من داعٍ لها للكلام، أحسبها ما عادت تستهويه. لكني أظنها تعرفت عليك وأنا سعيدة بذلك».

أبوه راح يتلفت حوله في الفيء، بدا حزينًا، غير واثق، من ثم نظر إليه. «روفس، تعال هنا».

«اذهب إلى أبيك»، قالت أمه همسًا لسببٍ ما، ودفعت يده برقة وهي تتخلى عنها.

«فقط نادِها جدتي»، قال أبوه في هدوء. «قف هناك عند أذنها مثلما تفعل مع جدتك لينش وقل، جدتي، أنا روفس».

سار نحوها بكل سكون كما لو كانت نائمة، يراوده إحساسٌ غريبٌ لاعتيادهما عليه، ووقف على رؤوس أصابعه إلى جانبها ونظر نحو أذنها من أسفل قلنسوتها. صدغها كان غائرًا عميقًا وكأنما مطرقة انهالت ضربًا عليه ورقيقَ الجلد مثل بطن فرخ. على رقعة جلدها تتصالب تجاعيد مربعة لا حصر لها وكل تجعيدة محفورةٌ فيها مثل ثلم شفرةٍ حادة، وكل ثلمةٍ أشبه بحجرٍ أملس؛ أذنها ليست سوى لسانٍ متدلٍّ متغضن مع حلقةٍ ذهبية صغيرة معلقة فيه؛ رائحتها واهنة لكن نفَّاذة، مثل رائحة مشرومٍ طازج وبهارات قديمة وعرق، مثل رائحة ظفره متى ما انخلع عن جلده. «جدتي، هذا أنا روفس»، قال في منتهى الحذر، والشعر الأصفر الأبيض عند أذنها اهتز. شعر ببرودة قارسة تنبعث من وجنتها.

«تعال هنا حيث لها أن تراك»، قال أبوه، وتراجع إلى الوراء

ووقف ثابتًا على رؤوس أصابعه ومال أمامها حتى تراه. «أنا روفس»، قال مبتسمًا، وفجأة لحظت عيناها إلى عينيه، لكن لا تعبير تجلّى فيهما. قريبتان هذا القرب، كانتا ألوانًا وحسب: لونٌ في نقطة المنتصف، معتّم مثل زيتٍ أسود مزرق، في حلقة من الأزرق الشاحب حدَّ البياض، مثل زجاج تهشم إلى ألف شظية بَرّاقة معتمة، مهشَّمة وسحيقة في القِدَم وصبورة، من حولها حلقةٌ من الأزرق الداكن، حادةٌ ودقيقة ما كان لإبرة أن ترسمها بهذه الدقة، في أصفر متخثر مليء بخربشات الدم، تحيطها طيّةٌ مقلوبة من الأحمر البُرنزي، وتعلوها القليل القليل من الرموش السوداء. ضوءٌ غامضٌ في أزرق العين المُجزَّع يتقد شررًا مثل غضبة سلفٍ من الأسلاف، وأسى الزمن يمور في مركزها الزيتي الأزرق المتنفس، ضائعًا وحيدًا وبعيدًا، أعمق من أعمق بئر. أبوه كان يقول شيئًا، لكن لم يسمعه، وها هو يقولها مرةً ثانية، حريصًا على ألا يفقد صبره، وهذه المرة سمعه روفس، «أخبرها أنا ابن جاي، قل، أنا ابن جاي، روفس».

ومرةً أخرى وقف جانب أذنها، يميل نحو الجوف الشذيّ العتيق، قائلًا، «أنا ابن جاي، روفس»، وشعر بوجهها يستدير نحوه.

«والآن قبّلها»، قال أبوه، فانسحب من ظل قلنسوتها وعاد مائلًا من أمامها يغور في ظلها من جديد وقَبَّل فمها الورقيّ، والفم انفتح، ومن فوهها، مع طقطقتها الجافة، خرج نفسها البارد العطن برائحة البهارات، وشعر باليدين تمسكانه بكتفيه وتخترقان ملابسه

وتنغرزان فيه مثل سكاكين ونصال جليدية. أدنته إليها ونظرت إليه، وكأنها ترمقه بنظرةٍ غضبى، تعتريها حدةٌ قاتمة. بدت وكأنها تمص شفتها السفلى، عيناها مفعمتان ضياءً، من ثم، بغتةً، مثل وجهين مختلفين تبدَّلا دونما انتقال على شريطٍ سينمائي، ما عادت جدية على الإطلاق بل كشرت في ابتسامةٍ عريضة كاد فيها ذقنها وأنفها يتلامسان وعيناها الصغيرتان العميقتان قهقهتا بهجةً. ومرةً أخرى سمعوا قرقرة طقطقتها، تأخذ أشكالًا هي بالتأكيد كلمات، لكن كلمات غير مفهومة، واشتدت قبضة يديها على كتفيه، تمعن النظر فيه، تتصفح وجهه بعينيها المقهقهتين، شبه المتواريتين، وابتسمت وابتسمت، ومالت برأسها جانبًا، وفي غمرة حبٍّ مفاجئة قبَّلها روفس ثانية. وكان في وسعه سماع صوت أمه تقول، «جاي» شبه هامسة، وصوت أبيه يقول، «دعيها» في ردٍّ سريع، غاضبٍ ورقيق، وأخيرًا، حين حرَّراه برفقٍ من عناق يديها وتراجع قليلًا إلى الوراء، رأى ماءً ينسل على الغبار من أسفل كرسيها، وعلى وجهيْ أبيه وعمته سادي اعتلت ملامح الحنان والحزن والتبجيل، أمه حاولت إخفاء بكائها، والمرأة الهرمة جلست هناك على كرسيها، واعية فقط إلى أنَّ شيئًا قد سلب منها، لكن سرعان ما اعتراها السكون، وحول ما جرى ما قال أحدٌ شيئا.

* * *

ذات مرة، في وقت متأخر من الظهيرة، العم تيد والخالة كايت، قدما كل الطريق من ميشيغان. الخالة كايت كانت صهباء. العم تيد

كان يرتدي نظارة وماهرًا في رسم التعابير الساخرة على وجهه. كانا قد أحضرا له كتابًا وأكثر ما أحبه في الكتاب صورة رجل سمين مع قماشة ملفوفة حول رأسه، جالسًا على وسادة مهدبة بشراريب مع أنبوب طويل متمعج في فمه، والصورة تقول:

كان هناك رجلٌ سمينٌ في مومباي
يدخن غليونه في يومٍ صافٍ
وحين انقض طائر الشنقب عليه
وطار بعيدًا بغليونه
طار عقل الرجل السمين في مومباي

لكن ما كان هناك من طائرٍ في الصورة. فقال أبوه لا بد أنه لا يزال في السماء يواصل اقتناصه الغلايين.

ما كانوا حقًا عمه وخالته، بل مثل الخالة سيليا، مجرد أصدقاء. لكن الخالة كايت كانت نوعًا ما من الأقارب. فهي ابنة الخالة كاري والخالة كاري هي نصف شقيقة نانا. أن تكون نصف شقيق يعني أن لكما إمّا الأب نفسه وإمّا الأم نفسها لكن ليس كلاهما، ونانا وخالته كانت لهما الأم نفسها.

ناما على الأريكة الجديدة في غرفة الجلوس.

في الصباح التالي وقبل طلوع الشمس الكل نهض ومضى إلى محطة «L&N». رجلٌ جاء إلى بيتهم في أطومبيل كي يقلهم لأن ما من عربة ترام توصلهم إلى «L&N». كان لديهم الكثير من المتاع حدَّ

أنَّ روفس نفسه طُلِب منه حمل صندوق صغير. جلسوا في القاعة الكبيرة وكانت ملأى بالناس. أمه أخبرت العم تيد أنها تؤثرها على المحطة الجنوبية المزدحمة بالريفيين، وأبوه وافقها؛ أشبه بزريبة تفوح منها رائحة التبغ الممضوغ والبول. بعض السيدات اعتمرن القلنسوات وكثيرٌ من الرجال اعتمروا قبعات القش القديمة لا القبعات المسطحة. رأوا سيدةً ترضع طفلها. كان أمامهم وقتٌ طويل من الانتظار قبل وصول قطارهم؛ وأبوه قال، «اعتمد على ماري، ولن يفوتك قطارٌ في حياتك، بل على الأرجح ستركب قطارك قبل موعده بيوم»، وأمه قالت، «جاي»، والعم تيد ضحك؛ ظلَّ يصغي إلى صوت الرجل الجهير ينادي على القطارات، وأخيرًا بدأ ينادي على سلسلة من أسماء المحطات وأبوه نهض قائلًا، «هذا نحن» وجمعوا متاعهم وما إن نادى الرجل على رقم السكة حتى هرعوا متعجلين، وهكذا حصلوا على مقعدين متقابلين، وبعد برهة قصيرة، في واضحة النهار، غادر القطار المحطة. الأناس الأكبر سنًّا راودهم النعاس وما تبادلوا الكثير من الأحاديث، حتى وإن تظاهروا بفعل ذلك. برهة واستولى النوم على الخالة كايت ومالت برأسها على كتف أمه والرجلان ضحكا وأمه ابتسمت قائلة، «أوه دع العزيزة وشأنها».

بائع الجرائد أقبل يشق طريقه ورغم اعتراض أمه، اشترى له العم تيد قاطرة زجاجية ملأى بقطع براقة وملونة من الحلوى واشترى لكاثرين هاتفًا زجاجيًّا يحمل داخله نفس نوع الحلوى، وهو ما لم يفعله أبوه أبدًا. أبوه والعم تيد قضيا وقتًا طويلًا في عربة

التدخين، كي يدخنا، وكي يفسحا مكانًا للبقية. الجو استحال حارًّا وخانقًا. لكن لاحقًا هرع أبوه عائدًا أسفل الممر وأخبر أمه بأن تنظر خارج النافذة وفعلت وقالت «حسنٌ، ماذا؟» وقال أبوه «كلا، انظري هناك -قُدُمًا»، والثلاثة نظروا وهناك في السماء، أعلى التل المكسي بقصار الشجر، سحابةٌ عظيمة متصاعدة من الأزرق الرمادي، بدت كما لو أنَّ للنور أن ينقشع عنها أي لحظة، وأخذ القطار منعطفًا طويلًا نحوها وتلك السحابة من الأزرق الرمادي انقشعت غيومًا متفرقة، كما المروحة، تغشِّي كل الريف حولها، محمولة بعضها على أكتاف بعض، عالية هادئة مفعمة بالنور الظليل، وكم مذهلًا كان مرآها حدًّا سمع أمه تقول «يا الله! تقدَّس اسمك وعظم خلقك!» وأبوه قال في حياء، كأنما هو من يملك تلك السحاب وهو من أهداها إياها للتو، «تلك هي، تلك هي سموكي العظيمة»[1] وحقًّا بدت مثل الأدخنة، ومع اقترابهم منها بدا وكأنما تلك الأدخنة والظلال العظيمة تبحر بأشرعتها حولهم، لكنه عرف أنها ليست سوى غيوم. بعد برهة صار في وسعه رؤيتها تنجلي بوضوح، انتفاخات بُرنزية عظيمة كما لو أنها بالونات منفوخة لأقصاها، تجاويف عميقة ومهيبة من الأزرق الظليل تنساب من قممها حتى أدنى قمم التلال أسفلها، أعمق مما للعين أن تراه. «مثل

(١) جبال سموكي العظيمة «The Great Smokey Mountains»: سلسلة جبلية على طول حدود تنيسي - كارولاينا الشمالية ويعزى اسمها إلى الضباب المنبعث عنها والذي يبدو للرائي من بعيد مثل الأدخنة.

الأمواج العظيمة، جاي» قالت أمه في انشداه. «معك حق»، قال لها، «هل تذكرين؟» «بالطبع أذكر»، قالت أمه؛ «مثل رؤية ضياء الشمس يخترق الأمواج، لحظةً قبل تداعيها».

«أجل»، قال أبوه.

«على كايت ألا تفوّت رؤيته»، قالت أمه؛ «كايت!» وأمسكت الخالة كايت بكتفها.

«شششش!» هسّ أبوه، عابسًا. «دعيها وشأنها». لكن الخالة كايت كانت أصلًا مستيقظة، وإن ما تزال نعسة جدًّا، متسائلة علام كل هذه الجلبة.

«انظري كايت»، قالت أمه. «هناك!» الخالة كايت نظرت. «هل رأيت؟» سألتها أمه.

«أجل»، قالت الخالة كايت.

«إلى هناك نحن ذاهبون».

«حسنٌ».

«أليست عظيمة؟».

«أجل».

«عن نفسي أراها فاتنة تسلب الألباب»، قالت أمه.

«وأنا كذلك». وعادت إلى نومها.

وعلى وجه أمه ارتسمت أكثر التعابير المضحكة التي رآها في

حياته، تنظر إلى أبيه مرتبكة ومتفاجئة تكبت ضحكتها في صدرها، وأبوه ضحك عاليًا لكن الخالة كايت لم تستيقظ. «مثلها مثل كاثرين»، همست أمه ضاحكة وكلهم التفتوا نحو كاثرين، من جلست تحدق إلى الجبال في ملامح جدية وصارمة؛ أبواه ضحكا وكاثرين نظرت إليهما وأدركت أنهما يضحكان عليها، فاحمرَّ وجهها ما زاد من ضحكهما عليها، حتى روفس انضم إليهما، وما كفوا عن الضحك إلا حين رأوا شفتها السفلى تتدلى وأمها قالت، «بالله عليك طفلتي، عليك أن تتعلمي تقبل المزاح».

لكن أباها قال، «لا أحد يجب أن يكون مثار ضحك الناس»، وحملها على حجره، وسحبت شفتها داخلًا وراحت تنظر عبر النافذة من جديد. والآن صار في وسعهم رؤية الأشجار منفصلةً على جانبي الجبال، منثورةً كما الرز، في كل أطياف الأخضر وبعضها حتى قارب السواد، وها هم يصعدون الآن على مهل متجاوزين قمم الأشجار الزغبة وأكتاف الجبال العالية، التجاويف الزرقاء العظيمة تلتف حولهم ومن أسفلهم كما لو أنها ترقص على مهل، في منتهى الجدية، في ضياء الشمس والسحاب وفي ظلالٍ حالكة كما الليل، يلمحون في البعيد، بين الحين والآخر، كوخًا صغيرًا أو حقل ذرة على سفح جبل، حتى أنهم شاهدوا، مرتين، بغلًا مع صاحبه، وأحد الرجلين لوَّح لهم؛ ومن فوقهم، عاليًا، في الضياء المتبدل، أبطأ من الجميع، قمم الجبال تنفتل وتتبادل مواقعها. لاحقًا قال أبوه إنَّ من الأفضل أن يجمعوا متاعهم الآن، وقبل أن يمضي وقتٌ طويل غادروا القطار.

تلك الليلة على العشاء حين طلب روفس مزيدًا من الجبن قال العم تيد، «صفِّر له وسيأتيك قافزًا من الطاولة إلى حجرك».

«تيد!» قالت أمه.

لكن روفس ابتهج. لم يكن يعرف بعد كيف يصفر، لكنه بذل أقصى جهده، وراح يراقب الجبنة بكل انتباه: لكنها لم تقفز من الطاولة إلى حجره؛ ما تحركت البتة.

«حاول مرةً أخرى»، قال العم تيد. «هذه المرة ابذل جهدًا أكبر».

«تيد!» قالت أمه.

ثانيةً حاول أقصى جهده، ومرات عدة انطلق منه صفيرٌ حقيقي، لكن الجبنة ما تحركت البتة، وبدأ يدرك أن العم تيد والخالة كايت يرتعشان من الضحك المكبوت في صدرهما، لكنه عجز عن رؤية المثير للضحك في جبنة ترفض الحراك حتى إن صفَّرت لها وحتى مع تأكيد العم تيد أنها ستقفز وأنه صدقًا صفَّر تصفيرًا حقيقيًّا، لا محاولة تصفير.

«لماذا لا تقفز الجبنة إليَّ، بابا؟» سأل أباه شبه باكٍ من الإحراج ونفاد صبره، وهنا انفجر العم تيد والخالة كايت ضاحكين ضحكًا مدوٍّ، لكن أباه ما ضحك، بل مشاعر مختلطة تبدت على وجهه، كان غضبان، محرَجًا، وأمه غضبت غضبًا شديدًا وقالت، «هنا وكفى، تيد. عيبٌ عليك، عيبٌ عليك! تخدع طفلًا تربى على الثقة في الناس، وتضحك هكذا في وجهه!».

«ماري»، أبوه قال، والعم تيد بدا متفاجئًا جدًّا والخالة كايت بدت قلقة، وإن ظلَّا يضحكان، قليلًا، إذ عجزا عن التوقف.

«اهدئي، ماري»، قال أبوه، فالتفتت إليه غاضبة، «لا أكترث جاي! ما همَّاني بشيء، إن كنت عاجزًا عن الدفاع عن ابنك، أنا سأفعل، بحق الرب سأفعل!».

«تيد لم يعنِ أي أذىً»، قال أبوه.

«بالطبع لم أعنِ ذلك، ماري»، قال العم تيد.

«بالطبع لا»، قالت الخالة كايت.

«هي مزحة وحسب»، قال أبوه.

«هذا كل ما في الأمر، ماري»، قال العم تيد.

«كانت مزحة بريئة»، قال أبوه والخالة كايت معًا.

«بل مزحة ثقيلة وتفتقر إلى الذوق، إن سألتني» قالت أمه. «انتهاك ثقة ولدٍ صغير».

«لكن ماري، عليه أن يتعلم ألا يصدق كل ما يقال له»، قال العم تيد، والخالة كايت أومأت ووضعت يدها على ركبة العم تيد. «عليه أن يتعلم حسن الحكم على الأمور».

«ابني يتمتع بالكثير من حسن الحكم على الأمور»، هاجت غاضبة. «فهو، لعلمك، طفلٌ ذكيٌّ جدًّا. لكنه تربى على الثقة في صدق البالغين متى ما أخبروه شيئًا. ربيته ألّا يكون شكّاكًا في

الجميع. وهو وثق بك، لأنه يحبك، تيد. ألا يجعلك هذا تخجل من تصرفك معه؟».

«كفاك ماري»، قال أبوه.

«لكن ماري، ما كنت لتتوقعي أنَّ أحدًا سيصدق كلامي عن الجبنة»، قال العم تيد.

«لكنك توقعت منه أن يصدقك»، قالت حانقة، «وإلا لما كنت أبدًا ستقول له هذا الكلام».

العم تيد بدا مرتبكًا، وأبوه قال، محاولًا الضحك، «حصرتك في الزاوية بحجتها، تيد»، والعم تيد ابتسم في غير ارتياح وقال، «أظنها فعلت».

«بالتأكيد فعلت»، أعلنت أمه منتصرة، لكن أباه عبس فيها ونهرها «ششش!».

الجزء الثالث

الفصل الرابع عشر

لدى استيقاظه كان الصباح قد أشرق صافيًا وعصافير الدوري تثير جلبةً صاخبة، وأول خاطرٍ خطر له خيبة أمله من أنه قد تأخر جدًّا، وإن لم يكن قد خطر له، بعد، ما هو الشيء الذي تأخر عليه. لكن شيئًا ما في عقله كان يثير حماسته وسعادته كما لو أنَّ هذا الصباح هو صباح يوم الكريسماس وفي الثواني التالية لاستيقاظه تذكر ما هو ذاك الشيء، فوثب جالسًا منتصب الظهر، رئتاه تتمططان فخرًا وترقبًا، ودسَّ يده في الكيس الورقي المتجعد وفي خشخشة متقصفة تناول القبعة. كان قد تشعشع ما يكفي من الضوء في الغرفة كي يرى الألوان؛ وبسرعة راح يقلبها ويقلبها، كانت تفوح برائحة الملابس الجديدة والرباط الجلدي الجديد. اعتمرها وبقوة انتزع الوصل منها وانطلق مسرعًا آخر الرواق مناديًا «بابا! بابا!» واندفع عبر الباب المفتوح لغرفة نومهما؛ قانطًا جمد في مكانه، إذ لم يجد أباه هناك. لكن أمه كانت راقدة هناك، رأسها مسنودٌ إلى وسادتين كما لو كانت مريضة. هي بدت مريضة، أو متعبة جدًّا، وفي عينيها بدت

مذعورة جدًّا منه. وجهها كان مليئًا بخطوط صغيرة لم يرها عليها من قبل، خطوط شبيهة بتلك التي على فنجان شايها المفضل بعد أن انكسر وتصلح. مدت ذراعيها إليه وأطلقت صوتًا غريبًا، حنونًا. «أين بابا؟» صاح بإلحاح متجاهلًا ذراعيها. «بابا ـ ليس هنا بعد»، قالت له، في صوتٍ مثل رماد الجمر المشتعل، وذراعاها همدتا على الملاءة.

«أين هو، إذن!» طالبها بإجابة، في خيبة أملٍ غاضبة، لكنها شقَّت طريقها عبر تلك الكلمات بكلماتها هي: «اذهب وأيقظ ـ الصغيرة كاثرين وأحضرها فورًا إلى هنا»، قالت في صوتٍ أربكه، «هناك شيءٌ لا بد أن أخبركما به معًا».

راح يصوِّب عينيه في كل الاتجاهات بحثًا عن أدلة على أبيه. ملابس؟ ساعة؟ تبغ؟ قميص نوم؟ «حالًا» قالت له، في نبرةٍ يائسة.

جفلًا على تقريعها الغامض له، مع الغثيان الغريب في بطنه على سماعها تقول «الصغيرة كاثرين»، هرع خارجًا ـ وكاد يصطدم بعمته هانا. رأى فمها قويًّا ومزمومًا بشدة أسفل نظارتها اللامعة وهي تحني ظهرها، تحدق إليه باستقامة.

«هللو، عمتي هانا»، ناداها مدهوشًا، وسريعًا دار حولها وتخطاها؛ لمحها تدخل غرفة نوم أبويه، شعرها ينتأ من عنقها النحيل في ضفيرتين متقصفتين؛ وراكضًا هرع إلى مهد كاثرين.

«كاثرين أفيقي هيا أفيقي!» راح يصيح بها، «ماما تقول لك أفيقي! الآن!».

«كفَّ عني»، زعقت في وجهه، وجهها المستدير يحمر حنقًا.

«ماما هي من قالت، هيا أفيقي!».

لحظات وهرع عائدًا يتقدمها ويصيح منقطع الأنفاس، «ها هي قادمة!» وهي تتهادى خلفه، ثلاثة أرباع نائمة، تتنشق غضبًا، شفتها السفلى ناتئة.

«اخلع تلك القبعة!» زجرته عمته هانا فجأة في حزمٍ روَّعه، يداه بالكاد لحقتا تمسكان بالقبعة وتردَّان عنها يد عمته الخاطفة. أهاله خيانتها غير المفهومة؛ صلابةُ فمها وهي تصارع ذهولها وندمها عمَّق من إحساسه بنذير شؤمٍ يتوعده.

«أوه هانا، لا، دعيه»، قالت أمه في صوتها الغريب، «لا تتخيلين كيف قضى البارحة متلهفًا على أن يُريها جاي»، وحتى بينما أمه تقول ذلك فوجئ من جديد بتصرفات عمته، إذ همست شيئًا غير مفهوم، وراحت تلمس وجنته بمنتهى الرفق. والآن، كما فعلت من قبل، رفعت أمه يديها ومدَّت ذراعيها الحنونتين إلى الأمام، «طفلاي، تعالا إليَّ».

وفي هدوء غادرت العمة هانا الغرفة.

«اقتربا»؛ ولمست كل واحدٍ منهما. «أريد أن أخبركما شيئًا عن بابا». لكن على ذكره تهدَّج صوتها وفمها الجاف راح يرتجف مثل رماد ورقةٍ محروقة تذروه الرياح. «هل تسمعينني، كاثرين؟» سألت ما إن استعادت صوتها. كاثرين حملقت إليها كمن يحاول الرؤية

عبر ضبابٍ كثيف. «هل استيقظت تمامًا، حبيبتي؟» على سماعهما صوتها، تعاطفًا معها ورغبةً في حمايتها، كلاهما اقترب أكثر وأكثر منها، وطوقتهما هي بذراعيها، وكان لهما أن يشما أنفاسها، أشبه بالكروت لكن أقرب إلى رائحة فأرٍ ميت. والآن خطوط صغيرة أكثر مثل صدوع الخزف الصيني راحت تمد غصونها على كامل وجهها. «بابا» قالت لهما، «أبوكما»، وهذه المرة بسرعة سيطرت على فمها، دمعةٌ واحدة انسابت من عينها اليسرى وانزلقت سفلًا على وجنتها المُثلَّمة: «بابا لم يعد إلى البيت. لن يعود إلى البيت بعد اليوم. فقد ـ ذهب إلى الجنة وأبدًا لن يعود إلى البيت. هل تسمعينني كاثرين؟ هل أنت متيقظة؟» كاثرين حدَّقت إلى أمها. «هل تفهمني، روفس؟».

حدَّق إلى أمه. «لماذا لن يعود؟».

نظرت إليه في حنانٍ وقنوطٍ عميقين وقالت، «لأن الله أراده». واصلا تحديقهما الحاد فيها، «بابا كان في طريقه إلى البيت الليلة الماضية ـ وكان ـ هو ـ تعرض للأذى و ـ لهذا أودعه الرب في نومٍ عميق ورفعه فورًا إليه في الجنة». غرزت أصابعها في شعر كاثرين الزنبركي وأمعنت النظر إليهما الواحد تلو الآخر. «هل فهمتما، طفلاي؟ هل استوعبتما ما قلته لكما؟» حدَّقا فيها، والآن كاثرين صارت في كامل يقظتها.

«هل بابا ميت؟» سأل روفس. رمقته بنظرةٍ جفلة وكأنما صفعها للتو، ومرةً أخرى راح فمها وسائر وجهها يرتجف، فالتًا هذه المرة

من سيطرتها؛ ما نطقت بكلمة، أومأت مرة، ثم ثانية، ثم مرات متلاحقة، وأخيرًا، في صريرٍ خفيض، فلتت منها «أجل» كما لو أنها عطستها؛ وفجأة عانقتهما بشدة إلى صدرها، دسَّت ذقنها بين قمتي رأسيهما وشعرا بجسدها كله يرتعش كما لو أنَّ ريحًا صرصرًا تهب عليها، لكنها ما بكت. كاثرين بدأت تتنشق في صمت لأن كل شيء حولها بدا جديًّا وحزينًا. روفس أصغى إلى أنفاس أمه المتهشمة، يحدق من لحظ عينه، من أعلى كتفها الأبيض، في الملاءة المتجعدة، في البقعة الباهتة الممسوحة على السجاد الموشَّى بالورد، من ثم في شيءٍ غريب، ما رآه قط، مكوَّم على المنضدة جانب السرير، خيطٌ متشابك من الخرز البني مع صليبٍ صغير؛ وعبر أنفاسها بدأ يسمع ثانيةً جلبة شجار عصافير الدوري؛ يقول لنفسه: ميت، ميت، لكن كل ما كان في وسعه فعله هو أن يسمع ويبصر؛ عربة الترام تزأر عويلها الحديدي المروع وتصمت؛ وعى إلى قبعته تنزاح عن رأسه وتميل نحو أمه وشعر أنه ملزمٌ بخلعها لكن يجدر به أيضًا ألا يتحرك، وعرف لماذا العمة هانا كانت غاضبة جدًّا منه. ما عاد يسمع أنَّة من عربة الترام، وأنفاس أمه هدأت. بيدٍ واحدة أدنت كاثرين إليها، وكاثرين تنشقت قليلًا في ارتياحٍ أكثر؛ وباليد الأخرى أبعدت روفس عنها قليلًا كي يتسنى لها أن تنظر جيدًا إلى عينيه؛ بحنان خلعت القبعة عنه ووضعتها جانبها، وأزاحت شعره بعيدًا عن جبينه. «سيمر بعض الوقت قبل أن تفهما حقيقة ما جرى»، قالت لهما، «فمن الصعب ـ من الصعب جدًّا فهم أمرٍ كهذا. لكنكما ستفهمان». (أنا فهمت، قال لنفسه؛ هو ميت. هذا كل ما في الأمر.)

وفي نبرةٍ حالمة كررت عليهما، وكأنها تخاطب نفسها، تبقي عينيها عليه، «ستفهمان»، ولاذت بالصمت؛ ثم وميضٌ برق في عينيها وقالت: «متى ما أردتما معرفة ـ معرفة ما جرى (والوميض شعَّ أكثر)اسألاني، فقط اسألاني وسأخبركما لأنه يجدر بكما أن تعرفا». *كيف أصيب بالأذى*، أراد روفس أن يسألها، لكنه عرف من عينيها أنها لم تعنِ شيئًا مما قالته، على الأقل ليس الآن، ليس اللحظة، لا، لا يجدر به أن يسأل؛ والآن ما عاد راغبًا في السؤال لأنه بات مذعورًا؛ أومأ لها كي تدرك أنه فهمها. «فقط اسألاني»، عادت وكررتها، وعاد هو يومئ لها؛ وحماسةٌ غريبة، باردة، انسلَّت إليه؛ حدسٌ بارد أنبأه بأنه سيكون تصرفًا لطيفًا منه، وسيلقى امتنانًا عارمًا عليه، إن قبَّلها، وقبَّلها. «فليباركك الرب»، تأوهتها من قلبها وبقوة حضنتهما إليها؛ «فليباركُّما كليكما!» وأرخت ذراعيها. «والآن كن ولدًا طيبًا»، قالت في نبرة أقرب إلى صوتها الاعتيادي، تمسح أنف كاثرين. «وبدّل ملابس كاثرين الصغيرة، هل لك أن تفعل هذا لي؟» فخورًا أومأ لها؛ «ثم غسّل وبدّل ملابسك، العمة هانا ستعد لكما الفطور».

«ألن تنهضي، ماما؟» سألها، لا يزال مزهوًّا بنفسه بعد تفويضه بمهمة تبديل ملابس أخته.

«سأبقى مستلقية لفترة»، أجابته، ومن طريقتها ونبرتها عرف أنها تريدهما خارج الغرفة فورًا.

«تعالي، كاثرين»، قال لها، وفوجئ برؤية يده وقد تناولت يدها. كاثرين رفعت عينيها إليه، متفاجئة مثله، وهزَّت رأسها.

«اذهبي مع روفس، عزيزتي»، قالت أمها، «سيساعدك على تبديل ملابسك، ثم تناولا فطوركما. ماما ستراكما عن قريب».

وساور كاثرين الإحساس بأنَّ لسببٍ ما يتعلق بأبيها، من ليس موجودًا الآن حيث يفترض به أن يكون، وكذلك الحال مع أمها، فعليها الآن أن تحاول التصرف مثل ابنةٍ مطيعة جدًّا، وهكذا غادرت برفقة أخيها دونما أي اعتراض. ولدى استدارتهما عند الباب في طريقهما نحو غرفتهما، رأى روفس أمه تتناول خيط الخرز والصليب من على منضدة السرير (كان أشبه بقلادة) والخرز راح ينساب من بين أصابعها، ينفتل ويتدلى من يديها وأحد معصميها، عيناها تحدقان مستغرقتين في الصليب حدًّا لم تعِ معه أنَّ ابنها واقفٌ يرقبها. ستغضب مني *إن* عرفت، قالها موقنًا في نفسه.

وقبل أن يفعل أي شيء فيما يخص كاثرين، أعاد قبعته في الكيس الورقي. ثم أحضر ملابسها. «اخلعي عنك قميص النوم»، ثم أردف، «فقميصك يقطر بللًا»، يحاول قدر المستطاع محاكاة أمه.

«قميصك أنت يقطر بللًا»، ردَّت حانقة عليه.

«لا، لست مبلّلًا»، أجابها، «ليس الليلة الماضية».

اكتشف أنَّ بإمكانها -إلى حدٍّ ما- تولي ارتداء ملابسها؛ بنفسها ارتدت سروالها التحتي وأوشكت أن تنجح في ارتداء فانيلتها، عدا أنها ارتدتها بالمقلوب. «لا بأس»، قال لها، محاولًا قدر استطاعته محاكاة أمه، «أحسنت في ارتدائها، هي فقط معوجة *قليلا*»؛ وقلب الفانيلة إلى وضعها الصحيح.

زرَّر سروالها التحتي إلى فانيلتها، واكتشف حينها، كم المهمة أصعب من تزريره ملابسه. «اثبتي مكانك»، قال لها، لا لسبب، سوى ظنه أنه جزءٌ لا يتجزأ من أداء المهمة التي أوكل بها.

«أنا ثابتة»، ردَّت كاثرين في حزمٍ أخرسه عن قول أي كلمة أخرى.

وكان هذا كل ما قالاه بعضهما لبعض قبل ذهابهما إلى الأسفل لتناول فطورهما.



الفصل الخامس عشر

لم يرُق لكاثرين تزرير روفس ملابسها ولا تأمُّره عليها، حتى الفطور ما كان فطورًا. لا العمة هانا قالت شيئًا ولا روفس ولا هي، وشعرت بأنها حتى إن أرادت أن تقول شيئًا فيجب عليها ألا تنطق بشيء. كل شيءٍ كان غريبًا، ساكنًا، ويبدو مظلمًا. العمة هانا قطَّعت الموزة شرائح رقيقة جدًّا على رقائق «البوست توستيز» فصيَّرت منظرها باردًا ورطبًا وسبخًا. أضافت رشفة قهوة في حليب كل منهما، الرشفة في حليب روفس كانت أكثر. لم تقل لهما هيا *تناولا طعامكما*؛ *تناولي فطورك، كاثرين*؛ *لا تتلكئي* مثلما تفعل أمها؛ هي ما قالت شيئًا. كاثرين لم تشعر بالجوع، لكن فضولًا بسيطًا اعتراها على اختلاف طعم الأشياء، فراحت تأكل على مهل، تتذوق كل لقمة. السكون الذي عمَّ كل شيءٍ حولها أزعجها وأحزنها. لا أصوات جلبة على المائدة سوى قرقعة شوكة أو رنة ملعقة تلامس طبقًا؛ أما الصوت الآخر فكان صوت قطع التوست الرقيقة والجافة تطحنها عمتها هانا على مهل في فمها، ورعشةُ كل رشفة قهوة تحتسيها تُرطِّب

بها لقمتها من كسر التوست الجافة حتى تبتلعها. وعندما حاولت كاثرين إصدار الصوت ذاته لدى احتسائها الحليب، رمقتها العمة هانا بنظرةٍ حادة وكأنها تتساءل إن كانت كاثرين تحاول التذاكي عليها بوقاحة، لكنها ما قالت شيئًا. كاثرين لم تكن تحاول التذاكي عليها بوقاحة لكنها شعرت بأنَّ خيرًا لها ألا تكرر إصدار الصوت. بالكاد كان البيض المقلي مبهَّرًا بالفلفل الأسود والصَّفار كان مائعًا يسيح بشكلٍ مقرف على زلال البيض والطبق الأبيض وما رغبت البتة في تناوله لكنها تناولته لأنها لا تريد أن تؤمر بأكله ولأنها شعرت بأن هناك سببًا ما، ما يزال قائمًا، يلزمها بأن تكون فتاةً مطيعة. انزعاجها ما انفك يزداد، لكن ما كان بيدها فعل شيء سوى مواصلة تناول فطورها، لذا حرصت تمام الحرص على الإمساك جيدًا بقدحها وألا تغرف لقمةً كبيرة بملعقتها، وبالكاد تناثر فتاتٌ منها وبالكاد اندلق شيءٌ من حليبها فشعرت بأنها صارت فتاة كبيرة الآن لكن مع ذلك ما خفف شعورها شيئًا من انزعاجها، لأنها عرفت أنَّ شيئًا ما ليس على ما يرام. اهتمامها لم ينصب على الأكل بقدر ما انصب على وضع الأمور من حولها، تصغي بانتباه، تتأمل طبقها؛ كل صوتٍ تسمعه، وكل هذا الصمت المدوي، عنى أنَّ الأمور ليست على ما يرام. كل ما هنالك أنه ليس موجودًا هنا. ولا أمها، لكن أمها في الطابق العلوي. هو حتى ليس في الطابق العلوي. كان آتيًا في طريقه إلى البيت الليلة الماضية لكن لم يأتِ الليلة الماضية ولن يأتي الآن أيضًا، وأمها شعرت بسوءٍ بالغ حدَّ أنها بكت، والعمة هانا لا تقول شيئًا، فقط تصدر كل تلك الأصوات مع التوست وذاك الصوت العالي

مع كل رشفة قهوة كبيرة تبتلعها غرررممم، ثم تعيد الكرة مرةً بعد مرة، وكل مرة تطلق صوتها هذا مع التوست الصوتُ يروّعها، لأنه بدا كما لو أنها تتكلم عن شيءٍ مريع، وكل مرةٍ ترتشف قهوتها بدا وكأنها تبكي أو مثلما تفعل نانا حين تشفط الهواء بين أسنانها كلما جرحت نفسها، وكل مرةٍ تبتلع بها، كررررممب، عنى أنَّ كل شيءٍ انتهى ولا شيء بيد أحد فعله أو قوله أو حتى السؤال عنه، بعدها تنتزع قضمة أخرى من التوست ومرتعشة تمضغها بصعوبة كمن يصرُّ على أسنانه، والموَّال كله يعود ويتكرر. أمها أخبرتها أنه أبدًا لن يعود إلى البيت. هذا ما قالته. لكن لماذا هو ليس موجودًا الآن في البيت يتناول الفطور معهم هذه اللحظة؟ فلأنه ليس هنا معهم يتناول الفطور كلُّ شيءٍ حولها غريبٌ وتعيس. لربما في أي لحظة الآن سيدخل عليهم يكشر لها في ابتسامته العريضة قائلًا «صباح الخير شمسي الحلوة» لأنَّ شفتها نائتة، وسينحني نحوها ويدغدغ وجنتها بشاربه قبل أن يأخذ مكانه على المائدة ويتناول فطورًا كبيرًا والمرح يعود إلى البيت وسترقبه عبر النافذة لدى مغادرته إلى العمل وقبل أن يغيب عن ناظريها سيلتفت إلى الوراء وتلوح له لكن لماذا هو ليس هنا الآن حيث تريده أن يكون ولماذا لم يعد إلى البيت بعد؟ أبدًا لن يعود. أبدًا لن يعود إلى البيت. لن يعود إلى البيت. لكنه سيعود، لأنه بيته. لكن لماذا هو ليس هنا الآن؟ قد ذهب كي يرى الجد فوليت. الجد فوليت مريضٌ جدًّا جدًّا. لكن ماما لم تشعر وقتها بالسوء، لكنها تشعر بالسوء الآن. لكن لماذا لم يعد وقد أخبرتها أنه سيعود؟ قد ذهب إلى الجنة وتذكرت كاثرين ما تعرفه عن الجنة،

هي المكان حيث يعيش الله، عاليًا عاليًا في السماء. لكن لماذا سيود الذهاب إلى الجنة؟ لأنَّ الله أخذه إليه هناك. لكن لماذا ذهب هناك ولم يعد إلى البيت مثلما قالت ماما؟ ليلة البارحة أخبرتهما أنه في طريقه إلى البيت ليلة البارحة. حتى أنها سمحت لنا بانتظاره وحين لم يأتِ وكان لا بد أن نذهب إلى غرفتنا *وعدتنا* بأنه سيحضر إن خلدنا إلى النوم ووعدتنا أنه سيكون معنا وقت الفطور وها قد حان وقت الفطور وها هي تقول لنا إنه أبدًا لن يعود إلى البيت. والآن عمتها هانا طوت منديلها، ومرة أخرى طوته حتى بات صغيرًا، وبعقبه السميك ربتت على فمها ثم وضعته جانب طبقها، طياته تنفرد على مهل؛ نظرت أولًا إلى روفس ثم إلى كاثرين ثم عادت تنظر إلى روفس، وفي هدوء قالت، «أظن يجدر بكما أن تعرفا عن أبيكما. كل ما في وسعي إخباركما به. لأن أمكما ليست بخير الآن».

الآن سأعرف متى سيعود إلى البيت، قالت كاثرين في نفسها.

طوال فترة جلوسهم على مائدة الفطور، تملَّكت روفس رغبةٌ عارمة في طرح الأسئلة، لكن الخجل وعدم الارتياح استحوذا عليه فما استطاع الكلام. لكن أخيرًا طرح السؤال: «من آذاه؟».

«لا أحد آذاه، روفس» أجابته وقد اعتلى وجهها ملامح الصدمة. «بحق الرب ما الذي جعلك تفكر في شيءٍ كهذا؟».

ماما من أخبرتنا، قالت كاثرين في نفسها.

«ماما قالت إنه تعرض لأذىً بالغ فأودعه الرب في نومٍ عميق». قال روفس.

مثل الهريرات، تفكرت كاثرين؛ رأت رجلًا ضخمًا عجوزًا مبهم الملامح في رداءٍ أبيض يتناول أباها الصغير جدًّا من جلد عنقه ويلقيه في دلو ضخم من ماء الغسالة ويجلس على غطائه. سمعت صوت الخمش اليائس والمواء المخنوق.

«هو حقًّا تعرض للأذى، لكن لا أحد آذاه»، كانت العمة هانا تقول. كيف يعقل هذا، تساءلت كاثرين. «كان وحده يقود الأطومبيل في طريقه إلى البيت. هذا كل ما في الأمر، وحده، في الأطومبيل، الليلة الماضية، وتعرض لحادث».

روفس شعر بالدم الحار يندفق في وجهه ونظر مرتاعًا إلى أخته. كان يعرف أنَّ من المستحيل أن يحصل شيءٌ كهذا، ليس مع أبيه، رجلٌ بالغ، كذلك، فالرب لن يودعك في نومٍ عميق على شيءٍ كهذا، فحوادث كهذه وإن تكون مخجلة لكنها لا تؤذي. لكن كاثرين قد تعتقد ذلك. وها هي تعتقد ذلك، إذ راحت تحدق إلى عمتها في ذهول وعدم تصديق أنْ كيف لها أن جرؤت وقالت شيئًا كهذا عن أبيها. ليس في *بنطاله*، أيتها الحمقاء، أراد روفس أن يقول لها، لكن عمته هانا واصلت كلامها: «حادثٌ مهلك»؛ ومن صوتها، وهي تنطق تلك الكلمة الغريبة «مهلك» عرفا أنها لا بد تعني شيئًا سيئًا للغاية. «ما يعني أنه، كما قالت أمكما، قد تعرض لأذىً بالغ ما جعل الرب يودعه فورًا في نومٍ عميق».

مثل الأرانب، تذكَّر روفس، فروٌ أبيض ممزَّق إربًا عن اللحم الأحمر. لكن عجز عن تصور أبيه هكذا. *المخلوقات المسكينة*، تذكَّر

أمه تقول له، في صوتٍ حنونٍ تهدئ فيه روعه، *تأذت بشدة فأودعها الرب في نومٍ عميق.*

إن كان حينها في الأطومبيل، تفكرت كاثرين، فهذا يعني أنه ليس في دلو الغسالة.

لو *أنه* لم يفعل، قالت أمها، لعاشت الهريرات في تعاسة. إذ ما كانوا أبدًا ليستعيدوا صحتهم.

هانا تساءلت إن كان في وسعها أصلًا استيعاب أي شيء مما تقوله وإن كان عليها أن تخبرهما. لا تظنهما استوعبا شيئًا. وفي شكٍ عميق، عاودت المحاولة.

«ليلة البارحة كان يقود الأطومبيل عائدًا إلى البيت»، قالت لهما، «حوالي التاسعة، ويبدو أنَّ عطلًا ما أصاب عجلة القياــ تلك العجلة التي توجه بها الأطومبيل. لكن أباك لم يكن يعرف بالعطل. وما كان سيعرف بالعطل إلا إن وقع خطبٌ ما وحينها كان سيفوت الأوان على فعل شيء. إحدى العجلات ارتطمت بحجرٍ فالت على الطريق وفجأة انحرفت العجلة جانبًا، وحين...» تريثت وواصلت في نبرةٍ أبطأ وأخفض: «حاول أبوكما أن يعيد الأطومبيل إلى حيث يجب أن تكون، على الطريق، اكتشف أن ليس في وسعه، وفقد السيطرة تمامًا. لأن عطلًا كان هناك في عجلة القيادة. لذا، بدلًا من أن تفعل الأطومبيل ما أراد لها أن تقوم به، انفلتت الأطومبيل بسبب الحجر الفالت وانحرفت عن الطريق نحو جرفٍ حدر». تريثت مرة أخرى. «هل فهمتماني؟».

ظلّا يحدقان فيها.

«أبوكما انقذف من الأطومبيل»، قالت لهما. «والأطومبيل مضت صاعدة بدونه على الجانب الآخر من الجرف. حطت على ساتر ترابي بارتفاع ثمانية أقدام قبل أن تهوي إلى الوراء وتنقلب وتحط جانبه».

«هم واثقون بأنه كان ميتًا قبل أن ينقذف خارج الأطومبيل، لأن العلامة الوحيدة على جسده»، وسمعا في صوتها امتعاضًا حادًّا ومقلقًا، «هي ـ هنا!» وضغطت برأس سبابتها على وقب ذقنها، وراحت تنظر إليهما وكأنها تتهمهما بشيءٍ ما.

ما قالا شيئًا.

أظن عليَّ أن أنهي ما بدأته ما دمت وصلت هنا.

«هم واثقون كيف وقع الحادث»، قالت لهما. «الأطومبيل خضَّته خضة مروعة» ـ واختضَّت بقوة على كرسيها أفزعت الطفلين عن كرسيهما وهي ارتاعت؛ تاليًا واصلت الشرح على نحوٍ أرقّ: «قذفت به إلى الأمام حيث اصطدم ذقنه، صدمة شديدة، بالعجلة، عجلة القيادة، ومذ تلك اللحظة ما عاد يعي شيئًا».

نظرت إلى روفس، إلى كاثرين، ومرةً أخرى إلى روفس. «هل فهمتماني؟» والاثنان نظرا إليها.

لحظات وقالت كاثرين، «هو جرح ذقنه».

«أجل، كاثرين. جرح ذقنه». أجابتها. «هم واثقون بأنه قُتل

فورًا، من تلك الضربة الواحدة، لأنها أصابته تمامًا في ذاك المكان. لأنك إن تلقيت ضربة قوية في ذاك المكان فرأسك كله سيرتج، عقلك كله سيرتج حدَّ ـ قد يموت الناس لحظتها». سحبت نفسًا عميقًا وزفرته في تنهيدة طويلة مرتعشة. «ارتجاج في المخ، هذا ما يسمونه». حرصت أن تقولها بمنتهى الوضوح، ثم أطرقت رأسها للحظة؛ رأوا إبهامها يرسِّم صليبًا صغيرًا على صدرها.

رفعت عينيها. «والآن، طفلاي، هل فهمتما ما حصل؟» سألتهما بمنتهى الجدية. «أعرف أنه من الصعب عليكما. أرجوكما إن كان هناك أي شيء تودان معرفته اسألاني وسأبذل جهدي في تفسيره ـ شرحه لكما ثانيةً».

روفس وكاثرين تبادلا النظر ثم أشاحا بوجهيهما. بعد برهة سأل روفس، «هل تألم كثيرًا؟».

«ما كان أبدًا ليشعر بأي ألم. هذه رحمةٌ عظيمة» (أو هل هي، تساءلت في نفسها)؛ «الطبيب متيقنٌ من هذا».

تساءلت كاثرين إن كان لها أن تطرح سؤالًا واحدًا. آثرت ألا تفعل.

«وماذا يعني ساتر خرابي بارتفاع ثمانية أقدام؟» سأل روفس.

«ساتر ترابي»، أجابته. «مرتفعٌ من تراب، أو تل صغير منحدر، بعلو ثمانية أقدام. تقريبًا بارتفاع هذا السقف».

هو وكاثرين رأيا الأطومبيل تصعد الساتر وتهوي إلى الخلف

متدحرجة قبل أن تستقر جانب أبيهما. تُبابِي، قالت كاثرين في نفسها؛ تر ـ ا ـ بي، ردّد روفس لنفسه.

«وماذا يعني *قتل فورًا*؟».

«فورًا يعني ـ هكذا»؛ وطقطقت إصبعيها، صوت فرقعتها جاء أعلى مما توقعت؛ كاثرين جفلت وأبقت عينيها على الإصبعين. «مثل طقطقة زر الإنارة الكهربائية». روفس أومأ. «لذا اطمئنا، كلاكما، أنَّ أباكما ما شعر بالألم للحظة، ولا للحظة واحدة».

«متى...» بدأت كاثرين تقول.

«ماذا...» بدأ روفس يقول، في اللحظة ذاتها؛ وكلاهما حملق إلى الآخر.

«ما سؤالك، كاثرين؟».

«متى سيعود بابا إلى البيت؟».

«*تبًا*، كاثرين» اندفع روفس. «أمسك لسانك!» زجرته عمته هانا بشدة، وخائفًا، خجلًا من نفسه، أطاعها.

«كاثرين، هو لا يستطيع العودة إلى البيت»، قالت في منتهى الحنية. «هذا ما أعنيه بكل كلامي، طفلتي». وضعت يدها على يد كاثرين وكان لروفس أن يرى ذقنها يرتجف. «قد مات، كاثرين»، قالت لها. «هذا ما عنته أمك بكلامها. الرب أودعه في نومٍ عميق وأخذه إليه، رفع روحه بعيدًا معه. ما عاد بمقدوره العودة إلى البيت...» توقفت، ثم بدأت من جديد. «سنراه مرةً أخرى»، قالت

لها، «الغد أو اليوم الذي يليه؛ أعدك بهذا». وتمنت لو أنها كانت واثقة من رأي ماري في هذا الشأن. «لكنه سيكون نائمًا وقتئذ. بعد ذلك لن نراه أبدًا في هذا العالم. ليس قبل أن يأخذنا الله نحن أيضًا إليه».

«هل ترين، طفلتي؟» كاثرين كانت تنظر إليها بمنتهى الجدية. «بالطبع لا ترين، فليباركك الرب»؛ شدت على يدها. «لا تجبري نفسك على الفهم الآن طفلتي، فقط حاولي أن تفهمي هذا. أنه لو كان في وسعه لعاد إلى البيت لكنه ببساطة لا يستطيع لأن الله أراده أن يكون برفقته. هذا كل ما في الأمر». أبقت يدها على يد كاثرين وهلةً أطول، بينما روفس بدأ يستوعب حقًّا، وبوضوحٍ جليٍّ أكثر من ذي قبل، أنَّ أباه لا يستطيع العودة وأبدًا لن يعود إلى البيت: والله هو السبب.

«أنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد»، أخيرًا قالت كاثرين، تتذكر العبارة التي عادة ما تقولها أمها مازحة متى ما لم تسِر الأمور على هواها.

هانا، من تعرف باستخدام ماري المازح للعبارة، جفلت، لكنها سريعًا أدركت أن الطفلة عنتها في جدية. «هو ذا»، قالت في امتنان.

لكنه سيعود مرةً أخرى، أدرك روفس، وهو متشوقٌ إلى رؤيته. حتى وإن كان *نائمًا*.

«ما الذي أردت سؤالي عنه، روفس؟» سمع عمته تقول.

حاول جاهدًا أن يتذكر وتذكَّر. «ما هو الإجا، الإرج، الرجرا».

«الارتجاج روفس، ارتجاج المخ. هو الاسم الذي أطلقه الطبيب على ما أصاب أباك. يعني بأنَّ المخ تعرض فجأة لضربة قوية جدًّا، وارتجَّ بأكمله. لحظة حدث هذا، أبوك قـ...».

«قتل فورًا».

أومأت.

«إذًا *هذا* ما أودعه في نومٍ عميق».

«أجل».

«*وليس الله*».

كاثرين نظرت إليه، مشدوهة.

الفصل السادس عشر

ما إن انتهى الفطور حتى نهض روفس عن المائدة وراح يجول هائمًا متململًا حتى غرفة الجلوس وتلفَّت حواليه، لكن لم يرَ مكانًا واحدًا يود الجلوس عليه. شعورٌ عميقٌ من الكسل والخواء تملَّكه، وفي الآن ذاته، شعورٌ قاتمٌ من البهجة، كأنما الساعة هي صبيحة يوم ميلاده، عدا أنَّ هذا اليوم بدا أيضًا، بالذات، يومًا خاصًّا به. عدا الطاقة الصامتة والخفية في البيت، لا شيء في هذا اليوم بدا غير طبيعي. رأى وجه أمه حين أخبرتهما، يسمع صوتها، مرة تلو المرة، في صمت، المرة تلو المرة، يتلفت حواليه في غرفة الجلوس وعبر النافذة إلى الشارع، كلماتها تكرر نفسها. هو ميت. مات ليلة البارحة بينما كنتُ نائمًا والنهار الآن طلع. كان ميتًا أصلًا قبل وقتٍ طويل ليلة البارحة وما عرفتُ بموته إلا حين استيقظت. كان ميتًا طوال الليل بينما كنت نائمًا والنهار الآن طلع وأنا مستيقظ لكنه ما زال ميتًا وسيظل ميتًا طوال الظهيرة وطوال الليل وطوال الغد بينما أنام ثانيةً وأستيقظ ثانيةً وأنام ثانيةً وأبدًا أبدًا لن يستطيع العودة إلى البيت

بعد اليوم لكني سأراه مرةً أخرى قبل أن يؤخذ بعيدًا. ميتٌ الآن. مات ليلة البارحة بينما كنتُ نائمًا والنهار الآن طلع.

ولدٌ مرَّ حاملًا كتبه في رباط.

فتاتان مرَّتا تحملان حقيبتيهما.

سار نحو مشجب القبعات وتناول حقيبته وقبعته ومضى عائدًا عبر الردهةنحو المطبخ كي يتناول علبة غدائه؛ ثم تذكر قبعته الجديدة، لكنها كانت في الأعلى. في غرفة ماما وبابا، إذ تذكر رفعها إياها عن رأسه. لم يرد الدخول هناك لأجل قبعته بينما هي راقدة، والآن أدرك أيضًا أنه لا يرغب حتى في ارتدائها. لرغب في توديع أمه قبل ذهابه إلى المدرسة لكنه لا يريد أن يدخل ويراها مستلقيةً هكذا. عاود طريقه نحو المطبخ. سيودع عمته هانا عوضًا عنها.

كانت واقفة عند حوض المغسلة تغسل الصحون وكاثرين جالسة على كرسيها ترقبها. تلفَّت حواليه لكن لم يرَ أي علبة غداء. أظنها لا تعرف بشأن علبة الغداء، تفكَّر متأملًا. بدا أنها غير مدركة لوجوده في المطبخ، لذا بعد دقيقة، قال لها، «إلى اللقاء».

«أوه.. ما الأمر؟» وأدارت رأسها المطرق، تحدق إليه. «روفس!» هتفت متعجبة، في نبرةٍ تساءل معها عن الخطأ الذي اقترفه للتو. «أنت لن تذهب إلى *المدرسة*»، وأدرك أنها ليست غاضبة منه.

«مسموحٌ لي الغياب عن المدرسة؟».

«بالتأكيد مسموح. بل يجب عليك. اليوم والغدو- كل الوقت

الذي تحتاجه. عدة أيام. والآن أعد أغراضك مكانها، وابقَ هنا في البيت ولا تتحرك».

نظر إليها قائلًا في نفسه: لكن وقتها لن يروني؛ لكنه عرف ألا فائدة من التوسل إليها؛ فقد عادت وانشغلت في غسل الصحون.

مضى عائدًا عبر الردهة إلى مشجب القبعات. لوهلة بُغِتَ بهذه المفاجأة وابتهج لعدم اضطراره الذهاب إلى المدرسة، وأثرٌ من هذا الإحساس بالامتياز ظل قائمًا فيه، لكن أيضًا سرعان ما خاب أمله. إذ تراءى له الآن، وإن مبهمًا، الطريقة التي كانوا سينظرون بها إليه متى ما دخل الفصل وكيف سيقول المعلم شيئًا لطيفًا عن أبيه وعنه، وعرف أن في هذا اليوم كل شخصٍ سيتعامل معه بمنتهى الطيبة، وربما حتى ينظرون إليه باحترام، إذ شيءٌ ما وقع له لم يقع لأي صبيٍّ آخر في المدرسة، لأي صبي آخر في البلدة. وعلى الأرجح كانوا سيشاركونه وجبات غدائهم.

شعور الكسل والخواء تعمَّق فيه أكثر.

وضع حقيبته على مقعد مشجب القبعات، لكنه أبقى قبعته على رأسه. ستصفع مؤخرتي، قال في نفسه. بل أسوأ، إذ توقع نوبة غضبها المتفجر. لن أدعها تكتشف، قال في نفسه. وفي منتهى الحذر والصمت، فتح الباب الأمامي وغادر.

الهواء كان عليلًا ورماديًّا، وهنا وهناك، على مد الشارع، شعاعة ضوءٍ واهنة عديمة الشكل تتوه عن الشمس وتختفي. والآن، خارجًا في غمرة الهواء، انتابه إحساسٌ أقوى من التململ

والقوة؛ كان وحده، والطاقة الخفية الصامتة تعم سائر الأرجاء حوله. وقف على الشرفة وافترض أنَّ كل من يراه عابرًا الطريق أمام بيته مدركٌ للحدث الجلل الشهير الذي وقع. رجلٌ كان يسير متعجلًا أعلى الشارع، وبينما وقف روفس يرقبه، ينتظر التقاء عينه بعين الرجل، شعر بزخمٍ هادئ من الفخر والخجل يفور في صدره، بابتسامةٍ تشق طريقها على وجهه، وتستحيل تكشيرة عريضة خارجة عن سيطرته، وعرف أنَّ لزامًا عليه اللحظة أن يعيد ملامح وجهه إلى الوضع الرصين، لكن الرجل تجاوز بيته دون أن ينظر إليه، وكذلك فعل الرجل الآخر القادم من الاتجاه المقابل. تلميذا مدرسة عبرا الطريق، مألوفا الوجه لديه، لذا لا بد أنهما يعرفانه، لكن لم يَبدُ عليهما أنهما رأياه. من بعيد رأى آرثر وآلفن تريب يهبطان درجات بيتهما الأمامي ويسيران على الممشى والآن صار واثقًا بنفسه. هبط درجات بيته ماضيًا نحو الممشى، لكن، في منتصف الطريق، توقف، رغم أنَّ كليهما نظر إلى عينيه، وهو إلى عينيهما، لكنهما لم يقطعا الشارع إليه ولا حتى قالا *هللو*، بل مضيا في طريقهما، عيناهما ما تزالان إلى عينيه في فضولٍ خجل، حتى وهما يديران عنقيهما إلى الوراء نحوه، وهو بطيئًا يدير رأسه إليهما، يرقبهما يمضيان عنه، وحين أدرك ألا نية لهما بالتكلم معه حرص هو الآخر ألا يتكلم معهما.

ما بالهما، تساءل في نفسه، بينما ظلَّ يرقبهما؛ وحتى الآن، مع وصولهما أقصى الشارع، ما انفك آرثر يدير رأسه إليه، ولعدة خطوات سار آلفن للخلف.

علام هما غاضبان؟

والآن ما عادا يتلفتان، وقف يشاهدهما يتلاشيان أسفل التل.

ربما لا يعرفان، قال في نفسه. وربما الآخرون لا يعرفون أيضًا.

أكمل طريقه حتى الممشى.

ربما الجميع يعرف. أو لربما هو من يعرف شيئًا مهمًا جدًّا لا أحد آخر يعرفه سواه. فالاحتمالان ليسا متمايزين في عقله؛ كان مشوَّشًا، لكن ما قلَّ فخره ولا تضاءلت توقعاته. بابا مات، قال لنفسه، في تأنٍّ، ومن ثم، خجلًا، صدح بها عاليًا: «بابا مات». لا أحد من حوله بدا عليه أنه سمعها؛ فهو لم يقلها إلى شخصٍ محدد بعينه. «بابا مات» قالها كرَّةً ثانية، هذه المرة لأجل منفعته. بدت قوية، راسخة، وقابلة تمامًا للتصديق، وعرف أنه إن استلزم الأمر فلن يتوانى عن إخبار الناس بنفسه. شاهد رجلًا ضخمًا بطيئًا يسير نحوه وانتظر الرجلَ يلقي نظرة عليه ويقرّ له معرفته بواقع موت أبيه، لكن حين تجاوزه الرجل وواصل سيره، كأنما لم يره حتى، قال له «بابا مات» لكن بدا وكأنما لم يسمعه، وظل يتهادى قدمًا على الطريق. حرص على إخبار الرجل التالي بسرعة قبل تجاوزه إياه وبدا وجه الرجل كما لو أنه تفادى للتو لكمة قوية وواصل طريقه، لكن بعد عدة خطوات التفت إليه الرجل وقد اعتلت وجهه ملامح القلق؛ وبعد عدة خطوات أكثر استدار وسار إليه ببطء.

«ما الذي قلته، بني؟» سأله، في وجهٍ عابسٍ قليلًا.

«بابا مات»، قال روفس، في نظرةٍ مترقبة.

«هل حقًّا ما تقول؟» سأله الرجل.

«مات ليلة البارحة بينما كنتُ نائمًا والآن أبدًا لن يعود إلى البيت».

نظر إليه الرجل وكأنما شيئًا جرحه.

«أين تعيش، بني؟».

«هنا،»أشار إليه بعينيه.

«وهل أهلك يعرفون بهيامك خارجًا؟».

شعر بخواءٍ مفاجئ في بطنه. نظر مباشرةً إلى عينيه وأومأ سريعًا.

الرجل اكتفى بالنظر إليه وروفس أدرك: هو لا يصدقني. كيف لهم أن يعرفوا؟ دائمًا؟

«خيرٌ لك أن تعود إلى بيتك، بنيّ»، قال الرجل. «فأهلك لن يرضوا بخروجك هنا في الشارع». وظل ينظر إليه، بحدة.

روفس نظر إلى عينيه، نظرةَ خجلٍ وخَشْية، ثم استدار ماضيًا نحو البيت. الرجل ظلَّ واقفًا في مكانه. روفس تباطأ في خطاه، والتفت إلى الوراء. كان الرجل قد عاد إلى طريقه لكن لحظة التفت روفس هو أيضًا التفت، والآن توقف ثانيةً.

هزَّ رأسه قائلًا، في نبرةٍ ودودة أخجلت روفس حدَّ الخزي من نفسه، «هل هذا ما كان سيريده منك أبوك، أن تهيم في الشارع، تخبر أناسًا غرباء كيف أنه الآن ميت؟».

روفس فتح الباب، حريصًا كل الحرص ألا يصدر عنه أي صوت، خطا داخلًا وفي صمتٍ أغلقه، هرع إلى غرفة الجلوس ووقف يرقب الرجل عبر الستائر. كان ما يزال واقفًا هناك، يشعل سيجارة، لكنه عاد ومضى في طريقه ثانية. التفت إلى الوراء مرةً بعد وروفس، جبانًا خجلًا قال في نفسه، إنه يراني؛ لكن الرجل سرعان ما أدار وجهه إلى الأمام وظلَّ روفس يرقبه إلى أن اختفى عن ناظريه.

هل هذا ما كان سيريده منك أبوك؟

فكر في كل تلك المرات التي ضايقه بها الناس وكل تلك الأمور التي فعلوها به، وكيف ينفجر أبوه غاضبًا منها لحظة يأتي البيت. فكر كيف للأمور أن تجري على نحوٍ مختلفٍ اليوم لو لم يكن مضطرًا إلى التغيب عن المدرسة والبقاء في البيت.

مرةً أخرى خرج وانسل بين البيوت الخلفية نحو الزقاق، وسار على امتداد الزقاق، يصغي إلى الرماد يتشقق أسفل كل خطوة، إلى أن اقترب من الممشى. ما عاد الآن قبالة بيته، ولا حتى في الهيلاند أفينو؛ بل على مشارف الشارع الفرعي آخر الشارع الرئيس من بيته، حيث شعر بأنَّ لا أحد سيتعرف عليه ويرى بيته فيرسله إليه. واقفًا عند مخرج الزقاق، ليس كل ما رآه من حوله كان مألوفًا لديه، خطواته الأخيرة القليلة نحو الممشى أخذها في عزمٍ وخزي. إذ كان يفعل شيئًا قيل له ألا يفعله.

مدَّ نظره أعلى الشارع وكان له أن يرى الناصية التي يعرفها جيدًا، حيثما دومًا يلتقي، تعسًا، بالأولاد الآخرين؛ وأبعد من

الناصية لمح الزاوية حيث يختفي أبوه في طريقه إلى عمله، وحيث يظهر أول ما يظهر في طريقه إلى البيت. وشعر بأنَّ من حسن حظه أنه لن يلتقي بهم في تلك الناصية. مضطربًا، على مهل، أدار رأسه، ونظر نحو الجهة المقابلة من الشارع الفرعي؛ وها هم هناك: زمرة من ثلاثة، واثنان يسيران من أقصى الشارع، وصبيٌّ وحده، أبعد وأبعد، وصبيٌّ آخر وحده، أبعد وأبعد، كذلك، ودونما مبالاة بهن، فتياتٌ متفرقات هنا وهناك. كان يعرف جيدًا وجوه كل أولاء الأولاد، وإن كان لا يميز أسماءهم. لحظة رآهم تيقن أنهم رأوه، وتيقن أنهم يعرفون. وقف ثابتًا في مكانه ينتظرهم، عيناه تتنقلان من وجهٍ إلى آخر، ناظرًا إلى عين كل واحدٍ منهم، وخطوةً خطوة، من على مسافاتهم المتمايزة، كل ولدٍ منهم ظل يحدق إليه، ولأنهم يعرفون، اقتربوا منه في صمت. منتظرًا في صمت، في تلك الثواني العديدة السابقة لقدوم أولهم واقترابه منه، شعر بدهرٍ كامل يمر عليه، وبين تحديقه إليهم بصمت، وتحديقهم إليه بصمت، داهمته الرغبة في التراجع إلى الزقاق وفي ألا يراه أحدٌ من أولاء الأولاد ولا أحدٌ من الناس، لكنه كان يعرف أن أولاء الأولاد كلهم يقتربون منه مدركين أنَّ شيئًا وقع له لم يقع لصبيٍّ آخر في البلدة، وأنهم الآن، وأخيرًا، سيجب عليهم حتمًا احترامه؛ وكلما اقتربوا منه، وإن ما زالوا بعد على مسافةٍ منه، شعر بالهواء الرمادي المعتدل يُشْحَن بتلك الطاقة العظيمة المشوبة بمشاعر المجد والخطر، بالصمت يزداد عمقًا وإثارة، بظهره ينتصب استقامةً، بنفسه يزداد فخرًا وحياءً وانكشافًا؛ وهكذا مع دنوهم

منه أحسَّ مرةً أخرى بتلك الابتسامة العريضة تشق حدَّيها على وجهه، ابتسامة لا علاقة له بها، لكن حدسه أنبأه أنها بتاتًا غير لائقة. حاول جهده إسكات وجهه وأخبرهم، في حياءٍ وفخر، «بابا مات».

من بين زمرة الثلاثة الذين وصلوا إليه، اثنان اكتفيا بالنظر إليه، والثالث قال «ها! أراهنك أنه ليس ميتًا»؛ وروفس، المذهول من عدم معرفتهم وعدم تصديقهم إياه، قال «بل ميت!».

«أين حقيبتك؟» قال الولد الذي تكلم. «ما قلته ليس سوى كذبة حتى تتغيب عن المدرسة».

«لا، أنا لا أكذب عليكم»، ردَّ روفس. «كنت ذاهبًا إلى المدرسة لكن عمتي هانا قالت إني لست مجبرًا على الذهاب إلى المدرسة اليوم ولا غدًا إلى أن ـ لعدة أيام. قالت إنه يجب عليَّ ألا أذهب. أنا لست متغيبًا عن المدرسة. أنا فقط أتسكع خارجًا».

وأحد الأولاد الثلاثة قال، «هذا صحيح. إن كان أبوه ميتًا فلن يضطر إلى الذهاب إلى المدرسة قبل إقامة الجنازة».

وبينما كان روفس يتكلم ولدان آخران قطعا الشارع للانضمام إليهم والآن أحدهما قال، «صحيح، لا داعي لذهابه. له أن يتغيب عن المدرسة لأنَّ أباه قتل»، وروفس نظر إلى الولد بامتنان والولد بادله النظر، نظرة بدت لروفس نظرة احترام.

لكن الولد الذي تكلم أولًا، قال ممتعضًا، «وكيف عرفت؟».

والولد الثاني، بينما رفيقه يومئ، قال، «لأنَّ أبي قرأ الخبر في الصحيفة. ماذا، ألا يستطيع والدك قراءة صحيفة؟».

الصحيفة، تفكَّر روفس؛ الخبر وصل الصحيفة! ورمق الولد الأول بنظرةٍ واثقة وشامتة. والولد الأول، من فضوله كان كافيًا لتجاهل التعليق ضد أبيه، قال «حسنٌ، وكيف قتل؟» وروفس، من أدرك بإجلال أنَّ الموت قتلًا مشرفٌ أكثر من الموت وحسب، سحب نفسًا عميقًا وقال، «أوه، كان...»؛ لكن الولد الذي قرأ أبوه الخبر على الصحيفة كان قد بدأ أصلًا بالكلام، لذا، عوضًا عن التكلم، ركن روفس إلى الإصغاء، يشعر كما لو أنَّ كل الكلام حوله يقال لأجله، نيابةً عنه، في مديحه؛ شعورٌ ما انفك يزداد فيه كلما تحول بنظره من ولدٍ صامت لآخر ورأى أن أعينهم جميعًا مسمرة عليه. وروفس، هو الآخر، وقف يصغي بالاهتمام ذاته الذي يعتريهم، إلى الولد يقول متلذذًا، «في *طمبولته ليزي* القديمة، هكذا قتل. كان يقود *طمبولته ليزي* على الطريق وارتطمت بصخرة وقذفت به نحو جرف وصعدت ثمانية أقدام على الساتر الترابي قبل أن تتراجع إلى الوراء وتتدحرج وتتدحرج إلى أن انقلبت عليه *ووووف* وسحقت كل عظمة في جسده، هذا كل ما في الأمر. أحدهم عثر عليه ووجده ميتًا، هكذا قتل».

«قتل فورًا»، قال روفس، مستعدًّا لتصحيح بعض التفاصيل الواردة في الخبر، لكن بدا أن لا أحد يصغي إليه، إذ قدم ولدان آخران وما إن أوشك على الكلام قال أحدهما، «أبوك نجح في تدبر

طباعة اسمه على الصحيفة، واسمك أيضًا». وإذ يرى كل الأولاد الآن ينظرون إليه في احترامٍ جديد.

«هو ميت»، قال لهما. «قتل».

«هذا ما يقوله أبي»، أحدهما قال، والآخر عقَّب، «هذا ما تناله على قيادتك الأطومبيل سكران، هذا ما يقوله أبي»، والولدان، يومئان، راحا ينظران في وقارٍ جديّ إلى بقية الأولاد، ثم نظرا إلى روفس.

«ماذا يعني سكران؟» سأل روفس.

«ماذا يعني سكران؟» قلده هازئًا أحد الأولاد: «سكران يعني أن بطنه يطفح من الويسكي»، وبدأ يترنح في دوائر مرخيًا ركبتيه ومدليًّا رأسه. «هذا هو السكران».

«إذن أبي ما كان سكران»، قال روفس.

«وكيف عرفت؟».

«لم يكن سكران لأنه لم يمت بهذه الطريقة. العجلة اصطدمت بصخرة والعجلة الأخرى، التي تقود بها، ضربته هنا على ذقنه، لكنها ضربته بقوة شديدة فقتلته. بابا قتل فورًا».

«وماذا يعني، كيف قتل فورًا؟» أحدهم سأل.

«وما شأنك أنت؟» ردَّ أحدهم.

«هكذا»، قال ولدٌ أكبر، وطقطق إصبعيه. ولدٌ آخر انضم إلى

الزمرة. وروفس، منهمكٌ في التفكر في معنى قتل فورًا، كيف لاسم أبيه أن ذكر على الصحيفة واسمه هو أيضًا، وكيف أنه قتل لا مات وحسب، فكل ما سمعه للحظات كان غمغمة مبهمة؛ من ثم، فجأة، بدأ يدرك أنه اللحظة محور كل شيء وأنهم جميعًا يعرفون بهذا وهم واقفون الآن ينتظرون سماعه يسرد عليهم حقيقة ما حصل.

«لا أعرف شيئًا عن أي ذقن»، قال الولد من قرأ أبوه الخبر على الصحيفة. «ما سمعته أنه كان يقود *الطمبولة ليزي* واصطدم بصخرة *والطمبولة ليزي* انحرفت عن الطريق وقذفت به خارجًا وصعدت ثمانية أقدام على الساتر الترابي ثم تراجعت إلى الوراء تتدحرج وتتدحرج إلى أن انقلبت عليه *وووووف*».

«وما أدراك؟» سأل ولدٌ أكبر. «فأنت لم تكن هناك. إن كان هناك من يعرف بما جرى *فهو*». وأشار إلى روفس، وروفس جفل من سرحانه.

«لماذا؟» سأل الولد الذي انضم إليهم للتو.

«لأن الرجل أبوه»، أحدهم فسَّر.

«هو أبي»، قال روفس.

«ما الذي جرى؟» ولدٌ آخر سأل، كان واقفًا عند حافة الزمرة.

«أبي قتل»، قال روفس.

«أبوه قتل»، فسَّر عددٌ من الأولاد.

«أبي يراهن أنه كان سكران».

«طفَّح بطنه ويسكي!».

«اخرس، وما أدرى أبوك بأي شيء».

«هل كان سكران؟».

«كلا»، قال روفس.

«كلا»، ولدان كرراها من بعده.

«دعوه يسرد ما حدث».

«أوه، أجل،أنت اسرد علينا ما حدث».

«إن كان هناك من يعرف بما جرى، فهو أنت».

«هيَّا، أخبرنا».

«طفَّح بطنه ويسكي».

«اخرس».

«حسنٌ إذن، هيا أخبرنا».

كلهم لاذوا بالصمت وكلهم وقفوا يحدقون إليه. وفي هذا الصمت المفاجئ العميق بادلهم روفس التحديق الواحد تلو الآخر. رجلٌ مرَّ بمحاذاتهم، قدمه خبطت في المزراب وهو يطوف حولهم.

روفس قال، في هدوء، «كان قادمًا إلى البيت من عند جدي ليلة البارحة، جدي فوليت. هو مريضٌ جدًّا ووجب على بابا الذهاب إليه في منتصف الليل كي يراه، وفي عودته قاد بأقصى سرعته حتى

يعود إلى البيت لأن الوقت كان متأخرًا جدًّا. لكن كان هناك دبوس خابوري فالت».

«وما الدبوس الخابوري؟».

«اخرس».

«الدبوس الخابوري هو ما يمسك بالأشياء معًا من أسفل الأطومبيل، الأشياء التي تقود بها. الدبوس تخلخل وفلت وهكذا حين اصطدمت عجلة أمامية بصخرة فالتة التوت العجلة وعجز عن تحريك عجلة القيادة والأطومبيل انحرفت عن الطريق وارتجّت رجّة قوية ورأوا أين العجلة -تلك التي تقود بها- ضربته تمامًا على ذقنه فقتل فورًا. كانت الأطومبيل قد قذفته بعيدًا وصعدت ثمانية أقدام على الساتر الحَـ ـترابي من ثم تدحرجت إلى الوراء وكانت مقلوبة جانبه حين عثروا عليه. ما كان هناك من علامةٍ واحدة على جسده. فقط علامة زرقاء صغيرة جدًّا على حافة ذقنه هنا وأخرى على شفته».

وفي صمتهم سمع الأطومبيل المقلوبة مع عجلاتها الأربع تدور في الهواء وأبوه ممددًا جانبها مع العلامة الزرقاء على ذقنه وشفته.

«إيه!» أحدهم قال مستهزئًا. «وكيف لشيءٍ كهذا أن يقتل رجلًا؟».

شعر بتجهمٍ يفور في صدور الآخرين، إما أنهم لم يصدقوه، وإما فقدوا احترامهم لأبيه على موته قتلًا بهذه السهولة.

«هذا بالضبط ما حدث، هكذا وقع الحادث كما أخبرنا خالي

آندرو. قال إنه احتمال واحد في المليون. فالضربة أصابته برجـ رجـ رجراج ـ آذت مخه وقتلته».

«احتمال واحد في المليون»، أحد الأولاد الكبار قال في وقار، وآخرٌ أومأ في وقار.

«مليون تريليون»، آخرٌ قال.

«الدبوس قتل المخبول»، هتف آخر، وبإصبعه رجرج شفته السفلى المتدلية.

«أطبق فمك الكريه»، ولدٌ أكبر قال في برود. «ألا تملك أي حس على الإطلاق؟».

«الذي سمعته أن *الطمبولة ليزي* انقلبت عليه *وووف*».

هذا السرد مغلوط، وروفس واثقٌ بذلك، لكن بدا له أشد إثارة من سرده هو، ومشرّفٌ أكثر له ولأبيه، وحينها لن يسائله أحد، بازدراء، كيف لما حدث أن حدث، لأنها لن تكون وحسب ضربة على الذقن؛ لذا لم يحاول تكذيب الولد. شعر بأنه كاذب، وبطريقةٍ ما، خائن، اكتفى وحسب بأن يقول «قتل فورًا. ما اضطر إلى الإحساس بأي ألم».

«لم يعرف حتى ما أصابه»، ولدٌ قال في هدوء. «هذا ما يقوله أبي».

«لا»، قال روفس. لم يكن قد خطر له ذلك حتى الآن. «أظنه لم يشعر بشيء». لم يعرف حتى ما أصابه. يعرف.

«*الطمبولة ليزي* تهشمت وما عادت تنفع لشيء، إيه؟».

تساءل إن كان هناك مقصدٌ خبيث من مناداة سيارة أبيه بالطمبولة ليزي. «أظن»، أجابه.

«كنت عربتي الطيبة، لكن لا نفع منك الآن»[1].

أبوه اعتاد أن يغنيها.

«ما من رحلات ممتعة أخرى على متن *الطمبولة ليزي*، إيه روفس؟».

«أظن لا»، أجاب في حياء.

والآن بدأ يعي، أنَّ للحظات، كان هناك صوت جرس، جرس المدرسة، رنينه يموج في الهواء الرمادي القاتم؛ وعي إليه لأن اللحظة آخر ذبذباته راحت تتلاشى.

«الجرس الأخير»، قال أحد الأولاد في قلقٍ مفاجئ.

«هيا فلنذهب، سيجلدوننا على تأخرنا»، آخرُ قال؛ وفي ظرف ثانية رآهم جميعًا يتراكضون أعلى الشارع، سيقانهم أطلقوها للريح، حول الناصية تجاه هايلاند آفينيو، أطيافهم تتضاءل وتتضاءل أمام عينيه، الصباح من حوله خاوٍ وساكن. وقف جامدًا في مكانه، يرقب الناصية لنصف دقيقة بعد أن اختفى أسمن ولد فيهم، ومن ثم الأصغر؛ ثم، عبر الزقاق، عاد أدراجه إلى بيته في خطىً بطيئة،

---

(١) «You've been a good ole wagon» أغنية شهيرة من أغاني موسيقى الرَّحيم الإفريقية الأميركية

يسمع مرةً أخرى تشقق الرماد أسفل كل خطوة، صعودًا عبر الفناء الجانبي الضيق بين البيوت، صعودًا على درجات الشرفة.

على الصحيفة! بحث عنها جانب الباب، لكن ما كانت هناك. أرهف سمعه، ما من صوت. بهدوء انسل داخلًا عبر الباب الأمامي وإذ بعمته هانا تغادر غرفة الجلوس وتقطع الردهة. كانت تغطي شعرها بقماشة وفي يديها تحمل طاولة التدخين. لم ترَه فورًا ورأى كم حانقًا ووحيدًا بدا وجهها. حاول أن ينكمش لكنها سرعان ما وقعت عليه، عدستا نظارتها تبرقان شررًا، «روفس فوليت، بحق السماء أين كنت!» المغص قبض على بطنه، إذ سمع الغضب في صوتها يهدر ويفرقع.

«خارجًا».

«أين خارجًا! فقد بحثت عنك في كل الأرجاء».

«خارجًا. في الزقاق الخلفي».

«ألم تسمعني أنادي عليك؟».

هزَّ رأسه.

«صرخت حتى تقطعت حبال صوتي!».

ظلَّ يهز رأسه. «صدقًا عمتي».

«فتّح أذنيك واسمعني جيدًا. إياك ثم إياك تخرج اليوم. ابقَ هنا داخل هذا البيت ولا تتحرك منه، فهمت؟».

أومأ لها. وداهمه الإحساس بأنه بخروجه إنما ارتكب خطأً فظيعًا. من ثم، في نبرة أحن، قالت له، «أعرف أن الأمر صعب، لكن عليك أن تبقى في البيت، اتفقنا. ساعد كاثرين في تلوينها، اقرأ كتابًا. لكن عدني أنك لن تخرج».

«أعدك عمتي».

«ولا تفعل شيئًا يقلق أمك».

«لن أفعل».

مضت في طريقها عبر الردهة ووقف يرقبها. يا ترى ما الذي ستفعله بالغلايين والمنافض. راودته الرغبة في التسلل خلفها، إذ يعرف أنها ضعيفة النظر ولن تراه، لكن ستصيده حتمًا، لأنَّ سمعها حاد. ولو. سيفعلها. تسلل خلفها حتى نهاية الردهة ورآها تفرغ المنافض من رمادها في سطل المهملات وتطرق الغلايين على حافتها. ثم وقفت مع الغلايين في يدها، تتلفت غير واثقة حولها؛ أخيرًا، وضعت الغلايين والمنافض على رف الخزانة، ووضعت طاولة التدخين في زاوية المطبخ خلف الفرن. وعلى رؤوس أصابعه، عاد أدراجه عبر الردهة ودخل غرفة الجلوس.

كاثرين كانت جالسة على كرسيها الصغير قبالة النافذة الجانبية مع كتابٍ مصور على ركبتيها، وألوانها الشمعية منتشرة على مدِّ عتبة النافذة. كانت منهمكة في الرسم بقلمٍ برتقالي. رفعت عينيها إليه ما إن دخل ثم أطرقت برأسها تواصل تلوينها.

ما كانت من رغبة لديه في مساعدتها، أراد أن يختلي إلى نفسه

ويرى إن كان بإمكانه العثور على الصحيفة مع اسميهما عليها، لكن، مع ذلك، شعر بأن عليه أن يكون ولدًا طيبًا، فشعورٌ قاتمٌ راح ينسل فيه ويتملكه شيئًا فشيئًا حول أمرٍ ما، أمر ليس واثقًا منه، أمر ارتكبه. توجه إليها. «سأساعدك».

«لا»، قالت كاثرين، حتى أنها لم ترفع عينيها. كان كتاب ماما وزَّة وبقلمها الشمعي البرتقالي انهمكت تخربش على سائر أنحاء البقرة القافزة أعلى القمر، داخل وخارج حدود البقرة.

«عمتي هانا قالت لي أن أساعدك»، قال لها، متقززًا من رؤية صنيعها بالبقرة.

«لا»، كاثرين قالت، ومرةً أخرى لم ترفع عينيها، ولا كفَّت عن الخربشة للحظة.

«هذا ليس بلون البقرة»، قال لها. «من في حياته رأى بقرة برتقالية؟» لم تجبه، لكنه رأى وجهها ينقلب أحمر. «انظري، أنت حتى لا تلونين داخل البقرة، انظري! تخربشين بقلمك الشمعي على كلِّ الصفحة وليس حتى باللون الصحيح». شدَّت أكثر وأكثر على قلمها الشمعي وراحت ترسم دوائر أوسع وأوسع من الخطوط المتشابكة إلى أن انقصف القلم فجأة والجزء الأطول منه انحدر على الأرض. «أرأيتِ! ها أنت كسرته».

«دعني وشأني!» وحاولت مواصلة التلوين بعقب القلم المتبقي في يدها لكن كان قصيرًا جدًّا، والورقة راحت تتجعد بين يديها. تفحصت عتبة النافذة واختارت قلمًا بنيًّا.

«وما الذي ستفعلينه بالقلم البني الآن؟» سألها روفس. «فقد غطيت كل شيء باللون البرتقالي، ما الذي ستفعلينه الآن بالبني؟» كاثرين تشبثت بالقلم البني وبوحشية راحت ترسم دوائر من الخطوط الغامقة المتشابكة أعلى الخطوط البرتقالية. «وها أنت أفسدت اللوحة كلها، لا تفهمين حتى في التلوين!».

«دعني وحدي!» صرخت كاثرين، وفجأة راحت تبكي. سمع صوت عمته الحاد تزعق عليه من المطبخ: «روفس؟».

كان حانقًا من كاثرين. «دلّوعة»، همس إليها في كراهيةٍ باردة: «وشّاية!». وعند الباب وقفت العمة هانا، تفور غضبًا مثل دبور. «والآن، ما خطبكما؟ ما الذي فعلته بها؟» وتوجهت مباشرةً إليه.

ليس عدلًا منها. لماذا افترضت أنه هو من ارتكب الخطأ؟ لذا، في نبرة اعتدادٍ أخلاقي، ردَّ عليها: «أنا لم أفعل شيئًا واحدًا بها. هي من كانت تخربش على الرسمة بأكملها وتفسدها وأنا حاولت مساعدتها كما طلبتِ أنت مني وفجأة بدأت تبكي».

«ما الذي فعله، كاثرين؟».

«يضايقني».

«كذابة! أنا حتى لم ألمسك!».

وفجأة شعر بكتفيه تُمْسَكان من الخلف وبسائر جسده يهتز وما إن أدار رأسه المرتج عن شقيقته حتى رأى حملقة عمته الباردة تحدق إليه.

«اسمعني الآن، هل تسمعني؟» صرخت فيه مهتاجة. «*هل تسمعني*؟».

«أجل»، بالكاد تدبر نطقها، منكسرة خرجت منه.

«لا أريد أن أصفع مؤخرتك، اليوم من بين كل الأيام، لكن إن سمعتك تنطق كلمة واحدة مؤذية لأختك سأصفعك صفعةً لن تنساها حتى يوم مماتك، هل تسمعني؟ *هل* تسمعني؟».

«أجل».

«وإن حاولت مضايقتها أو دفعها للبكاء مرة أخرى سأخـ- سأخبر خالك آندرو بالأمر وسنرى كيف سيتصرف هو معك. هل تريدني أن أناديه؟ هو في الأعلى الآن! هل أناديه؟» توقفت عن هزِّه لكن ظلت تحدق إليه. «هل أناديه؟» هزَّ رأسه، مذعورًا. «حسنٌ، لكن هذا تحذيري الأخير. فهمت؟».

«أجل».

«والآن، إن كنت لا تستطيع اللعب مع كاثرين بسلام مثل أي ولدٍ طيب فابقَ ابقَ وحدك. انظر إلى الصور. اقرأ كتابًا. لكن لا أريد أن أسمع منك هسَّة. وابقَ عاقلًا. فهمت؟».

«أجل».

«حسنٌ إذن». ظهرها استقام ومفاصلها طقطقت. «تعالي معي، كاثرين»، قالت لها، «ولنحضر أقلامك الشمعية معنا». وساعدت كاثرين على جمع أقلامها الشمعية والأعقاب من على عتبة النافذة

والسجاد. وجه كاثرين كان ما يزال أحمر لكن ما عادت تبكي. ما إن مرَّت بروفس حتى رمقته بنظرة رضا شامتة، بادلها إياها بنظرة ضغينةٍ بائسة.

وقف يرهف سمعه إلى الطابق العلوي. إن سمع خاله آندرو ما حدث فهو واقعٌ في ورطة لا محالة. لكن ما كان هناك من دليل أنه سمع. فجأة شعر بركبتيه تهنان وبمغصٍ حادٍّ في بطنه. فسار نحو الكرسي جانب الموقد وجلس.

كان لؤمًا منه مضايقة كاثرين هكذا، على أي حال هو لم يرد أصلًا مساعدتها. وعلام صراخها هذا وإحضارها العمة هانا راكضة إليهما؟ تذكر كيف احمرَّ وجهها وعرف أنه فعلًا كان لئيمًا معها وكان آسفًا على تصرفه. لكن علام صراخها، مثل رضيعة دلوعة؟ اليوم سيكون حذرًا جدًّا معها، لكن عاجلًا أم آجلًا سيرد لها الصاع صاعين. الدلوعة اللعينة. الوشاية.

لكن الآخرين أعاروه شيئًا من الاهتمام. إن كان لأحدٍ أن يعرف، فهو. أبوه قتل. إيه أنت أخبرنا. تعال وأخبرنا. واحدٌ في المليون. مليون تريليون. لم يعرف حتى، عرف، ما أصابه. أطبق فمك الكريه. ألا تملك أي حسٍّ على الإطلاق؟

قتل فورًا.

ارتجاج، هو ذا. ارتجاج المخ.

الدبوس قتل المخبول بلبلبلبلبلبل.

أطبق فمك الكريه.

لكن ثمة أمرٌ يشعره بالسوء حول ما فعله.

الطمبولة ليزي.

هذا ما تناله على قيادتك الأطومبيل سكران، هذا ما يقوله أبي.

طفَّح بطنه ويسكي.

شيءٌ ما فعله.

الطمبولة ليزي تدحرجت وتدحرجت إلى أن انقلبت عليه *وووف*.

لا، لم تنقلب عليه.

لم يقل إنها لم تنقلب عليه. ليس صراحةً.

إيه، كيف لشيءٍ كهذا أن يقتل رجلًا؟

لكنه قتله. احتمال واحد في المليون. مليون تريليون.

قتل فورًا.

لكنه ارتكب ما هو أسوأ من ذلك.

ماذا.

هل هذا ما كان سيريده منك أبوك؟

كان سيريد مني أن أنسجم معهم دون أن يضايقوني؛ لأراد مني أن أجعلهم يحترمونني.

هل هذا ما كان سيريده منك أبوك؟

يريد ماذا؟

أن تهيم في الشارع هكذا بينما هو ميت.

أهيم في الشارع كيف؟

تتفاخر للناس أنَّ أباك مات.

يريد مني أن أنسجم معهم.

سأخبرهم أنه ميت وهم سينظرون إليَّ باحترام، ولن يضايقوني.

تتفاخر بأنه مات، هل هذا كل ما لديك حتى تتفاخر به.

أي شيءٍ آخر أقوله سيستهزئون بي ولن أقدر على الرد عليهم.

هل هذا ما كان سيريده منك أبوك؟

لكنه يريدني أن أنسجم معهم. لهذا -خرجت- تفاخرت.

المغص تلوَّى في بطنه حدًّا ما عاد بمقدوره التفكر أكثر في الأمر. تمنى لو أنه لم يفعلها. تمنى لو بيده العودة إلى الوراء ولا يفعل شيئًا مما فعل. تمنى لو كان لأبيه أن يعرف بما ارتكبه ويخبره بأن أجل كان ولدًا سيئًا لكن لا بأس لأنه لم يقصد أن يكون ولدًا سيئًا. كان سعيدًا أنَّ أباه لا يعرف لأنَّ لو عرف أبوه لاستعرَّ منه أكثر من أي وقتٍ مضى. لكن إن كانت روح أبيه هائمة حولهم، على الدوام، تراقبهم، فهو إذن يعرف. ولهو أسوأ بكثير لأنَّ حينها ما من سبيل إلى الاختباء منه، وما من سبيل إلى الكلام معه، لكن أيضًا لما كان

لأبيه أن يوبخه، وما كان ليستطيع صفع مؤخرته. لكان الشيء الوحيد الذي في وسعه فعله هو الجلوس على مقعده والخجل من ابنه.

«لم أقصد!» قالها عاليًا. «لم أقصد أن أكون ولدًا سيئًا».

أردتُ أن أريك قبعتي، أردف في صمت.

نظر إلى مقعد أبيه الموريس.

ما من علامة واحدة على جسده.

ظلَّ ينظر إلى المقعد، وخلسة، كمن ينوي سرقة شيء، نهض أخيرًا عن الكرسي ووقف جانب مقعد أبيه. بعد لحظات، أرهف فيها سمعه جيدًا، كي يضمن ألا أحد في الجوار يسمعه، راح يتشمم المقعد، مقعدته المجوفة العميقة، الذراعين، الظهر. لا شيء سوى رائحة التبغ الباردة، وعاليًا عند قمة الظهر، رائحة شعرٍ واهنة. تفكَّر في منفضة السجائر المربوط وثاقها حول الذراع؛ كانت فارغة. مرَّر إصبعه داخلها؛ لا شيء فيها سوى لطخةٍ من رماد. لا شيء فيها يحتفظ به في جيبه أو يغلفه بورقة. تأمل إصبعه للحظة ولعقها؛ وعلى لسانه علق طعم الظلمة.

الفصل السابع عشر

قيل لهما، ذاك الصباح، أنّهما إن أرادا فلهما أن يتناولا فطورهما في ملابس النوم. أمهما ما تزال بعد غير موجودة معهما، والعمة هانا بالكاد بادلتهما بكلمة. هما أيضًا لاذا بالصمت. استشعرا أنَّ خصوصية اليوم تفوق حتى خصوصية اليوم ما قبل البارحة. كل الأصوات الصادرة عن أكلهم وعن الشارع رنَّت جليّة واضحة، وإن بدت كأنها آتية من بعيد. كلٌّ منهما أبقى عينه على طبقه وتناول طعامه بمنتهى الحذر والخشية.

أول ما نطقت به العمة هانا بعد الفطور: «والآن تعالا معي، طفلاي»، ولحقا بها إلى الحمام. وهناك غسلت وجه ويديّ وذراعيّ كلٍّ واحدٍ منهما، خلف أذنيه، عنقه، وكل منخر من منخريه بالماء الدافئ والصابون، برفقٍ وعناية؛ ما أدخلت الصابون في عيني أيهما، ولا خدشت جلدهما بقماشة الغسل. بعدها أخذتهما إلى غرفة النوم وفتحت خزانة الأدراج وتناولت كل قطعة من ملابسهما، نظيفةً ناصعة، الداخلية والخارجية، وقالت لروفس أن يرتدي ملابسه وإن

أراد المساعدة فليطلبها منها، وراحت هي تُلبِس كاثرين. روفس كان قد بدأ يعي الرابط بين كل هذه الملابس واستحمامهما الليلة الماضية. حين ارتدى ملابسه الداخلية ناولته زوج جوارب أسود جديد وبدلة الأحد. وبينما كانت تساعد كاثرين على ارتداء جوربها، والذي كان أيضًا جديدًا لكن أبيض، رنَّ الهاتف وقالت، «اجلسا في مكانكما وكونا ولدين مطيعين. حالًا سأعود لكما»، واندفعت خارج الغرفة. سمعاها تقول، في صوتٍ عالٍ وبيِّن، من آخر الرواق، «ماري، أنا سأجيب»، تلاه خطى قدميها تتعجلان النزول على السلم. جلسا ثابتين دونما أي حركة، ينظران نحو الباب المفتوح، وحاولا الإصغاء. وجدا أنَّ بإمكانهما سماعها جيدًا لأن العمة هانا تتحدث على الهاتف مثلما تتحدث مع أخيها الأصم وزوجة أخيها الصمَّاء. سمعا: «هللو...هللو...نعم... أبتاه؟» وحين سمعاها تقول «أبتاه» كلٌّ نظر إلى الآخر نظرة فضول وتوجُّس. سمعاها «نعم...نعم...نعم... نعم، أبتاه... نعم... نعم، أقصى ما نأمله...نعم... نعم...شكرًا. سأبلغها...نعم... نعم... حسنٌ ممتاز... نعم...هايلاند أفنيو...نعم... نعم... أيٌّ...أي عربة إلى زاوية التقاطع عند تشيرش وغاي، ومن هناك إلى الهايلاند. أجل، ممتاز... نعم.. شكرًا لك... نحن في انتظارك...أجل...لا... أجل، أبتاه...أجل أبـ...ودا...نعم، أبتاه...شكرًا لك...ووو ـ ...نعم...شكرًا لك...وداعًا... وداعًا».

سمعاها تطلق زفيرًا طويلًا غاضبًا، وسمعا مفاصلها تطقطق وهي تسرع الخطى صاعدةً السلم. كانا جالسين تمامًا حيث تركتهما.

روفس قال في نفسه، لربما ستقول الآن كم نحن طفلان طيبان، لكن دونما كلمة واحدة أنهت إلباس كاثرين جوربيها. ناولت روفس قميصًا أبيض جديدًا والذي منه، على مهل، وفي دهشة، سحب الدبابيس، يمررها بين أسنانه، يرقب العمة هانا تساعد كاثرين على ارتداء ثوبها الجديد، والذي كان أبيض، منقطًا بزهور زرقاء، غامقة وصغيرة. كاثرين وقفت تمسك بحاشية الثوب، تتأمله وتتأمل قدميها المجوربين البيضاوين من أسفله. «والآن ربطة عنقك»، قالت العمة هانا. تناولت ربطة عنقه الزرقاء الغامقة وحركت يديها باحتراف أسفل ذقنه وبدوره حاول استراق النظر إلى يديها ورأى عينيها الثاقبتين خلف عدستي نظارتها السميكتين. عيناها بدتا صارمتين وحزينتين ومنهكتين.

من ثم نظفت أظافرهما ومشطت شعريهما، ودسّت منديلًا نظيفًا في جيب صدر بدلة روفس، وصبغت حذائيهما. «انتظراني دقيقة»، قالت لهما، وتركت الغرفة. سمعاها تطرق برفق باب أمهما.

«ماري؟».

«أجل»، سمعا صوتها خافتًا.

«الطفلان جاهزان. هل أحضرهما إليك؟».

«أجل، هانا؛ شكرًا لك».

«تعالا معي لنرى أمكما». قالت لهما من عند الباب.

لحقا بها.

«أوه، كم يبدوان وسيمين!» هتفت في صوتٍ غريبٍ جدًّا حدًّا ظن الطفلان أنها آسفة على كونهما وسيمين. لكن، مع ذلك، رأيا على وجهها أنها لم تكن آسفة. «هانا، شكرًا جزيلًا لك، لا أعرف ما كنت سأفعل...».

لكن هانا غادرت الغرفة وأغلقت الباب.

وقفا ينظران إليها في فضول. عيناها أوسع وأشد بريقًا من قبل؛ شعرها مسرَّحٌ بمنتهى العناية وكأنها ذاهبة إلى حفلة. كانت تضع إزارها وعبر فتحته الأمامية لمحا من خلفه ثوبًا باهتًا أسود. وجهها بدا مثل ملابس رمادية مطوية.

كانت ترقبهما ينظران إليها؛ ما تحرك أحدهما. وجهها تبدل كما لو أنَّ ضوءًا معتمًا استنار خلفه.

«تعالا إليَّ، حبيباي»، قالت، وابتسمت، وقرفصت تمد ذراعيها لهما.

روفس قدم إليها في حياء؛ كاثرين ركضت. كل واحدٍ منهما ضمته إليها بذراع.

«لا تقلقا حبيباي»، راحت تردد أعلى رأسيهما. «لا تقلقا، لا تقلقا طفلاي الحبيبان. ماما هنا. ماما هنا. كم أرادت ماما أن تراكما أكثر في الأيام الماضية؛ أكثر بكثير؛ لكنها ـ لكنها لم تستطع، حبيباي، روفس وكاثرين. لكنها لم تستطع». حين قالت «لم تستطع» ضمتهما إليها أقرب وأقرب وعرفا أنهما محبوبان. «صغيرتي كاثرين»

-وحضنت رأس كاثرين أقرب إليها- «فليبارك الرب روحها! وروفس» -أبعدته قليلًا عنها ونظرت إلى عينيه- «كلاكما تعرفان كم ماما تحبكما، من أعماق قلبها وروحها، طوال حياتها ـ أنتما تعرفان، أليس كذلك؟ ألا تعرفان؟» روفس، مرتبكًا لكن متأثرًا، أومأ في تهذيب، وثانيةً ضمته بقوة إلى صدرها. «طبعًا تعرف» قالت، كما لو أنها تخاطب أحدًا غيره. «طبعًا تعرف».

«والآن»، قالت بعد لحظة. نهضت وبيديها أخذتهما إلى السرير. جلسا عليه وجلست هي على الكرسي وراحت تنظر إليهما عدة ثوانٍ دون أن تقول شيئًا.

«الآن»، قالت ثانيةً، «أريد أن أخبركما عن بابا، لأن هذا الصباح، قريبًا جدًّا، سنذهب إلى بيت جدو ونانا، وسنراه مرةً أخرى، ونقول له الوداع». وجه كاثرين أشرق؛ أمها هزت رأسها ووضعت يدًا حانية على ركبتي كاثرين، قائلة، «لا كاثرين، لن يكون كما تتصورين، هذا ما أريد أن أخبركما عنه. لذا أصغي إليَّ جيدًا، وأنت كذلك روفس».

انتظرت إلى أن تأكدت أنَّ كليهما يصغيان إليها.

«كلاكما تفهمان ما جرى لبابا، أليس كذلك. أنَّ شيئًا حدث داخل الأطومبيل، والرب أخذه منا، سريعًا جدًّا، دونما أي ألم، ورفعه إليه في الجنة. أنتما تفهمان ذلك، أجل؟».

أومأا.

«وأنتما تفهمان أنَّ الرب متى ما أخذك بعيدًا إلى الجنة فأبدًا لن تستطيع العودة؟».

«*أبدًا* لن يستطيع العودة؟» كاثرين سألت.

مسَّدت شعر كاثرين بعيدًا عن وجهها. «لا كاثرين، أبدًا لن يعود، أبدًا لن نراه ونتكلم معه. لكن روح بابا ستظل دائمًا تفكر فينا، مثلما سنظل دومًا نفكر فيه، لكن، بعد اليوم، أبدًا لن نراه ثانية». كاثرين راحت تحملق إليها؛ وجهها بدأ يحمر. «عليك أن تتعلمي تصديق ما قلت، عليك أن تعرفيه، حلوتي كاثرين. لأن هذه هي حقيقة الأمر».

بدت ماري وكأنها على وشك البكاء؛ بلعت ريقها؛ وبدت كاثرين وكأنها تقبلت ما سمعته التو على أنه الحقيقة.

«لكننا دومًا ستتذكره»، أخبرت كليهما. «*دائمًا*. وهو سيفكر فينا. كل يوم. هو ينتظرنا في الجنة. ويومًا ما، إن كنا أبرارًا، ويأتي الرب لأجلنا، سيأخذنا معه إلى الجنة أيضًا وهناك سنرى بابا، ونعود معًا من جديد، أبد الدهور».

آمين، كاد يقول روفس؛ ثم أدرك أنَّ هذه لم تكن بصلاة.

«لكن حين نرى بابا اليوم، طفلاي، فروحه لن تكون هناك. هو جسد بابا وحسب. تمامًا كما اعتدتما رؤيته. لكن لأن الرب أخذ روحه، فسيكون راقدًا، في منتهى السكون، كما لو أنه نائم، لذا عليكما أن تظلَّا هادئين كما لو أنه نائم ولا تريدان إيقاظه. بل أهدأ حتى».

«لكني أريد إيقاظه»، قالت كاثرين.

«كاثرين، حلوتي، لا تستطيعين، وإياك حتى التفكير في إيقاظه. لأن بابا ميتٌ الآن، ومتى ما كنت ميتًا فهذا يعني أنك ستنام ولن تستيقظ أبدًا ـ إلى أن يوقظك الله».

«ومتى *سيوقظه* الله؟».

«لا نعرف، روفس، لكن ليس قبل مرور وقتٍ طويل، طويلٍ جدًّا من الآن. طويلًا جدًّا بعد موتنا جميعًا».

إذن ما الجدوى، تساءل روفس في نفسه، لكن أكيدًا ما كان ليسألها.

«لذا لا أريد منكما أن تحتارا، طفلاي. قد يبدو بابا غريبًا عليكما اليوم، لأنه ساكنٌ جدًّا، لكن - هي ذي الحال التي يجب أن يبدو عليها».

فجأة زمَّت شفتيها وبعنفٍ ارتجفتا. بكتفها الأيسر شدَّت على عظمة وجنتها، وبيديها المرتعشتين شدَّت على يديها، الدموع تنسل من جفنيها المطبقين. روفس نظر إليها مرتاعًا، كاثرين في قلقٍ يائس. فجأة همَّت «دقيقة»، مع عينيها ما تزالان مغمضتين، فجفلت كاثرين وانصدمت، وأوشكت على البكاء. لكن قبل أن يتسنى لكاثرين الانخراط في البكاء، يدا ماري ارتختا وضمتا يديها برفق، رفعت رأسها وفتحت عينيها، قائلة، «الآن على ماما أن تكمل ارتداء ملابسها، وروفس أريد منك أن تأخذ كاثرين إلى الأسفل،

وأريد من كليكما أن تكونا هادئين جدًّا وعاقلين جدًّا إلى أن أنزل إليكما. ولا تزعجا العمة هانا، لأنها كانت طيبة معنا كل تلك الأيام والآن هي مرهقة تمامًا».

«كونا طفليَّ الطيبين»، قالت، مبتسمة، تنظر إلى كل واحدٍ منهما على حدة. «سأنزل إليكما بعد قليل».

«تعالي، كاثرين»، قال روفس.

«أنا قادمة»، أجابت كاثرين، ترمقه كما لو أنه أساءا لتو إليها.

«ماما»؛ توقف روفس عند الباب. كاثرين ترددت، مرتبكة.

«أجل، روفس؟».

«هل نحن الآن أيتام؟».

«*أيتام*؟».

«مثل البلجيكيين»، قال يفسر لها. «مثل الفرنسيين. إن لم يعد لديك بابا أو ماما لأنهما قتلا في الحرب فأنت يتيم والأطفال الآخرون سيبعثون إليك بأشياء ويكتبون لك الرسائل».

لا بد أن الكلمة غريبة جدًّا عليها لأنها بدت وكأن عليها التفكر مليًّا قبل أن تجيب. ثم قالت «*بالطبع* أنتما لستما يتيمين، روفس، وإياك ثم إياك تكرر تلك الكلمة عن نفسك وتقولها للناس. هل سمعتني؟ لأنك لست يتيمًا. اليتيم من لا أب ولا أم لديه، ولا أحد يعتني به أو يحبه. هل فهمتني؟ لهذا السبب يبعث الأطفال الآخرون إليه بأشياء. لكن كليكما له أم. لذا فأنتما لستما

يتيمين. هل فهمتني؟ هل فهمت؟» أومأ لها؛ وكاثرين أومأت لأنه أومأ. «وروفس»، رمقته بنظرةٍ متفحصة؛ ولغير سببٍ واضح، شعر كما لو أنها وقعت عليه يخفي سرًّا مخزيًا. «إياك أن تأسف على عدم كونك يتيمًا. *كن حامدًا*. قد يبدو الأيتام محظوظين في عينيك لأنهم بعيدون جدًّا والكل الآن يتحدث عنهم. لكن كن واثقًا بأنهم، جميعًا، أطفالٌ صغارٌ تعساء. لأن لا أحد يحبهم. هل فهمتني؟».

خجلًا من نفسه أومأ لها، وفي سرِّه خاب أمله.

«هيا الآن عجِّلا»، قالت لهما، وغادرا الغرفة. عمتهما هانا التقتهما على السلم. «اذهبا إلى غرفة المعيـ...الجلوس وانتظرا فيها مثل أي ولدين عاقلين. سأنزل إليكما بعد قليل». مع وصولهما بادئة السلم سمعا صوت باب غرفة أمهما يفتح ويغلق. جلسا، يتأملان مقعد أبيهما، ويتفكّران.

إحساسٌ من الفضيلة تملَّك كاثرين وباتت أقل اضطرابًا مما كانت عليه الأيام الماضية، إذ رأت روفس يُوبَّخ أمامها، وحده، ما مسح عنها انزعاجها منه على تأمُّره عليها بأن تذهب معه وهي بالطبع كانت ستذهب، وحتى إن لم تكن ستذهب فليس من حقه أبدًا التأمر عليها. لكن ما كانت لتفهم كيف لأي شخصٍ أن يبدو نائمًا ولا يستيقظ، وشيءٌ آخر قالته أمها –حاولت جاهدة تذكره– أزعجها أكثر من أي شيءٍ آخر. وأيضًا ما هو *التيتم*؟

أحسَّ روفس بأن أمه كانت صدقًا غير راضية عليه. كان الوقت

الخطأ لسؤالها. ولربما ما كان يجدر به أصلًا سؤالها. لكنه حقًّا أراد أن يعرف. إذ لم يكن متيقنًا إن كان يتيمًا أم لا، أو إن كان ينتمي إلى النوع الصحيح من الأيتام. لأنه إن ادَّعى في المدرسة أنه يتيم ثم تبين أنه ليس بيتيم، فالناس سيضحكون عليه. لكن إن كان حقًّا يتيمًا فيريد أن يعرف، كي يتسنى له أن يقول إنه يتيم، ويستفيد. إذ ما الجدوى من كونك يتيمًا إن لم يعرف أحدٌ بذلك؟ حسنٌ، هو إذن ليس بيتيم. مع ذلك فأبوه ميت. لكن أمه ليست ميتة. أبوه وحسب. لكن أحدهما ميت. واحد وواحد يساوي اثنين. نصف الاثنين يساوي واحدًا. فإذن هو نصف يتيم، مهما تقول أمه. ولديه أخت نصف يتيمة هي الأخرى. نصف زائد نصف يساوي واحدًا مكتملًا. معًا يساويان يتيمًا مكتملًا. كونه نصف يتيم لا يستحق الذكر، رغم أنه في سره اعتبره أفضل بكثير من لا شيء؛ كذلك، هو لن يفصح عن الحقيقة التي توصَّل إليها، أنه وأخته معًا يساويان يتيمًا مكتملًا. لكن إن سخر أحدهم من أيٍّ منهما وادعى أنه ليس بيتيم على الإطلاق وقتها سيفصح عنها. قرر أنَّ عليه أن يحذر كاثرين حتى، في حال تعرض أحدهما للمضايقة، يساند أحدهما الآخر.

«نحن، معًا، أنا وأنتِ، نكون يتيمًا مكتملًا».

«هه؟».

«لا تقولي هه، قولي *عذرًا، روفس؟*».

«لن أقولها!».

«بل ستقولين. ماما من تقول».

«لا لم تقل».

«بلى تقول. كلما قلتُ هه قالت لي لا تقل هه بل قل *عذرًا ماما*؟ ومتى ما قلتِ أنت هه قالت لك نفس الشيء. لذا لا تقولي هه. قولي، *عذرًا*، روفس؟».

«لن أقولها لك».

«بل ستقولين».

«لا لن أقول».

«بلى ستقولين، لأن ماما قالت إنَّ علينا أن نكون ولدين عاقلين. إن لم تفعلي سأشي بك عند ماما».

«أخبرها وسأشي أنا بك».

«تشين بي؟ وما الذي فعلته؟».

«السمع عند الباب».

«لا لن تفعلي».

«بل سأفعل».

تفكَّر مليًا في الأمر.

«حسنٌ، *لا تقوليها*، ولن أشي بك إن لم تشي بي».

«سأشي بك إن وشيت بي».

«قلت لك لن أشي بك، ألم أفعل؟ لن أشي بك إن لم تشي بي».

«لن أمشي بك إن لم تمشِ بي».

«حسنٌ».

وكلٌّ حملق في وجه الآخر.

سمعا صوت خطىً ثقيلة تطأ الشرفة الأمامية. والجرس رن. في الأعلى سمعا أمهما تصيح «أوه، يا الله!» ركضا نحو الباب. صدَّ كاثرين عن مقبض الباب وفتحه.

رجلٌ واقفٌ أمامهما، يناهز في طوله قامة بابا، ياقته سوداء ساطعة مثل دكتور ويتيكر عدا أنه يرتدي صدرة أرجوانية. كان يعتمر قبعة مسطحة طويلة وذقنه طويلٌ حادٌّ ومزرق مثل المحراث. كان يحمل حقيبة سوداء صغيرة ولامعة. ومثلهما، بدا خائبًا ومرتبكًا. «أوه، صباح الخير»، قال لهما في صوتٍ يرجِّع الصدى، وعابسًا، رمق رقم البيت جانب الباب. «طبعًا»، قال لهما، في ابتسامةٍ لم يفهماها. «أنتما روفس وكاثرين. هل تسمحان لي بالدخول؟» ودون انتظار موافقتهما أو تراجعهما إلى الوراء (إذ كانا يصدان الباب) تهادى داخلًا، يفرقهما بعضهما عن بعض بيدين حازمتين قائلًا، «هل الآنسة لـ...».

من خلفهما سمعا صوت عمتهما تهبط السلم، والتفتا. «أبتاه؟» قالت، تحدق إلى الضوء الداخل من الباب. «تفضل»، أتت إليه، وخلع عنه بسرعة قبعته غريبة الشكل، وتصافحا. «روفس وكاثرين، هذا الأب جاكسون»، قالت لهما. «أتانا خصيصًا من شاتانوغا. أبتاه، هذا روفس، وهذه هي كاثرين».

«أجل، التو تعارفنا» قال الأب جاكسون، وكأنما تقصَّد أن يبدو مضحكًا. هذه كذبة، تأمل روفس. لوهلة، ترك الأب جاكسون يده على كاثرين ثم رفع يده وكأن كاثرين ما عادت تعنيه. «وأين هي السيدة فوليت؟» سألها شبه هامس، «السيدة فوليت».

«أرجو أن تنتظر لدقيقة، فهي ليست بعد جاهزة».

«بالطبع». مال نحو العمة هانا وأسرَّ إليها، يصر أسنانه، في صوتٍ بالكاد مسموع، «هل كان ـ مسـ - مسـ مسـ؟».

«أوه أجل»، أجابته هانا.

«لكن هل تعـ تعـتعـ؟».

«أخشى لا، أبتاه»، قالت هانا في وجوم. «أنا نفسي لست متيقنة كفاية لأخبرها. سامحني على تحميلك هذه المهمة لكني شعرت بأن عليَّ أن أتركها في عهدتك».

«وخيرًا فعلت، آنسة لينش. خيرًا فعلت». تلفت حوله، رأسه ينزلق، قبعته في يده. «والآن أيها الرجل الصغير، هلَّا تكرمت وأرحتني من قبعتي».

«روفس»، قالت هانا. «تناول قبعة الأب جاكسون وعلقها على مشجب القبعات».

مدهوشًا، فعل كما قالت. إذ ها هو مشجب القبعات هناك، أمام عينيه.

«والآن، أبتاه، إن كنت لا تمانع الانتظار دقيقة»، قالت هانا، تشير

إلى غرفة الجلوس. «روفس: كاثرين: اجلسا مع الأب جاكسون». ثم أردفت، «عن إذنك، أبتاه»، وهرعت صاعدةً السلم.

في خطىً واسعة، واثقة، ذرع الأب جاكسون غرفة الجلوس، وجلس على مقعد أبيهما، رفع ساقًا على ساق، ونظر، عابسًا، نحو طرف إبهام حذائه الأيمن المصقول بكل إتقان. جلسا يرقبانه، وتساءل روفس إن كان يجدر به إخباره لمن يعود المقعد. الأب جاكسون رفع كفه اليمنى الطويلة، كثيفة العروق، على امتداد ذراعه، يتفحص، عابسًا، أظافره. بالتأكيد ما كان ليجلس عليه، قال روفس في نفسه، لو كان يعرف لمن يعود المقعد، لذا خبثٌ منه ألا يقول له. لكن إن أخبره الآن فمن شأن هذا أن يشعره بعدم الارتياح. كاثرين لاحظت، في اهتمام، أنَّ خارج صدرته الأرجوانية تتدلى سلسلة ذهبية رقيقة؛ وعلى السلسلة معلق صليبٌ ذهبيٌّ صغير. الأب جاكسون بدَّل ساقيه، وتفحص، عابسًا، إبهام حذائه الأيسر المصقول بكل إتقان. خيرٌ لي ألا أقول له شيئًا، قال روفس في نفسه، سيكون خبثًا مني إن فعلت. كيف لك أن تحظى بوجهٍ أزرق كهذا، تساءلت كاثرين؛ أتمنى لو كان وجهي أزرق وليس أحمر. الأب جاكسون، عابسًا، راح يتلفت حول الغرفة ثم ابتسم، ابتسامة واهنة، ما إن استقرت نظرته على مكانٍ ما أعلى ووراء رأسي الطفلين. كلاهما استدار ليعرف علام يبتسم، لكن ما كان هناك من شيء سوى صورة يسوع حين كان يسوع ما يزال ولدًا صغيرًا، يسهر حتى وقتٍ متأخر في الليل، في قميص نومه، يتكلم مع كل أولاء الرجال الحكماء في المعبد. «أوه»، أدرك روفس؛ «لهذا السبب».

حين استدارا إلى الأمام وجدا الأب جاكسون عابسًا من جديد ينظر إليهما مثلما كان ينظر إلى أظافره. بسرعة ابتسم، وإن لم تكن الابتسامة ذاتها اللطيفة التي ابتسمها ليسوع، وتبدلت نظرته إليهما وما عادت تلك النظرة التي توحي وكأن فضولًا يعتريه إن كانا حقًّا نظيفين. غير أنه ظلَّ ينظر إليهما وكأنه غير راضٍ عن شيءٍ ما. كلاهما حدق إليه، يتساءلان في حيرة عن الشيء الذي يزعجه. هل بللت كاثرين سروالها، تساءل روفس؛ نظر إليها لكنها بدت على ما يرام. ما الذي يفعله روفس حتى ينظر إلينا الرجل بهذه الطريقة، تساءلت كاثرين. نظرت إليه، لكن كل ما كان يفعله هو التحديق إلى الرجل. كلاهما كان يحدق إليه ويتمنى لو كان حقًّا غير راضٍ عنهما فليقلها صراحةً عوضًا عن التحديق إليهما هكذا، كذلك ليته ينهض ويجلس على مقعدٍ آخر. نظر إليهما، تحديقهما الوقح فيه يقوض من نظرته التأملية الصامتة، والتي نوى بها إثارة إعجابهما وإدخالهما في حالةٍ من الوقار والتقبل لما ينوي قوله لهما؛ وتساءل إن كان يجدر به توبيخهما. بالتأكيد، قرر في نفسه، إن كانا يفتقران إلى التهذيب حتى في وقتٍ كهذا، فالآن هو الوقت المناسب.

«على الأطفال ألا يحدقوا إلى الراشدين»، قال لهما. «فهذا سلوك العوام».

«هه؟» كلاهما سأل. ما الذي يعنيه بكلامه، كلٌّ منهما تساءل في نفسه: «يحدقوا»؛ «راشدين»؛ «العوام»؟

«قولا، *عذرًا سيدي، أو أستميحك عذرًا، أبتاه*».

«سيدي؟» قال روفس.

«أنتِ»، قال الأب جاكسون لكاثرين.

«سيدي؟» قالت كاثرين.

«يجب عليك ألا تحدقي إلى الناس ـ تنظرين إليهم كما تنظرين إليَّ الآن».

«أوه»، قال روفس. وجه كاثرين انقلب أحمر.

«قل، *اعذرني، أبتاه*».

«اعذرني، أبتاه».

«أنتِ» قال الأب جاكسون لكاثرين.

ووجه كاثرين ازداد احمرارًا.

«اعذرني، أبتاه»، همس روفس.

«لا تلقنها، رجاءً» قاطعه الأب جاكسون، في طبقة صوت تليق بصفٍّ كبير. «هيا، أيتها الفتاة، الوقت لا يفوت أبدًا على تعلم السلوك القويم مثل سيدة صغيرة وسيدٍ صغير، أليس كذلك؟».

كاثرين لم تنبس بكلمة.

«أليس كذلك؟» سأل الأب جاكسون روفس.

«لا أدري»، أجاب روفس.

«أعتبر جوابك هذا جوابًا همجيًا على سؤالٍ متحضّر»، قال الأب جاكسون.

«نعم»، قال روفس، مغصٌ باردٌ قبض على أعماق بطنه. *همجيًا؟ ماذا يعني؟*

«تتفق معي إذن»، قال الأب جاكسون. «قل، نعم، أبتاه».

«نعم، أبتاه»، قال روفس.

«إذن أنت واعٍ إلى همجيتك. أنها متعمدة ومحسوبة»، قال الأب جاكسون.

«كلا»، قال روفس. هو لم يفهم الكلمات لكنه فهم أن الرجل يوجه إليه اتهامًا ما.

مال الأب جاكسون بظهره إلى الوراء في مقعد أبيهما وأغمض عينيه وضمَّ يديه. بعد لحظة فتح عينيه وقال، «بنيّ الصغير، بنيّتي الصغيرة» (يدفع بذقنه الأزرق الطويل نحو كاثرين) «هذا ليس بالوقت المناسب ولا المكان المناسب للتأنيب». فكَّ يديه المضمومتين؛ مال إلى الأمام، ينقر رضفة ركبته اليمنى بسبابته اليمنى، وعابسًا بحدة، قال في صوتٍ بدا رقيقًا لكن لم يكن. «لكني أريد أن أقول لكما...» وسمعوا هانا تنزل السلم. «طفلاي»، قال، ناهضًا عن المقعد، «على حديثنا أن ينتظر حتى وقتٍ آخر». وأشار بفكه إلى هانا، رافعًا حاجبيه.

«هلا تفضلت وصعدت معي، أبتاه؟» سألت في صوتٍ مكتوم.

دون أن ينظر ثانيةً إلى الطفلين، لحق بها.

كلٌّ التفت ينظر إلى عينيِّ الآخر، فاغر الفاه؛ يرهف أذنيه. وكما توقعا: زوجان من الخطى على مر الرواق العلوي، باب غرفة أمهما يفتح، صوت أمهما المحجوب على نحوٍ غريب، إغلاق الباب: الصمت.

كلٌّ حرص، بمنتهى الحذر، ألا يصدر صريرًا في انسلاله صاعدًا إلى منتصف السلم. لا أحد منهما سمع كلمة، فقط سرعة وشكل الأصوات: أمهما، في صوتها المحجوب، خانعة جدًّا، رقيقة جدًّا؛ كأنها تطرح الأسئلة وتتقبل الأجوبة. صوت الرجل متماسكٌ لطيف لكن يرنّ قوةً بمعرفته أنه محق ولا صوت آخر سواه محق؛ بدا كأنما يقول أشياء غير لطيفة وكأنها لطيفة، أو، مرةً أخرى، كأنما لا يكترث إن كانت لطيفة أم لا لأنَّ على كل حال هو محق، بدا وكأنه يصرِّح، يزود بمعلومات، أو يحاجج تساؤلات بأجوبة لا تقبل الجدل ولا تحتمل حتى النقاش، لكن تمنح السلوان سواء كانت حقًّا تحمل السلوان أم لا. بين آن وآخر يتناهى إليهما صوت أمهما تطرح سؤالًا وكأنما تتساءل إن كان أمرٌ ما عادلًا، حقيقيًّا، أو لربما حتى قاسيًا ووحشيًّا، لكن متى ما تناهى هذا الصوت عن أمهما فصوت الرجل سرعان ما يرنُّ قوةً أعظم ويستبد عليها، أو يحاول مواساتها، أو كليهما؛ وصوت أمهما التالي دائمًا ما كان سيأتي رقيقًا خاضعًا. صوت العمة هانا تناهى بيِّنًا ورقيقًا كما هو على الدوام، لكن فيه سمعا رنة عذوبةٍ وأسىً ما سبق لهما أن سمعاها في صوتها.

معظم الوقت بدا أنها توافق الأب جاكسون، تضيف صوتها إلى صوته وإن في نبرة أكثر لطفًا ورقة، في هذا الاستبداد الطاغي على أمها. لكن بين آن وآخر بدا وكأنها تشرح لأمها في إسهاب أكثر، في رقة أكثر، شيئًا فسَّره هو للتو، ومرتين طرحت سؤالًا أو اثنين مثلما تسأل أمها، لكن في عزمٍ وحدَّة، إما انفعالًا وإما مرارةً. وفي المرتين تبدل صوت الأب جاكسون وخسر شيئًا من ذبذبته ولدقيقة كان سيتعجل في كلامه كأنما يدور حول نفسه، يطمئنهما أنه بالطبع لم يقصد المعنى الذي ظنَّتا أنه يقصده، لكن (والصوت هنا كان سيستجمع نفسه) لا بد لهما أن تدركا (وها الصوت يوشك على استعادة كامل قواه واندفاعه) في الواقع، الحقيقة ـ وها قد عاد ثانية، يكرر من جديد ما سبق أن قاله لكن في سلطةٍ أقوى وتقبّلٍ أقل لأي نقاش. عمتهما هانا تدمدم موافقتها في صوتٍ غريب، باردٍ وناءٍ، وصوت قبول أمهما بالكاد يسمع.

بين الفينة والأخرى متى ما اهتاجت تلك الأصوات في نوبةٍ مكبوتة كلٌّ كان سينظر إلى عين الآخر البراقة الجامدة، تزداد بريقًا وجمودًا كلَّما اشتد صوت الرجل تعنتًا، كلما تعمَّق صوت أمهما هزيمةً وخنوعًا. لكن معظم الوقت ظلت عيناهما تحدقان إلى مقبض باب أمهما، يتزحزحان قليلًا على درجات السلم كلما تشنج جسداهما. كلٌّ عجز عن تصور حقيقة ما يُصْنع داخلًا بأمه، لكن كلٌّ بطريقته كان موقنًا أن أيًا يكن فهو حتمًا فعلٌ شرير، وهي خاضعة له بإرادتها دونما أي مقاومة، جاهلة تمامًا إلى أنها تُخْدَع. ما انفك روفس يرى نفسه يشرع الباب ويندفع داخلًا، مع

حجرٍ كبيرٍ في يده، صارخًا، «كفَّ عن إيذاء أمي». كل ما عرفته كاثرين أنَّ رجلًا غريبًا طويل القامة يرتدي الأسود من رأسه إلى أخمص قدميه، مع ذقنٍ مرعب وقبعة غريبة، رجلٌ تكرهه وتخافه، قد اقتحم بيتهم، رحبت به أولًا العمة هانا من ثم أمها نفسها، جلس على مقعد أبيها وكأنما البيت بيته، تحدث بلؤمٍ معها في كلمات عجزت عن فهمها، وها هو الآن يصنع أشياء قاسية وسرية بأمها بينما العمة هانا تقف متفرجة. لو كان بابا هنا لقتله. تمنت لو أنَّ بابا يتعجل القدوم ويأتي ويقتله وتمنت لو يقتله أمام عينيها. لكن روفس أدرك أنَّ عمته هانا وحتى أمه هما في صف الأب جاكسون وضده، وأنهما سيطردانه خارج الغرفة وسيعاقبانه عقابًا شديدًا وتعودان إلى مواصلة الشيء الفظيع الذي يفعلونه داخلًا. وكاثرين تذكرت، مخضوضة، أن بابا لن يأتي لأنه الآن في بيت جدو ونانا وأنهم سيرونه مرةً أخرى من ثم أبدًا لن يروه إلى أن يلتقوا به ثانيةً في الجنة.

لكن فجأة سمعا صوت صرير وخبطٍ رقيق والأصوات تبدلت. الآن صوت الأب جاكسون هو الصوت المسيطر بشكلٍ مطلق، أكثر سطوة حتى من ذي قبل، رغم أنه لم يبدُ لهما مجادلًا أو مصرِّحًا، أو حتى مواسيًا، أصلًا لم يبدُ أنه يخاطب أيًّا من المرأتين. كل طنينه المسرحي اختفى، حتى هيمنته اختفت. بدا وكأنه يخاطب شخصًا أكثر يقينًا وقوةً منه، تمامًا مثلما كان للتو أكثر يقينًا وقوة من أمهما، وفي صوته سمعا الخضوع الذي سمعاه في أمهما. ومع ذلك كله، ظلَّ صوتًا واثقًا، وكأنما موقنٌ أنَّ الشخص الذي يخاطبه سيتفق حتمًا

مع ما يقول ويوافق على تلبية طلبه، وأنه لن يصده وينتقده بقسوة كما فعل هو مع أمهما. وعلى نحوٍ ما، بدا في صوته هذا أكثر سلطةً من ذي قبل، وكأنما الأب جاكسون لا يتكلم وحسب عن نفسه بل كذلك نيابةً عن ذاك الشخص الذي يخاطبه، يتكلم بقوة ذاك الشخص في خضوعه البشري أمام ذاك الشخص. ومن الواضح، أيضًا، أنَّ الصوت يعشق سماع رنة نفسه، وحبه هذا لا ينفصل عن حبه صوت وشكل كل كلمة ينطقها، تمامًا مثل المطرب مَنْ سروره بصوته لا ينفصل عن سروره باللحن الذي يغنيه. ومن الواضح، رغم أن لا كلمة واحدة كانت جليَّة لدى الطفلين، أنَّ الصوت ليس مخطئًا في عشقه هذا. من حيث يراقبان ما كانا ليميزا كلمة واحدة، لكن الأشكال والقوافي والمقامات ما قلَّت جمالًا وإمتاعًا للنفس عن أي أغنية سمعاها من قبل. وبدأ روفس يدرك أنَّ اللحن العام لا يختلف عن الصلاة التي يلقيها دكتور ويتيكر؛ فأدرك أنَّ الأب جاكسون، هو الآخر، كان يصلي. لكن إن كان الدكتور ويتيكر يمنح كلماته وعباراته ثقلًا عاطفيًّا وصبغةً شخصية، وكأنما هي أمورٌ تتطلب المجادلة والإقناع، فالأب جاكسون يتلفظ كلماته خاليةً من العاطفة وبأوهى صبغة، كأنما العاطفة الشخصية، والألوان، نبذها كلها خارج الكلمات، فراحت تتردد منفيَّةً عنها، مثلها مثل الصدى. كان يتحدَّث وكأنما كل ما يقول، في كل فكرة وكل مقطع لفظي، هو نهائيٌّ، منتهٍ، مثاليّ، تجاوز الجدل منذ أمد طويل، قبل أن يولد حتى؛ كأنما الحقيقة والأبدية تقيمان في قوافي لغته وكفاف صوته ماءً عذبًا صافيًا؛ ومثل الغدير صوتُه تقبَّل هذه اللغة وحمل جريانها فيه. كلٌّ

نظر ثانيةً نحو الآخر؛ روفس رأى أنَّ كاثرين لم تفهم ما يجري. «هو يصلي»، همس لها.

هي لا فهمته ولا صدقته لكنها أدركت، مرتبكة، أنَّ الرجل بات لطيفًا الآن، وهي لم ترد منه أن يكون لطيفًا مع أمها، هي لم ترد منه أن يكون أي شيء، لأي أحد، في أي مكان. لكن بات جليًّا لهما أن الوضع في الداخل قد تحسن عما كان عليه؛ سمعاه في صوته، الفاتن والمقلق في ذات الآن، وسمعاه في صوت المرأتين، مَنْ بين الفينة والأخرى، متى ما توقف لالتقاط نفس، قاطعاه بكلمة أو كلمتين قصيرتين، ومرات قليلة بجملة كاملة. صوت كل امرأةٍ منهما رقيق، متقد، ميكانيكي، حدًّا ما سبق لأيٍّ من الطفلين أن سمعاه؛ ونأيهما هذا عن الإحساس البشري أقلقهما. أدركا أنَّ ثمة شيئًا أمهما وعمتهما الكبرى مكرَّستان له، شيءٌ يعطي صوتيهما هذا الاتقاد الفاتن، والذي يتجاوز كل حب يشعران به لأي أحد؛ وأحسَّا بأنهما لا يعنيان لأمهما وعمتهما قدر ما يعني لهما ذاك الشيء، لا هما ولا أي إنسانٍ آخر في هذا العالم. أدركا، إلى حدٍّ ما، أنَّ ذاك الشيء المكرستان له هو ليس الرجل الذي لا يثقان به، وإن كان متورطًا فيه حتى عنقه. ورغم شعورهما بأن وضع أمهما تحسَّن عما كان عليه قبل دقائق، فإنه، على نحوٍ آخر، استفحل سوءًا. إذ، على الأقل، وقتذاك كانت تسائله، حتى وإن في نبرة خنوعة. لكنها الآن مهزومة، مسلوبة، وانتقالها إلى الصلاة هي راية استسلامها. كلٌّ كان قد أطال التحديق إلى مقبض الباب بقلبٍ مغموم، يُقلِّب في روحه كل تلك الخواطر التعسة الملتبسة، حدًّا استحال فيه مقبض

الباب الأبيض الشيء الوحيد المتجلي في الكون حيث السديم الخفَّاق مرهف وصوت السكون عظيم؛ لذا ما كان غريبًا أنهما حين رنَّ جرس الباب ذعرا وانقبض قلباهما.

من ثم، في ذعرٍ لا يقل عن ذعرهما لحظة سماع الجرس، أدركا أنهما سيقبض عليهما جالسين على السلم. فهرعا نازلين، يحاولان يائسين عدم إصدار أي جلبة. الباب أعلاهما شرع على مصراعيه. هي لا تبصر، كلٌّ قال في نفسه (فهانا من غادرت الغرفة) لكن لحظتها كلٌّ أدرك: لكنها خير من يسمع على الإطلاق. درجةٌ صرَّت عاليًا من أسفلهما؛ الذعر تملكهما؛ وتحت وطأته واصلا نزولهما. «نعم»، نادت هانا بحدة؛ كانت قد بلغت السلم. الجرس رنَّ ثانيةً. ضجيجهما مع وصولهما الدرجة الأخيرة بات شنيعًا، لكن تحتَّم عليهما الاختفاء قبل فوات الأوان. تواريا بسرعة عبر باب غرفة الجلوس وراقباها تمرَّ بمحاذاتهما؛ كانا مجنونين حماسةً، ما يزالان يجرؤان على الأمل بأنها لم ولن تكتشفهما، وجامدين في قنوطهما أمام حتمية العقاب المريع والألم الجسدي الذي ستلحقه بهما.

هانا حتى ما التفتت خلفها: مضت مباشرةً نحو الباب.

كان السيد ستار. في العادة كان يرتدي بِدَلًا بُنيَّة وَبْراء مثل شاربه، لكن هذا الصباح جاء مرتديًا بدلة زرقاء غامقة وربطة عنق سوداء. مع دربية[1] سوداء حملها في يده.

(١) الدَّربيَّة: قبعة مستديرة، صيقة الحتار، وهي عادةً سوداء.

«والتر»، قالت العمة هانا، «أنت تعرف كم نقدر لك كل صنائعك معنا».

«أوه، أرجوك لا تقولي هذا».

«تفضل، أرجوك»، رحبت به. «حالًا ستكون ماري هنا. روفس، كاثرين، أنتما تعرفان السيد ستار...».

«بالطبع نعرف بعضنا»، قال السيد ستار، مبتسمًا لهما في عينيه البنيتين الدافئتين من خلف عدستي نظارته. وضع يده التي تحمل الدربية على كتف روفس والأخرى على وجنة كاثرين. «هلًّا أتيتما وجلستما معي، إلى أن تجهز أمكما».

مباشرةً سار نحو مقعد أبيهما، لكن حزينًا مال عنه، وجلس على كرسيٍّ آخر جانب الحائط.

«نحن سعداء بزيارتكما لنا»، قال لهما.

«هه؟».

«زيارتنا»، قال والتر. «أو ـ هل قالت لكما ماما أي شيء عن أنكما قد تزورونا عن قريب؟».

«هه؟».

«أوه، لا بأس، هناك الكثير من الوقت. هل سبق لكما أن سمعتما الغرامو فون؟».

«بالكاد تسمع شيئًا حين تفعل».

«إيه؟» بدا جدّ مرتبك.

«الخال آندرو يقول إنها مجنونة لمجرد التفكير في المحاولة».

«من؟».

«جدتي». لم يبدُ أبدًا على السيد ستار أنه رجلٌ غبي، لكن الآن خطر لروفس أنه لربما يعاني من ذاكرة ضعيفة مثل ذاكرة الأولاد عند الناصية. هل تراه يعمد إلى مضايقته؟ لكان غريبًا جدًّا لو أنَّ السيد ستار يريد مضايقته. في نفسه قرر أنه سيثق به. «تعرف، حين تتصل جدتي، كما قلتَ أنت».

تفكَّر السيد ستار للحظة ثم بدا عليه إدراكه لما يقصد. لكن لحظة أدرك راح يضحك، لذا حتمًا كان يعمد إلى مضايقته. وروفس جُرِح عميقًا في قلبه. لكن السيد ستار فورًا كفَّ عن الضحك وبدا مصدومًا من تصرفه.

«حسنٌ»، قال له. «أدرك الآن كيف اختلط على كلينا الأمر. أنت لم تسمع أبدًا بالشيء الذي كنت أتكلم عنه، والذي يبدو كثيرًا مثل *جدتك تتصل*[1]، هل سبق لك أن سمعت *جدتك تتصل*. اللبس واضح. لكن الغرامفون الذي أعنيه هو صندوقٌ جميل تنبعث منه الموسيقى. هل سبق لك أن سمعت الموسيقى تنبعث من صندوق؟».

«آها».

---

(١) الغرامفون «Gramophone»: يعود الالتباس إلى أن الشطر الأول من الكلمة (غرامـ) هي الجدة بالإنجليزية «gramma» والشطر الثاني هو (فون) يتصل باللغة الإنجليزية «phone».

«في بيتنا، صدق أو لا تصدق، لدينا صندوق تنبعث منه الموسيقى. هل تود سماعه يومًا ما؟».

«آها».

«ممتاز. سنحرص على سماعكما إياه قريبًا. والآن، هل تريد معرفة الاسم الذي يطلقونه على هذا الصندوق؟».

«آها».

«غرام - أو - فون. أرأيت؟ يبدو تمامًا مثل *جدتي تتصل*، لكن مع اختلاف جدًّا طفيف. غرام -أو - فون. هل بإمكانك قولها؟».

«غرام - آه - فون».

«ممتاز. هل لأختك الصغيرة أن تقولها؟».

«كاثرين؟ هو يعنيك».

«غران - ما - فون».

«غرامم - أو - فون».

«غرامم - ما - فون».

«ممتاز. أنت فتاة ذكية جدًّا لنطقك كلمة كبيرة مثل هذه».

«أنا دائمًا أنطق بكلمات *كبيرة جدًّا*»، قال روفس. «هل تريد سماع واحدة؟ الوحش البدائي المسيطر»[1].

(١) «The Dominant Primordial Beast»: عنوان الفصل الثالث في رواية «نداء البرية» للروائي جاك لندن

«أوه، هذا ذكاء خارق. لكن بالطبع لا أعني أذكى من أختك. فأنت ولدٌ كبير».

«أعرف، لكني قلت تلك الكلمة حين كنت في الرابعة. هي توشك أن تبلغ الرابعة من عمرها وأراهنك أنها لا تستطيع. هل تستطيعين، كاثرين؟ هل تستطيعين؟».

«أوه، ثمة أناسٌ يتعلمون أسرع من الآخرين. ومن الرائع أن تتعلم بسرعة لكن من الجيد أيضًا أن تأخذ وقتك». نهض عن كرسيه وسار نحو كاثرين وحملها ثم جلس مع كاثرين على حجره. رائحته طيبة تشبه رائحة أبيها وإن تظل رائحة أبيها أطيب، وعلى خلاف أبيها، هو رخوٌ من الأمام، لكن مع ذلك كانت سعيدة. «والآن، ما الذي تعنيه بالوحش البدائي المسيطر؟».

«وما أدراني، لكنها مثيرة ومخيفة».

«هل هي مخيفة؟ أجل، أظن أن لها رنة مخيفة. وبما أنك قادر الآن على نطقها، فعليك أن تكتشف معناها، في وقتٍ ما».

«وما *معناها*؟».

«لست واثقًا، لكني لا أقولها. وما طرأت مناسبة حتى أقولها». فتح ذراعًا واحدة وروفس، دون أن يعي لنفسه، سار إليه. الذراع التي ضمته ذراعٌ قوية وحنونة. «أنت ولدٌ طيب»، قال السيد ستار. «لكن ليس لطيفًا منك التفاخر على أختك».

«ماذا يعني التفاخر؟».

«التبجح بأشياء تستطيع أنت فعلها، وهي لا تستطيع فعلها بعد. هذا ليس بتصرف لطيف».

«لا، سيدي».

«لذا احرص ألّا تتفاخر عليها».

«حسنٌ، سيدي».

«لأن كاثرين أيضًا فتاةٌ صغيرة وطيبة».

«أجل سيدي».

«ألست فتاة طيبة، كاثرين؟» ابتسم لها وتوردت وجنتاها بهجةً. وفجأة، وجد روفس نفسه يحب كاثرين، يحبها كثيرًا، وابتسم لها، وحين ابتسمت له كلاهما غدا سعيدًا وفجأة ساوره الندم على مضايقته إياها.

«أريد أن أخبركما شيئًا، كليكما»، سمعا السكينة في صوت السيد ستار، وكلٌّ رفع عينيه إليه. «لن تفهما ما أقول الآن، لكن عليَّ أن أخبركما، لأن قلبي ممتلئ، وأنتما من أود البوح إليه. وربما ستتذكران لاحقًا في حياتيكما ما سأقوله لكما الآن. أريد أن أخبركما شيئًا عن أبيكما. لأنكما لم تحظيا بفرصة حقيقية تتعرفان فيها عليه. هل لي أن أخبركما؟».

كلٌّ أومأ له.

«بعض الناس يعانون من وقتٍ عصيب، عصيبٍ جدًّا في حياتهم. لا مال، لا تعليم جيد. بالكاد ما يكفي من طعام. لا شيء

مما تحظيان به هنا في بيتكما، لكن يملكون في حياتهم أناسًا طيبين يحبونهم. أبوكما بدأ هكذا. ما كان يملك شيئًا واحدًا. كان عليه أن يبذل قصارى جهده إلى أن قتله جهده، حرفيًّا، في سبيل الحصول على كل شيء يملكه.

«الكثير من الرجال العظماء بدؤوا حياتهم لا يملكون شيئًا. مثل إبراهام لنكولن. هل تعرفان من يكون؟».

«وُلِد في كوخٍ خشبي»، قال روفس.

«صحيح، وأصبح أعظم رجل حظينا به».

للحظة لم يقل شيئًا وتساءل الطفلان إن كان سيخبرهما شيئًا عن أبيهما.

«في الواقع، لم أحظَ بفرصة التعرف على جاي -أبيكما- كما تمنيت. ولا أظنه عرف كم أقدره وأحترمه. كان يعني لي الكثير، حتى أني لا أظن أن زوجتي وابني يعنيان لي ما كان يعنيه أبوكما، روفس وكاثرين». انتظر وهلة. «أنا عن نفسي رجلٌ عادي»، مضى يقول. «لست برجل سيئ. مجرد عادي. لكني دومًا رأيت في أبيكما إبراهام لنكولن. لا أعني أنه كان سيصبح رجلًا ذا شأنٍ عظيم. بل أعني، أنه مثل لنكولن، كان رجلًا بحق. ثمة أناس ينالون الحياة التي يتمنونها. معظمنا لا ينالها. لكن ما من رجلٍ شق طريقه ضد كل الاحتمالات الصعبة كما فعل أبوكما، ما من رجلٍ بذل جهدًا أعظم، وما من رجلٍ تشبث بنيل ما يريد كما فعل أبوكما. لا أعني الشأن العظيم. بل أعني كل ما هو خير. هو أراد حياةً طيبة، حياةً

يتعاطف فيها مع نفسه، ومع كل إنسانٍ آخر. ما كان هناك من رجلٍ أشجع من أبيكما، أو رجلٍ أطيب من أبيكما، ولا أكثر كرمًا منه. رجلٌ مثل أبيكما لا تجود به الحياة إلا نادرًا. كل ما أريد قوله لكما، إنَّ أباكما كان من خيرة الرجال الذين عاشوا على هذه الأرض».

فجأة أغمض عينيه بشدة خلف عدستي نظارته، وبلع ريقه؛ تنهيدةٌ باكية طويلة هوت منه. وفي وقار، في قلبين متأثرين، دنا الطفلان أقرب إليه، لا يدريان إن كانا يواسيانه أم يواسيان نفسيهما. «لا بأس، لا بأس، طفلاي» عيناه ما تزالان مغمضتين. «لا بأس طفلاي، لا بأس».

من الطابق العلوي، سمعوا صوت الباب يفتح.

الفصل الثامن عشر

الأسى والصدمة، عندما يتجاوزان وسع النفس على الاحتمال، يخلقان في المرء حالةً من الإرهاق، خدارًا بالكاد يشعر معه المرء بشيء فيظن واهمًا أنه مدركٌ لما يجري، واعٍ تمامًا لمعناه. ماري، في تلك الأيام، كلما تسنى لها التقاط أنفاسها، كانت ستجد شيئًا من السلوان في الخاطر الذي ما انفكَّ يراودها: على الأقل ها أنا أطيق احتماله. أنا واعية لما حدث، ها أنا أقف أمامه وجهًا لوجه، أتعايش معه. حتى أنَّ أحيانًا كان هذا السلوان سيشوبه إحساسٌ من الزهو، من السرور المبتئس: ها أنا أحمل على عاتقي حملًا ما حلمت يومًا أن لإنسانٍ أن يطيقه، لكن هأنذا أتعايش معه. وبالطبع خطر لها أنَّ ما حدث قد حدث لكثيرٍ من الناس، وأنه أمرٌ جد اعتيادي، فتتواضع حينها وتواسي نفسها بهذا الخاطر. تفكَّرت متأملة: ببساطة، هي ذي الحياة؛ لكن أنا من لم أعِ ذلك قبلًا. وتفكَّرت متأملة: الآن أنا عضوٌ ناضجٌ في العِرْق الإنساني؛ الولادة وتربية الأطفال، والذي بدا لها حملًا شبه لا يطاق، ما كان سوى تمرينٍ للمبتدئين. تأملت كيف

أنها أبدًا ما حظيت في حياتها بفرصة إدراك قوة النفس البشرية على احتمال ما لا تطيق؛ أحبَّت وحملت في قلبها الإجلال والتوقير لكل نفسٍ عانت على هذه الأرض، حتى تلك التي فشلت على الاحتمال. تأملت كيف أنها ما حظيت أبدًا بفرصة إدراك قدرة الله العليّ، إدراك رحمته في قسوة مشيئته. تفكَّرت كيف أنها وللمرة الأولى بدأت تعرف نفسها واستمدت أملًا عظيمًا من وقوفها على عتبة هذه المعرفة. تفكَّرت كيف أنها، بين ليلةٍ وضحاها، نضجت. ظنَّت أنها أمام هذا الامتحان قد أدركت كل ما يتطلب الإدراك في نفسها، وهكذا، عندما أزف الوقت، أخيرًا، على ارتدائها خمارها، مغادرة غرفة النوم التي تشاركتها مع زوجها، مغادرة بيتهما، والمضيّ إلى رؤيته للمرة الأولى مذ وفاته وتحمُّلها مواصلة النهار الطويل الذي سينتهي بمواراة جسده عن العين إلى أن يفنى هذا العالم، ظنَّت أنها قادرة ومستعدة. كانت قد رفضت «تجربة» خمارها؛ فمجرد فكرة تأمله على المرآة والتفكر إن كان مناسبًا أم لا هي فكرةٌ فاحشة؛ لذا حين أزف الوقت ودنت من المرآة وأسدلته على وجهها استعدادًا للذهاب، رأت نفسها للمرة الأولى مذ وفاة زوجها. دونما أية رغبة في رؤية وجهها، أو الاكتراث لما تبدو عليه، رأت أنه قد تغير؛ من خلف الخمار العميق الصافي، عيناها الرماديتان رأتا عينيها الرماديتين تريانها من خلف الخمار العميق الصافي. لا بد أني مصابة بحمى، قالت في نفسها، وجفلة إثر البريق الساطع في عينيها استدارت بعيدًا. كان حين بلغت الباب، حين أزف الوقت على قطعها عتبته، مغادرة الغرفة ومغادرة هذا الشكل من الوجود إلى الأبد، انصبَّ الإدراك عليها

غامرًا إياها، وباسترجاعها هذه اللحظة، يومًا ما، كانت ستعرف أنَّ كل ما مضى في حياتها، كل ما ظنت أنها اختبرته في حياتها وعرفته -الحقيقي منه وشبه الحقيقي، وإن كان كله حقيقيًّا- لا يساوي شيئًا مقارنةً بهذا. الإدراك تجلَّى دونما شكلٍ محدَّد في ذهنها، هو وحسب تركَّز في الفعل الجسدي لمغادرتها الغرفة، لكنه انصبَّ عليها بقوة، رُزْءًا وحشيًّا لا يطاق، في قلبها وروحها وعقلها وجسدها لكن أكثر ما شعرت به كان في رحمها، حيث وصل واستقر، حجرًا باردًا ضخمًا منبسطًا، أطلقت على إثره أنينًا غير مسموع، نفسًا صامتًا، *آآه*، والآه تضاعفت في الأعماق، يداها على بطنها، مفاصل ركبتيها تذوب.

هانا، الأصغر حجمًا منها، التقطتها وصاحت، «*أغلق ذاك الباب!*» وسيمر وقتٌ طويل قبل أن تدرك أيٌّ من المرأتين مدى امتعاضها من القس واحتقارها إياه، ومدى الشفقة التي أظهرتها كلٌّ للأخرى ببقائهما في الغرفة. الآن ما كانتا حتى واعيتين إلى وجوده معهما. هانا ساعدتها على الجلوس على حافة السرير وجلست جانبها تنادي عليها تكرارًا ومرارًا، في قلبٍ مفطور، «ماري، ماري، ماري، ماري. أوه ماري، ماري، ماري»، يدها العانس، النصف شفانية، ترتاح برقة على قذالها المحجوب بالخمار، ويدها الأخرى، تقبض بقوة على معصم ماري حدًّا تركت عليه رضةً زرقاء مثل السوار.

في هذه الأثناء ماري كانت تهز نفسها، أمامًا وخلفًا، من جانبٍ إلى آخر، في هدوء، تئنُّ في هدوء، من أعمق أعماق جسدها، ليس كما يئن بشري، بل كما الحيوان المجروح؛ أنينٌ خافت، أشبه بتهويدة، عدا

أنها ليست طنانة، بل تهويدة لا شكل لها ولا رائحة، الشقيقة في كل شيء، عدا في هدوئها، للصرخة المدوية، الغبية، الجؤار التي تنجب الأطفال. وبينما كانت تهز وتئن، الإدراك فيها بدأ يفقد تركيزه الأشد إيلامًا والأعمق اختراقًا: إذ انبثقت، من أعمق ظلماته الحالكة، مثل التجلي البطيء للريف مع انفلاق الصبح، كل تلك المُدْرَكات المنفصلة وقد تشكلت في صور، عواطف، خواطر، كلمات، التزامات: وهكذا، بعد ما لا يزيد على دقيقتين ما فتئت فيهما هانا تردد، «ماري، ماري، ماري» والأب جاكسون في عينين مغمضتين يصلي، سكنت للحظة، ثم نهضت بهدوء على ركبتيها، وفي صمت، رسَّمت الصليب، انتصبت، ثم قالت، «الآن أنا جاهزة».

لكنها ترنحت؛ وهانا قالت، «ارتاحي، ماري. لا داعي للعجلة»، والأب جاكسون قال، «ربما عليك الاستلقاء قليلًا»؛ لكنها قالت، «لا، شكرًا؛ أريد الذهاب الآن». وفي خطىً متقلقلة مضت نحو الباب، فتحته، وقطعت عتبته.

الأب جاكسون تناولها بذراعها، أعلى السلم في الرواق العلوي. ورغم محاولتها ألا تفعلها، إلا أنها بكل ثقلها اتكأت عليه.

«هيَّا، هلمَّا معي»، همست أمهما، تتناول كلًّا بيد، وقادتهما عبر الغرفة الخضراء في طريقهم نحو غرفة المعيشة.

وها هو هناك، مقابل المستوقد. وعدا ضياء الشمس المنسكب على الأرضية، بالكاد بدا أنَّ شيئًا آخر هناك سواه.

كان طويلًا جدًّا وقاتمًا؛ أملس مصقولًا مثل قارب؛ مع مقبضين ساطعين. النصف العلوي مفتوح. وثمة رائحة غريبة، رائحة حلوة، واهنة جدًّا حدًّا بالكاد تُدْرَك.

روفس ما اختبر قط في حياته سكونًا كهذا. أصواتهم الصغيرة، في اقترابهم من أبيه، تلاشت في الهواء مثل همسات الثلج الخافتة متى ما هوت على الماء.

هو ذا رأسه، ذراعاه؛ بدلته: ها هو ذا هناك.

روفس ما رآه قط في حياته يبدو على هذا النحو من اللامبالاة؛ لحظة رآه، عرف فورًا أنه أبدًا لن يراه خلافًا لهذه الحال. رأى في ملامحه دلالة واهنة على نفاد صبره، الذقن مشدودة قليلًا إلى الأعلى، كأنما يخفي اعتراضه على ياقة ضيقة جدًّا أو رسمية جدًّا. وفي إلحاح ذقنه الهادئ؛ في منحنيات تقطيبٍ ظلَّ محفورًا في جلده؛ في تقوس أنفه، وفي فمه القويِّ الساكن، رأى الكبرياء. لكن، أكثر من أي شيءٍ آخر، كانت اللامبالاة؛ وفي اللامبالاة هذه، المتشبثة بكل ذرة من وجوده - لا مبالاةٌ ترفضهم، ترسل بهم بعيدًا، عدا أنها لا مبالية حدَّ عدم اكتراثها إن بقوا أم مضوا - وفي هذا الاكتمال الذاتي الذي ما كان لشيءٍ أن يمسه، كان ثمة شيءٌ آخر، شعورٌ آخر ينبعث منه، شعورٌ عجز حتى عن تعريفه، إذ روفس ما اختبر قط في حياته إحساسًا كهذا؛ كان ثمة جمالٌ مثاليّ. الرأس، اليد، مكتملان، منيعان، حصينان: جامدان. يتحركان أعلى الوجود بمنتهى السكون مثل حجارة تحملها مياهٌ ليس لها من قاع.

الذراع مثنيَّة. ومن خارج البدلة الغامقة، خارج الكفَّة المنشاة، ينبثق الرسغ المشعر.

الرسغ مزْوِيّة؛ اليد مقوَّسة؛ لا إصبع من الأصابع تمس الأخرى.

اليد رابطة الجأش، لا مبالية وملوكيّة، ترقد على وسط جسده.

الأصابع، على نحوٍ غير اعتيادي، نظيفة جدًّا وجافة، وكأنَّها فُرِّكت بمنتهى الحرص.

اليد قوية جدًّا، والعروق فيها قوية.

المنخران مظلمان حالكان، ومع ذلك، لمح في منخرٍ منهما شيئًا أشبه بقطن.

على الشفة السفلى، على اليسار بشعرة من وسطها، خطٌّ أزرق صغير امتدَّ قليلًا حتى أسفلها.

وتمامًا، في تلك النقطة من ذقنه، علامةٌ زرقاء أخرى، مستقيمة ونظيفة وضيقة كأنما أحدهم خطَّها بقلم رصاص.

الخطوط التي ترسم أجنحة أنفه وفمه شبه تلاشت.

الشعر مسرَّحٌ بمنتهى العناية.

العينان لا مباليتان، في هدوء مغمضتان، الجفنان حريرٌ مسدلٌ على المقلتين، وحين أزاح روفس عينه بسرعة عن عيني أبيه إلى فمه تهيأ له وكأن أباه على وشك أن يبتسم. مع ذلك فالفم ما أبدى أي

دلالة على الابتسام ولا الوجوم؛ هي القوة وحسب، الصمت، الرجولة، والازدراء اللامبالي.

يراه اللحظة جليًّا، أوضح مما رآه عليه قط في حياته؛ مع ذلك وجهه بدا غير حقيقي، كأنما خرج للتو من عند الحلَّاق. الرأس بأكمله مشمَّع، واليد المثالية، هي الأخرى، وكأنها مصنوعة من الشمع.

الرأس مرفوعٌ على وسادةٍ من الساتان، بيضاء وصغيرة.

وفي الهواء ثمة شذا باهت، غامض، مثل رائحة قش نضر، مثل رائحة مستشفى، لكن ليس تمامًا مثل أيٍّ من الرائحتين، واهنٌ جدًّا جدًّا استعصى عليه حتى التأكد من وجوده.

كل هذا، رآه وعاشه روفس في غضون ثوانٍ، واللحظة بات واعيًا إلى أمه تحمل كاثرين كي يتسنى لها أن ترى بوضوح؛ فانزاح جانبًا. ومن لحظ عينه وعى إلى وجه أخته الزهري، يسمع زفير أنفاسها الرقيقة، بينما هو واقفٌ يتأمل أباه، يتأمل سكونه، قوته، وجماله.

كان في وسعه رؤية كل نقطة سوداء من كل شعرةٍ محلوقة من لحيته.

تأمل وجه أبيه المنحوت في غورٍ متسع بدءًا من جذر أنفه وصولًا إلى حافة شفته البيضاء.

تأمل الانبعاج الأكثر رقة أسفل شفته السفلى.

وإذ يصير غريبًا، مضجرًا، احتمال استلقاء أي إنسانٍ في هذا

السكون والثبات لوقتٍ طويل؛ كان يعرف أنَّ أباه أبدًا لن يتحرك ثانية؛ لكن حتى إدراكه هذا ما قلل شيئًا من غرابة جموده.

واللحظة، كل ما في دواخله، وخارجه، كل شيءٍ عدا أباه، صار جافًا، خفيفًا، غير حقيقي، ممسوسًا بدفءٍ ما، اندفاعٍ ما، عذوبةٍ ما، أشبه بخفقة قلب. لكن في هذه العذوبة الغريبة غير الحقيقية، في قلبها الغريب في طبيعته عن كل ما سواها كأنَّ كل ما عداها غير واقعي، يرقد أبوه المنحوت في وقار، مَنْ يده النبيلة تاق قلب روفس، في حياء، إلى لمسها.

«هيًا، روفس»، همست أمه، وركعوا؛ بالكاد يرى من أعلى حافة التابوت، رنا إلى اليد المثالية.

ذراع أمه طوقته؛ شعر بيدها على كتفه. دسَّ ذراعه حولها وشعر بيدها على كتفه تنبض بالحياة وأحسَّ بذراع أخته. لمس ذراعها العارية بحنان، وشعر بيدها تتلمس ذراعه وتمسك بها. وضع يده حول ذراعها وأدرك كم هي صغيرة، وأسفل إبطها أحسَّ بالعِرْق يخفق على العظم.

«أبانا» استهلت صلاتها.

وانضمًا إليها، كاثرين تنتظر الكلمات المتيقنة منها تخطر لها، وفي ترددها، أخفض روفس صوته حدَّ الصمت حتى يلقنها الكلمات؛ أمهما تتلو صلاتها في منتهى الرقة.

«أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لـــ».

«لتكن مشيـ...» روفس واصل، وحده؛ ثم تمهَّل، مرتبكًا.

«لتكن مشيئتك»، أمه قالت. «على الأرض» واصلت، تنطق الكلمات التالية في نبرة غريبة ألقت في روعه الرهبة والحزن؛ «كما هي في السماء».

«خبزنا كفـ...».

روفس كان أكثر حذرًا هذه المرة.

«خبزنا كفافنا أعطنا اليوم»، قالت كاثرين في ثقة.

«خبزنا كفافنا أعطنا اليوم» وها هو الإحساس يراوده من جديد أنَّ أمه تعني شيئًا آخر غير ما تقول، «واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا.

«ولا تدخلنا في تجربة؛ لكن نجنا من الشرير»، وهنا تركت أمهما يديها حيث هما على طفليها، لكن أحنت رأسها:

«لأن لك الملك والقوة والمجد»، قالتها في توكيدٍ حقود، «إلى أبد الدهور. آمين».

للحظات ظلت صامتة، وظل هو يرنو إلى يد أبيه.

«يا الله بارك لنا وأعِنَّا. يا الله أعِنّا على فهم مشيئتك، ومعرفة مشيئتك. اللهم أعِنَّا على وضع كل ثقتنا فيك، سواء فهمنا تدبيرك أم لم نفهم.

«يا الله أعن هذين الطفلين الصغيرين على تذكر أبيهما بخيره

وقوته وطيبته ومعزَّته، وكل الحب العظيم الذي حمله لهما في قلبه. اللهم أعنهما على أن يكونا كل ما كان خيرًا وصالحًا وطيبًا فيه، كل ما كان سيحب أن يراهما عليه حين يكبران لو أنك قدَّرت في حكمتك العظيمة ردَّ قضاء الموت عنه. اللهم دعنا نشعر، ندرك، أنه ما يزال يرانا ونحن نكبر، ونحن نعيش، أنه بعد ما يزال معنا؛ أنه لم يحرم من طفليه وكل ما أمله في حياته لأجلهما وكل ما أحبَّه فيهما؛ ولا هما منه. ولا هما منه.

«اللهم دعنا نعرف أنه ما يزال معنا، ما يزال يحبنا، يكترث لما يصيبنا، لما نفعل، أين نكون؛ *أتوسل إليك ربي*. يا الله...».

هذه الكلمات قالتها بحدة، وما قالت شيئًا بعدها؛ وروفس أحسَّ بأنها تنظر الآن إلى أبيه، لكنه ما حرَّك عينيه، أحسَّ بأنَّ عليه ألا يعرف ما هو متيقنٌ منه. بعد لحظات سمع صوت حركة شفتيها رقيقًا جدًّا على مسامعه ومرةً أخرى تذكر الصمت المهيب الذي فيه يتساقط الثلج على العالم بأسره، وأزاح عينيه عن اليد ورفعهما إلى وجه أبيه، الذقنُ الأزرق المعوج مدفوعٌ إلى الأعلى، اللحم غائرٌ خلف عظام فكه، وفي ثقل اللحم الغائر عرف أول ما عرف ما تعنيه الكلمة ميت. سريعًا أشاح بعينيه، وانشداهٌ جليلٌ وقع في روعه مثل رعد الناقوس، وبانشداهٍ سمع شفتي أمه الثلجيتين وتمنى من كل قلبه ألا تعاني أبدًا من الأسى بعد اليوم، ومرةً أخرى رنا إلى اليد، ما تزال بعد على ملوكيتها اللامبالية. والرغبة في لمسها استحوذت أكثر عليه، لكن إن كان قد خطر له سابقًا أنه لربما سيلمسها، لو تسنى له التواجد وحده معها، دونما يراه أحد أو يعرف بما يفعل،

فالآن بات واثقًا تمام الثقة أنَّ عليه أبدًا ألا يفعل. لذا راح يحدق إليها باذلًا أقصى جهده في محاولته تصيير النظرة لمسة؛ لكن لا شيء يذكر تأتّى من محاولته. أدرك أن يد أمه المستقرة على كتفه خاوية من أي إحساسٍ أو معنى. أحسَّ بيده، بذراع أخته، متعرقتين، فبدَّل يده، وحضنها برفق لكن دونما شفقة، شعر بيدها تنقبض على يده، واعتراه الحنان تجاهها لأنها ما تزال بعد صغيرة جدًّا على فهم ما يجري. للحظات، اليد استحالت مجرد غرض، وكل ما كان في وسعه سماعه هو أنفاس أمه تُردِّد «الوداع، جاي، الوداع. الوداع. الوداع. الوداع، حبيبي جاي، زوجي. يا الله، الوداع. الوداع».

والآن ما عاد يسمع شيئًا وما بات واعيًا لشيء إلا اليد، والتي أصبحت في عينيه مجرد غرض؛ وإذ يشعر بقوةٍ تضغط جمجمته من الأعلى، ومعها سمع صوتًا هادئًا لكن رخيمًا.

هل أمه ـ ها هي، رأى حاشية تنورتها، ناتئة من جانبٍ واحد؛ ورأى كاثرين، يدٌ ضخمة أيضًا على رأسها، وجهها صامتٌ ومذهول. ومن بينهما، خلفهما بقليل، فردتا حذاءٍ أسود مصقول، وبنطالٌ أسود مكويٌّ ومنشًّى، بلا ثنيتين.

«السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة النعمة»، قال الصوت؛ وأمه انضمت إليه؛ «الرب معك؛ مباركةٌ أنت في النساء، ومباركةٌ ثمرة بطنك يسوع.

يا قديسة مريم، صلي لأجلنا نحن الخطأة، الآن، وفي ساعة *موتنا*. آمين».

«أبانا الذي في السموات»، قال الصوت؛ والطفلان انضما؛ «ليتقدس اسمك» لكن على وقع تردد أمهما، توقفا، والصوت واصل: «ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك» قال الصوت، في دفءٍ متصنّع، «على الأرض كما هي في السماء. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا». كانوا قد رفعوا كل شيءٍ عن إطار المستوقد. «ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير» وهنا رفع يده عن رأس روفس ورسَّم الصليب على نفسه، وفورًا أعاد اليد، «لأن لك الملك والقوة والمجد إلى أبد الدهور. آمين».

ظل صامتًا للحظة. وروفس، يتلوى قليلًا أسفل اليد القاسية، تسنى له أن يسترق نظرة إلى الأعلى. فك القس كان صلبًا، وجهه جادًّا، عيناه مغمضتين بإحكام.

«ربّاه، تولَّ الطفلين البريئين، اليتيمين، بلطفك وحفظك»، قالها، مغمض العينين. *إذن نحن أيتام!* قال روفس في نفسه، وفورًا أدرك كم هو ولدٌ سيئٌ جدًّا. «احمهما من التجربة التي قد تغويهم إليها الحياة. حتى إن جاء الوقت الذي يفهمان فيه قضاءك الذي قدرته في حكمتك الغامضة، يسلمان بمشيئتك في إجلال. يا الله، نتضرع إليك أن يكونا دومًا، الطفلَ والطفلة، الصبيَّ والفتاة، الرجلَ والمرأة، اللذين أراد لهما هذا الرجل الطيب أن يكونا. رباه لا تدعهما يشوها ذكراه. ورباه، برحمتك العظيمة، اهدهما سريعًا إليك كي يريا فيك الآب المحب الحقيقي. دعهما يسعيان إليك، في السراء

والضراء، كما كانا سيسعيان إلى أبيهما الطيب الدنيوي، لو قدَّرتَ له أن يكون معهما. وليكونا، برحمتك العظيمة، طفلين مؤمنين، مسيحيين كاثوليكيين. آمين».

بعض قطع الآجر في المصطلى، والتي تلوح من أسفل حامل التابوت، تلك التي على الحافة، كانت زرقاء رمادية. كل قطع الآجر الأخرى كانت مخططة وملتهبة، صفراء محمرة.

الصوت تبدل، وراح يقول في نبرةٍ رقيقة: «فإن سلام الله الذي يفوق كل إدراك يحفظ قلوبكم وأذهانكم في معرفة الله وحبه، وفي المسيح يسوع»: يده ارتفعت ثانيةً عن رأس روفس، ورسَّم صليبًا عظيمًا أعلى رأس كل واحدٍ منهم قائلًا، «وفي بركة الله القدير، وليكن الآب، الابن، والروح القدس، دومًا بينكم، دومًا معكم».

«آمين»، قالت أمهما.

القس لمس كتفه، وروفس نهض. كاثرين نهضت. أبوهما لم ينهض. بالطبع لم ينهض، تفكَّر روفس، هو لم يتحرك، لكن بدا وكأنما تبدَّل. رغم رقاده في هذا السكون والجمال، في هذه الفخامة، فإنه بدا لروفس وكأنما رُميَ به حالًا في الشارع وتُركَ وحده، بدا مثل رجلٍ غريب بارع في التنكر. لوعةٌ مفاجئة من الأسى، من عدم التصديق، قبضت على قلبه، وكان على وشك الانحناء كي يلقي نظرةً أقرب حين أحسَّ بيدٍ رقيقة على رأسه، كانت يد أمه، هو يعرفها، وسمعها تقول، «هلمَّا، طفليّ»؛ وقادتهما إلى باب الردهة.

رأى البيانو، كان مغلقًا.

«أمكما الآن تريد البقاء هنا لدقيقة أو دقيقتين»، أخبرتهما. «ستنضم إليكما حالًا. لذا اذهبا مباشرةً إلى الغرفة الشرقية برفقة العمة هانا، وانتظراني هناك».

لمست وجهيهما، وبلا أي صوت أغلقت الباب خلفها.

لدى مضيهما نحو الغرفة الشرقية أدركا أنهما ليسا وحدهما في الردهة المظلمة. آندرو كان يقف عند مشجب القبعات، متشبثًا بالدرابزين، عيناه المتجهمتان، الباكيتان، الساطعتان غضبًا، اخترقتا جذور روحيهما كما الدلاة الجليدية، فهرعا إلى الغرفة حيث تجلس عمتهما الكبرى ثابتة في الكرسي الهزاز مع يديها على حجرها، الضوء المعتم يغشي عدستي نظارتها، ويلمع كما الصقيع على شعرها.

سمعا خطى أقدام على السلم الأمامي، وعرفا أنه جدهما. سمعاه يستدير نحو الردهة من ثم سمعا صوته المكبوت، المتفاجئ: «آندرو؟ وأين بولي؟».

من ثم صوت خالهما، باردًا، قريبًا من أذنه: «هناك ـ مع ـ الأب ـ جاكسون».

«هه!» سمعا جدهما يدمدم. عمتهما هانا هرعت نحو الباب.

«يصليان».

«هه!» دمدم ثانيةً.

بسرعة أغلقت عمتهما هانا الباب، وهرعت عائدة إلى كرسيها.

لكن رغم كل عجلتها هذه، فكل ما فعلته لاحقًا هو العودة

والجلوس على كرسيها مع يديها على حجرها تحدق إزاءها عبر عدستي نظارتها السميكتين، وكل ما كان بيدهما فعله هو الجلوس في هدوء أيضًا، والتحديق في الستائر المخرمة النظيفة على النافذة، في شجرة المغنوليا وشجرة الخرنوب في الفناء، في جدار البيت المجاور، في أبو الحناء السمين يقتات طعامه من على المرجة إلى أن طار بعيدًا، في الناس العابرين بين الآن والآن على الممشى المشرق، في العربات والأطومبيلات العابرة بين الآن والآن على الشارع المشرق. ساورهما إحساسٌ مبهم بطهارتهما ونقائهما، غريبين في حرصهما على نظافتهما ونظافة ملابسهما، وبدا لهما كأنما البيت، في قلب هذا العالم السهل المشرق، مغمورٌ في الظلال والكل يمشي فيه على رؤوس أصابعه. حين سئما من النظر إلى تلك الأشياء، نظرا إلى عمتهما هانا، لكن ما بدا عليها أنها واعية إلى نظرهما إليها؛ وحين لم يجدا ردة فعلٍ من عمتهما هانا نظرا بعضهما إلى بعض. لكن ما وجدا قط في نظرهما بعضهما إلى بعض أي متعة أو اهتمام، وما اختلف الحال اليوم. كل ما رآه أحدهما في الآخر أنه نظيفٌ جدًّا، وكلٌّ أدرك مع تدقيقه النظر إلى الآخر، أنه هو نفسه نظيفٌ جدًّا، وأنَّ خطبًا ما وقع يستلزم من كليهما الحرص الشديد على الالتزام بآداب السلوك، وبالذات التهذيب، حدًّا لم يتصورا شيئًا يفعلانه يجسد تهذيبهما سوى الجلوس في مكانيهما صامتين دونما حركة. لكن رغم جلوسهما ثابتين في مكانيهما، لا شيء يركزان فيه اهتمامهما سوى بعضهما بعضًا، كلٌّ رأى الآخر، ولربما لأول مرة، واضحًا جليًّا على هذا النحو؛ وكلٌّ شعر بالخجل وعدم الارتياح على ما

رآه. روفس رأى طفلةً أصغر منه بكثير، وجهها مرتبك، مستدير، أحمر وغاضب، وساوره أسفٌ عليها وعلى الحيرة والوحدة التي شعر بأنها تائهة فيها، لكن أكثر من ذلك، كان منزعجًا من نظرة الغضب المكبوت هذه ونظرة عدم استيعابها لما يجري وراح يردد في نفسه تكرارًا ومرارًا: «ميت. هو ميت. هذا ما هو عليه؛ هو ميت»؛ والغرفة حيث يرقد أبوه بدت هوةً جوفاء لا قرار لها، هوةً في قلب البيت، في قلبه هو، كما لو أنه واقفٌ في الظلمة على حافة هاوية، يستشعر من أسفله هذا المدى السحيق من الظلمة؛ ومتأملًا وجه أخته رأى وجه أبيه، مثلما رآه للتو، وعاد يردد في نفسه: «ميت، ميت»؛ وفي امتعاضٍ وقنوط نظر إلى وجه أخته، والذي كان مختلفًا جدًّا، يتوهج أحمر غاضبًا، غافلًا تمامًا عمَّا يجري. وكاثرين رأته مثبّتًا في الصندوق الطويل مثل دميةٍ ضخمة صامتة، دمية لا تبتسم ولا تتزحزح، شذا رائحته حلوة ومخيفة، مَنْ لأجله هي جالسة الآن وحدها متيبسة ونظيفة جدًّا، لا أحد لطيفٌ أو فاتنٌ معها، وكل شيءٍ يسير على رؤوس أصابعه، وبإرادة أمها رجلٌ تخشاه وتكرهه وضع يده الضخمة على رأسها وراح يتمتم كلامًا غير مفهوم. أمرٌ سيئٌ جدًّا وقع، ولا أحد بدا مهتمًّا كفاية كي يخبرها عنه أو يساعدها أو يحبها أو يحميها منه وها هو ذا أخوها النظيف جدًّا، من دومًا ظنَّ نفسه أذكى منها، ينظر إليها نظرة ازدراءٍ وكره.

لذا بعد برهة أطول من تحديق كلٍّ إلى الآخر بعينين باردتين، عادا إلى تأمل الفناء الجانبي وما وراء الشارع، يحاولان إثارة اهتمام نفسيهما فيما يريانه، نسيان الشيء القابض بقوة على أفكارهما، وقمع

تململهما الجسدي نأيًا بنفسيهما عن أي انتقاد؛ ومتى ما أرهقا من النظر إلى تلك الأشياء عادا مرة أخرى ينظران إلى عمتهما، من بدت، مثل أبيهما، بليدة غافلة عن وجودهما؛ ومنزعجين من نظرتها، كانا سيستديران ثانيةً نحو الفناء والشارع، على صفحتهما يتحرك ضياء الشمس على مهله. وهناك رأيا الأطومبيل تقترب والسيد ستار مسرعًا يترجل منها، ونحو البيت يمشي على مهله.

الفصل التاسع عشر

لدى عودتهما مع السيد ستار، لاحظ روفس رجلًا يقطع الممشى ويلتفت خلفًا إلى بيت جده، في الحال أشاح الرجل بوجهه، وفي الحال عاد والتفت، وفي الحال عاد وأشاح بوجهه.

رأى عدة عربات بوجيّة وأطومبيلات، ساكنة وخاوية، مركونة على مدِّ الجانب المقابل من الشارع، ماعدا الفسحة أمام البيت والتي تركت شاغرة. البيت بدا أجرد، متبدلًا، وصامتًا، زواياه بالذات بدت قاسية وجليّة؛ وعلى جانب الباب الأمامي علقوا أنشوطة، زهرةً معقودة ضخمة مع راية مثلثة من القماش الأسود. الباب الأمامي فُتِح قبل أن يُلْمس وهناك وقف خالها آندرو وأمها ومن خلفهما الردهة المظلمة، والكل غمرته تلك الرائحة المدوخة المغثية، والكل فوجئ بموجٍ من الحركة يندفق عليهم عارمًا محتشدًا. سرعان ما ابتلعتهم ظلمة الردهة، والرائحة المغثية المجهولة باتت معروفة، كانت رائحة الأزهار، وموج الحركة العارم الذي انصب عليهم كان الناس الذين يحتشد بهم البيت. اختبر روفس حدسًا طاغيًا

بوجود خطرٍ محتمل على يمينه، وبسرعة اختلس نظرةً إلى الغرفة الشرقية، ورأى أن حُجُب كل النوافذ، عدا واحدة، قد أسدلت، وفي ذاك الضوء البارد الآتي عبر تلك النافذة الوحيدة احتشدت الغرفة بأخيلة معتمة تربض مسحوقة الفؤاد على حواف الكراسي، مثقلة وبدائية مثل دببة في وهد؛ وبينما كان ينظر إليهم سمع أنينًا ينبعث، أنينًا خفيضًا عظيمًا، يرافقه أنينٌ أعلى، وهذا الأنين استثار عويلًا خفيضًا وعويلًا أعلى، وإذ يرى خيال امرأة تنهض فجأة وفي عويلٍ منتحب تجأر وتشد الشعر من صدغيها، يداها تتطوحان بقوة في الهواء نحو وجنتيها وبعيدًا عن وجنتيها: لكن لحظتها هرع آندرو وفي سرعةٍ وحشية يائسة ودونما ينبس بكلمة صفق عليهم الباب، ليعيَ روفس أنَّ خطى قدومهم والعويل قد سبب جلبةً على يساره، وفي نظرة خاطفة وثاقبة نحو الغرفة المشرقة حيث يرقد أبوه، رأى حشدًا كثيفًا مذهلًا من الناس في ثياب رصينة جالسين على كراسٍ واهنة صريرها كما الأنين، منهم من التقت عيناه بعينيه، منهم من نظر عبره، منهم من أشاح بعينيه محاولًا التظاهر كما لو أنه لم يتلفت للتو حواليه.

«لا بأس آندرو»، همست أمه. «افتح الباب. أخبرهم أننا سننضم إليهم، في دقيقة». وقادت الطفلين بعيدًا في أعماق ظلمة الردهة حيث لا يتسنى لأحد أن يراهما عبر أيٍّ من البابين، وهمست إلى والتر ستار، «بابا في الغرفة الخضراء، وماما معه. شكرًا لك والتر».

«أرجوك، هذا واجبي»، قال والتر وهو يسير جانبها؛ يده تحوم قريبًا من كتفها، وفي هدوء مضى عبر الباب نحو غرفة الطعام.

«الآن، طفلاي»، أمهما قالت، تحني وجهها أعلاهما، «كلنا سنذهب إلى رؤية بابا، مرةً أخرى وحسب. لكن لن يتسنى لنا البقاء، هي نظرة واحدة وحسب. من ثم ستريان جدتكما فوليت، دقيقة وحسب. من ثم السيد ستار سيصحبكما مرةً أخرى إلى بيته وماما ستراكما لاحقًا بعد الظهيرة».

آندرو دنا منها وأومأ بحدة.

«حسنٌ، آندرو»، قالت له. «هلمّا، طفلاي». وفجأة مدت يديها نحو قمة جمجمتها وأسدلت الخمار وعبر ظلمته رأيا وجهها وعينيها. تناولتهما بيديها، وهامسة قالت لهما، «تعالا مع ماما».

العم هوبيرت كان هناك في بدلته الغامقة؛ نظيفًا جدًّا وزهريّ ووجهه مليءٌ بالخطوط الصغيرة. فورًا نظر إليهم وفورًا أشاح بعينيه. السيدة ستورز العجوز كانت هناك والآنسة آيمي فيلد والآنسة نتي فيلد والدكتور ديكالب والسيدة ديكالب والعم جوردن ديكالب والخالة سيليا غن والسيدة غن ودان غن والخالة سارة إلدريدج والخالة آن تايلور، والعديد العديد غيرهم ممن لم يسبق للطفلين أن التقيا بهم من قبل، والكل بدا كأنما يحاول جهده ألا ينظر إليهما كما لو أنهم جميعًا يتشاركون سرًّا ويهينهم سؤالهم عن الإفصاح به؛ وها هي أمامهما، أضخم ركام أزهار رأياه في حياتهما، أزهارٌ من كل الأنواع، طويلة وفخمة ونضرة، حمراء صفراء، بيضاء منشاة، وورودٌ غامقة وبيضاء، سرخس، قرنفل، أوراق غارٍ مصقولة وعظيمة، كلها في أكاليل معقودة بشرائط من الأسود والفضي والذهبي

الساطع والذهبي المعتم، خانقة في عبيرها الفوّاح؛ وهناك، مخفيٌّ تقريبًا بين تلك الأزهار، التابوت قائم، وإلى جانبه، رجلان غريبان واللذان، ما إن دخلا الغرفة برفقة أمهما، حتى استدارا بعيدًا وفي الحال جلسا؛ والآن رجلٌ غريب في معطف أسود غامض يسير نحو أمهما في رشاقة صامتة، عيناه تلمعان مثل حلوى هلامية سوداء، وفي إيماءة كيّسة قادها أمامًا ووقف في زهو وتواضع عند أحد جانبي التابوت؛ ومرةً أخرى ها هو بابا.

ما تزحزح قيد أنملة؛ مع ذلك شيءٌ فيه تبدل. وجهه بدا أكثر نأيًا وأكثر اعتيادية وكأنما أُزهق، أو سئم؛ لم يبدُ ضخمًا كما كان عليه في حياته، وشذا الأزهار كان قويًا حادًّا وحركة المعزين محتشدة بالأرواح ومنتشرة، حركة نفّاذة مركَّبة من الكبت وآداب السلوك، وفورًا شعرا بروحيهما تنوءان أسفل قوة كل تلك الأعين تنصبُّ عليهما، حدًّا باتا يريان أباهما جامدًا وكأنما يريانه في صورة له، أو في صورة مستبدلة منه، وبالكاد وعيا إلى وجوده وبالكاد اكترثا. وبينما ظلا يتأملانه، يتفكران في فضولهما الخاوي، شعرا بيدٍ تسحبهما بعيدًا، وسارا مع أمهما متجاوزين البيانو المغلق نحو الغرفة الخضراء. وهناك رأوا جدو ونانا والخال آندرو والخالة إميليا والعمة هانا؛ وفي الحال نهضت نانا وضمت أمهما بين ذراعيها تربت بيدٍ عطوفة على كتفيها، وجدو نهض، هو الآخر؛ وبينما كانت نانا تنحني وتعانق وتقبّل كلًّا منهما، قائلة «عزيزاي، عزيزاي» في صوتٍ شبه عالٍ وخارج عن السيطرة، لمحا رأس جدهما الرشيق والمتهكم يعانق أمهما، وأدركا أنه ليس طويلًا كما هي أمهما؛ ثم في

حياء وقفت خالتهما إميليا مع مرفقيها ناتئين. وبينما كانت أمهما تقودهما خارج الغرفة التفتا وراءً عبر الباب ورأيا أنَّ الرجل في المعطف الطويل مع رجلٍ غريبٍ آخر كانا قد أغلقا التابوت، وفي منتهى الهدوء والعجلة، بالبراغي أطبقاه.

والتر ستار وقف وسط الردهة، مرتبكًا كما لو أنه لا يعرف ما يفعل. أمهما سارت إليه مباشرة.

«كلنا جاهزون الآن، والتر»، قالت أمهما. وفي حياءٍ شديد أومأ وتنحى خطوة جانبًا حتى تتحدث مع الطفلين.

«حان وقت الذهاب الآن»، قالت لهما. «ستعودان إلى بيت السيد ستار كما أخبركما هذا الصباح. وستقضيان وقتًا لطيفًا في بيته لذا كونا ولدين مهذبين وهادئين والسيد ستار سيحضركما إلى ماما لاحقًا بعد الظهيرة». شدَّت ياقة كاثرين الصغيرة، إذ كانت ذابلة. «والآن، وداعًا»، قالت لهما. «قبل أن ينقضي وقتٌ طويل ستعود ماما وتراكما». وبقبلةٍ رقيقة لثمت وجنة كل طفلٍ من طفليها.

قبل أن ينقضي وقتٌ طويل، الآن؛ قبل أن ينقضي وقتٌ طويل.

مضيا في هدوءٍ شديد متجاوزين باب غرفة المعيشة والشرفة الأمامية الخرساء وأسفل الدرجات حدًّا شعر روفس بأنهما ينسلان خارجًا مثل لصَّين.

وحين كادا يصلان بيت السيد ستار، فجأة انعطف السيد ستار بأطومبيله في منعطفٍ خاطئ، وآخر، وآخر، ثم قال للطفلين،

«أظنكما ستريدان رؤيته. ربما لا، لكن متى ما كبرتما أظنكما ستسران أني أعدتكما». وقاد الأطومبيل بسرعةٍ أكبر عبر الشارع الخلفي الصامت، الخاوي؛ ثم انعطف مرة أخرى، يدنو بمنتهى البطء والهدوء من الناصية، قبل أن يتوقف.

كانا في الشارع الجانبي، مقابل بيت الدكتور ديكالب، مقابل ناصية الشارع والفناء العريض. كان في وسعهما رؤية بيت جدهما وكل ما كان يجري فيه، وعرفا بأنهما بعيدان عن الأنظار. كان هناك ستة رجال، خالهما آندرو، عمهما رالف، عمهما هيوبرت كاين، عمهما جورج بايلي، والسيد درايك، ورجلٌ لم يرياه أبدًا من قبل، يسيرون حاملين صندوقًا طويلًا رماديًا ولامعًا، من مقابضه، في منتهى الحرص وعلى مهل، أسفل درب البيت القرميدي المفضي إلى الشارع، وأدركا أنَّ هذا هو الصندوق حيث يرقد أبوهما، وأنه لا بد ثقيلٌ جدًا. قامات الرجال كانت متمايزة، خالهم آندرو، من كان طويلًا، والعم جورج بايلي، الأطول حتى منه، وجب عليهما ثني ركبتيهما قليلًا، بينما عمهما هيوبرت، الأقصر بينهم، كان عليه أن يشد جسده إلى الأعلى ويميل جانبًا. ومن خلفهم، في ركبٍ أبطأ، خرج جدهم، وامرأةٌ طويلة محجوبة تمامًا في خمارها الأسود، والتي من طول قامتها ورشاقتها عرفا أنها أمهما؛ وخلفها تمامًا، مع العمة جيسي على جانب والأب جاكسون على الجانب الآخر، خرجت امرأة أخرى، محجوبة تمامًا في خمارها الأسود، والتي من قصر قامتها ومشيتها العرجاء عرفا أنها جدتهما فوليت. ومن خلفهم خرجت نانا والعمة هانا، والعمة سالي والخالة إميليا، والخالة سيليا غن والسيدة

غن والآنسة بس غن، والسيد كاين، والآنسة آيمي فيلد والآنسة نتي فيلد، والدكتور ديكالب والسيدة ديكالب والعم جوردن ديكالب؛ والشرفة ودرجات الشرفة اكتظت بأناس في ثيابهم الغامقة، منهم مَنْ وجوههم ومشيتهم تبدو مألوفة لكن يجهلان أسماءهم، ومنهم مَنْ هما ليسا واثقيْن إن التقيا بهم قط، والمزيد والمزيد منهم خرجوا يدلفون في بطءٍ شديد عبر الباب الأمامي ونحو الشرفة. وأعلى منحدر التل جانب البيت، ما وراء الشرفة، اصطفت أطومبيلٌ سوداء لامعة، رجلان صغيرا الحجم، سريعان، في ملابس سوداء، راحا يهرعان بين البيت والعربة، يحضران من البيت ملء ذراعيهما من الأزهار الزاهية، ويحمّلونها في الأطومبيل. وهناك، أمام المرقاة الأمامية، وقف الرجل صاحب المعطف الطويل والذي قادهم إلى التابوت، يؤشّر في إيماءةٍ مهيبة، وها هي ذا، صندوقٌ طويلٌ أسود ضيق من الستائر السود البراقة والزجاج الأسود تجرها ثلاثة خيول سود لامعة وحصانٌ بنيٌّ أحمر، جرَّتها عدة أقدام إلى الأمام، ثم قدمًا أخرى، إلى أن تجاوز مؤخر العربة الأسود اللامع المرقاة بخطوات؛ واللحظة، حاملو نعش أبيهم يقفون مترددين عند المرقاة، والرجل صاحب المعطف الطويل أومأ بكياسة لدى استدارته، وفتح دفَّتي الباب الخلفي اللامع للعربة الطويلة الحالكة، وهكذا في منتهى الحرص ومنتهى الصعوبة شق حاملو النعش طريقهم عبر المرقاة الضيقة، محشورين حذرين، ووقف هو جانب دفَّتي الباب وبدا كأنما يخاطبهم ويرشدهم بإيماءات يديه؛ وما لبث الرجال حاملو أبيهما الثقيل، بينما أمهما وأبوها يقفان مترددين أعلى المرقاة ومن

خلفهما كل هذا الطابور الأسود من المعزِّين مترددين مثلهما، أن رفعوه كما لو أنَّ شاقًّا عليهم رفعه، وفي حذر لكن في عناد شديد وجهد جهيد، في وكز ونخع تبجيليّ، دفعوا بالنعش بقوة وعميقًا في العربة السوداء بحيث ما عاد يبدو منه الآن سوى حافته الصلبة، وسمعا قدوم عربة ترام. الرجل صاحب المعطف الطويل أغلق إحدى دفَّتي الباب، والآن لا يريان من النعش سوى زاويته، أغلق الدفَّة الأخرى والآن ما عادا يريان منه شيئًا، حتى أنه شد المقبض الفضي اللامع الذي يمسك بالدفَّتين، وأحد الخيول ارتعشت أذناه، وعربة الترام، لدى وقوفها، جأرت عويلًا أعلى. وها هي الخيول تجر العربة الطويلة السوداء، تجرها قدمًا لخطوات، وتتوقف ثانية، وعربة بوجية سوداء، لامعة ومغلقة، تحركت قدمًا وأخذت مكانها، وعربة الترام انطلقت بمحاذاتها وكان لهما أن يريا الرؤوس تتلفت خارج نوافذها ورجلًا يرفع قبعته، وأمهما وجدهما هبطا الدرجات وجدهما ساعد أمهما على الركوب، والجدة فوليت وعمتهما جيسي والأب جاكسون هبطوا درجات المرقاة وجدهم والأب جاكسون ساعدا جدتهما فوليت على الركوب، وساعدا العمة جيسي، وضجيج عربة الترام بدأ يتلاشى، والعم رالف تنحَّى جانبًا كي يتسنى لجدهما الركوب، ثم كلاهما تنحَّى جانبًا كي يتسنى للجدة لينش الركوب، وبعد شيءٍ من التردد، ساعدا الجدة والعم رالف ركب بعدها، وستائر النوافذ كلها أُسْدِلت والعربة السوداء الطويلة والبوجية السوداء تحركتا قدمًا، وبوجية ثانية أخذت مكانها، وصفٌّ طويلٌ من البوجيَّات والأطومبيلات، بعد لحظة تردد،

تقدمت خطوات، والآن الرجل الواقف على الممشى الخاوي مقابل البيت سار غربًا وقطع الشارع أمام الطفلين، واعتمر قبعته ما إن بلغ حافة الرصيف الأبعد، وسمعا آخر صوتٍ لفظته عربة الترام، لكنهما الآن يسمعان أيضًا سقسقة عصفوريْ دوري، يتلقّطان من الشارع فتاتًا من حطام، والسيد ستار قال، «من الأفضل الذهاب الآن» وأدركا أنه طوال هذا الوقت لم يطفئ محرك الأطوموبيل، إذ ما إن خاطبهما حتى بدأ يرجع بالأطوموبيل إلى الوراء، بأقصى ما يمكن من الصمت والحرص؛ وانعطف خلفًا حول الناصية، وعلى مهل انحدرت الأطوموبيل على الشارع الخلفي ذاته الذي قدموا منه.

ما إن أوقف الأطوموبيل أمام بيته، حتى قال لهما، وقبل أن يهم بمغادرتها، «ربما من الأفضل ألّا تقولا شيئًا عن هذا». ظلَّ ثابتًا في مقعده لم يتحرك، لذا هما أيضًا جلسا ثابتين في مقعديهما. بعد وهلة قال، «لا، افعلا ما تريانه مناسبًا لكما». لم ينظر إليهما؛ هو لم ينظر إليهما طيلة الوقت. جلسا يتأملان الأخيلة تتشكَّلُ من حولهما، والأوراق ترفّ.

ترجَّل عن الأطوموبيل، فتح الباب الجانبي، ومدَّ يديه.

«الشطُّورة كاثرين»، قال لها.

ورفعها إليه.



الفصل العشرون

جدران البيت تُرجِّع الصدى، رائحة القرنفل النفاذة ما تزال طاغية.

أمهما في الغرفة الشرقية.

«حبيباي»، قالتها كما لو أنها كانت في سفرٍ بعيد، والآن أدركا يقينًا أنَّ كل شيءٍ تغير. كلٌّ أسند رأسه إليها، عالمًا ألا شيء سيعود أبدًا إلى ما كان عليه، ضمتهما إليها بقوة حدًّا شمًّا رائحتها، وأحبَّاها، لكن حبهما إياها لا يصنع فرقًا، لا يغير شيئًا.

ما كان في وسعها قول أي شيء، ولا كان في وسع أيٍّ منهما؛ وأدركا أنها الآن تصلي في صمت، والآن عوضًا عن حبهما لها غمرهما الحزن عليها، وفي تهذيب انتظراها تفرغ من صلاتها.

«سنبقى هنا عند نانا»، أخيرًا قالت. «على الأقل الليلة». ثم ما عاد في وسعها قول أي شيء.

يداها بدأت تثقل عليهما.

روفس دنا منها، يحاول استعادة الحنان المفقود؛ وفي الآن ذاته، كاثرين ابتعدت.

هو يفهم ما يجري، قالت أمها في نفسها، تحاول ألا تُجْرَح بنفور كاثرين منها. كاثرين، وقد وعت اللحظة إلى تفضيل أمها أخاها، جُرِحَت جرحًا مريرًا شعرت به أمها في أحشائها، فخففت من قبضتها عليها، بينما كل ما تاقت إليه كاثرين هو لأمها أن تضمها إلى حنانها. مِنْ قبضة يدها أدرك روفس أنها تظنني أفضل مما أنا عليه؛ كما لو أن أحدهم صدَّق كذبته، لكن هذه المرة، ما كان جيدًا الإحساس الذي ساوره.

«فليبارك الرب طفليَّ»، همست لهما. «فليباركنا الرب جميعًا ويحفظنا».

«آمين» همس روفس بكياسة؛ حاول التخلص من توتره بالتشبث بها أكثر، وشعر أكثر بيدها المتقدة عليه؛ كاثرين، العالقة في تعويذة من الألم والوحدة، وقفت متحجرة كما الصنم.

وعلى هذه الصورة ثبتوا، الأم المخدوعة، الابن الدجَّال، والابنة المجروحة عميقًا في الصميم؛ وهكذا وجدهم آندرو، وفيهم رأى لوحةً نبيلة، فقال في نفسه، باكيًا في نفسه، «لأجَلُّ عندي من العائلة المقدسة».

«تعال نتمشى معًا»، قال آندرو؛ ومن على الشرفة الأمامية وقفت كاثرين تراقبهما إلى أن اختفيا عن ناظريها. ثم سحبت أحد الكراسي بعيدًا عن الحائط وجلست عليه تهز نفسها. ساورها

الإحساس بألا بأس في التأرجح على الكرسي طالما لن تصدر صوتًا، وأثار اهتمامها محاولة تحقيق ذلك. لكن مهما حاولت التحرك في حذر وصمت، فضجيجٌ أشبه بالجرش كان سينبعث من ألواح الأرضية كلما تأرجحت المهزتان، وصريرٌ رقيقٌ كان سينبعث من الكرسي. كفَّت عن التأرجح، ليس وحسب لأنَّ شعورًا ساورها بخطأ التسبب الآن بأي ضجة، بل لرغبتها القوية في ألا يسمعها أحد. جلست مع ذراعيها ويديها ممدودتين على ذراعي الكرسي ورنت بنظرها عبر الدرابزون نحو الفناء ومن وراء الفناء الشارع. طائر أبو حناء يثب متثاقلًا على العشب رمقها بنظرةٍ عجلى، قاسية، من ثم أخرى، عجلى وقاسية مثل وخز إبرة، ثم ما عاد يعيرها أي اهتمام، لكنه ظل يثب، متثاقلًا، يخز العشب المرة تلو المرة، مثلما وخزها للتو بنظراته القاسية العجلى.

على الشارع المقابل رأت الدكتور ديكالب يسير على الممشى في طريقه إلى بيته؛ كان ما يزال في بدلته الغامقة. والآن تذكرت كيف أنَّ أباها دومًا كان سيراها عن بعد ويلوح لها، وانتظرت اللحظة التي سيلتفت إليها ويلوح، لكنه ما لوَّح، ولا حتى نظر إليها؛ مباشرةً مضى نحو بيته.

وفي قلب الفناء الجانبي، بين زهورها، رأت السيدة ديكالب في فستان أبيض طويل، وفي قفازين أبيضين طويلين، تعتمر قبعةً ورقية. كانت تفضل الانحناء بظهرها عميقًا أعلى أزهارها على أن تقرفص بينها، وكلما انتقلت من موقعٍ إلى آخر، انتصب جسدها

الطويل والنحيف، لمَّت تنورتها، ورفعتها بيدٍ واحدة مرهفة مثلما تفعل نانا متى ما ارتقت حافة رصيف أو نزلت عنه. ثم تعود وتنحني أعلى أزهارها، كما لو أنها تنحني عميقًا من أعلى قضبان المهد كي تهمس *تصبحين على خير*.

قلةٌ من الناس كانوا موجودين على الممشى، والمعظم كان يسير في الاتجاه ذاته، بعيدًا عن وسط البلدة.

جانب الشرفة، على شجرة المريمية البرتقالية، الأوراق تضطجع كسلى على النسيم كما لو أنها شبه نائمة، بين الآن والآن بالكاد ترفُّ بمنتهى الرقَّة، ثم تعود وترقد ساكنة.

طائر أبو الحناء أمسك بدودة؛ شدَّ عقبيه، تراجع خلفًا، يسحب بكل قوته. تمددت مثل رباطٍ مطاطي وانقصمت إلى نصفين؛ كاثرين استشعرت انقصامها في معدتها. فورًا ازدرد الطائر غنيمته منها، وانقض بمنقاره ثانية على النصف المتبقي، يسحب بكل قوته. تمططت لكن لم تنقصم، بل انسلت كلها رخوةً من الأرض؛ رأتها تتلوى وهو يطير بها بعيدًا. طار مندفعًا في منحنى كبير بين غصون الشجرة في الفناء الجانبي، ومن الشجرة تناهى إلى كاثرين الهسيس الواهن لصيحات صغاره.

الدكتور ديكالب وقف جانب زوجته، كانا ينظران بعضهما إلى بعض، ويتكلمان. هي أطول قامةً منه، لكنه أعرض منها. كان قد خلع عنه معطفه، حمالتا بنطاله الزرقاوان الشاحبتان متصالبتان على ظهره، وأعلى قميصه الأبيض، عنقه حمراء داكنة.

وعلى مد المربع السكني إلى حيث التقاطع التالي، رأت أنَّ ما زال هناك من أناسٍ على الممشى، وأولاء الناس بدوا لها ضئيلين ومرهقين رغم سيرهم في خطىً متعجلة. وكلهم، تقريبًا، رأتهم يسيرون أيضًا في الاتجاه ذاته، بعيدًا عن وسط البلدة.

ورأت العم جوردن ديكالب مقبلًا على بيته. كان ما يزال في بدلته الغامقة حاملًا قبعته في يده، مؤخرته سمينة ومثل البطة يتهادى في مشيته. وحتى من حيث هي، كان يسعها أن ترى إلى أي حدٍّ وجهه وعنقه مكتنزان، وكأنَّ، مثلما قال خالها آندرو، فمه محشو حتى آخره بالبطاطا المهروسة. رفع عينيه ينظر تجاه بيت جدها وكاثرين رفعت له يدها، لكن في الحال أشاح بعينيه، وقطع الفناء حتى ينضم إلى أبيه وأمه. والثلاثة راحوا يتكلمون الآن.

ضجيجٌ مفاجئ، صغير، أفزع كاثرين؛ ثم أدركت أنه صادرٌ عن غرفة المعيشة. والآن ما عاد من صوت. نهضت عن الكرسي بمنتهى الهدوء وانسلت نحو نافذة الشرفة الجانبية. نانا كانت قد جلست على مقعد البيانو وفتحته؛ وكان لكاثرين أن ترى المفاتيح. وهكذا جلست نانا طويلًا دون أن ترفع يدًا عن حجرها. ثم نهضت وأغلقت البيانو ومضت نحو الغرفة الخضراء؛ كانت ترتدي مئزرها. لكن قبل أن يتسنى لكاثرين أن تتحرك من عند النافذة عادت جدتها ودخلت (نظرها ضعيف ولن تراها من هذا البعد، طمأنت كاثرين نفسها) وبعينيها الحسيرتين راحت تتلفت حولها، في نظرةٍ محدقة، ثم زمَّت شفتيها وعادت جلست على مقعد البيانو. رفعت الغطاء ثانيةً عن المفاتيح وقوَّست يديها بقوة أعلاها

وحرَّكت أصابعها، لكن ما كان من صوت. نانا لا تستطيع السماع جيدًا، تذكرت كاثرين؛ *تكلمي بصوتٍ عالٍ*. لذا هي لا تستطيع سماع الموسيقى التي تعزفها. كانت منحنية الظهر أعلى البيانو، أذنها الجيدة قريبة جدًّا من المفاتيح، كما هي عادتها دومًا متى ما عزفت، قدماها تحركان الدواستين، ومع ذلك ما سمعت صوتًا.

لكن لماذا لا أسمع *أنا* صوتًا؟ فجأة خطر إلى كاثرين. فأنا على الدوام أسمع. راقبتها وأصغت إليها بحدة؛ لا صوت، ولا حتى رنة.

في بهجةٍ مفاجئة، تفكرت كاثرين في السمع عبر بوق الأذن الأسود الكبير، ثم أدركت أنها ما تزال تسمع خطى الأقدام على الشارع وغمغمة المدينة، وعرفت لماذا لا يسعها الآن سماع الموسيقى. نانا كانت تضغط على مفاتيح البيانو وحسب، دونما إصدار صوت.

من ثم، قريبًا من النافذة حيث كاثرين، دخل جدها، ووقف فجأة. كان يتأمل نانا. هو أيضًا ليس في وسعه أن يسمع جيدًا، لكنه يسمع أفضل من نانا؛ ودائمًا ما يجلس في هذه الزاوية البعيدة من الغرفة متى ما عُزِفت الموسيقى. لذا هو أيضًا عرف. بعد وقوفه هكذا للحظات سار مسرعًا إلى حيث تجلس، ظهرها كان إليه وكلتا يديه ارتفعتا أعلاها وكأنما ينوي لمس شعرها أو كتفيها المحدودبتين. لكن بعد لحظة من وقوفه، استدار بعيدًا في هدوء، وفي خطىً أسرع غادر الغرفة من حيث دخل، كان مطرق الوجه حدًّا اطمأنت معه كاثرين أنه حتمًا لم يرها.

والآن نانا فرغت من عزفها وفي صمت رفعت يديها، تحركهما فقط حتى تمسد مفاتيح البيانو السوداء الناتئة والبيضاء بينها. والآن رفعت يديها عاليًا وضمتهما على حجرها. ثم نهضت، أغلقت البيانو، ومضت نحو الغرفة الخضراء.

الدكتور ديكالب والسيدة ديكالب والعم جوردن ما عادوا في الحديقة.

أين بابا؟

فجأة شعرت بأنها لا تطيق البقاء وحدها. مضت نحو الردهة ومنها إلى الغرفة الشرقية، لكن أمها ما عادت في الغرفة الشرقية. مضت عبر الردهة نحو غرفة الطعام وسمعت جدتها منشغلة في حجرة الكرار، لكنها عرفت أنها لا تريد لجدتها أن تراها ولا أن تعثر عليها. هرعت على رؤوس أصابعها نحو زاوية غرفة الطعام، اختبأت خلف الطاولة، ومن هناك مضت نحو الغرفة الخضراء، لكن لا أحد كان هناك. نظرت خارجًا ورأت جدها واقفًا في وسط الحديقة، يحدق إلى رزز شجرة الأغاف القاسية. هرعت عبر غرفة المعيشة وعبر الرائحة المدوخة التي تفوح منها وصعدت درجات السلم الأمامي بأسرع وأهدأ ما يمكن؛ باب الخالة إميليا كان موصدًا.

لكن وجهها الآن مشتعل ودموعها تنهال. هرعت عبر الرواق؛ موصد. باب العمة هانا موصد. من خلفه تناهى إليها صوتٌ باردٌ وحنون، صوتٌ واهن؛ كان صوت العمة هانا؛ صوت أمها. ألصقت أذنها بالباب وأصغت.

اللهم خالق وحافظ جميع الناس نتضرع إليك بتخشّع لأجل كل أنواع البشر وأصنافهم. لترضى بأن تعلن لهم طرقك وللأمم كافةً سلامتك المنقذة. ونصلي خصوصًا لأجل حسن حال الكنيسة الجامعة لترشد وتدبّر بروحك الصالح فيهتدي إلى طريق الحق كل مقرٍّ وداعٍ نفسه بأنه مسيحي ويتمسك بالإيمان بوحدانية الروح ورباط السلام وبرّ الحياة. وأخيرًا نستودع لصلاحك الأبوي كل مكروب ومضطرب في بال أو جسم أو حال لترضى بأن تعزّيهم وتفرج عنهم على حسب تفاوت احتياجهم وتهب لهم على مكابدتهم صبرًا ومن جميع كروبهم مخرجًا حميدًا وهذا نطلبه لأجل يسوع المسيح. آمين[1].

اللهم ضابط الكل أبا كل المراحم نحن عبادك غير المستحقين نشكرك شكرًا خشوعيًّا قلبيًّا على جميع خيراتك وإحسانك إلينا وإلى سائر الناس. إنا نباركك لخلقك إيانا وحفظك لنا ولسائر بركات هذه الحياة. وفوق كل شيء لمحبتك التي لا تقدر في افتداء العالم بربنا يسوع المسيح ولأجل وسائل النعمة ورجاء المجد. ونتضرع إليك أن تجعلنا نحسّ بمراحمك كلها حقَّ الإحساس لتكون قلوبنا مخلصةً لك الشكر ونذيع حمدك ليس بشفاهنا فقط ولكن بسيرتنا أيضًا. بأن نسلم نفوسنا لخدمتك ونسعى أمامك بالطهارة والبر

(١) عن كتاب الصلوات «The Book of Common Prayer» دعاء لأجل جميع أصناف الناس. (الترجمة عن الطبعة العربية الصادرة 1902)

كل أيامنا. بربنا يسوع المسيح فليكن له معك ومع الروح القدس المجد والإكرام كله إلى أبد الآبدين. آمين[1].

صوت أمها خنقته العبرة. العمة هانا، في هدوءٍ مهيب، واصلت ما كانت تقوله حتى ختامه. من ثم، في هدوءٍ أبلغ، قالت، «ماري، عزيزتي، دعينا نتوقف هنا».

لحظة وسمعت كاثرين صوت أمها، مهزوزًا يصيء، «لا، لا؛ لا؛ لا؛ أنا طلبت منك عمة هانا. أنا ـ أنا...».

ومرة أخرى، صوت العمة هانا: «فلنكفَّ الآن عزيزتي».

وصوت أمها: «لا؛ بلا هذا لا أظن سيكون في وسعي *أبدًا* الاحتمال».

وصوت العمة هانا: «هوني عليك، عزيزتي. فليباركك الرب ويحفظك. هوني عليك، هوني عليك».

وصوت أمها: «دقيقة وسأغدو على ما يرام».

والآن صمت.

والآن صوت العمة هانا البارد الحنون: ــــــــ وصوت أمها: ــــــــ

في صمتٍ شديد، انسلت كاثرين عبر الباب المفتوح المقابل لباب العمة هانا، وخبأت نفسها أسفل سرير جديها. ما عادت

(١) عن كتاب الصلوات «The Book of Common Prayer» صلاة شكرٍ عام (*شكرانات*) (الترجمة عن الطبعة العربية الصادرة 1902).

تبكي. كل ما تريد وحسب ألا يراها أحدٌ ثانية، أبدًا. اضطجعت على جانبها تحدِّق إلى السجاد الكالح المحبَّبْ. حين فُتِح باب العمة هانا تملكها الذعر فشهقت، ورفعت ركبتيها تحضنهما بشدة إلى صدرها. حين راح الصوتان يناديان عليها، من الأسفل، كمَّشت نفسها أكثر وأكثر، وحين سمعت خطاهما على درجات السلم وسمعت القلق المتزايد في صوتيهما جسدها كله ارتعش. لكن مع وصولهما الرواق كانت قد خرجت من أسفل السرير والآن جالسة على حافته، ظهرها إليهما لدى دخولهما، قلبها يطرق أنفاسها إلى كِسَر.

«*ها أنتِ هنا*» صاحت أمها، ولدى استدارتها، دبَّ الذعر في كاثرين على مرأى الذعر والدموع على وجه أمها. «ألم تسمعينا؟».

هزَّت رأسها، لا.

«كيف *لم تسمعينا*ـ هل كنت نائمة؟».

أومأت، أجل.

«ظننتها معك، إميليا».

«ظننتها معك أو مع ماما».

«بالله عليك أين كنتِ، حلوتي؟ يا الله، هل كنت *وحدك* طوال الوقت؟».

كاثرين أومأت *أجل*؛ شفتها السفلية تنتأ أكثر وأكثر وذقنها يرتجف أكثر وأكثر وكرهٌ اعتراها تجاه الجميع.

«أوه، فليبارك الرب قلبك الصغير، تعالي إلى ماما»؛ أمها أقبلت عليها وانحنت تمد ذراعيها إليها وكاثرين جرت نحوها بأسرع ما يمكنها وارتمت برأسها عليها، وانهمرت تبكي على صدرها كما لو أنها مخلوقة من الدمع ولا شيء سواه؛ وفقط حين قالت أمها، في صوتٍ حنون، «أوه، سروالك الداخلي *مبلول*»، أدركت كاثرين أنه حقًا مبلول.

ما كان سبق لآندرو أن دعاه قط إلى المشي برفقته، وعظيمًا كان إحساس الشرف الذي غمره، وبأقصى جهده حاول اللحاق بخطوه. وأدرك أنه الآن، على الأرجح، سيسمع بما جرى، بيد أنه عرف أيضًا أنَّ ليس من اللائق طرح السؤال على خاله. حين بلغا المربع السكني التالي، بعيدًا عن بيت جده وحيث الأشجار والبيوت غير مألوفة، تناول يد آندرو وآندرو متكلفًا أمسك بها، ما شدَّ عليها ولا نظر أسفلًا إليه. عن قريبٍ جدًّا سيخبرني، قال روفس في نفسه. أو على الأقل سيقول شيئًا. لكن خاله ما قال شيئًا. رافعًا نظره إليه، خلفه بنصف خطوة، كان لروفس أن يرى أنَّ خاله غاضبٌ بشأن أمرٍ ما. فنظرته كانت مستقيمة ثابتة حدًّا شك فيه روفس أنه ينظر أصلًا إلى شيء، حتى حين نزلا عن حافة الرصيف، وارتقيا حافة الرصيف المقابل، عيناه ما تبدل فيهما شيء. كان عابسًا، وزوايا أنفه متجعدة كأنما شمَّ رائحةً كريهة. هل ارتكبت خطأً ما؟ تساءل روفس محتارًا. لا، ما كان ليطلب مني مرافقته لو أني فعلت. بل أجل، كان سيطلب مني مرافقته لو كان حقًا غاضبًا مني وأراد أن يوبخني دون

أن يثير ضجة في البيت. لكن ها هو لا يقول لي شيئًا، لذا لا أظنه يريد توبيخي. ربما هو يفكر. يفكر ببابا. الجنازة. (كان قد رأى لمعة ضياء الشمس على عربة الموتى وهي تنطلق.) ويا ترى ما الذي فعلوه جميعًا هناك؟ طمروه في الأرض وفوقه وضعوا كل تلك الأزهار. تلوا صلواتهم وبعدها الكل عاد إلى بيته. في مقبرة غرينوود. رأى في عين خياله صورةً جلية لمقبرة غرينوود؛ رآها على سفح تلٍّ منخفض وبين الشواهد البيضاء العديدة ثمة العديد من الأشجار الخضراء يهب عليها النسيم في ضياء الشمس، وفي وسطها ركامٌ من الأزهار ومن أسفل تلك الأزهار، في تابوته المغلق يبدو تمامًا مثلما بدا هذا الصباح، يرقد أبوه. عدا أنَّ المكان مظلم فما استطاع أن يراه، ولأبد الدهور سيبقى مظلمًا. مظلمًا مثل أحشاء بقرة.

لكن الشمس ستعود تشرق، والريح ستعود تهب

وفي أذنيه سمع صوت احتكاك رأس الإبرة بالأسطوانة وفي عينيه رأى الأسنان الحادة العديدة في تكشيرة كلب باستر براون.

«إن كان من شيء سيقنعني يومًا بالإيمان بالله»، قال خاله.

وفي الحال رفع روفس عينيه إليه. نظرته ما تزال مستقيمة ثابتة، ولا يزال بعدُ غاضبًا، لكن ما كان من غضبٍ في صوته. «أو في الحياة بعد الموت».

كانا لاهثين ومجهدين، إذ كانا يسيران غربًا أعلى التل المنحدر تجاه فورت ساندرز. السماء أمامهما ساطعة، ونحوها، بين أخيلة الأشجار المتحركة الساطعة، معًا سارا.

«فهو ما حدث هذه الظهيرة».

وتطلع روفس إليه في اهتمام.

«كانت السماء ملأى بالسحب»، قال خاله، يواصل النظر في استقامة، «لكن الريح كانت تسوقها على عجل، لذا فالسماء كانت أيضًا مشرقة. ولحظة شرعوا في إنزال أبيك في التراب، في قبره، غمامةٌ عبرت أعلاه، ألقت عليه ظللها الراسخ كما الفولاذ، وفراشةٌ جليلة حطَّ على ـ على التابوت، استقر وحسب هناك، تمامًا أعلى صدره، وبقي هناك، بالكاد جناحاه يرفان، مثل خفقة قلب».

آندرو توقف ينظر للمرة الأولى إلى روفس. عيناه كانتا يائستين. «الفراشة، روفس، بقي هناك، بقي طوال إنزالهم التابوت، ما اهتزت منه شعرة، ظلَّ وحسب يرف بجناحيه، إلى أن احتكَّ التابوت بقاع القبر مثل - مثل زورق تجديف. وما إن استقر، إذ بالشمس تشرق ساطعة مبهرة والفراشة طار خارج - خارج تلك الحفرة في التراب، صاعدًا نحو السماء، في استقامة، عاليًا عاليًا حدَّ ما عدت أراه». وبدأ يصعد التل ثانية، وروفس بذل أقصى جهده حتى يجاريه. «ألا تظن هذا رائعًا، روفس؟» قال له، وقد عاد إلى نظرته المستقيمة الثابتة.

«أجل»، أجابه روفس، بما أنَّ خاله فعلًا كان يسأله. «أجل»، ما كان واثقًا بأنَّ جوابه هذا كافٍ، لكن ما كان من جوابٍ آخر لديه.

«لو كان من وجودٍ أصلًا للمعجزات»، قال خاله، وكأنما أحدٌ يجادله، «لأسميت ما رأيت معجزة إلهية».

معجزة إلهية. جليلة. خيرٌ له ألا يسأل خاله عن معنَيْهما. ورأى فراشةً عملاقة، وكيف يحرك جناحيه في منتهى الجلال والسكينة، ورأى ألوان الجناحين جليَّة، وكيف انبثق عاليًا، صاعدًا في استقامة نحو السماء، وكيف اشتعلت في ضياء الشمس كل تلك الألوان، وراوده الإحساس أنه لربما الآن بات يملك فكرة وإن واهية عن معنى «جليلة». لكن «معجزة إلهية». وثانيةً رأى الفراشة، مستقرًّا هناك، يرف جناحيه العظيمين. لربما «المعجزة الإلهية» هي في الألوان وكيف تتجلى خطوطًا وبقعًا على الجناحين، أو في خفق الضوء الساطع عن رفرفة الجناحين في صعوده السريع، المستقيم، نحو السماء.

معجزة إلهية. جليلة.

رآه جليًّا لأن خاله رآه جليًّا حين أخبره عنه، وما رآه جعله يشعر بأنَّ شيئًا استثنائيًّا وجيدًا قد حدث. شعر بأنَّه كان جيدًا لأبيه وأنَّ رقوده هناك في الظلمة لا يعني الكثير. لم يعرف ما هو الشيء الجيد فيما حدث، لكن إن شعر خاله بأنَّ ما رآه كان شيئًا جيدًا، وشعر به من كل قلبه، فلا بد أنه خيرٌ أكثر حتى مما يتصور، بكثير. حتى أنَّ خاله تحدث عن الإيمان بالله، أو على الأقل، إن كان لشيءٍ أن يجعله يؤمن بالله. فهو ما سمع خاله قط يتحدث عن الله إلا مقتًا، أو على الأقل، مقتًا في الناس المؤمنين به. لذا فلا بد أنَّ ما حدث شيءٌ جيد. وفجأة أدرك أن خاله أخبره هو بهذا، من بين كل الناس الذين كان له أن يخبرهم، فتنفَّس نفسًا عميقًا، ملء صدره، من

الفخر والحب. ما كان ليعترف بما رآه للناس المؤمنين بالله، وما كان ليعترف به لأولاء الذين لا يؤمنون به، لأن ما رآه يعني له الكثير ولربما كانوا سيستهزؤون به، لكن كان عليه أن يخبر أحدًا، لذا أخبره هو. وإخباره إياه حسَّن من شعوره عما جرى لأبيه، عن عدم السماح له بأن يكون هناك وقت كان في أمس الحاجة إلى الوجود هناك؛ لكن الأمور على ما يرام الآن، نوعًا ما. لكنها ليست على ما يرام مع أبيه لأن أباه لن يستطيع أبدًا العودة إلى البيت، لكن، على أية حال، شعوره تحسَّن عما كان عليه، وما عاد حزينًا الآن على عدم وجوده هناك، لأن الآن بدا وكأنما كان موجودًا هناك ورآه رأي العين، ورأى الفراشة، فأيقن في قلبه، أنَّ حتى لأبيه، الأمور الآن على ما يرام. الأمور الآن على ما يرام وساوره الشعور ذاته الذي ساور خاله، أنَّ ما من إنسانٍ في هذا العالم، لا أمه، ولا حتى أبوه لو كان موجودًا، كان سيسرُّ إليه بهذا، أو يتحدث معه عنه. ولا حتى خاله، بعد أن عرف منه.

«*وابن العاهرة ذاك!*» قال آندرو.

ما كان واثقًا من معناه لكنه يعرف أنه أسوأ شيء يمكن أن تنادي به أي إنسان؛ نادِ على أي شخصٍ بهذا، وحتمًا ستخوضان عراكًا، بل وسيكون له الحق حتى في قتلك. شعر وكأنَّما أحدهم سدد للتو لكمةً قوية في بطنه.

«جاكسون ذاك»، قال آندرو وقد اعتراه غضبٌ شديد أدرك معه روفس أنه حتى اللحظة لم يكن خاله غاضبًا كما ظن.

«الأب جاكسون»، قال آندرو، «كما يصرُّ على الناس أن يدعوه. هل تعرف ما الذي فعله؟».

رمق روفس بنظرةٍ غضبى أفزعته. «ماذا؟» سأله روفس.

«قال إنه لا يستطيع تلاوة صلاة ـ صلاة الجنازة كاملة على روح أبيك لأن أباك لم يتعمَّد». غاضبًا ظلَّ يحملق إلى روفس، وكأنما ينتظر منه جوابًا. وروفس رفع عينيه إليه، في إحساسٍ مريع من الخوف والغباء. كان مسرورًا من كره الخال آندرو للأب جاكسون، لكن لم يبدُ أن هذا هو المغزى من كلامه، وعجز عن التفكير في أي شيء يقوله.

«قال بأنه آسفٌ جدًّا»، يقلد صوته على نحوٍ وحشيٍّ وساخر، «لكنه قانون الكنيسة».

«يا لها من كنيسة!» زجر غاضبًا. «ويسمون أنفسهم مسيحيين. تدفن رجلًا أرجل منك مئة مرة، أنت وتنورتك النتنة السوداء التي تتمختر بها، رجلًا خيرًا منك مئة مرة، لكن لا، *هناك شروط وتوصيات لا يسعني تجاوزها في طلبي من الرب العليّ أن يغمر هذه الروح بالراحة الأبدية، فالرجل لم يقحم رأسه أسفل صنبور الماء المقدس*. كل هذا الركوع والسجود والتغطيس والانحناء والخنوع، ونَقْرِهم رؤوسهم وصدورهم وأكتافهم بعلامة الصليب، وكل خزعبلاتهم المقرفة، وحين يأتي الوقت الذي يتسنى لك فيه أن تمارس العمل المسيحي الوحيد النابع عن الإحسان فما تراك فاعل؟ لا شيء. قوانين الكنيسة تمنع. هو ليس عضوًا في نادينا الحصري الصغير.

«أقول لك روفس، ما سمعته منه كان كافيًا لأي رجل عاقل أن يتقيأ روحه.

ذاك ـ ذاك الفراشة فيه من روح الله ما لن يراه جاكسون أبدًا في أبديته.

«المتزمت! المخادع! ابن العاهرة معسول اللسان!»».

كانا واقفين على حافة فورت ساندرز، يتأملان قفرًا من ورود الخلنج الشجري والسواتر الطينية؛ روفس يحاول ما استطاع صون مشاعره. قبل دقيقة، كل شيءٍ بدا على ما يرام، لكن شيئًا ما تبدل وأربكه. الأمور كانت لا تزال بعد على ما يرام، إذ كل ما كان ما يزال بعدُ قائمًا، وما رأى من سبيل إلى إيقافه عن أن يكون قائمًا، مع ذلك بات صعبًا عليه تذكره بوضوح وكيف شعر نحوه ولماذا بدا له، قبل دقيقة، أنَّ الأمور كلها الآن على ما يرام، إذ مذ شعوره ذاك تلفظ خاله آندرو بكلامٍ كثير. كان سعيدًا أنَّ خاله يكره الأب جاكسون وتمنى لو أنَّ أمه لاَّ تحبه هي الأخرى، لكن في كلام خاله ما هو أكثر من هذا بكثير. خاله قد تكلم عن الله، والمسيحيين، والإيمان، بكرهٍ يوازي التبجيل والحب اللذين أظهرهما في كلامه، قبل دقيقة. لكن ثمة ما هو أسوأ. والأسوأ كان في حديثه عن كيف أن الجميع يركعٍ ويسجد وينحني ويخضع والخزعبلات، إذ بدأ روفس يدرك أنَّ خاله لم يكن يتكلم وحسب عن الأب جاكسون بل عنهم جميعًا وأنه يكرههم جميعًا. هو يكره أمي، قال في نفسه. هو صدقًا يكرهها من كل قلبه. ويكره العمة هانا أيضًا. هو يكرهها.

هما لا تكرهانه على الإطلاق، بل تحبانه، لكنه يكرههما. لكنه لا يكرههما، ليس على هذا النحو، قال في نفسه. وراح يتفكر في كل الطرق العديدة التي أظهر فيها كم هو مولعٌ بكلتيهما، بكل السبل، لا سيما حين يكون سهلًا لينًا معهما متى ما لم يكن هناك من خطبٍ ما والجميع يحظى بوقتٍ طيب، وكيف وقف إلى جانبهما الآن. هو لا يكرههما، هو يحبهما، بقدر حبهما له. لكنه أيضًا يكرههما. تكلم عنهما وكأنه يود اللحظة البصق في وجهيهما. متى ما كان برفقتهما، يكون طيبًا معهما، حتى أنه يطيقهما، يحبهما. متى ما كان بعيدًا عنهما وتفكر فيهما تتلوان صلواتهما وغيره، يعود ويكرههما. متى ما كان برفقتهما يتصرف وكأنما يحبهما، لكن هذا، هو ذا شعوره الحقيقي تجاههما، طوال الوقت. أخبرني عن الفراشة وما كان أبدًا ليخبرهما لأنه يكرههما، لكني لا أكرههما، أنا أحبهما، وحين أخبرني كان يبوح لي بسر ما كان أبدًا ليخبرهما به وكأني أنا أيضًا أكرههما.

لكنهما رأتا الفراشة. أنا موقنٌ أنهما رأتاه أيضًا. لهذا لم يخبرهما، وما كان ليخبرهما، لأن ما كان من داعٍ لإخبارهما بما تعرفانه. هذا كل ما في الأمر. هو أخبرني لأني أنا لم أكن موجودًا هناك وأراد أن يخبر أحدًا وظنَّ أني سأرغب في معرفة الأمر وكان محقًّا في ظنه. لكن ما كان ليخبرهما بأنه يكرههما. وهو يكرههما. كرهه لهما جليٌّ واضحٌ مثل فتح باب الفرن على أتونٍ مستعر لكن لا يريد لهما أن تعرفا. هو لا يريد لهما أن تعرفا لأنه لا يريد جرح مشاعرهما. هو لا يريد لهما أن تعرفا لأنه يعرف كم هما تحبانه وتعتقدان أنه يحبهما. هو لا يريد لهما أن تعرفا لأنه يحبهما. لكن كيف له أن يحبهما إن كان

يكرههما كل هذا الكره؟ كيف له أن يكرههما إن كان يحبهما؟ هل هو غاضبٌ منهما لأنهما قادرتان على الصلاة وهو لا؟ له أن يصلي إن أراد، فلماذا إذن لا يصلّي؟ لأنه يكره الصلاة. ويكرههما على إقامتهما الصلاة.

تمنى لو كان بيده أن يسأل خاله، «لماذا تكره ماما؟» لكنه كان خائفًا من السؤال. ولدى تفكّره، عيناه رنتا إلى أطلال الحصن الخرب، ثم تطلعتا إلى وجه خاله، وتمنى لو كان بيده السؤال. لكنه ما سأل، وخاله ما قال شيئًا سوى، وبعد دقائق، «حان وقت العودة إلى البيت»، وكلُّ الطريق عوْدًا إلى البيت، كلٌّ سار في صمت.

"نحن هنا نروي لكم عن أماسي نوكسفيل الصيفية، في تينيسي، وقت عشت هناك متخفيًا عن نفسي، بمنتهى البراعة، في زيّ طفل."

بعد نشرها بعامين من وفاة كاتبها في سن الخامسة والأربعين، نالت "موتٌ في العائلة" جائزة البوليتزر للأدب الروائي عام ١٩٥٨، ولا تزال حتى الآن، بعد ما يزيد عن ستين عامًا، تحفةً أدبية، رواية في السيرة الذاتية تجسد فاجعة فقد الأب كما لم تجسدها أي رواية أخرى. يتعجل جاي فوليت العودة إلى بيته في نوكسفيل، تينيسي، ويُقتل في حادث سيارة - مأساة لا تقضي على حياة واحدة وحسب - بل تقضي على السعادة الأسرية والحب الدافئ في بيت الأسرة الصغيرة. روايةٌ تحمل في قلبها الشجاعة، عنفوان القصيدة، والعاطفة الغامرة؛ روايةٌ هي أيقونة في الأدب الأميركي.

الناشر

****

هذا العمق الفريد في الإحساس - هذا السعي في ترجمة مشاعر الإبن ذي الست أعوام تجاه فقدانه أبيه إلى كلمات علّها تبعث بأبيه من جديد للحياة، هو ما سيبقي "موتٌ في العائلة" عملًا حيًّا يقرأ مهما يمضي عليه من عقود.

ألفريد كازن، نيويورك تايمز، ١٩٨٦

كلمات جيمس آجي محفورة عميقًا في مكانٍ ما في دواخلي، مكان أعجز عن الوصول إليه إن أردت يومًا محوها عن ذاكرتي، وأبدًا لن أريد محوها.

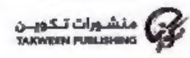
ستيف إيرل، ٢٠٠٩



جيمس أجي

موت في العائلة






www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com